COLIN WILSON

كولن ولسون

إله المتاهة

ترجمة: عبد الإله الناصر



إله المتاهة، رواية تناقض السائد المتوارث، وتدفع بالتأثير التغريبي نحو سياقات وفضاءات روائية واسعة، خاصة وأنها إتخذت من أدب الجنس منطلقاً حقيقياً، للإنطلاق بهذه الرؤى التغريبية نحو تلك الفضاءات الرحبة الواسعة.

من هنا فلا يمكن إعتبار هذه الرواية من روايات الأدب الداعر التي تسعى لتدمير التأثير التغريبي. وقد جاءت الرواية على شكل مذكرات إعترافية، تتخذ من الجنس منطلقاً لأفكارها ورؤاها من دون أن يكون الركيزة الأساسية لبنائها الروائي، وبذلك فقد شكلت بحق تحدي ممتع وكبير، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الشكلية من أي نوع روائي آخر، أن الرواية تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي تصف بها الباليه من دون أن تنتهك حرمة هذا الفن الراقي والرائع.



مقدمة

■ كولن ولسون كاتب دخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وواسع، وهو واقعاً لا يدعي ذلك. أثار حوله العديد من الظلال والمعارك النقدية والجدل العميق، سواء أكانت المشجعة أو المثبطة، انطلق بنجاح مذهل في ولوج هذا العالم الرائع (الأدب والفكر)، بعد انصراف غريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الدائبة، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي، لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبيد الطرق والأزقة، بين موظف محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف، لكنه كان دائماً ذلك المفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة والهدف والسعادة النفسية العالية. وبعد إصداره لكتابه الإشكالي (اللامنتمي) عام ١٩٥٥، والذي لقي قبولاً واسعاً وانتشاراً مذهلاً، وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر، يقول ولسون عن الكتاب: "استطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزمعاً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم، واهتديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عدد كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العمليين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً، وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان، ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين، وكان ذلك

كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط الموضوع بشوبنهاور وشبتفلر.

حاول ولسون في اللامنتمي أن يبين بأن الوجودية، التي ينتمي إليها فكرياً، قد انحرفت عن طريقها الحقيقي، وأن بعض الفلاسفة والمفكرين الوجوديين حاولوا إلباس تعصبهم وفشلهم الذاتيين لغة مؤثرة ومجردة ولا معقولة، فأغرقوا في تعقيد الأمور، وهو الأمر الذي جعل ولسون يحاول أن يقاوم هذا الإنحراف ويواجهه على الرغم من إدراكه المسبق بأن مقاومته ستكون متواضعة وغير مؤثرة، ولكنها حتماً ستكون جديرة بالاهتمام في التفكير الوجودي.

وهكذا سلطت الأضواء بشكل مؤثر وكبير على ولسون بعد نشره لكتابه (اللامنتمي)، حتى أن ولسون نفسه تعجب أشد العجب من النجاح الكبير الذي أحرزه الكتاب في الساحة الأدبية والفكرية، يقول ولسون: "لن أنكر بأن فقدان (اللامنتمي) من المكتبات قد أصابني بمفاجأة، فقد أخطأت حين افترضت أن الوجودية موضوع لا يستهوي إلا القلة من الناس".

النجاح الباهر والكبير الذي حققه ولسون في كتابه (اللامنتمي) دفعه إلى التفكير جدياً في إصدار كتاب آخر، خاصة أن كتابه المشار إليه تناول الإشكالية المطروحة (إنحراف الوجوديين) بتوسع وبيان من دون إعطاء تحليل حقيقي لها، ولذا فقد فكر ولسون بالحاجة الشديدة إلى فكرة أشمل وأعمق. وبدأ ولسون بالفعل في مشروعه هذا، متوقعاً نجاحاً أكبر، أو يوازي في أسوأ الأحوال، كتابه (اللامنتمي)، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ففي تلك الفترة ألصقت بكولن ولسون تهمة الانتماء إلى مجموعة (الشباب المتمرد)، التي أطلقها بعض الكتاب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، وكان المفكرون والأدباء والناس عموماً لا ينظرون لتلك الحركة بعين الارتياح والقبول، سواء في فكرهم أو أدبهم. وهي واقعاً التهمة التي أثرت كثيراً على حياة ولسون الأدبية، أجبرته مرغماً رغم ما يتمتع به من ذكاء وإبداع أدبي وفكري، في الجلوس على مقاعد المبدعين والمفكرين من الدرجة الثانية، وختم عليه بذلك، حتى أنه عندما أزيحت عنه هذه التهمة بقي ولسون في مكانه في الصف الثاني، وكان الأدباء والمفكرون والناس يتشككون في كل ما يطرحه كولن ولسون.

عندما نشر ولسون كتاب (دين وتمرد)، وهو رؤية أكثر شمولية واتساع من كتاب (اللامنتمي)، وهو ملحق لكتاب، وجه الكاتب والكتاب بسخط كبير وغريب بين الناس، ولم يلقى من الصحف الأدبية غير الازدراء، حتى أن أحد النقاد في ذلك الوقت وصفه بأن (ألعاب السيد ولسون الأدبية قد انتهى أجلها)، فيما وصفت ناقدة كتابه (دين ومرد) بأنه كتاب (تافه حقاً). يقول ولسون أن السمعة السيئة التي ألصقت باسمه في العام ١٩٥٦. (لا تزال تصبغني بلون غريب يجعل النقاد لا يتخذون حتى خطوة قصيرة بالنسبة لكتاباتي، علهم قد يكتشفون بأنني أملك شيئاً يستحق الكتابة. وهكذا مرت جميع كتبي دون ملاحظة تذكر).

هذا الأمر لم يقف عائقاً أمام ولسون في الاستمرار بالكتابة الإبداعية، ولذا فقد كتب (عصر التخاذل)، والذي لم يلق أية ملاحظة تذكر من قبل النقاد والأدباء، حاول فيه ولسون خلق وجودية جديدة، لرث الموضوع (المفلس) الذي أوجده سارتر وهيدغر، إذ أن السقوط الفجائي من قمة الشهرة يشل الحركة، وأن (الإشكال الثقافي ما هو إلا مغلوط (اللامعنى) وهو شكل فلسفي لذلك المغلوط الذي قاد الوجودية إلى طريق مسدود).

وبذا استمر ولسون بالكتابة والإبداع الأدبي والفكري، فكان أن نشر (القوة على الحلم) و(أصول الدافع الجنسي) و(ما بعد اللامنتمي) و(ما بعد الحياة) و(ضياع في سوهو) و(الشك) و(المعقول واللامعقول في الأدب الحديث) و(القفص الزجاجي) و(طقوس في الظلام) و(سقوط الحضارة) و(رحلة نحو البداية) و(الشعر والصوفية) و(الحالم)، إلى آخر ذلك.

ما تجدر الإشارة إليه أخيراً أن كتابات كولن ولسن على الرغم من السمعة السيئة التي ألصقت وتعلق رذاذها به شخصياً وبكتاباته طوال حياته الأدبية والفكرية، إلا أنه يتميز بظاهرة قلما انتبه لها أي ناقد أو كاتب، وهي أن كتابات ولسون مرتبطة مع بعضها البعض بسلسلة متشابكة واحدة، يصعب على أياً كان أن يجزئها أو أن يختار جزء من تلك السلسلة لدراستها والاطلاع على أفكارها، من دون الأجزاء الباقية، فالرؤية في تلك الحالة ستكون قاصرة وغير دقيقة، فالكاتب الكبير كولن ولسون يتناول في جميع كتبه المنشورة موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة، حتى تصل إلى الفكرة التي تستقطبها الكتب السابقة كلها، ومن الممكن القول ببساطة بأن الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها جميع كتب ومؤلفات كولن ولسون، تقوم على محاولته لخلق (فلسفة جديدة) ترتكز بقوة على الأفكار الوجودية

والرومانسية. ربما نجح ولسون في إيجاد هذه الفلسفة الجديدة من خلال كتبه العديد، وربما استطاع أن يقول في كتبه بكل ما يريد أن يقوله في شرح تلك الفلسفة، إضافة إلى رؤاه الفكرية، إلا أن المؤكد أنه لم ينجح كل النجاح في إيصال فلسفته إلى جميع الأدباء والمفكرين والناس، وبقي فكره محصوراً في فئة معينة، دون الفئات الأوسع والأكبر.

حول (إله المتاهة)

■ في وقت ما من عام ١٩٦٨، نشرت جريدة الديلي تلغراف" مقالة افتتاحية تنتقد فيها تزايد كمية المشاهد المكشوفة فيما ينشر من أعمال أدبية، وأشارت إليّ وإلى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين "جادين" يهدفان إلى المزيد من المبيعات بأن يضمنا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن أن تؤدي إلى إدانتنا في أزمة أقل تحرراً. ولم أتحفظ بشيء على هذه المقالة، لأنه من الصحيح أنني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول أو يسمح بها منذ خمسين عاماً. ولكنني لا أفكر في نفسي باعتباري من كتاب الأدب الداعر Pornography ولكن إذا رغب شخص آخر في أن ينظر إلي بهذه الصفة، فلا شك أن هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها. ولكن حدث بعد بضعة أسابيع قليلة، أن أعيد نشر مقالة التلغراف اللندنية في جريدة نيوزيلاندا، فكتب قارئ نيوزيلاندي خطاباً يدافع فيه عني بقوة. أشار هذا القارئ إلى أن أكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والأدب، وأنه من بين رواياتي السبع، لا تحتوي أربع منها إلا على القليل من الجنس، أو لا تحتوي شيئاً منه على الإطلاق. وقد اقتنعت حينما قرأت هذا الخطاب، أنني لست من كتاب الأدب الداعر. حقاً أن ناشر كتب من نيوانكلاند قد قدم إلى المحاكمة بسبب عرضه كتاب "يوميات جيرارد سورم الجنسية" في واجهة مكتبته، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد إلى إدانته. وكان رأي القاضي أنه

رغم أنني كنت محروماً بشكل كامل من أي موهبة أدبية، فإن الكتاب لم يكن منحطاً ولا مسيئاً للأخلاق من الناحية الفنية.

وبعد بضعة أسابيع من ظهور مقالة التلغراف، طلب مني أحد مكاتب المحاماة أن أتقدم إلى إحدى المحاكم كشاهد أشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب "حياتي السرية" وهو ترجمة ذاتية كتبها أحد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين، وأجبت على هذا الطلب بأنني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب إلى يوركشاير - وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوول حيث أقيم - ولكنني رحبت بأن يعتمدوا على قولي بأن الكتاب لم يكن من نوع الأدب الداعر، وأنه من الممكن أن ينشر علناً في إنكلترا. وأشرت إلى أنني مستعد لأن أكتب خطاباً بهذا المعنى. وحينما بدأت كتابة الخطاب، اكتشفت صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الدفاع. إن كتاب "حياتي السرية" ليست له أية قيمة أدبية. وحينما نشرته دار نشر "جروف بريس" في أمريكا، قال المسؤولون عنه أنه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري، ولكن هذا أيضاً غير صحيح. إن عالم الاجتماع يستطيع أن يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت أو هنري مايهيو أكثر مما يمكن أن يعرفه من الثلاثة آلاف صفحة التي يضمها كتاب "حياتي السرية". إن مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكرية لامرأة مصابة بالغلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة. لقد جرب كل نوع ممكن من أنواع التجارب الجنسية لما يزيد عن أربعين سنة أو نحوها، ثم قرر أن كل ما فعله كان شيئاً ساحراً فاتناً وأنه ينبغي أن يكتب عنه. فمن الذي يستطيع أن ينكر أنه كان على حق؟ من الصحيح أنه لن يقبل على قراءته كل الناس، ولكنني أقول أنه ليس كل الناس يقبلون على قراءة التراجم الذاتية التي يكتبها جنود أو سياسيون أو رحالة، وليس هذه حجة تؤخذ ضدهم.

بل إن المرء لا يستطيع أن يقول أن كتاب "حياتي السرية" قد كتب دون نية بذيئة ودون قصد الإساءة إلى الأخلاق"، أو أياً كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس، ولقد استمتع بالكتابة عنه. وكان الرجل شخصاً مضجراً قذر العقل، طالما أنه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعاً عن فراغ العقل بصورة كاملة. ورغم كل شيء فإن الكتاب واقعي، إنه حياة رجل،إنه "حقيقة"، تماماً مثلما كانت "حقيقة تلك المجلدات الهائلة التي قرأها ويب وزوجته ودرساها من "الأوراق البيضاء" من أجل كتاب

مؤلفهما في التاريخ. إنني أوافق الآن - رغم هذا - على أن هناك شيئاً ما يقف ضد نشر أنواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في أثناء محاكمات جرائم القتل، فإن نشر تلك التفاصيل قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون، ولكن أي شخص يمكن أن يقلد ما قام به مؤلف "حياتي السرية" فإنه لن ينزل بأحد ضرراً حقيقياً ولن يقترب من إلحاق مثل هذا الضرر، وبذلك فإن اعتراضي لا ينطبق عليه، إنني لا أستطيع أن أفكر في أي أساس يصلح لأن أستند إليه من منع الكتاب - وبالتأكيد لا أجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد.

ولكن حجة "الحقيقة" يصعب أن تطبق على أعمال دي صاد و"فاني هيل Fanny Hill" التي يمكنني أيضاً أن أدافع عن نشرها وخاصة إذا كانت أسعارها مرتفعة، حتى تعمل الأسعار المرتفعة عمل "المرشح" بالنسبة لصغار السن من القراء. إنني لا أحب دي صاد. وأنا لا أظنه "هاماً" أو ذا دلالة خاصة، بالطريقة التي تظهر بها أهمية ودلالة جان بولهان والآنسة دي بوفوار[1]. إن الروح الأساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران. ولكنني لا يمكن أن أقف في صف منع نشر كتبه. أما بالنسبة لكتاب "فاني هيل" فإن كليلاند يعترف بأنه كتبه لكي يحصل على المال، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بأنها "الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة". إنه كتاب مسل، كتب بشكل جيد، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل أي قارئ تجاوز سن الرشد. إننا لا بد أن نعرف بأن منع إصدار أي كتاب - وأن نعلن أنه ليس صالحاً لأن يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الأدبي لعملية إعدام مجرم، أو إحراق ساحرة، أو إلقاء معارض سياسي في السجن. وإنه لمن الصعب أن ندافع عن مثل هذا الإجراء دون تحيز - وفي تباعد أو انعزال موضوعي. إنه لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الإجراء إلا على أساس من التعصب الفكري وضيق الأفق، مثل الأساس الذي قام عليه "فهرس الكنيسة الكاثوليكية" أو إحراق النازيين للكتب، أي على أساس تقديم عقائد جامدة لابد من القبول بها. يمكننا أن

(١) سيمون دي بوفوار، زميلة سارتر ورفيقته، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والأدب والإبداعي والنقد. مثل سارتر بدأت مدرسة للفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدغر وياسبرز، ولكنها سبقت سارتر إلى التأثر بالماركسية.

نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة، أو مزج عصير الفاكهة بالكحول لكي يشتريه صغار السن، على أساس نفعي وعملي، فإن هذه الأعمال يمكن أن تنتج تدمير الأجساد. ونحن نعرف كل شيء تقريباً عن إمكانيات الجسد، ولكننا لا نعرف شيئاً عن إمكانيات العقل. فهذا النوع من الحجج "النفعية" لا يستطيع أن ينتقل إلى مجال الكتب.

إنني أوافق على أن كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماكر يعرف أن قضيته لا يمكن الدفاع عنها، فيقرر أن يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج. يجتاحني هذا الإحساس وأنا أقرأ عدداً كبيراً من آراء معارضي الرقابة. ولكنني حينما أنظر داخل نفسي، أجدني مالكاً لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الحدس الذي يدلني على ما يكون الأدب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه. فاسمحوا لي بأن أحاول توضيح طبيعة هذا الحدس.

وقد يمكنني أن أتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي "الذاتية"، "رحلة نحو البداية":

إن بطل رواية "طقوس في الظلام" يسيطر عليه الإحساس بأن "ثمة" معنى في الوجود الإنساني، وأن هذا المعنى يمكن أن يصل إليه العقل - فقط إذا عرف العقل الطريق المؤدي إلى العثور عليه. وأن واحد من أكثر "تجارب المعنى" شيوعاً تأتي عن طريق الجنس، ولهذا فإن الجنس يقدم "نقطة بداية" ثمينة في سبيل البحث عن المعنى. وإنني أضع خطاً تحت عبارة "نقطة بداية" لأنه يبدو لي أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر عقماً من الجنس إذا مارسه الإنسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوفا أو فرانك هاريس.

"يمكن" أن يكون الجنس نقطة بداية "للبحث عن المعنى". إنكار ما أكده سارتر من أنه، "لا معنى لأن نحيا ولا معنى لأن نموت". ومن الواضح أن هذه الحجة تنطبق على د.هـ. لورانس كما تنطبق على كتبي التي كانت التلغراف تعنيها في مقالها. إن الدفاع عن دي صاد أيضاً أمر ممكن لأنه هو الآخر رأى أن الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الإنساني. من الحق أن ثمة أخطاء جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في "قانون ردود الأفعال المتلاشية". هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الأخير، وهذا أثر عجيب من آثار الأخطاء الشهيرة، مثل نظرية الكون التي تقول بأن الأرض هي مركزه، أو نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قبل يوماً أنه أساس الخليقة، ويبقى هذا الخطأ في صورة

رمز نافع للخطل الذي يمكن أن يكتسب شيئاً من الأهمية. والجنس يقدم أيضاً نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية. يقول "كيريلوف" أحد أبطال دستويفكسي أنه إذا لم يكن هناك إله، إذن فإن الإنسان إله، وعليه أن يثبت هذا، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل إلى الانتحار. أما دي صاد فإنه ينطلق به حتى يصل إلى الدفاع المطلق عن اللاأخلاقية. وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يبدأ في مناقشة مثمرة.

إنني أحس بأدب الدعارة الحقيقي حينما أقرأ كتاباً معين لن يفكر أحد مطلقاً في منعها - كتب من نوع، "لا زهور أوركيد من أجل ميس بلانديش" أو "صانعوا الأبسطة" أو حتى بعض روايات جيمس بوند. يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل. ولكنه كان مخطئاً. إن ما يبدو في رواية "يوليسيز" من عنف وقذارة وضع عمداً وقد قصد به أن يؤثر تأثيراً عكسياً، مثل دواء قابض، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سويفت. أما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمتعا القراء فقط ولكي يربحا النقود عن طريق الإمتاع. إن الجنس والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما أن يجعلا الوجبة أكثر لذة وشهية. إنهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبدون استعدادهم لخدمة أي شخص مستعد للدفع. فإذا جر المرء حججهم إلى ضوء المناقشة، يجدها نسخاً أخرى من حجج دي صاد، مثل فولتير أو أي وضعي منطقي حديث آخر، الذي كان يهاجم الأفكار "الميتافيزيقية" عن الطيبة والخير. إنه يقول قولة مؤثرة، "يقول الناس أن الفضيلة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، والروح العامة والشرف والشجاع، كلها خير. أما أنا فأقول أن هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه. فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لأي واقعي معتدل التفكير". إن ما يوشك حينئذ أن يفعله هو أن يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في أقصى امتداد له. والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو أنه لم يصب هو نفسه بالضجر إلى حد المرض قبل وقت طويل من إكمال روايته "كوليت". على أنه من الواضح أنه كان يدرك القيم التي كان يحاول أن يغرسها وأن يبعث فيها الحياة.

لا أحد الآن ينتقد كونان دويل[1] أو رايدر هاجار[2] لأنهما لا يتمتعان بالتعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان أو الدوس هكسلي. فلقد خرجا إلى الناس باعتبارهما "مسليين" أو

(١) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩-١٩٢٠ روائي إنكليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان "شرلوك هولز" بطلها. ولكنه انشغل بالمسائل الروحية وكتب تاريخاً لها، كما كتب عدداً من الروايات التاريخية أشهرها "البريغادير جيرار" و"البروفيسور تشالنجر".

(٢) سير هنري رايدرهاجارد ١٨٦٥-١٩٢٥. كاتب روائي إنكليزي بدأ حياته في البحرية البريطانية واشترك في كشف منطقة الترانسفال الأفريقية، واشتهر بروايات المغامرات الأفريقية. أشهر أعماله هي "كنوز الملك سليمان" عام ١٨٨٥ ثم "هي" ١٨٨٧، وكتب عدداً من الروايات التاريخية العاطفية مستمدة من التاريخ الفرعوني.

مسامرين و"القيم" التي دافعا عنها، الشرف والشجاعة وما إلى ذلك، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال. ومنذ زمن ظهورهما، أصبح الكاتب المسلي أو "المسامر" أكثر واقعية، وأكثر تعقيداً من الناحية الثقافية. ولكنه لسوء الحظ لم يصبح أكثر تعمقاً في التحليل الذهني - إنه يرفض القيم الأقدم عهداً - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا يكل عن طرح الأسئلة، وإنما فقط باسم تسلية: "إعطاء الناس ما يريدون". ولكن رفض القيم - إذا كان لهذا الغرض أن يكون نشاطاً مفيداً - يجب أن يكون واعياً تمام الوعي بطبيعته الخاصة. إننا حينما نلتقي بأناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها، فإننا ندعوهم بحق أغبياء أو متعصبين. والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء أو التعصب، هو أنه بشكل ما نوع من "إنكار الحياة". إنني أملك جهازاً هضمياً ومخارج للتعامل مع الطعام الذي أحتاجه لكي يبقى على حياتي. وأملك أيضاً جهازاً هضمياً عقلياً ومخارج للتعامل مع تجاربي. ونموي باعتباري كائناً إنسانياً إنما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نموي الجسدي على الجهاز البدني. فإذا ما انغلق أو انسد أي من الجهازين، فإنني سأكون عرضة للتسمم البطيء. إن كتاباً من نوع أيان فليمنج[1] أو هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها. والنتيجة هي أن تفوح رائحة التعفن والتحلل، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه. فإذا ما قرأ شخص ما أعمالهما لمدة طويلة، كانت النتيجة هي الإحساس بالصداع، بتسرب الدم من الدماغ، بالعقم، هذه هي نتيجة الإمساك القاسي.

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جداً من الأعمال الأدبية. يشعر المرء بنفس الإحساس بالعقم إذا قرأ طويلاً رواية رومان رولان "جان كريستوف" أو رواية بوديس "الذئب المنفرد" أو حتى "الحرب والسلام" هذه الكتب تمتلك جهازاً هضمياً، ولكنه ليس كبيراً إلى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة. ومن الجدير بالملاحظة أن الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد. إن أمثال هكسلي أو مان أذكياء وعلى عمق ذهني كاف، ومع هذا فإن كتبهما تتصف بجمود غريب. إن الشيء الهام هو قدرة الكاتب على "مهاجمة" تجربته، وليس مجرد أن "يعانيها"، وإنما أن يتجاوزها. لا يمكن أن يبعث دستويفسكي على الضجر، على الرغم من أسلوبه الوعر الثقيل وإطالته

(١) أيان فليمنج - أشهر كتاب القصة البوليسية الجاسوسية المعاصرين، بدأ حياته في أوروبا ثم في الشرق الأقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية. خلق في أعماله شخصية "جيمس بوند".

السهبة، بسبب ما تشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول أن "تأكل" مادته، مثل أتون يصهر خام الذهب.

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه إنه حدسي لطبيعة الأدب الداعر. إنه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي، إننا لا نطعم طيور البط بالأرز، ولا ترضع الأطفال الصغار بالحلوى الثقيلة، لأننا نعرف أن أجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الأطعمة، فإذا فعلت هذا وأنا أعرف ما ستكون عليه النتيجة، فإنني أكون مداناً بتهمة الإهمال الإجرامي. وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطاً لزجاً رديء الطهو من الجنس والعنف، هادفاً بذلك إلى الوصول إلى "أكثر الفئات الهابطة شيوعاً" من القراء.

وهذا هو أيضاً ما يفسر السبب الذي يجعلني لا أعتبر كتباً من نوع "حياتي السرية" و"فاني هيل" أو أعمال دي صاد من الأدب الداعر الحقيقي. والمحك الحقيقي هو التساؤل عما إذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام، عنصر إنكار الحياة. إن كتاب "حياتي السرية" بالغ الكآبة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من الصفحات الأولى، ولكنه ليس أكثر تسميماً من كتاب "هانسارد"[1] أو "سجل المؤتمر". فالقاص، أو الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي، ولكنه ليس قاسياً ولا وضيعاً. وقد يعترض المرء على قيمه الأساسية، على شعوره بأن الجنس هو أكثر التجارب الإنسانية أهمية، ولكن يستطيع المرء أن يؤمن بهذه القيمة أو أن يرفضها. وليس هناك شيء يمنع القارئ من أن يضع إحدى رباعيات بيتهوفن على الحاكي بعد أن يقرأ اثنتي عشر صفحة أو نحوها، وينطبق نفس الشيء على رواية "فاني هيل". أما بالنسبة لدي صاد، فإن قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل أن يوسع من آفاق رباعية لبيتهوفن. أما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز أو هارولد روبينز، فهي أنه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات، فإن المرء لا يعود قادراً على الاستمتاع بسماع بيتهوفن. فإذا حاول المرء سماعه مع ذلك، فإن بيتهوفن سوف يبدو شيئاً غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه، سوف يبدو في صورة "ملاك جميل لا فاعلية له"، يعيش في عالم أحلامه الموسيقي السخيف.

(١) الإشارة هنا لمجلة "هانسارد" الأسبوعية التي يصدرها البرلمان الإنكليزي والتي تضم النص الحرفي لمناقشات مجلس العموم واللوردات.

باختصار، يتضمن الأدب الداعر إحساساً بالتحقير من شأن القيم ومهانتها. وإذا كان الفن معركة بين عقل الإنسان والعالم المادي، إذن فإن كاتب أدب الدعارة يقف إلى جانب العالم ضد عقل الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس، وكثيراً ما يبدو عليهم أنهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعاً من النشاط الهدام المدمر.

وقد أشار برناردشو إلى أننا نحكم على الفنان من خلال أعلى ذروة يبلغها، ونحكم على المجرم بأدنى قاع يهبط إليه. وهذا يعني أن الفن قد ينظر إليه باعتباره دفاعاً عن أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ضد أدنى قاع يمكن أن يتدنى إليه. والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس، لا لشيء إلا لأن يثير القارئ ويستفز مشاعره إنما قد أصبح مدافعاً عن أدنى تلك القيعان المظلمة. أما إذا مضى إلى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من أكثر لحظات الإنسان انحطاطاً، فإن اتهامه يصبح اتهاماً مركباً.

ولكن، فلننطلق الآن إلى المرحلة التالية من المناقشة. سوف نلاحظ هنا أن كلاً من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضاً بالمعرفة بين العالم المادي وبين العقل، وأن كلاً منهما قد اتجه إلى أن يكون انهزامياً، مؤمناً بانهزام العقل في تلك المعركة. وأنا شخصياً كثيراً ما أشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين[1] لأن العالم المادي عندما يبدو دائماً قادراً على أن يكسب السباق بمقدار طول رأس واحد. إنه يتحدث عن تأكيد الحياة، ولكن شيئاً من هذه الحياة المؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع أن يصمد حتى النهاية في كتبه، إن [illegible] "المؤكدين" أو الإيجابيين يبدون دائماً غير مبهجين وأغبياء. وأصحاب الحساسية من شخصياته دائماً ضعفاء. ونفس الشيء يصدق أيضاً على توماس مان، ولكن "موضوعيته" تجعل تلك السمات أقل في تأثيرها المقبض.

(١) جراهام جرين (١٩٠٤-....) أحد كتاب الرواية الإنكليز الكبار في هذا القرن، عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ والميالة إلى الشر أو إلى التمرد الاجتماعي، ويعتبر أحد أساتذة أدب التوتر". أهم أعماله كانت "القوة والمجد".

إذن، فإن إنكار الحياة، بينما يكون عنصراً أساسياً من عناصر الأدب الداعر، فإنه ليس مقصوراً على هذا الأدب. وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل إليه صدق العكس. هل يكون الأدب الداعر ممكناً إذا لم يكن إنكاراً الحياة قائماً؟

وهذا السؤال أكثر أهمية من مجرد مظهره، فإن هذا التساؤل عن الأخلاقية واللاأخلاقية، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل، منذ أن بدأت مناقشات ابسن[1] وزولا[2] في ثمانينات القرن الماضي. وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريباً على الدوام. فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢، يقول: "هؤلاء الذين يعملون في الأرض هم شعب الله المختار... إن فساد الأخلاق بين جماهير المربين والمهذبين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا أمة من الأمم". إن تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة. وإن رفض "الفساد" هو وظيفة آلية من وظائف الصحة. وحينما يبدأ الشيء "المريب"، غير الصحي، الفاسد، في العثور على موطيء قدم، فإن هذا يعني - بحكم الأمر الواقع - إن الانحلال قد بدأ. إن جسدي العضوي إذا ما بدأ يصبح أكثر سرعة في التأثر بالجراثيم، فإنني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته، لكي يستطيع أن يلفظ الجراثيم، ومن المؤكد أنني لن أقبل تلك الجراثيم على اعتبار أنها تقدم فرصة لإحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة. وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس نوردو في كتابه "الاضمحلال" عام ١٨٩٣. فلابد أن نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه أو نشجعه. إن كتاب شو الهجومي المضاد "صحة الفن" كان

(١) هنريك جون ابسن (١٨٢٨-١٩٠٦) الشاعر المسرحي والكاتب النرويجي العظيم، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة وأحد أعظم الكتاب المسرحيين في كل العصور. كان له تأثير فني وفكري كبير، فتبعه كتاب كثيرون في أشكاله الفنية ومضامينه، خاصة منذ كتب جروج برنارد شو كتابه عن "الإبسنية" حيث كشف عما تحتويه أعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة. ومن ناحية أخرى اعتبره أصحاب الاتجاهات السيكولوجية الصوفية في الفن من أعظم روادهم بأعماله الشعرية الرمزية الكبرى وخاصة مسرحيتي "بيرجنت" و"براند" حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الإنسان في التمرد الروحي الشامل.

(٢) إميل إدوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) الروائي الفرنسي الكبير، اشتهر بريادته للمدرسة الطبيعية في الأدب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن الماضي. تميزت أعماله بدقة غير عادية في رسمها للخلفية الاجتماعية، واللهجات والخصائص النفسية وبخضوع الشخصيات الفنية لنوع من الحتمية القائمة على الوراثة وتأثير البيئة.

يحمل عنواناً فرعياً يقول: "كشف وفضح للهراء الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال". ومن الممكن أن نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية: "ليس اضمحلالاً، وإنما هو تطور". أما توماس مان، الذي كان يكتب أولى أقاصيصه في تلك الفترة، فقد اتخذ موقفاً أقل إيجابية (وهو الموقف الذي تمسك به طيلة حياته) يقضي بأنه: بينما يصبح الفن أكثر حساسية ورقة، فإنه "يتطور" و"يضمحل". فالتطور هنا يعني الاضمحلال، إذا ما مضى إلى وراء نقطة معينة. وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه "اضمحلال الغرب".

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة أساسية. لقد كان جديراً بأن يقول: "بالطبع، أن التطور "يمكن" أن يعني الاضمحلال، إذا ما زادت الحساسية على الحيوية. ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة". ومن الواضح أن هذا شكل آخر للسؤال الذي أثرناه نحن بالفعل، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية، فإنها يجب - في النظرية - أن تكون قادرة على أن تزيد الحيوية إلى الدرجة المناسبة لها. ولكن لم يؤمن أحدهما بإمكان ذلك. ولكن هل هذا صحيح؟ ولنفترض أن لدي رأياً فجاً وبالغ البساطة عن شيء ما. إن النتيجة هي أن يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني أكثر حكمة - أي أكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - أقل ثقة وأقل قدرة على اليقين والتأكيد. فهل ينبغي أن أظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي؟ من الواضح أن لا. إنني أبذل مجهوداً عقلياً، إنني "أتمثل" التجربة أو أهضمها، وأتأملها حتى أمتص كل معانيها ودلالاتها، أي حتى يمكنني السيطرة عليها. حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة أخرى. وهذا يعني القول بأن الأمر يعتمد على نفس عملية "الهضم" التي ناقشتها بالفعل أثناء الحديث عن الأدب الداعر.

وهذه النظرة تقدم بديلاً للموقف الجيفرسوني: إن البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معاً وتصاحب إحداها الأخريين. إنك إذا قلبت ميزان الشباب، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل، فإن هذه الموازين يمكن أن تستعاد في مستوى أكثر سمواً، وسوف تكون النتيجة تطوراً حقيقياً وأصيلاً، إن البدائل ليست محافظة أشبه بانغراس الإقدام في الوحل أو اضمحلال سريع لا مناص منه.

قد تبدو النتيجة مجردة أو مطلقة، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات أهمية عملية مباشرة، فإنني حينما بدأت كتابة روايتي الأولى، في أواخر سنوات العقد الثاني من عمري،

كانت تسيطر على المشكلة التي دفعت جويس إلى اختيار ملحمة الأدوية لكي يستمد منها بناء روايته المتداخلة الأطراف والتي تسودها الفوضى والتي تتحدث عن دبلن الحديثة. وقد عبر بيتس[1] عن هذه المشكلة في الأبيات الثلاثة التالية:

سمكة شكسبيرية تسبح في البحر، بعيداً عن اليابسة،
سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتقترب من يد الصياد،
ولكن، ما كل تلك الأسماك الراقدة تشهق على رمال الشاطئ؟

ومعنى هذا هو أن الفن الشيكسبيري قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة: أو ربما كان على المرء أن يقول أنه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة، وكانت وحدتها الأساسية هي الحدث أو القصة. الشخصية مهمة، ولكنها مهمة فقط "في إطار" القصة، فإن الأمر - على أي حال لن يهم حقاً - سواء إذا كان هاملت هو الذي استبدت به الغيرة فقتل زوجته، أم أن لير هو الذي أصبح أمير كودر. أما شخصية فيرتر عند غوته، أو "أوبرمان" عند سينانكور، أو هيبرتون عند هولدرلين[2] فإن أحداً لا يستطيع أن يحل محل أي منها، لأن كل واحد منهم "هو" القصة. إن العدسة المكبرة تقترب أكثر، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الأساسية، وتصبح الوحدة الأساسية هي الشخصية.

إن قصة ما، سوف تحكي نفسها لك إذا أنت سمحت لها بذلك. أما الشخصية فلابد أن يعيشها المؤلف. لقد كان على غوته أن "يصبح هو" فيرتر أو ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شيكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت أو الملك لير. ومع هذا، إذا ولج المؤلف الروائي "داخل" الشخصية، فإن الأحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي، فيصبح ويلهلم مديراً لفرقة مسرحية، ويصبح فاوست محسناً عاماً ومشرفاً على مؤسسات خيرية.

---

(١) وليام تيلر بيتس (١٨٦٦-١٩٣٩)، شاعر وكاتب درامي، بل إنه رائد حركة الإحياء الإيرلندية، تأثر بكل من وليام بليك وشيللي وبنزعة الإيمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية، وبيتس أحد مؤسسي حركة الأدب والمسرح الإيرلنديين في أواخر القرن الماضي، فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٣م.

(٢) جوان كريستيان فريدريش هولدرلين (١٧٧٠-١٨٤٣) أحد كبار الشعراء الألمان. كان صديق شيللر وتلميذ حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وأبنيته الشعرية والفكرية. ولكن تم اكتشافه متأخراً كشاعر عظيم في القرن العشرين على أيدي الناقدين هيللينجرات وبيستر. مزج بين ثقافته الإغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية، ثم تحول إلى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحداً من أهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية المسيحية وتجسيد الفكر التأملي في الشعر.

هذا، مع ضرورة أن تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي، إحساسها بالافتقار إلى هوية محددة وواضحة. وببطء، يخلي فيرتر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدالوس، ولكن يأتي "مالتي لوريدس بريجي" عند ريكله، ولكن يأتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامي، ثم يأتي أخيراً البطل الاستاتيكي الكامل - "ك" عند كافكا، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة، ولا حتى على التقلب على جانبيها، فهي لا تفعل عند بيكيت أكثر من أن تشهق وهي تضرب بذيلها. هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الآن أصبحت على بُعد بوصة واحدة من أنف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام. وبدون "القصة"، كيف يمكن أن تكون هناك رواية؟

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلاً للتطبيق بشكل عام، وفي الحقيقة، وبقدر ما أعلم، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام "المنهج الميثولوجي". لقد كفت الرواية عن محاولة حل المشكلة، وقد ارتدت إلى مرحلة أحدث عهداً، وتصالحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها.

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين، عندما انجرفت هي الأخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية، بل وإلى نوع من الكابوس المتعمد في مسرح القسوة عند أرتو. ولقد كان بريخت[1] هو الذي حاول أن يقيم اتصالاً جديداً مع البدايات، مع منبع المجرى ومصدره. لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضاً، بوصفها قصة تروى على جمهور من الشاهدين يعرف أنها ليست حقيقة من الواقع. إذن فلماذا تحاول أن تتنافس مع السينما؟ لماذا لا تحاول أن تحصل من آفاقها المحدودة على أفضل ما فيها، أي في الحقيقة أن "تؤكد" وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين؟ كان بيتس يداعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية المزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون.

---

(١) برتولت بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦) الشاعر والكاتب المسرحي الألماني الكبير، وأحد الشخصيات البارزة في المسرح المعاصر إن لم يكن أبرزها جميعاً، لا بأعماله المسرحية الفذة فقط، وإنما بأفكاره الأصيلة عن فنون التأليف والإخراج والتمثيل المسرحية. هذه الأفكار التي بلورت تياراً مسرحياً جديداً معارضاً للتيار الأرسطي الذي ساد في الدراما الأوروبية منذ القرن الخامس ق.م. من أهم أعماله المسرحية هي: "الأم شجاعة" عام ١٩٤١ ثم "حياة غاليليو" عام ١٩٤٨ ثم "دائرة الطباشير القوقازية" عام ١٩٤٨، ثم "السيد بونتيلا وتابعه ماتي" عام ١٩٤٣.

كنت قد كتبت عدداً من الروايات قبل أن يخطر لي أن ما كنت أفعله هو أن أدفع تأثير "التغريب" البريختي إلى مجال الرواية. لقد بدأت روايتي الأولى "طقوس في الظلام" ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري: "كتاب الموتى"، حتى طرأ لي أنني إذا لم يكن في نيتي أن أستخدم إطاراً نابعاً بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة، فإن الأجدر بي أن أستخدم إطاراً يمكن أن يقبله القارئ العادي وهكذا أخذت قصة جرائم قتل جاك الخناق، وبنيان القصة السيكولوجية المثيرة، ولكنها كانت ما تزال بشكل أساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستويفكي في الواقعية. وفي الرواية الأخيرة، قصدت إلى "عامل الغريب" بشكل واعٍ أكثر عن طريق اختبار أشكال تقليدية، هادفاً في نفس الوقت إلى تأثير قريب جداً من تأثير الاستعراض. ففي رواية "ضياع في سوهو" كان الإطار هو إطار الرواية التصويرية، وفي رواية "الشك الضروري"ن كان الإطار هو إطار "الرواية البوليسية"، وفي رواية "عالم العنف" كان الإطار هو إطار "الرواية الكبيرة" الألمانية مع نغمات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء، وفي رواية "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" كان الإطار هو القصص العلمي الخيالي، وفي رواية "الحجرة المعتمة" كان الإطار هو رواية الجاسوسية، وفي رواية "القفص الزجاجي" عدت مرة أخرى إلى إطار الرواية البوليسية.

أما الآن، فإن الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الأدب الداعر قد أثار في ذهني سؤالاً: هل يستطيع المرء أن يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية، بطريقة كليلاند أو أبوللونير، باعتباره الإطار الأساسي لإحدى الروايات، ثم يصل إلى نفس التأثير التغريبي؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية "رجل بلا ظل"، التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي إلى "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" وقد لاحظت في ذلك الحين أن الكتابة عن الجنس تميل إلى تدمير التأثير التغريبي لأن القارئ يصبح منغمساً وداخلاً فيما يقرأه. ولكن "اليوميات الجنسية" لم تستخدم "شكل" الرواية الداعرة، وإنما شكل المذكرات الاعترافية. لقد كانت رواية أفكار لا تأخذ الجنس إلا باعتباره نقطة انطلاقها. ولكنه نوع من التحدي الممتع، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الكلية من أي نوع روائي آخر يمكنني أن أتذكره، إنها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه. وهذا شيء أفضل ما يكون من أجل إنتاج التأثير التغريبي. والتحدي الموجود هنا بالطبع، هو أن تضفي الحياة على البناء. والمشكلة القائمة في رواية الأدب الداعر التقليدية - ورواية "جوستين" يمكن أن تؤخذ هنا كمثال - هي أن المرء يعرف أنها سلسلة من "القطع المستقلة" يربطها خيط قصصي

معتف مفروض عليها، مثل إحدى أوبرات مونتفيردي. وأنا أكثر اهتماماً بكثير بالقصة والأفكار مني بالقطع المستقلة المفتعلة الارتباط. ولابد لي أيضاً من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بأن هذا الكتاب (إله المتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الأدب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الأدبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب إيراكلي أندرونيكوف. وحكاية "جماعة العنقاء" قمت بتطويرها اعتماداً على إشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس. وفي الحقيقة، إذا صح أن يقال أن روايات "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها "هـ.ب. لوفركرافت"، فإن هذا الكتاب يمكن أن يقال عنه أنه قام على أساس من إشارات بورجيس ذات الطابع الميثولوجي.

إن نجاح هذه الرواية أو فشلها باعتبارها تمريناً في المعالجة التغريبية، لا ينبغي أن ينظر إليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة. وأنا مقتنع بأن حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية، ومشكلة السمكة المطروحة على الشاطئ إنما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية، سواء نجحت هذه الطريقة أو فشلت في هذه الحالة بعينها أو تلك، ولكنني يمكنني أن أقول - محتجاً - بأنها إذا "أمكن" أن تنجح في هذه الحالة، فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان آخر.

هناك نقطة أخيرة، أثيرها بشيء من التردد، طالما أنها تبدو لي واضحة. فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة إلى الرجولة، فإننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن ألا تكون عملية أو غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل، من شرب الكحوليات والتدخين، إلى تسلق الجبال والاستماع إلى الرباعيات الوترية.إن الجنس يقف خارج كل أنواع التجارب الأخرى باعتباره تجربة لابد أن تعالج في شكل سر من الأسرار، كما لو كانت طقساً قبلياً غريباً يتضمن اسماً لا يصح أن ينطقه اللسان.

وقد يكون هذا أمراً جوهرياً بالنسبة لبعض القبائل البدائية أو المجتمعات الأبوية (البطريركية)، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا، هدفها الأساسي (مهما كانت كآبة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو "الحلاوة والنور"؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين، وأيضاً (فيما نرجو) في السياسة، وهذا التطور لم يتوقف حينما

رفضت إنكلترا سيطرة البابا - أو حينما رفض فولتير المسيحية. وحتى رسالات نيومان وأوكسفورد ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها تطوراً لنفس الاتجاه، إصراراً على مطالب عقل أكثر رقة وتهذيباً وعمقاً متعلقة باحتياجات الإنسان الميتافيزيقية. وقد كان على فرويد أن يخوض نفس المعركة، كان عليه أن يكبح سيطرة المحرمات الاجتماعية والقيود الضاغطة وأن يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول، وكذلك فعل د. هـ. لورنس. ويمكن أن ننظر إلى معسكرات الإبادة النازية باعتبارها محاولة للعودة إلى شكل للمجتمع أكثر بدائية - وغير معقد - حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة، وليس عن طريق العقل.

يبدو لي أن هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضاً إنسانياً هاماً: إن "التحريم" رديء في حد ذاته، رغم أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى الخير في مجال محدود. فعلى سبيل المثال، فإن جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها أناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت، وإنما يرتكبها أناس تصاعد عندهم الإحباط حتى وصل إلى درجة الشيء المحرم الشديد الإغراء. ولذلك لا ينبغي أن نخلط بين "التحريم" والنظام الذي هو بشكل أساسي عنصر محرر. إن جيشاً جيداً يشبه آلة جيدة التشحيم، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بأن تدور دون عوائق أو عقبات.

وإذا كان كل هذا صحيحاً - وإنني لأجد أنه من الصعب أن أتصور أي شخص عاقل يمكن أن ينكره - إذن فلابد أن يتلو ذلك أنه ينبغي للراشدين الناجحين أن يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في أي شكل آخر من أشكال التجارب - في الفن أو العلم أو الرياضة أو المغامرة. حينما قرأت رايدرهاجارد في طفولتي - شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد. جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وأنا أقرأ كتاباً جامد الحركة، ولكن الاستثارة جاءت من السير عبر الأحراش المليئة بالثعابين مع البطل آلان كاترمين. وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المتحضرة، "الانفصال" و"المشاركة". ولكن حيث يتعلق الأمر بالجنس، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول. فمن المفترض فينا إما أن نكون مشاركين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - أو بعيدين منفصلين بشكل كامل، أي مثلما يحدث حينما أقرأ عن حالتي في كتب هافلوك أليس ثم أغمغم قائلاً: "يا له من أمر ممتع!" هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له. لقد عاش معظم القراء

الراشدين التجربة الأساسية التي وصفها كليلاند أو د.هـ. لورانس، وعلى العكس القسوة أو الجريمة، لا ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية. فهل هناك حقاً مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ أو المغامرة أو الرياضة؟ هل هناك أي سبب يمنع الراشدين، إذا كان هذا هو احتياجهم العقلي، من القراءة عن الجنس مع الإحساس بالانفصال، أو التفكير، أو حتى مع قدر معين من الإحساس بالمشاركة؟ إننا إذا كان بوسعنا أن نقول عن شيء ما إنه "صادم" دون أن نعني أنه قبيح أو شرير، إذن فإنها تبدو لي كفكرة ممتازة أن أستخدم هذا الشيء لكي أصدم أكثر عدد ممكن من الناس، حتى يفقد تأثيره الصادم، وحتى يمكن أن ننظر إليه بهدوء ودون تشويه. في مجتمع متحضر حقاً - ونحن ما نزال بعيدين عنه - لن تكون هناك كتب محرمة، ولا أفكار محرمة.

توطئـة

▣ كان إيزمون دونيللي في الرابعة والثمانين من عمره حينما داهمه الموت في شهر ديسمبر عام ١٨٣٢، وكان في أواخر حياته مولعاً تماماً بعلم الأرقام، حتى أنه تبادل عدة رسائل مع العالم الرياضي كارل جوس[1]. وفي إحدى رسائله إلى جوس يتحدث إيزموند عن الخصائص "السحرية" للرقم ١٣٧ - وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة. وبشكل عابر، صادفت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق، كانت موجودة في محفوظات مستر إكسالبد نوري، وقد ثارت خواطري حينما تبينت أن هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاماً بالضبط من موت إيزموند. واعتبرت هذه المصادفة علامة فأل حسن.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأ اهتمامي بالبحث عن إيزموند دونيللي، ففي أحد الأشهر، وأعتقده شهر يناير ذهبت بالطائرة إلى نيويورك مفتتحاً جولة طويلة ومرهقة من المحاضرات، أخذتني من فلوريدا إلى مين، ومن نيومكسيكو إلى سياتل. وكنت قد اصطحبت أسرتي معي: زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها.

إلا أنني أدركت سريعاً بعدم جدوى اصطحابهم معي في جميع تلك المدن والأماكن التي تنقلت إليها خلال تلك الفترة، ولذا فقد أبقيتهم مع بعض الأصدقاء في نيوهافن، وكنت

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧-١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي ألماني. ولد في برونزويك ولكنه عاش أكثر حياته في غوتينجن حيث شيد مرصداً كبيراً ونشر أغلب أعماله.

أعود لهما لقضاء عطلاتي الأسبوعية إذا ما كنت قريباً من نيوهافن، أو وجدت متسعاً للرحيل إلى نيوهافن. وبعد شهرين متواصلين من التنقل واللااستقرار في مكان واحد، بدا أني متوتراً جداً، وكان عليّ أن أخفف من ذلك التوتر، وأن أكافح من أجل الحصول والمحافظة على درجة بسيطة من العزلة لكي أتمكن من كتابة مذكراتي الشخصية اليومية في كراستي التي أعددتها لذلك. وحينما شرعت أخيراً في إعادة قراءة تلك المذكرات، كان واضحاً لي أنه لن تكون هناك بداية أكثر بساطة وسهولة لكتابي هذا من أن أقتبس تلك المذكرات بذات الصورة التي كتبتها تماماً.

-١-

١٠ إبريل ١٩٦٩...

▣ كنت متكئاً على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي، أشرب الشاي وآكل كعكاً صغيراً مصنوعاً من دقيق القمح، عندما تطلعت إلى الساعة، وكانت تقارب الثامنة والنصف صباحاً حسب توقيت الساحل الشرقي، والخامسة والنصف بالنسبة لي، وكان عليّ في التاسعة والنصف أن أتحدث في اجتماع.

لقد قالوا لي أن ديلان توماس[1] قد نام في هذه الحجرة، وأثار فضيحة حينما سمح لأعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الناحية الأخرى من المدينة - بالنوم على الأرض وبأن يتقيأوا في حوض الاغتسال. ولابد أن نشاط هذا الرجل وطاقته كانا خياليين.

بعد تسعة أسابيع من التجوال عبر أمريكا وإلقاء المحاضرات أصبحت في حالة من الإجهاد أشعر معها بأني عيني قد تحولتا إلى زجاج بارد متجمد. إنني أستطيع دائماً أن أشعر مقدماً بما سيحدث حينما أكون على وشك الانهيار، كان الأشياء تكتسب فجاة خاصية

(١) ديلان توماس (١٩١٤-١٩٥٣) شاعر إنكليزي حديث، يتميز شعره بامتزاج التصورات السريالية مع عناصر من الخيالات الأسطورية الكلية القديمة، وخاصة تلك المتعلقة بهواجس النفوس وتلبس الأرواح للأجساد.

عجيبة ذات أعماق غامضة. كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون المطبخ العادي الأخر - فالفنادق الصغيرة لا تهيئ لك سوى قطع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت الدش - ، وعندما ذهبت هذا الصباح لكي أخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي أن أقف في مكاني لكي أحدق في اللاشيء. من الصعب أن أشرح ما شعرت به. أن قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة كأنها قطعة من حجر اللاخيت الأخضر، ولكنه بدت أيضاً رخوة، بزخرفة، غائمة كما لو كانت تريد أن تختفي عن الأنظار. إن الأشياء التي أراها في مثل تلك اللحظات، تبدو كما لو كانت قد اكتسبت بعداً إضافياً أو معنى جديداً، سوى ما يتعلق بالصلابة واللون والرائحة والطعم... ثمة شيء "آخر" أيضاً، يختلف تماماً عن تلك الخصائص. لابد لك أن تدعو هذا الشيء - بالنسبة للإنسان - الشخصية، أو الروح.

وكنت أدور حول الغرفة وأنا في تلك الحالة الأقرب إلى الحلم، شاعراً كأنني طفل ولد لتوه، عاجزاً عجزاً غريباً، ومع ذلك فأنا سعيد سعادة غريبة. حينما بدأت بصب الماء الساخن في كوب الشاي الذي أرسلته إلينا محلات "فيندلاتر" في دبلن - انتابني إحساس عابر للحظة واحدة بأنني أذوب في البخار المتصاعد، وأصبحت رائحة الشاي غريبة، تكاد أن تكون مخيفة أيضاً.

تلك الجولات قاتلة. يريد وكيلي أن أقوم بجولة أخرى في العام القادم، ولكن هذه الفكرة تثير ثائرتي. أن أفضل ما يمر بك من اللحظات في أثنائها هي لحظات الجلوس في المطارات، وتناول شطائر الهامبرغر وشرب عصير الفاكهة أو عصير البرتقال الطازج. وأحياناً في مثل تلك اللحظات، أتمكن من الوصول إلى حالة جميلة من التباعد والنظر إلى الأمور في انفصال كامل عن اللحظة الراهنة، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد، وأشعر فجأة بالرضا والسعادة. لقد وصلت إلى تلك الحالة أيضاً منذ ليلتين، حينما كنت أجلس في مشرب الفندق الصغير في بورتلاند، أنظر إلى السيارات والحافلات العامة تمر سريعة عبر خيوط المطر السوداء، ممزقة انعكاسات إعلانات النيون محيلة إياها إلى مزق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار. ولم يحدث أبداً أن غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج عندما كنت أقترب من محل بيع الكتب في أحد المطارات، حتى ولو لم يكن لدي أكثر من خمس دقائق لتغيير الطائرة، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الأغلفة الورقية (من الطبعات الرخيصة)

ما يزيد على ما أستطيع أن أحمله. وفي مطار أوهارا بالأمس، اشتريت كتاب أبو لليتير[1] "السيد الفاسق" وهو مؤلف سريالي من الأدب المكشوف، ورحت أقرأ عن حياة الشيطان المسكين التعيسة بينما كنت أنتظر الطائرة. وحينذاك أدركت الحقيقة بوضوح كبير: أن عملي وعمل كل الكتاب هو أن نرفض أن نكون جزءاً من الحياة اليومية العادية، أن نقف جانباً بعيداً عن تيارها، حتى لو تطلب ذلك أن نتخذ موقفاً مشبعاً بالقسوة أو القومية. يجب ألا تمتعنا هذه الحياة ولا أ نغرق نحن فيها. هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبيئته. البيئة تحملنا معها وتدفعنا مثل التيار في المجرى السريع، والعقل يشبه الآلة التي يمكن أن تدفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه التيار، أو على الأقل فإنها تساعده على البقاء في نفس المكان. فإذا استمرت الآلة في العمل، كان الإنسان صحيح الكيان بشكل جوهري، أما إذا توقفت الآلة، فإنه لن يكون في وضع أفضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار.

-٢-

▣ مضت الاجتماعات والمحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة كافية - وتحدثت كثيراً عن طبيعة الشعر والنزعة الصوفية. وكان أن جرتني ست فتيات، بعد انتهاء إحدى المحاضرات ورحن يطرحن عليّ الأسئلة. كن جميعاً قد قرأن كتاب يومياتي الذي أصدره الناشر الأمريكي تحت العنوان المقزز: "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" (وقد كلفتني القضية التي رفعتها بهذا الصدد في بوستن كل مليم لعين أخذته من حقوق النشر). وكانت الفتيات الست يحملن الكثير من الأسئلة عن كانينغهام. وكان من الغريب أن أرى أن شخصية كانينغهام ما زالت تخلب ألباب الفتيات رغم الصفحات غير المسلية التي كتبتها عنه. كنت أحب أن أراه يتجول حراً في إحدى الكليات الأمريكية للفتيات - وأظن أنه كان سيلتقي هناك بكفوءه الحقيقي. إن أكثر الدوافع الجنسية عدوانية في العالم، يمكن أن يغرق

---

(١) جيوم أبولليتير - الاسم الأدبي للشاعر الفرنسي ويلهلم كوسترويتسكي (١٨٨٠-١٩١٨). كان من أهم شخصيات حركة الطليعة في الأدب والفنون التشكيلية أوائل القرن الماضي. تميزت كتاباته بالغموض والنزعة الجنسية واحتوت آخر أعماله على الكثير من عناصر النزعة السيريالية التي استشهد بها أندريه بريتون فيما بعد في البيان السيريالي.

في هذا البحر من العذرية الأمريكية غير الناضجة. ففي جامعة ولاية بورتلاند، عندما كنت أعقد ندوة، أحطت تجمع من الطالبات حتى أني لم أعد أرى سوى هذه الشاشة العريضة الملأى بالسيقان الطويلة، والتنانير البالغة القصر، وحينما أخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء، تبينت أن الفتاة الأمريكية لم تتغير منذ كتب هنري جيمس عن شخصية ديزي ميللر. إن التفاحات تبدو شهية بما فيه الكفاية، ولكن المرء يكتشف أنها قد صنعت من الخشب.

وفي وقت لاحق، وعندما كنت أتناول الغداء مع ميرفين ديللارد، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة ولاية بورتلاند، سألني إن كنت أعرف أي شيء عن إيزموند دونيللي. ومن الواضح أن هذا كان شخصاً إيرلندياً اشتهر بفسقه وخلاعته، وكان معاصراً لشيريدان، أمضى حياته كلها في صحبة الأوغاد في منطقة "جال واي". وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في بيرن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان "افتراع العذارى" رغم أنه يبدو أن أسرته قد أعلنت أن هذا الكتاب ليس إلا نتيجة نوع من التزييف وكان سبب سؤاله، أن مؤسسة (غروف بريس) للنشر تحاول إصدار الكتاب في أمريكا، مع مقدمة يكتبها ميرفين ديللارد. وقد أخبرته بأنني أقمت في "جال واي" لمدة سبع سنوات ولكنني لم أسمع أبداً باسم دونيللي هناك. فأما أن يكون قد نسي تماماً، وإما أن تكون ذكراه قد أهملت عن عمد.

وحينما عدت إلى غرفة الضيافة، كان هناك مظروف (غلاف مغلق) جاءني من وكيلي مملوءاً بالبريد، وكان يتضمن خطاباً من بعض الناس يدعون "مؤسسة ليندن للنشر"، جاء فيه:

مؤسسة ليندن للنشر، ٥٦٥ الشاعر الخامس،
نيويورك. ن. ي-١٠٠١٦ ٠ في إبريل ١٩٦٩.

عزيزي مستر سورم.

عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز أنك تقوم بإلقاء بعض المحاضرات هنا. ويقول اللقاء المنشور أنك تنوي أن تعود قريباً، ولذلك أرجو أن يصلك هذا الخطاب سريعاً.

لقد كنت من المعجبين بكتابك "اليوميات الجنسية" منذ صدوره. وقد تذكرت بالأمس، أنك أشرت في المقدمة إلى "موي كوللان". وفي كتاب "مذكرات فاسق إيرلندي"

الذي نزمع أن ننشره في الخريف، يصف إيزموند دونيللي عملية إغواء لكل من ابنتي القسيس غير الشرعيتين في مدينة موي كوللان، وهو الأب ريوردان.

وبالنظر إلى معرفتك بالمكان الذي دارت فيه تلك الأحداث، أتساءل إن كنت ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نزمع إصدارها؟ وأحب أيضاً أن أضيف أنني سأكون سعيداً إذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي إذا شعرت بأي ميل إلى القيام بمثل هذا العمل.

فإذا حدث أن تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد، أتساءل إن كان سيمكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور، حتى يمكننا أن نتناقش في أمر لقائنا؟

وإذ أنتظر بشوق أن أسمع صوتك فإنني أنقل إليك تحياتي.

المخلص لك

هوراد فليشر".

ولما كنت أملك ساعة فراغ قبل أن تقلني السيارة إلى المطار، طلبت بالهاتف الرقم الذي أعطاني إياه. بدا لي الرجل - من صوته - ودوداً بما فيه الكفاية. ولم يبد عليه الاستياء من أنني لم أسمع أبداً عن دونيللي قبل اليوم. وشرحت له أنني لن أصل إلى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل، وفي وقت متأخر، فقال أنه سيقابلني في مطار كنيدي لكي يأخذني إلى بيته في "لونغ أيلاند". وأثرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي. أن مثل تلك الأشياء لتحدث أحياناً بكثرة مضحكة. فقد حدث بالأمس أن سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في مذياع السيارة، وبعد عدة ساعات رأيت الاسم أمامي في إحدى دوار المعارف حينما كنت أبحث عن شيء آخر. وتركتني هذه المصادفة وأنا أتعجب، ولذلك ففي أول مرة ذهبت فيها بعد ذلك إلى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي، سألت المديرة إن كان لديها أي شيء عن الشاعر لومونوسوف. فقال لي:

"من المضحك أن تسأل عن ذلك. فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالأمس".

واشتريت الكتاب، وقرأت المقدمة، وعلى الفور أدركت بأنني قد ضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية. ومنذ عشر سنوات، كنت جديراً بأن أنظر إلى مثل تلك

العملية نظرتي إلى السحر والأعمال الخرافية. وأما الآن، فإنني اقتفي أثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة.

-٣-

١١ إبريل، مطار ويلكس - بار

■ كان قد بقي عشرة دقائق على بداية محاضرتي في هذا الصباح، عندما سلمني ديللارد البريد الخاص بي. كان هناك خطاب من جيم سميث من سان فرانسيسكو يخبرني فيه أن هيلغا نايزي قد انتحرت - قفزت من فوق برج بيركلي، بعد أن تسلقت بطريقة ما فوق الأسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع حدوث مثل تلك الأشياء. كنت أشعر بالتعب، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصلني الخطاب، ولكن، حالما قراته، بدا لي أنني استيقظت، وأصبح الإجهاد كأنه لم يكن إطلاقاً.

شعرت أيضاً بالذنب، رغم أنه إثم لا أساس له ولا معنى. كنت قد التقيت هيلغا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للعراة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الفتيات على أجسادهن أشكالاً مختلفة. كانت طويلة القامة، سوداء الشعر على شيء من الكسل، وكانت قد أمضت الليلة السابقة مع جيم. أمضينا معاً ساعتين، نأكل السمك وشرائح البطاطس المقلية ونشرب أقداحاً من نبيذ قلعة بريمنغهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك. قال أن الحرب في فيتنام سوف تستمر على الأقل لمدة عام آخر لأن النجوم تتصارع وتتصادم. وفجأة قالت هيلغا، "أراك تهتم بتأثير النجوم على الوجود الإنساني، وكان الأجدر بك أن تعلم بأن الوجود الإنساني - بصورة أساسية - لا معنى له؟" ألا يكون من الأفضل أن نترك كل شيء للصدفة؟ وحينما قلت أنا أنني سألقي محاضرة في بيركلي في منتصف نهار الغد، عرضت عليّ أن تأخذني بسيارتها إلى هناك.

وفي صباح اليوم التالي جاءت إلى فندقي وقالت أنها أمضت الليلة الماضية في قراءة كتابي: "وسائل وأساليب الإيهام الذاتي". ومن المؤكد أنني لاحظت عليها إمارات السهر طوال الليل. وأنا أتقن مناقشة كتبي، كان هناك شعور يتملكني بأنها كانت على وشك الانهيار وأن من واجبي أن أحاول مساعدتها. كان ما أدهشني - وخدعني - هو أنها كانت تسلم

تسليماً مطلقاً بأن الحياة لا معنى لها. وقد قالت لي ذلك كما لو كانت تقول أن الماء مبلل بالرطوبة. وحينما حاولت أن أشرح لها أنني لا أشاركها هذا الرأي، قالت أن المعنى الذي استخلصته من كتابي هو، أن البشر عاجزون عن أن يكونوا صادقين أو أمناء مع أنفسهم، ولذلك فإن كلاً منهم يحول حياته إلى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية، إنهم يخترعون الخيالات والأوهام التي تدعى الأديان والفلسفات وما إلى ذلك. وحاولت أن أوضح لها أنها حتى تلك النقطة فإن تفسيرها كان دقيقاً بما فيه الكفاية، ولكنني إنما كنت أتخذ هذا الموقف التدميري فحسب لكي أمهد الأرض أمام التفكير الحقيقي. إن ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة، وإنما الحقيقة. قاطعتني بنغمة يائسة تكاد تكون مفعمة بالضيق، "ما هي الحقيقة؟". فقلت، إنها ما كان لها أن تسأل هذا السؤال لأنها تعرف الإجابة بالفعل. إنك إذا كنت ظمآن ثم شربت مشروباً بارداً كبيراً، فإن إحساسك بالمشروب وهو ينزلق على حلقك هو الحقيقة. وهذا شيء يختلف تماماً عن الحديث عن المشروب، أو التفكير في مشروب آخر. والبشر أيضاً يملكون قدرة غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوجدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية - المادية - ومقابلة لها). إنها من ذلك النوع الذي جربته بالأمس مع قطعة الصابون، أو ما أجربه مرة واحدة على الأقل في كل عام حينما أشم رائحة الربيع لأول مرة. ففي تلك اللحظات تهدأ الحواس هدوءاً شديداً، ويجتاحك شعور بأنك ترى الأشياء حقاً، بالطريقة التي رأى بها ووردزورث جسر وستمينستر[1]. وثمة إحساس آخر يتماثل تماماً مع المذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزلق على حلقك. وقلت لها أن إحساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع إلى الحقيقة، يولد نفس النوع من الإجهاد والبؤس الذي يولده الإجهاد الحقيقي أو البؤس.

والقيت محاضرتي في بيركلي، واخذتني مجموعة من الطلبة لتناول طعام الغداء، وجاءت معي هيلغا أيضاً. وبعد ذلك أخذونا إلى قمة برج الساعة، وأخبرنا مرافقنا بأن عدداً كبيراً من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي - وأن هذه المحاولات

(١) ويليام ووردزورث (١٧٧٠-١٨٥٠) شاعر إنكليزي. كان إلى جانب صديقه كولريدج من قادة حركة الرومانتيكية في إنكلترا، عرف عنه أنه كان عابداً للطبيعة، متعاطفاً مع الديمقراطية الليبرالية، واهتمامه بدقائق حياة الناس والحياة اليومية العادية، واستخدام اللهجات المحلية للناس العاديين، وإيمانه بفكرة وحدة الوجود على أساس أفلاطوني.

تزيد بمحاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد. واعتقد ان هذا الكلام هو ما اعطاها فكرة الانتحار من ذلك المكان.

لم تتوقف هيلغا عن الكلام طول طريق عودتنا بالسيارة إلى البلدة، وبعد أن وصلنا إلى المدينة، اخبرتني بانها تريد شراء بعض الأشياء من السوق، طالبة مني مرافقتها إلى السوق، تعذرت لها بأني أريد الركون إلى الراحة، بعد الساعات الطويلة من الكلام والمحاضرات، التي اجهدتني حقاً. ووعدتها نيابة عن ذلك باننا سنخرج معاً في وقت لاحق لتناول وجبة من الطعام في (تشينا تاون). قرأت بعض اعمال هولدرلين ثم استسلمت إلى النوم حتى السابعة. وجاءت هي إلى الفندق في الثامنة، فاحتسينا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الأقدام حتى الحي الصيني. قالت لي انها امضت فترة ما بعد الظهر في التجول حول المتنزهات. فادركت سبب الإجهاد الواضح عليها. احتسينا شيئاً من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا، فبدا عليها الاسترخاء. وراحت تتحدث عن مشاكلها وفشلها عن (إصلاح) زوجها المصاب بالشذوذ الجنسي، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من المدعين الزائفين - فإنها لا تستطيع أن تقاوم أي شخص يشبه الشاعر أو الرسام أو الفيلسوف. وحينئذ بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية: الكسل، والضعف، والرغبة في ان "يحدث" لها شيء ما، ان يظهر حكيم ما لكي يمنحها الإجابة. وحينما بدأنا في شرب الزجاجة الثانية من نبيذ "الميدان" اصبحت فجأة رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية، وقالت لي انها كانت تحاول أن تلتقي بي منذ ان كنت هنا في شهر يناير الماضي. وقالت انها لا تطلب مني شيئاً اكثر من ان اكون صديقاً لها، اكتب لها الرسائل من حين إلى آخر، وما إلى ذلك. واخبرتها بانني سابذل اقصى ما استطيع. فقالت: "ليست المسالة انني اريد ان انام معك، فانا انام مع الكثيرين"، وكان شعوري هو انني لا اجد ما اشغل رغبتي فيه عن النوم معها. كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة، بل وحسدت جيم على الليلة التي قضاها معها، ولو انني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على اية حال، دون تفكير في النتائج. اما الآن فقد كنت ادرك بوضوح انها كانت تحاول أن تعقد معي صفقة، بان تمنحني شيئاً ما "في مقابل" شيء آخر استطيع ان امنحها إياه. ولم اشا ان أكون دائناً لها.

امضينا ساعة في "مكتبة أضواء المدينة" وقابلنا عدداً من اصدقائها، ثم انتقلنا إلى مقهى يقع عبر الطريق لشرب المزيد من النبيذ. وفي منتصف الليل، قلت لها ان عليّ ان اعود

الى غرفتي، فقد كان علي ان استيقظ في الصباح التالي لكي القي محاضرة في "بالو التو". فقالت انها تود ان تسير معي حتى حي "ساتر" لأنها بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. وعند ناحية شارع ساتر، حاولت ان اقنعها بان تستقل إحدى سيارات الأجرة، فقالت انها بحاجة إلى قدح من القهوة لكي تنتعش. وهكذا دعوتها إلى حجرتي وانا شديد الامتعاض. (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقاً لي، ولم يفعل اكثر من ان غمز لي بعينه. ولم اعرف في انها تحمل في ذهنها فكرة إغوائي - فإنها لم يبد عليها أكثر من انها تعاني من الشعور بالوحدة. ولكنني كنت مصمماً على ان لا يحدث شيء مع هذا على اي حال). امضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت أعد القهوة، ثم ذهبت إلى الحمام، وتركتها لكي تصب القهوة، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر - وحتى اللحظة لم يكن بوسعي أن اتخيل ما كانت تفعله بهذا العطر، لأنها لم تكن تحمل منه شيئاً. وحينما خرجت من الحمام، كانت راقدة على احد السريرين المتقابلين وقد اغمضت عينيها، وبدا عليه الشحوب الشديد. سألتها إن كانت تشعر بأنها على ما يرام، فقالت أنها ليست كذلك، ولكنها ستتحسن في لحظات. وضعت القهوة على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، فمدت يدها تبحث عن يدي حتى أمسكت بها وقالت:

- "هل تسمح بان تقبلني، مرة واحدة، من فضلك؟".

كنت ما ازال أشعر نحوها بتلك العاطفة الأبوية. فرحت اربت على راسها قائلاً: "اجل، اجل، بالطبع". وانحنيت فوقها. كان فمها ليناً وجذاباً، رغم ان شفتها السفلى كانت مشققة قليلاً. كان تقبيلي لها نوعاً من الصدقة - شعور يشبه ما كنت احدثها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه. أنت هي بعد أن قبلتها، ورقدت في مكانها دون أن تفعل شيئاً، وحينما حاولت ان اتراجع عنها، سمعت في حلقها صوتاً يشبه الأنين من جديد. ولم يكن هذا الوضع مريحاً - كانت رقبتي تؤلمني - ولذلك فقد وضعت ركبة واحدة على السرير. وفجأة بدأت تتنفس بعمق وبانتظام، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة، وبدأت يدها تمسح سروالي، كما لو كان هذا بالمصادفة، استقرت في مكانها هناك. وحدثت الاستجابة الحتمية. وكنت اتساءل طول النهار ان كانت ترتدي جوارب او سراويل ضيقة. وكنت أعرف أن هذه هي فرصتي الأخيرة. فلو انها كانت ترتدي السراويل الضيقة، وحتى إذا كانت ترتدي حمالة جوارب مشدودة إلى سروالها الداخلي، لأمكنني ان اعبث قليلاً بادب، ثم أطلب منها ان تحتسي قهوتها، بينما تخبو رغباتي الطارئة وتنطفئ جذوتها. اما إذا لم

يكن ذلك. تباعد فخذاها حينما لمست يدي ركبتها، وحينئذ لمست اللحم العاري فوق الجورب. وبعد لحظة، وصلت يدي إلى ملتقى الطرق، فوجدت أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. ولابد أنها قد خلعته في الحمام... وفي خلال ثوان قليلة كنت قد أصبحت داخلها ولابد أن أعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة. كان هذا نوعاً من الامتزاج المجرد بين الذكر والأنثى، دون وجود لشخصية كل منهما. وبدا لي أن دفئها، حينما أحاطتني بساقيها، كان دفئاً طال إعداده من قبل. ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير. كان كل منا مستثاراً بشدة لدرجة أننا بلغنا ذروة نشوتنا في ثوان معدودة. رقدت وأنا في داخلها للحظة أخرى، وأنا أنظر إلى وجهها، فبدت لي مسالمة تماماً وهادئة. وحينئذ قالت:

- "فلنخلع ملابسنا وندخل إلى الفراش".

وكان هذا اقتراحاً معقولاً، نفذناه على الفور. ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الأولى. كانت قد حصلت على ما أرادت الحصول عليه، وكنت أنا قد وصلت إلى ما كنت حريصاً على أن أتجنبه. ولكن أكثر ما أزعجني هو أنها بدت لي عاجزة عن التعاطف. كانت تستمتع بالجنس في تفان جسدي لم يتح لي أن أعرف مثله كثيراً - كان هذا برهاناً جديداً لي على أن النساء اللواتي لا يميزن كثيراً في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة باردات أو فاترات. ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا، كانت تريد أن تتحدث عن مشاكلها، وعني، وعن علم النفس، وعن محاضرتي... وكان علينا أن نتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة.

في القطار المتجه إلى "بالو ألتو"، لعنت نفسي لأنني لم أجلب معي كراسة مذكراتي، لتراكم الأشياء التي أود تسجيلها فيها. لم أكن أرغب في النوم مع هيلغا لأنني كنت أعرف مقدماً أن هذه التجربة لن تخلف شيئاً وراءها. إذن فلماذا لا أحصل بالفعل على مثل تلك المتعة من ديانا رغم أنني تزوجتها منذ سبع سنوات؟. لقد مضت عليّ عدة سنوات حتى الآن، وأنا أحاول تحديد أسس الدافع الجنسي. لماذا "ينبغي" لرجل ما أن يرغب في إيلاج عضوه المتنصب داخل امرأة ما؟ لابد أن ثمة سبباً ما، والقول بأن هذه "غريزة" ليس جواباً حقيقياً. حينما كان موبسي (ابنتي) طفلة صغيرة، كنت أتساءل دائماً، لماذا ترضع دائماً إبهام يدها بينما تمسك أذنها بيدها الأخرى. ثم لاحظت أطفالاً آخرين يفعلون ذات الشيء. وأنني

لأتساءل إن لم يكن هذا مرتبطاً بالرضاعة من الثدي - وما إذا كان الطفل يمد يده بصورة أوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الأخرى بينما يكون مشغولاً بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه، فهو يعامل أذنه معاملته للحلمة؟ وهكذا لابد أن يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي.

قصت عليّ هيلغا قصة غريبة، فحينما ذهبت إلى الكلية لأول مرة، كانت سيدة شابة مكبوتة كبتاً شديداً قد جاءت من الغرب الأوسط وتحمل آراء متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج، خاصة وأن أمها كانت قد أخبرتها بأن الرجل يستطيع دائماً أن يخمن إن كانت زوجته عذراء أم غير عذراء، وإنه من المحتمل أن يهجرها على الفور. وطوال ستة شهور أو نحوها، ظلت تخرج مع أولاد عديدين، وتسمح لهم ببعض الملامسات القليلة، ولكنها كانت توقفهم عند حدهم إذا حاولوا أن يخلعوا سروالها. وفي بداية عامها الأول، انتقلت لكي تسكن مع فتاة أخرى. أخبرتها بأنها حلت المشكلة باستخدام عضو أنثوي صناعي. ويثبت هذا الشيء حول الفخذين بواسطة حزام، وكان شيئاً يزيد قليلاً عن أنبوبة صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم العاني، ويجب أن يرطب مدخل الأنبوبة ببعض من زيت الزيتون. وقالت هيلغا أنها لا تظن أنه يمكن أن يكون عملياً، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل أنه سوف يقطع علاقته بها إن هي لم تتنازل عن رأيها. ولكنها جربت هذا الجهاز بعد أن استعارته من صديقتها. ولشد ما دهشت حينما وجدت أن الولد لم يهتم أقل اهتمام بذلك. كانا ينامان سوياً في الفنادق الصغيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع. وكانت هي تصر على الإبقاء على سروالها دون أن تخلعه، حذراً من أن تشتعل شهوة الفتى. ولكنها قالت أنه حتى لم يحاول أن يقوم بمضاجعتها بشكل طبيعي، فقد كان بعد أن يبلغ نشوته، يلاطفها قليلاً ثم يتركها. وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين، معتقدة أنها بهذا الشكل سوف تكون فاضلة بصورة رائعة، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت بالرغبة وطلبت من صديقها أن يمارس معها الجنس بشكل عادي.

تذكرت حينذاك أن ديانا كانت قد أخبرتني بشيء مشابه لذلك حول تجاربها الجنسية الأولى. فقد حدث مرة أن تشاجرت مع صديقها، فذهبت إلى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه، لكي تغيظ صديقها ولكنها قبل أن تذهب إلى غرفة

الرجل قالت له أنها عذراء وأنها تود أن تظل كذلك. فوافق عل الفور، وظلا طوال الليل يربت أحدهما على الآخر ويلاطفه، ولكن دون أن يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي.

خطر في ذهني في تلك اللحظة بأن هذا يمكن أن يكون مفتاحاً هاماً. إن الرجل "طبعاً" لم يكن رزيناً ولا محتشماً. كان هناك ديانا، وهي فتاة جميلة، من الطبقة المتوسطة ذات جسد رشيق وأخلاق محتشمة. أما هو فيريد أن "يعرفها" أنها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل المتحف وكتب عليها، "ممنوع اللمس". وهناك قصة لموباسان عن مجرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء، وعمل كخادمة في منزل إحدى السيدات، وظل يساعدها على خلع وارتداء ملابسها طيلة شهور. "هذه" هي كيفية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس أمامه في مترو الأنفاق، أو تقف أمام قسم العطور في أحد المحلات الغالية. إن الإيلاج الفعلي في عضوها هو أقل أجزاء المسألة أهمية بالنسبة إليه، إنه ليس سوى الرمز النهائي للاستسلام. إنه يستطيع أن ينظر إليها فيقول لنفسه: "كم أود أن أحصل عليها". لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها إذا ما قضى معها ليلة كاملة في حجرتها. فظل يراقبها وهي تخلع ملابسها، وراح يتجول بيديه فوق جسدها كلها، ويشعر بيديها فوق يديه، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها، ويرى الأساليب التي تستعمل بها أدوات ومواد التجميل، ونوع معجون الأسنان الذي تستخدمه (إن جوع الذكر للأنثى هو جوع لأنوثتها، أنوثتها الغريبة عنه، وإلى كل شيء فيها).

مرة أخرى أحب أن أقول أنني كنت شديد الإعجاب على الدوام بقصة كلايست[1] عن الماركيز فون، وفيها أن بعض الجنود الروس يغزون بلدة صغيرة فيأخذون الكونتيسة الشابة لكي يغتصبوها. وينقذها ضابط روسي، فيغمى عليها بسبب ما شعرت به من الرعب. وبعد شهور قليلة تدهش عندما تكتشف أنها حامل، ولكنها واثقة من براءتها ثقة كاملة لدرجة أن تعلن في الصحف مطالبة والد طفلها بأن يتقدم ليعرفها بنفسه. وبعد قليل، يتقدم

(1) بيرند هاينريش ويلهلم فون كلايست Kleist (١٧٧٧-١٨١١) شاعر وكاتب درامي ألماني، يعتبر واحداً من رواد حركة "العاصفة والاندفاع" التي طبعت الرومانتيكية الألمانية بطابعها وقتاً طويلاً. ورغم قصر حياته وضآلة ما كتبه فقد كانت لقصصه أهمية كبيرة لدرجة قيل معها أن تأثيره على فرانز كافكا كان قوياً للغاية. ولكن حياته نفسها كانت أبعد أثراً، فبعد أن وصل إلى حافة الجنون أطلق النار على حبيبته "هنرييت فوجيل" ثم انتحر.

الوالد بالفعل - إنه الضابط الشاب الذي أنقذها. وكان كلايست من حسن التقدير بحيث حاول أن ينهي القصة نهاية سعيدة، ولكن أكثر الرومانتيكيين كانوا جديرين بأن يجعلوها تنتحر فراراً من العار، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهباً فيكفر عن ذنبه. ولكن غوته تحدث بخشونة واضحة عن قصة كلايست، مصرحاً بأنها من السخف بحيث لا يمكن أن تقترب من الحياة الحقيقية. الأمر الذي يوضح أن كلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية أكثر بكثير مما يعرفه غوته - أو على الأقل فيما يتعلق بالجنس. ليست هناك حاجة إلى إظهار أن الضابط كان أفاقاً لا أخلاق له. إنه ينقذها بروح فارس من فرسان المائدة المستديرة. وحينما يغشى عليها، يرقدها برقة فوق أريكة ناعمة. وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة، ويشعر هو بنوع من الفضول إلى معرفة كيف يبدو النصف الأسفل من جسدها إذا خلعت ملابسها، وهو يعرف أن ليس عليه سوى أن يرفع ذيل ثوبها إلى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على اختراع السراويل الداخلية، ويقوم هو بهذا العمل في حذر، خشية أن تستيقظ، ويدس يده بين فخذيها لكي يباعد ما بين الساقين. ثم لا يكون من المهم أن تستيقظ أو لا تستيقظ. ففجأة يصبح كل ما يهمه حقاً هو أن يخلع بنطلونه الضيق وأن يلمس عريها بعريه. ويقوم بذلك ويكتشف أن الإيلاج سهل، ويصل إلى ذروة نشوته على الفور. ثم ينسحب، شاعراً بالخجل، متوقعاً أن يراها تقفز في مكانها مفزعة. ولكنها تظل راقدة في مكانها في سكون. ويعيد ترتيب ملابسها، ثم يرتب ملابسه، ويخرج بحثاً عن بعض الماء لكي يغتسل. حينما يعود، يجدها جالسة، تنظر إليه بامتنان. هذه هي الفظة، هل ستعلم أن غريباً قد زار أكثر أعماقها ظلاماً؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود، لدرجة أنها لا تشعر بشيء من فعلته. أجل، لقد أدرك كلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى إلى معرفة الأنثى كما تتعطش الأرض الجافة إلى الماء. ولابد أن غوته قد أدرك شيئاً من هذا هو الآخر. وإلا فأي شيء آخر دفع فاوست إلى إغواء مارغريت؟ إنها فتاة ريفية عادية، ليس فيها ما يلمع أو يخطف الأبصار بصورة غير عادية، ولو أنه كان طبيبها الذي يعالجها لشعر إزاءها بنوع من عاطفة الأبوة. ولكنها أجنبية عنه، غريبة، إنه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت تنورتها الواسعة التي لا تلبسها إلا في أيام الآحاد، وهو بحاجة ملحة إلى أن يعرف.

وهذا ما يفسر لا مبالاتي النسبية إزاء هيلغا في صباح اليوم التالي، كانت قد سلمت نفسها عارية إلي بالفعل، سلمت هزيمتها، وكسلها، واشتياقها إلى الاهتمام واستعادة الثقة

بالنفس. ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه، هل كانت ترتدي جوارب ضيقة أم سروالاً داخلياً؟ وكان الإيلاج الأول فيها مجرد جنس محض، ذلك النوع من الجنس الذي تمارسه الحيوانات بالقطع حينما تتسافد فيما بينها. ولكن بعد ذلك، برز عقلانا لكي يقطعا الطريق على ذلك الجنس ولكي يضللاه...

وقد كتبت لي بعد ذلك مرتين، المرة الأولى لكي تصف انغماسها في علاقة مع مدير متوسط العمر لإحدى الشركات، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها إلى طالب من ولاية سان فرانسيسكو. ولم أكن قد تمكنت بعد من الإجابة على خطابها الثاني حينما سمعت بانتحارها.

جعلتني أخبار انتحارها أشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة. تبينت أن إجهاد هذه الجولة من المحاضرات كان إجهاداً زائفاً. إن نتيجة الافتقار إلى الاحتكاك بالحقيقة هو ما أدى بها إلى الانتحار. كانت آخر مرة رأيتها فيها في شقة جيم سميث، فقد غادرت سان فرانسيسكو على طائرة الليل في نفس اليوم. وكان قد وضع اسطوانة تسجيل على جهاز الحاكي لديه وقرب منه إبرة اللاقطة، ولم يحدث شيء في تلك المرة - ليس سوى الصمت. واختبر مكبرات الصوت بأن وضع أذنيه عليها، وحدق جيداً في إبرة اللاقطة لكي يتأكد من أن شيئاً من الزغب لم يعلق بها. ثم أسقط ذراع اللاقطة مرة أخرى. ولم يصدر أي صوت. ثم لاحظت أن الذراع كان يسقط على جزء من الآلة صمم بحيث يمنع الإبرة من خدش الاسطوانة فقلت له أن هذا الجزء ربما يمنع الإبرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل. وهبط جيم على يديه وركبتيه ونظر إليها من أسفل. وقال أن لا، فالإبرة تلمس الإسطوانة بالفعل، ومع هذا فقد عدل من وضع الجزء الصغير بعض الشيء، وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى. كان قد أسقط الإبرة مسافة إضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من البوصة لكي يلمس الاسطوانة - فكانت قريبة منها لدرجة أن العين المجردة لم تكن تستطيع أن تلحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما. ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين الصمت والموسيقى.

إن ما يشغلني حقاً هو (المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة)، إن الضجر المسرف يوسع من هذه المسافة، وكذلك الإرهاق. ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن أن تكون ضئيلة إلى الدرجة التي تجعل كل المدارك والحواس تتوهم أنها تحتك بالحقيقة احتكاكاً مباشراً.

ثم يحدث أن تقع صدمة مفاجئة فيمتلئ الوجود الداخلي بالموسيقى، فتعرف أنه لم يكن هناك احتكاك حقيقي. كنت مخدوعاً. كنت وحيداً في فراغك الخاص، تختنق ببطء حتى الموت.

* * *

فيما بعد - في الطريق إلى نيويورك.

أشعر بأنني مدين بشيء من الامتنان لهيلغا، لقد اختطفني انتحارها أو انتزعني بقسوة لكي أخرج من حالة الافتقار إلى الإرادة التي كنت أترك نفسي لكي أنساق فيها. إن الكائنات البشرية تتشابه إلى حد كبير مع إطارات السيارات، فلكي تحصل منها على أحسن النتائج، ينبغي أن تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب. فإذا كان إطار سيارتك فارغاً من الهواء، وقدت السيارة لمسافة ميلين، فإنك سوف تدمره تماماً. ويحدث ذات الشيء إذا كانت الإرادة خاوية. كنت أتعمد ترك إرادتي تزداد خواءاً بانتظام طوال الأسبوع الماضي أو نحوه، وكنت أتساءل لماذا كنت أشعر بالإجهاد إلى هذا الحد.

يقول دي صاد أن الناس ساديون، فحتى أفضل الناس يحصلون على نوع معين من الإشباع من تأمل ما أصيب به الآخرون من خيبة أمل أو صدمات قاسية. وإنه لعلى حق، ولكن ليس لهذا أية علاقة بالسادية. إنه لسبب غريب ما، يجعلنا الضجر نفقد كل ارتباط بالحقيقة. إنك قد تظن، على سبيل المثال، أن رجلاً تم إنقاذه من خيمته النائية الباردة في القطب الجنوبي، قد لا يكون قادراً على الضجر طوال ما تبقى من حياته، لأنه في كل مرة يبدأ فيها في التسليم بالأشياء على ما هي عليه، فإنه، ببساطة سيستعيد اللحظة التي كان فيها قريباً من الموت كل القرب، ثم يرى كيف أن ظروفه الحالية جميلة إلى أقصى حد، بصرف النظر عن قتامتها. ولكن في الحقيقة، فإن مثل هذا الرجل جدير بأن يشعر بالضجر بنفس المقدار الذي يشعر به رجل أنفق جل حياته في مزرعة ريفية، وربما كان ضجره أكبر. إن سوء حظ الآخرين، أو ما يقابلهم من قسوة الحياة، قد يوقظنا من سباتنا الغريب.

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحرني - إذ يغرسه في قلوبنا وجود الضجر. اجتث هذا الضجر وهذا التسيب، وسوف تحصل على السوبرمان.

- ٤ -

السبت، ١٢ إبريل، جريت نيك، لونج ايلاند.

▣ الإجهاد يجعل من عملية اتخاذ أياً من القرارات الجيدة أو المحافظة على تلك القرارات أمراً في غاية الصعوبة. وصلت إلى كينيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية، وقابلني هوارد فيلشر، كان ضئيل الحجم، إيطالي الملامح، مليئاً بالحماس والرغبة في الاقتحام، قادني إلى منزل جميل على قمة تل صخري، يقول أنه اشتراه من أرملة رجل مشهور من رجال المافيا قتل في جريمة لم تكشف ألغازها. إن فليشر هذا واحد من أولئك الناس الذين توحي طريقتهم في التصرف بأنك لابد أن تحبهم، فأنت تشعر ببساطة بأنك وهو تشتركان بالكثير من الأشياء... ظللت أتوقع منه أن يضع ذراعه حول كتفي وأن يناديني "يا ولد". ومن الواضح أنه يشترك في عدد كبير من الأعمال الضخمة خلاف النشر - وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في أن دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي أنتجه لأغراض ضرائبية. وبينما كنا عائدين بالسيارة، قال بوقار بأنه قد عرف فور اطلاعه على كتابي "اليوميات الجنسية" أن هذا الكتاب ليس نوعاً من الأدب المكشوف الداعر. وأنني شخص مخلص يحمل أفكاراً ويريد أن يعبر عنها. وقد انكمشت أنا وحافظت على صمتي. وعدنا إلى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف، وفتح الباب، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها إلي باعتبارها سكرتيرته. وكانت هناك أيضاً فتاة أصغر سناً، اسمها بيفرلي، بدت خابية الجمال بالمقارنة إلى الفتاة الأولى، وقال أنها تشترك في السكن مع سارة (السكرتيرة) وأنها تدرس في إحدى مدارس السكرتارية. ووضعت الفتاتان على المائدة عشاءً بارداً ممتازاً، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر أيضاً. وبعد أن تناولت الطعام، وشربت قدحين من البيرة، شعرت بأنني أقل عداء نحو مضيفي، ولكنني كنت متعباً لدرجة أنه كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مفتوحتين. ولكن هوارد (وقد أصر عليّ أن نتخاطب بالأسماء الأولى على الفور) أصبح في الحقيقة أكثر تقحماً وحماسة بعد منتصف الليل. تحدث عن الحرية الجديدة في الأدب، وعن التمرد في الجامعات، وقال أن هناك جيلاً جديداً لابد من البحث عن ملامحه ودراسته، وأنه جيل جائع إلى الأفكار، وإلى حرية التعبير، وإلى الحديث المباشر المخلص. وحاولت أن أكتشف ما يعنيه بالأفكار وحرية التعبير، ولكنني لم أستطع أن أكتشف إلا أنه كان يعني حرية التعبير عن الدوافع العدوانية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء.

كان عليّ أن أبدي اهتماماً وحماساً بكلام هوارد الذي استمر في الكلام دون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليل، وفي حوالي الثالثة صباحاً، قادني إلى غرفتي، وبينما كان يتهيأ لمغادرتي، غمز لي بعينه وأشار إلى باب الغرفة المجاورة وقال: "بيفرلي في هذه الحجرة إن كنت تريدها". وغمغمت بكلمات عنيت بها أن هذا تعطف شديد منه عليّ، ورحت بعد هذا في سبات أشبه بالإغماء. وقبل أن أغرق في النوم مباشرة تذكرت أنني نسيت أن أطلب ديانا بالتليفون في نيوهافن.

في الصباح التالي، أيقظتني بيفرلي في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الإفطار. وسألتني إن كنت قد نمت جيداً.. ظننت أنني رأيت تعبيراً خاطفاً على وجهها يدل على السخرية، وتساءلت - في داخل عقلي - إن كانت باردة متحفظة كما تبدو. وكنت أشعر بالانقباض. كان الإصغاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني إلى حالة لم أكن أريد إلا أن أخرج منها لأفلت من قبضته. كنت أريد أن أصرخ: "اتركني وشأني. إنني أكره كل شيء لعين تدافع أنت عنه". ولا أظن أن هذا كان من الممكن أن يغضبه أو يجبره على السكوت. كان من الممكن أن يقول: "كلا. إنك لا تكره شيئاً من ذلك. إنك فقط تظن أنك تكرهه.." ثم يمضي فيتحدث بسرعة أكبر مما كان يتحدث في البداية.

دخل إلى حجرتي بينما كنت أتناول طعام إفطاري - إفطاراً إنكليزياً يضم البيض ولحماً من فخذ من خنزير ومربى بالزبدة - فناولني مخطوط كتاب دونيللي. ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد. سألته عما حدث لبقية الكتاب فقال:

- "أجل، حسناً، إيه.. هذه هي المشكلة".

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتضاعفة، والتأكيدات بأنه يقف دائماً إلى جانب أصدقائه، بدأت في إدراك ما كان ينبغي علي أن أتبينه في الليلة السابقة. إنه يشعر بالغيرة من دار "كروف للنشر" لأنها نشرت بعض كتب دي صاد، وخاصة كتاب "حياتي السرية" قبل أن يفكر في هذا الكتاب أي شخص آخر. ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي أن يمنعه من التقدم إلى ما هو أفضل من ذلك بأن ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها اللورد أشبي عن "ببليوغرافيا الكتب الممنوعة". وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة

لاعترافات الأخ، اخازيوس من مدينة دورين، وهو راهب من طائفة الكابوتشان[1] Capucin كون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل أن يضاجعهن. واعارني هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الآلة الكاتبة. ومن المؤكد أنه كان واحداً من تلك "الكتب التي تقرأ بيد واحدة". وكان قد شرع أيضاً في طبع كتاب يدعى "القساوسة الفاضحون" وإن كان لم يوضح لي من أين حصل على مادة الكتاب.

واخيراً وصلنا إلى الهدف من كل هذا الحديث. إنه مستعد لأن يدفع لي خمسة آلاف دولار مقابل كتابة بحث حول "مويكوللان وباللبكاهين" - مسقط رأس دونيللي - وهو مبلغ يكفي لتغطية تكاليف القدمة. فإذا كان باستطاعتي أن أنتج "مادة" إضافية للكتاب نفسه - أي إذا كان باستطاعتي أن أكتشف مزيداً من الكتابات التي تركها دونيللي نفسه، أو أن أزورها بنفسي - فإنه سيدفع لي عشرة آلاف إضافية من الدولارات. ومن الواضح أنه لم يكن يبالي كثيراً بما إذا كنت سأكتشف هذه الكتابات أم سأقوم بتزويرها. وأشار إلى أن اليكس تروتشي قد كتب بقلمه أكثر من خمس الكتاب المنسوب إلى فرانك هاريس تحت عنوان "حياتي وتجاربي في الحب" وأنه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس. والمسألة الرئيسية هي أن أكون مستعداً لأن أتحمل أي نقد يوجه إلى الكتاب، إذا حدث ووجه إليه مثل هذا النقد.

كان الحصول على مثل ذلك المال كله أمراً مغرياً. وكنت سأعتبر نفسي سعيد الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من المحاضرات. وقلت لفليشر أنني سأفكر في الأمر، فغادرني مع المخطوط بين يدي.

امضيت ما تبقى من فترة الصباح في الفراش، بينما كان يتزايد انقباضي كلما توغلت في قراءة دونيللي. إنني لا أفهم كيف استطاع أن يحافظ على صداقته لأشخاص مرموقين مثل شيريدان وروسو. إنه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قذر العقل. والأسوأ من هذا، هو أنني أشك في ألا يكون ببساطة، كاذباً. فالنساء اللواتي أغواهن - بدءاً من شقيقته وخادمة المنزل - يبدون جميعهن كما لو كن نسخاً مختلفة من نفس الصورة الخيالية للرغبة في التحقق. إنهن يبدأن جميعاً بالمقاومة بشكل يوحي بالفضيلة وهن يقلن،

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انشقت عليها وكونت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨.

"أواه، يا للعار!". وحينما يدفع إصبعه إلى داخل "الشق المرجاني المستطيل"، يتنهدن، بينما افخاذهن، "تنفرج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية". ومنذ تلك اللحظة، تمضي كل قصة إلى الأمام دون انحناءة واحدة حتى تئن كل امرأة منهن منتشية في الفراش. إن فليشر إما أن يكون ابلهاً غبياً أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه يعلم تماماً بأنه قد خدع ولا يبالي بذلك أدنى مبالاة.

جاء إلى غرفتي وقال إننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الغداء. وكان ذلك أشبه بالقشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل - لم أكن أشعر أبداً بأنني على استعداد لاستقبال الناس في ود لطيف. ذهبت إلى الحمام، وفتحت "الدش" فوق رأسي. فجأة شعرت بدوار، وكان عليّ أن أتعلق بعامود ستارة الحمام. جلست على مقعد المرحاض، وحدقت في مفرش الحمام المزركش بالورود، شاعراً بموجات الانقباض تتلاحق فوقي وتتراكم. فكرت في هيلغا، في ذلك الصباح الأخير، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش، ترتدي جواربها وتجذبها إلى أعلى ساقيها. قالت حينذاك: "إنني سعيدة لأننا نمنا معاً. ربما كان علينا أيضاً أن نأخذ أي متعة نستطيع أن نحصل عليها". ولم تزد على ذلك حرفاً، ولكنني فهمت ما كانت تريد أن تقول. كانت تعني أن الحياة لا معنى لها. كنا قد صعدنا إلى الفراش معاً، وتضاجعنا مثل حيوانين، وغرقنا في النوم وصحونا من جديد، ولكننا كنا غريبين، أكثر أمانة من أن تراودنا أية أوهام عن الحب أو الحنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون. وفجأة أردت أن أشرح لها ما يدور برأسي. أردت أن أقول لها أن العالم يبدو لها بلا معنى لأن "لا وعيها" قد غرق في سبات عميق. وحينما نكون سعداء، تظل فقاعات المتعة تتصاعد من أعماق اللاوعي - ذكريات وروائح وأمكنة. وحينما يتملك الإجهاد، يكف اللاوعي عن القيام بعمله، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر: "الغثيان". ساعتها ترى الأشياء دون ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الأشياء في أبعد أعماق العقل. يقول سانت أوغسطين، "ما هو الزمن؟ حينما لا أسأل نفسي هذا السؤال، أعرف الجواب". تماماً إن عزل شيء ما في داخل الوعي ينزع عنه معناه. إن حقيقة أن الوعي يرى العالم خالياً من المعنى إنما هي حقيقة لم تبلغ شيئاً من شيء. فليس من المفروض في الوعي أن يدرك المعنى، المفروض فيه أن يدرك "الأشياء"، الموضوعات الخارجية المستقلة عن الذات. ولكن كيف كان لي أن أشرح ذلك لفتاة سقطت تتخبط دون مهرب في حالة من الإجهاد العصبي الكامل؟ وكان المفروض - من أجل إخراجها من هذه الحالة - أن يتم إقناعها بأن تبذل شيئاً من الجهد، وهي لن تبذل أي مجهود

لأنها تقول أن كل جهد لا معنى لـه ولا هدف ولا نتيجة. لقد وقعت في شرك دائرة مقفلة، مفرغة.

كنت مصمماً على ألا أقع في نفس الخطأ. أخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت أصحو من إغماءة، وخطوت إلى تحت مياه "الدش" الساخنة، ورحت أفكر في أنني سوف أرى ديانا غداً، وأن بإمكاننا العودة إلى بيتنا بعد عشرة أيام.

لم أتفاجأ من رداءة طعام الغداء فقد كنت أتوقع ذلك. كان من الواضح أن الضيوف جيران أغنياء، وكان فليشر قد دعاهم إلى مائدته لا لشيء إلا لأنهم جيران أغنياء. وفكرت في كثرة ما يحدث في أمريكا من مثل هذه الأشياء - أناس يشربون ويتبادلون الأحاديث دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك - وغرقت مرة ثانية في حالة من الانقباض المزعج. شعرت بأن فليشر لا يملك الحق في أن يصب على رأسي كل هذه الصور اللعينة من أنواع الضجر. رجال الأعمال السمان وزوجاتهم البلهاوات،وثرثرتهم عن "الفيلا" المخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا أو على هضبة الكارميل. وكانت بيفرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي، كانت زوجته قد رحلت بعيداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وأزعجني هذا أكثر من أي شيء آخر لأنني شعرت أنها لم تكن موجودة هنا إلا لكي تسليني - حتى ولو لم أكن راغباً في النوم معها. إنما أردت أن يكون هذا "اختياراً" مني أنا.

خرجت إلى الشرفة القائمة إلى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة وألقيت ناظري عبر الأصوات المتصاعدة إلى أراضي كونيكتيكات. كان الهواء دافئاً ومعتدلاً. وفجأة قررت أن علي أن أدلي برأي لفليشر. أنني لا أريد أن أفعل أي شيء في كتابه اللعين. بل أنني حتى لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية كتابة المقدمة دون نوع من عدم الأمانة، لأن دونيللي بدا لي في صورة شريرة مملة. لابد لي من مغادرة هذا المكان بعد الغداء مباشرة لكي ألحق السيارة العامة بعد الظهر فأذهب إلى نيوهافن...

كنت على وشك الخروج لكي أقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيفرلي إلى الشرفة حاملة لي صحناً من سمك السالمون المدخن وقدحاً من البيرة. قالت:

- "يبدو عليك الضجر".

قلت - بشيء من الغضب كما لو كنت ألومها - : "إنني ضجر حقاً. إنني أشعر بالغثيان من كل هذه المسألة اللعينة". وقلت لها أنني نويت أن أغادر المنزل بعد الغداء مباشرة. وأدهشني اهتمامها. قالت:

- "كلا. ليس لك أن تفعل هذا. انتظر حتى يذهب الآخرون".

أثار انتباهها لي غروري، فوعدتها بالانتظار.وبعد خمس دقائق، جاء هوارد وسألني عن حالي وما أشعر به. فقلت إنني بخير،وإنني أفكر في الرحيل في اليوم نفسه، وثار اهتمامه جداً هو الآخر، وهرع إلى داخل المنزل.

أكلت السالمون وبعض اللحم البارد، وصعدت إلى حجرتي. كنت جالساً على الفراش أقرأ في مخطوطة دونيللي حينما دخلت بيفرلي. بدت غير واثقة تماماً من نفسها. وقالت: "جئتك بشيء من فطيرة التوت البري".

شكرتها، فجلست إلى جواري على السرير. قالت:

- "يقول هوارد أن عليَّ أن أقنعك بألا ترحل".

- "لماذا؟".

ترددت، ثم قالت: "هذا يعني الكثير بالنسبة لي. أريدك أن تبقى".

قلت ثانية: "لماذا؟" وقد ازدادت دهشتي.

تكلمت بكلمات غامضة عن أنها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة، قبل أن تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد، واتضح لي بالتدريج أن فليشر كان يدفع لها مصروفات دراستها، وأنها بدورها، كان عليها أن "تسلي" ضيوفاً مثلي. وافترضت أن كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج. كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقته. وكانت بيفرلي تشترك في شقة مع سارة.. ثم أدركت أن فليشر قد غضب منها لأنها لم تمض الليلة معي. قلت: "ولكن ألم توضحي له أنني كنت غارقاً في نوم عميق؟".

قالت: "أجل، أعرف ذلك. فقد جئت إلى حجرتك في الليل".

كنت آكل فطيرة التوت البري - رغم أنني لم أكن أريدها - إنما أكلتها بدافع الحرج. كان الموقف واحداً من تلك المواقف المحرجة الغبية. لم يكن بمقدوري أن أقول: "حسناً، اخلعي ملابسك، وسوف نعوض ما فاتنا من الوقت".

قلت: "ولكنني وضحت لهوارد أن زوجتي وابنتي ينتظرانني في نيوافن".

قالت في تعاسة: "أجل، أعرف هذا".

قلت: ولكن ما لفرق بين أن أكون قد قضيت الليلة معك أم لا؟".

ولكنني في الحقيقة كنت قادراً على تخمين الفارق. كان فليشر واحداً من أولئك الرجال الذين يصممون على أن يمضوا في طريقهم إلى غايته. وكان قد قرأ كتابي وقرر أنني الشخص الذي كان بحاجة إليه لتقديم كتاب دونيللي في صورة تبعث على الاحترام. فإذا كنت قد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزله، مع فتاة جلبها من أجلي، فإنني أكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما.

قلت: "اسمعي. لا أظنني قادراً على قبول هذه المهمة. إن هذا الكتاب مجرد مؤلف من الأدب المكشوف. وهو حتى ليس أدباً مكشوفاً كتب بطريقة جيدة. إنه لا يقنعني". قرأت لها المشهد الذي يمضي فيه إلى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن ينال عذريتها. ثم قلت: "فتاة إيرلندية في ثمانينات القرن الثامن عشر ما كانت لتسمح لأخيها حتى بأن يعرف أنها في فترة الطمث".

ومع هذا فقد وجدت أن قراءة هذا المشهد بصوت مرتفع قد أنتجت إحساساً قلقاً في أعلى الساقين جعل من السير أمراً لا يبعث على الارتياح، ولذلك فقد جلست على حافة النافذة العريضة بشكل كاف. واعترضت هي على أساس أن الأخلاق كانت أكثر مما ظننت حرية في القرن الثامن عشر، وانه من المحتمل أن يكون دونيللي ببساطة كاتباً مهملاً أغفل الخطوات الهامة في عملية الإغواء. قلت:

- "حسناً، فما رأيك إذاً في هذا المشهد؟".

تحولت إلى المشهد الذي يصف فيه إغواءه لزميلة شقيقته في المدرسة تحركت بيفرلي لتقترب من كتفي، وتركت نهدها يضغط عليه. كان المشهد يصف كيف كانت الفتاة

تقف معه، تشاهد استعراضاً يسير أمامهما. ويحل هو رباط ثوبها العلوي ويمص حلمتها، ثم يدس إصبعه في "الشق المرجاني المستطيل". وينتهيان بأن يتضاجعا وهي جالسة على ركبتيه؟ وقلت أنني أظن في هذا المشهد نوعاً من الاستحالة النافية للعقل، ولكنني كنت أشعر بأن صوتي قابضاً متوتراً. كان ارتباط المشهد الداعر، بنهدها الضغط بقوة على كتفي قد دفعني إلى حالة من التوتر، كان من الممكن أن تظهر واضحة للعيون لو أنني لم أكن قد وضعت المخطوطة في حجري. كانت ترتدي صدارة من الصوف، الكث القرمزي، تكشف عن كتفيها، وكانت الصدارة تتناسب جداً مع بشرتها الذهبية. وحينما انتهيت من القراءة، بللت إصبعها الأوسط بلعابها، ودارت بذراعها حول رأسي، فوضعته برقة في أذني. لا أعرف أين تعلمت هذه الحيلة، ولكن تأثيرها كان مروعاً. فجأة أصبح الموقف ملكها هي، وكانت هي تعرف ذلك. وكان الحرج الذي ساد الموقف في البداية قد اختفى. مددت يدي وجذبت صدارها ليكشف عن كتفيها، ثم جذبت دائرتي حمالة صدرها إلى أسفل، وكانت الدائرتان صغيرتين، لا تزيدان عن "بقعة" ضئيلة من مادة ناعمة. كانت حلمتاها منتصبتين وشديدتي الاحمرار، أخذتهما في فمي واحدة بعد الأخرى، ورحت أدلكهما بلساني. انزلقت لتجلس على ركبتي، ودفعت المخطوطة لتقع على الأرض.. جلسنا كذلك في هذا الوضع، وقد ثقل تنفس كل منا. تساءلت بيني وبين نفسي إن كانت تريد أن تنتقل إلى الفراش، ولكن أصابعها راحت تربت عليّ بنوع من المهارة جعلني أرغب في البقاء ساكناً في مكاني، لأتركها تمضي في عملها. كان بوسعي أن أرى ما وراء كتفها، ما خارج النافذة، الخطوط الخارجية السوداء للأشجار على صفحة البحر، بينما فروعها فقط تتغطى ببراعم أوراق خضراء صغيرة. بدت الأوراق والأغصان صلبة صلابة رائعة، كما لو كانت قد صنعت من معدن ما، يتراوح بين الفضي والأسود. حينذاك بلغت ذروة نشوتي، وتمايلت الأشجار، وتصلب في داخلي شيء ما صلابة لا حد لها، حتى لقد كان كل ما نظرت إليه يمثل هذه الصلابة، صلباً وجميلاً جمالاً خارقاً، جميلاً كما لا ينبغي لغير الصلب أن يكون. انحنت فوقي، ودست لسانها في فمي، وتركته في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في يدها. جذبتني من يدي، فتحركنا إلى الفراش، وببساطة رقدنا عليه، بكامل ملابسنا. كنت على وشك أن أغرق في النعاس حينما سمعت صوت إضاءة مصباح ما ففتحت عيني في المراة، رأيت صورة الباب وهو يفتح. خطف فليشر نظرة إلى الداخل، ورآنا، ثم انسحب ثانية على الفور. كانت بيفرلي نائمة، وقد انفرجت شفتاها. وفجأة شعرت بالإشفاق عليها، وغمرني إحساس دافق، كان

هو "الحب" بشكل أساسي. كان فليشر قد أمرها بأن تأتي إلي لكي تمنحني نفسها. وقد بذلت أفضل ما في وسعها. حاولت أن تمنحني المتعة دون تفكير في متعتها هي، ومنديلي يحمل النتيجة. قبلت شفتيها المنفرجتين، وحينما جفلت قليلاً، قبلت جبهتها.

عندما هبطت إلى الطابق السفلي، قلت لفليشر أنني أريد أن أرحل على الفور، ولكنني سأقبل التعاقد معه. قال:

"بالتأكيد يا رجل. هذا هو رجلي". ووكزني في كتفي بود.

⁕ ⁕ ⁕

نفس اليوم، فيما بعد.

تركت (جريت نيك)، مسافراً إلى نيوهافن للحاق بديانا، وقضاء بضعة أيام معها، في سفري هذا شغل ذهني تعثر وتلعثم بيرجسون[1]، وهو يحاول الإجابة على إحساس هيلغا باللامعنى. ففي إحدى مقالاته، وصف كيف أن ساحراً من سحرة الاستعراضات المسرحية (هاودين)، كما أظن قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره، على الملاحظة الفورية الخاطفة. حيث هاودين يطلع ولده على قطع لعبة "الدومينو" ولكنه لم يكن يسمح له بأن يحصي عدد ما رسم عليها من نقاط سوداء. ثم يسأله بعد هذا أن يتذكر كم كان عدد النقاط، أي أنه كان عليه أن يحصي النقاط "في خياله". ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو، ويأمره بألا يحصي النقاط، ومرة أخرى، كان عليه أن "يتخيل" تلك النقاط بعد أن تبعد عنه القطع ويطلب منه أ يتذكر عدد ما كان عليه من نقط سوداء. كان الصبي - بهذا الشكل - قد درب على أن يلتقط صوراً فوتوغرافية منظرية (مرئية) بذاكرته. وفيما بعد، كان يؤخذ لكي يقف لمدة ثانية واحدة أمام واجهة لمحل من

(1) هنري بيرجسون (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر حاز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٧، عرف عنه اعتماده على الحدس المباشر كوسيلة للحصول على المعرفة بدلاً من وسائل العلم القائمة على التجربة والملاحظة والاستدلال. من أهم أعماله كتاب (التطور الخلاق) عام ١٩٠٧، وكتاب (المادة والذاكرة) عام ١٨٩٦، وكتاب (الضحك) عام ١٩٠٠.

محلات بيع دمى الأطفال، ثم يطلب منه أن يكتب أسماء أربعين أو خمسين من تلك الدمى، من الذاكرة. كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بأنه يملك حاسة سادسة. وكان على الصبي أن يصعد إلى المسرح، فيختطف لمحة سريعة على المتفرجين لمدة دقيقة واحدة أو نحوها بينما يقدمه والده إلى الجمهور. وفي تلك المدة القصيرة، يكون الصبي مشغولاً بـ"تصوير" كل الأشياء المرئية التي يستطيع أن يراها - سلاسل الساعات وما إليها. ثم تغطي عيناه بغطاء محكم، وبإشارة ما من والده، يكون قادراً على أن يتبين الشيء - أو يتعرف عليه - بشكل عام. كان يمكنه - بالطبع - أن يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء إلى أبيه، فيكون قادراً على تقدير موضع جلوسه في صالة المسرح.

ويشير بيرجسون إلى أن جوهر هذه الطريقة هو "عدم" السماح للصبي بأن يحصي النقاط السوداء. وبدلاً من أن "يفسر" ما رآه، مثلما نفعل نحن جميعاً في أثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا، لم يكن يطلب منه سوى أن يسمح للمستوى الأعلى من عقله بأن يصور هذا الذي رآه في لمحة خاطفة. وأصبح المستوى الأعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه، وحدسه، وأحكامه.. الخ، وأصبح قادراً على أن يتحرك بسرعة أكبر بكثير، كان أشبه بـ "الضوء المتحرك".

إن الصغار من الناس - والمهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه الحيلة - خاصة إذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات. إنهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل. ولكن لاحظ ما يعني هذا. إنك تعلم نفسك أن تصور "الحقائق" دون معناها. فإنني لو سئلت أن أتذكر محتويات واجهة لأحد محلات بيع لعب الأطفال لقلت، "هناك آلة إطفاء في الوسط، ودمية عروس في ذلك الركن، ودب أسمر في الركن الآخر..." ثم لا أكون قادراً على تذكر أكثر من شيئين أو ثلاثة أشياء في عدة ثوان.

ومن السهل أن تصبح عادة، إدراك الأشياء دون معناها. ويصبح من الصعب أن تعيد ربط مستويات عقلك العليا بغرائزك وحواسك. إن الجواد سيرفض أن يعاد لكي يربط إلى العربة مرة أخرى مثلما كان في البداية. إنك تمضي فلا تفعل أكثر من أن "ترى" الأشياء دون أن ترى معانيها. ثم تقول: "إن العالم لا معنى له".

-٥-

الاثنين ١٤ إبريل. شارلستون. س. س.

▣ إن يوماً من أيام الأحد قضيته مع ديانا وموبسي جعلني أشعر بأنني أكثر عقلاً. قضيت يوم أمس في مداعبة فكرة تمزيق الشذرات التي كتبها دونيللي وكتابة كتاب كامل - لفليشر - عن مذكرات دونيللي. ولكن حدث هذا الصباح، وقبل أن أغادر نيوهافن مباشرة أن اتصل بي فليشر تليفونياً. كان قد تذكر لتوه أنني كنت ذاهباً إلى "باتون روج" وأراد أن يقول لي، أن واحداً من سلالة دونيللي - الكولونيل مدنرو دونيللي - يعيش في مدية "دينهام سبرينغز". وسوف أكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة، على أن أحاول الاتصال به.

ظللت أفكر في بيفرلي، لم أكن أفكر فيها فقط، وإنما فيما حدث للأشجار حينما حدقت فيها. حاولت التعبير عن ذلك بالكلمات. كان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالتعاسة، فيبدو كل ما تنظر إليه ممتزجاً بتعاستك - يصبح نوعاً من "الرمز" لتعاستك، مثل السماء الرمادية أو تساقط أوراق الخريف - كذلك هو الأمر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من أجزاء الجسد، إذ يصبح كل شيء رمزاً للإحساس بالقوة. وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني أرفض دونيللي، إن لحظات نشوته الفاترة الخالية من أي طعم، لا تؤدي إلى أي مكان. إنه لم يحاول أبداً أن يقتفي آثارها بحثاً عن منبعها في ذاته.

(يوميات الأسبوع التالي تم حذفها)

-٦-

▣ في صباح يوم السبت الماضي، ومرة أخرى في مساء اليوم نفسه، ألقيت محاضرة في جامعة ولاية لويزيانا - وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العباءة من التعب التي تغمرني دون أن أستطيع خلعها أو التخلص منها. (إنني لا أستمتع كثيراً بإلقاء المحاضرات. إنني أصر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركيز هاليفاكس: "إن الغرور الذي تبعثه عملية

تعليم الآخرين في النفس، ليغري الرجل دائماً بأن ينسى أنه صاحب عقل مغلق". وفي ساعة باكرة من صباح يوم الأحد، تناولت إفطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني إلى منطقة "دينهام سبرينغز"، التي تبعد مسافة عشرة أميال (وكان فليشر قد عرض عليّ أن يدفع هو أية تكاليف). ولذا فقد استأجرت سيارة لهذا الغرض وقد صممت أن تكون من سيارات "دينهام سبرينغز" نفسها. وكان سائق السيارة زنجياً متوسط العمر. سألته إن كان يعرف أين يسكن الكولونيل دونيللي. قال، "أوه، نعم". وكان يعرف الكولونيل بالفعل، وقال إن الكولونيل يسكن على بُعد ميل واحد خارج المدينة. وسألني إن كنت صديقاً للكولونيل، فقلت له إنني لم أقابله من قبل أبداً، ولكنني أمل أن أجده في بيته. فقال،

- "طيب، اسمع، في هذه الحالة قد يقابلك وقد لا يسمح لك بمقابلته. فإنك لا تستطيع أبداً أن تتنبأ بما سوف يفعله الكولونيل".

وأثبت الرجل لي أنه ثرثار بدرجة لا تقل عن ثرثرة أكثر سائقي سيارات الأجرة في أمريكا، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد أخبرني بالكثير عن دونيللي، ولم يكن فيما نقله إليّ من المعلومات ما يمكن أن يهمني كثيراً. كان قد جاء إلى ولاية لويزيانا قادماً من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة، فاشترى مساحة من الأرض خارج البلدة. وقد حصل على الأرض بثمن بخس لأنها كان سبخة مليئة بالثعابين. فاستأجر بعض المعدات الثقيلة، حتى جفف الأرض ونظفها، ثم بدأ في الزراعة، فاستنبت الأرز، وقصب السكر وغرس أشجار البرتقال. كان يدفع أجوراً طيبة، عرف عنه أنه كان يقسو على نفسه وعلى عماله. فقد كانت الأيدي العاملة - ومعظمها من الزنوج - تعيش في أبنية خشبية كثكنات الجنود القديمة. وكان دونيللي طاغية تماماً، رغم ما عرف عنه من هوس بالعدالة والحق. كان يقضي في المنازعات بنفسه، وكان أحياناً يأمر بجلد بعض العمال، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه. وكان بوسع من يريد الرحيل أن يرحل. كان يسكن بمفرده، ولم يعرف عنه أبداً أنه نام مع امرأة. وكان خادمه الوحيد رجلاً مكسيكياً كتوماً، هائل الجثة. وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت أصوات الضربات واللعنات تسمع أحياناً من داخل مبنى المزرعة - ولكن الخادم لم يشك الأمر إلى مخلوق على الإطلاق. ثم مات بمرض التيفوئيد بعد عدة سنوات.

وفي عام ١٩٦٢، اكتشفت شركة "ستاندارد أويل"، التي كان لها مركز كبير في "باتون روج"، البترول في أرضه، فعرضت عليه ثمناً كبيراً لها. ولكن دونيللي وافق على أن يؤجر لهم قسماً من الأرض. ورغم أنه احتفظ بقسم كبير منها يصلح للزراعة، فإنه أقلع عنها، وصرف عماله، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين، يزداد نحولاً وحساسية. وكان يختفي عدة مرات في كل عام - وكان يعتقد أن يذهب إلى نيواورليانز. وزعم أحد سكان "دينهام سبرينغز" أنه رآه هناك في بيت للدعارة، ولكن لم يصدق ذلك إلا القليلون.

كنا قد أصبحنا على بعد أميال قليلة من "دينهام سبرينغز" ونصحني السائق بأن أرفع زجاج نافذتي. وفسر لي الأمر بأننا كنا على وشك أن نمر بمعمل لتفريخ الدواجن وذبحها كان قد احترق منذ فترة قصيرة، وأن أجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد أو نقلت من المكان. وعبر بالمكان عن يميننا - ولم يكن "المعمل" أكثر من سقيفة خشبية كبيرة، بقدر ما كنت قادراً على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تعلوها آثار الحريق. ورغم إغلاق النوافذ، فإن الرائحة الكريهة تسللت إلينا. وأخبرني السائق بأنهم يواجهون الكثير من الحرائق في المنطقة. فإن مساكن العمال في مزرعة دونيللي قد أحرقت، كما احترقت حظيرة ملأى بحزم القش المضغوط.

لم يدهشني هذا. فإن الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من أمريكا الشمالية، هو أن المنطقة نفسها لا تلتهب مشتعلة بالنار في منتصف الصيف. ورغم أن الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشر صباحاً، فإن الهواء كان ساخناً مثل الفرن.

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة، حيث بدا كل شيء خالياً تماماً ومكتمل الهدوء في صباح يوم الأحد، ثم دارت السيارة إلى اليمين هابطة منحدراً معشباً كان يتعرج أسفل المدينة. وبعد نصف ساعة من القيادة المحاذرة البطيئة - بهدف تجنب قفزات السيارة - وصلنا إلى أبنية مزرعة خشبية تقاوم القدم، وقد بدت كالمهجورة. دفعت للسائق أجره وخرجت من السيارة. فقال:

- "أفضل أن أنتظرك لأرى إن كان سيسمح لك بالدخول أم لا؟. فإنه قد يقرر ألا يستقبلك".

وهكذا عبرت الفناء المترب، ماراً بمعدات المزرعة التي علاها الصدأ، متجهاً نحو المبنى الرئيسي. نبح في وجهي كلب ضخم أصفر اللون، ولكنه لم يبذل أية محاولة للنهوض من رقدته.

فتح الباب قبل أن أصل إليه، ووقف دونيللي على عتبته. عرفت أن هذا الرجل لابد أن يكون هو دونيللي - فقد بدا أوروبياً إلى درجة أكثر من أن يكون أي شخص آخر. إنه رجل من النوع الذي اعتاد أن يرى الإعلانات القديمة في الصحف عن شاي "بلانتر" وقهوة "كامب"، نحيل القامة، لوحت الشمس جلده، يحمل وجهاً تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته. راقبني وأنا أقترب دون أن يتكلم، ثم قال:

- "أنت مستر سورم؟"

وكان هذا باعثاً على الراحة. فقد كنت أتوقع أن يقول: "من أنت بحق الجحيم؟" أجبته بأنني أنا سورم. أومأ إيماءة مختصرة للغاية، ثم فتح الباب على سعته لكي يسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبة، مثل قمرة ضابط في سفينة. ولم يكن دونيللي قد ابتسم أو حاول مصافحتي. ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب - وكان قد وقف قليلاً يراقب السيارة وهي تبتعد - فخيل إلي أنه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب. وراح يتأملني، مثل قطة تراقب قنفذاً برياً. قال:

- "أيمكنني أن أقدم لك الشاي؟".

قلت نعم بحماس، خرج، وغادرني بمفردي. كان من الواضح أنه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة. كان هناك سرير من أسرة المعسكرات، ومقعد ذو مسندين غير مريح ومقعد آخر عادي مصنوع من الخشب، ومائدة صغيرة يمكن طيها. وكانت أرضية الحجرة عارية ونظيفة، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة، وست صور طباعية على الجدار، تمثل عدداً من الملاكمين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية، وتمثل أيضاً جياداً جميلة. ولم تكن هناك كتب.

عاد دونيللي يحمل الشاي، وصحناً ملأه بشطائر صغيرة مقددة دهنت بالزبدة. راودني إحساس بأنه يريد أن يتحرر قليلاً من تخشبه، وان يقول شيئاً ما بطريقة ودية، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات. وبينما كان يصب الشاي سألني إن كنت قد قمت برحلة طيبة حتى منزله. فأجبته: نعم. قاومت الإغراء بالكلام لكي أملأ فراغ الصمت، وبينما رحت أرتشف الشاي - الذي كان قد صنع بطريقة جيدة - تذكرت عبارة هايني في تعريف الصمت باعتباره الحوار بين الإنكليز، فوجدت أنه من الصعب ألا ابتسم. وأخيراً، توقفت عن مقاومة الإغراء بالابتسام. نظر إليّ دونيللي في تلك اللحظة، فحولت ابتسامتي إلى تعبير ودي، وقلت: "حسناً، إنه لمن الممتع حقاً أن يعثر المرء على سيد إنكليزي في هذه البقعة القاحلة".

قال بصرامة: "إنني إيرلندي".

- "إنهما شيء واحد على هذا البُعد". هكذا أجبته، وأنا أتساءل إن لم يكن قد قذفني بشيء ما. ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالثلج وقال:

- "أجل، أظن هذا".

ولسبب غريب ما، تحطم الثلج، قال:

-"وهكذا فأنت تقيم في موي كوللان؟ أين بالضبط؟".

فوصفت له الكوخ الذي استأجرناه، والمنزل الذي انتقلنا إليه. فسألني إن كنت أعرف شيئاً عن جريمة قتل "دومينيك"، الفتاة التي كانت جثتها قد وجدت عند قاع مرتفع (موهير) الصخري منذ عامين. وكنت أعرف كل ما يتعلق بهذه القضية، فوصفتها له بالتفصيل. كانت فتاة أمريكية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين. وكنت أعرف صياد الأسماك الذي عثر على الجثة، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها. ومن الواضح أنه لم يمكن التعرف على وجهها، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأه الوحيد بتركه قطعة ثياب واحدة على الجثة - وكانت هذه القطعة سروالاً من النايلون الأسود. وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الأمريكي، وبالتالي قاد هذا إلى معرفة هويتها. وكنت أيضاً قد بادلت الحديث مع مفتش الشرطة السري في دبلن الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق

القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الأساليب التي لجأ إليها في التحقيق. وسحرت كل هذه المعلومات الباشرة دونيللي. فبدأت آمل في أن يتعرف بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع أسلافه.

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم، فخلع دونيللي صداره الصوفي وجلس أمام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحاً حتى وسطه - والبنطلون. وخلعت أنا سترتي. واقترح هو أننا ربما كان علينا أن نتناول مشروباً، فوافقت. وجاء دونيللي بزجاجة من الروم الأسود. وكنت أعرف أنني لن ألقي أي محاضرات حتى يوم الثلاثاء، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج. وجاء دونيللي بالمزيد من شطائر المقددة المدهونة بالزبد، وفتح بعض علب السردين المحفوظ. وبعد أن تبادلنا كلمة "صحتك". اندفع إلى موضوع إيزموند دونيللي. قائلاً:

- "أظن أن هذا الولد الناشر قد أخبرك بأنني قلت له أن يذهب إلى الجحيم؟".

- "كلا. لم يخبرني".

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي - أن يقترح عليّ الذهاب إلى دونيللي دون أن يوضح لي أنه قد تلقى استقبالاً عدائياً. وربما كان هذا تصرفاً حسناً من جانبه، فإنني ما كنت سآتي إليه لو أنه أخبرني بذلك.

سألني: "هل رأيت تلك المخطوطة؟".

- "أجل. وقد جئت بها معي". أخرجتها من الجيب الداخلي لسترتي، فتناولها بلهفة. وبعد أن قرأ نصف صفحة، ألقى بها على المائدة مع إشارة تدل على الاشمئزاز.

- "تماماً كما كنت أظن. تزوير. مجرد تزوير غبي لعين".

دهشت كالمصعوق. سألته: "أنت متأكد؟".

- "أنا متأكد طبعاً. ألم تقرأ يوميات إيزموند؟".

- "أخشى أن أصارحك بأنني لم أقرأها. بل إنني لم أكن أعرف بوجودها قبل الآن. هل نشرت؟".

- "إنها منشورة بالطبع. نشرت في دبلن عام ١٨١٧".

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد وقذف على السرير مجلداً صغيراً ذا غلاف من الجلد. وكان العنوان، "يوميات إيزموند دونيللي". وكان الناشر هو "دار تيلفورد" في دبلن. وكان الإهداء الرسمي موجهاً إلى اللورد تشسترفيلد - وهذا نصه:

"سيدي اللورد، لقد كان لدي دائماً من الأسباب ما يدعوني إلى أن أتذكر قولك بأن أسوأ الرجال تربية في أوروبا، إذا سقطت مروحة إحدى السيدات، لجدير بالتأكيد بأن ينحني فيتناول المروحة ليعيدها إلى صاحبتها، وإن أفضل الرجال تربية في أوروبا لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا. وقد كانت هذه الفكرة الثاقبة، حول تشابه المواهب بين العظيم والوضيع في إطار مجالات محددة للنشاط، هي ما دفعني إلى أن أقدم إلى سيادتك هذا المجلد الخالي من الادعاء.."

ولم تكن هناك حاجة إلى المضي في القراءة بعد هذا. فإن الرجل الذي كان باستطاعته أن يكتب هذا النثر الأنيق الجيد الصياغة لا يمكن أن يكون هو ذلك الصبي الأبله الذي كتب يقول، "وفي خلال ثوان قليلة كان خنفسائي الكبيرة المحظوظة، قد اندست داخل محرابها العذري، وسائلي المنوي يجعل خصيتي تنتفخان كالبالونة". وهذه العبارات الأخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح إلى جوهر أسلوب المخطوطة التي قدمها لي فليشر. وإنني لعاجز عن المجادلة دفاعاً عن فكرة أن رجلاً واحداً هو الذي استطاع أن يكتب الإهداء الرسمي إلى اللورد تشسترفيلد والجملة الأخيرة. ولكن حدساً طارئاً تصاعد إلى مستوى اليقين جعلني أشعر بأن الأمر لا يصح أن يكون على هذا النحو. قلت،

- "أستطيع أن أرى ما تعنيه. إنك لا تظن أنه من الممكن أن يختلف أسلوب مذكرات خاصة اختلافاً شديداً - بالضرورة - عن يوميات يكتبها المرء أثناء السفر؟".

- "إنه أسلوب يختلف أيضاً عن أسلوب يومياته غير المنشورة".

- "هل رأيت أنت تلك اليوميات إذن؟" كذلك سألته وأنا أحاول ألا تظهر في صوتي رنة لهفة الشديدة.

- "أوه، أجل" قالها بطريقة عابرة، وصب لنفسه مزيداً من الشراب أكلت ستاً من أسماك السردين، وكعكة جافة مدهونة بالزبد قبل أن أشرب المزيد، وفكرت في أنني أستطيع أن أمضي ما بعد الظهر والمساء نائماً في غرفتي بالفندق الصغير.

وحينئذ أخبرت دونيللي بلقائي مع فليشر، ووضحت له أنني لم أكن قد سمعت باسم جده أبداً قبل تلك المقابلة. ووافقني هو على أن ذلك لم يكن بالأمر المفاجئ بالنسبة له، فإن يوميات دونيللي لا تزيد في قيمتها عن العشرات من أمثالها في ذلك العصر الذي كتبت فيه، يوميات أشخاص مثل توماس تيرنر، وماري كاوبر، وإيرل إيجمونت، وهي ببساطة لا يمكن أن توضع في نفس المكانة التي توضع فيها يوميات فاني بيرني. كان إيزموند دونيللي معروفاً لطلبة الأدب الإيرلندي، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلد، "تاريخ كامبريدج للأدب الإنكليزي".

وبدافع من رغبتي في الكشف عن دوافع فليشر أشرت إلى أنه من النادر أن يكون هناك دخان من غير نار، وإنه إذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونيللي كان يداوم على كتابة "يوميات جنسية"، فمن المحتمل جداً أن يكون ثمة أساس لهذه الشائعة. حدق في وجهي بعينيه الباردتين، وليس على وجهه أي تعبير، وقال لي،

- "افترض أن لهذه الشائعة بعض الأساس، فهل تفترض أن أحفاده يتلهفون على رؤية مثل تلك الأشياء مطبوعة منشورة على الناس؟ إنك تعرف إيرلندا".

أدركت ما يرمي إليه. فالإيرلنديون لا يتساهلون فيما يتعلق بأمور الأخلاق. من المؤكد أنهم يتمتعون بشيء من المرونة. ولكن مرونتهم تقف عند أمور الأخلاق ولا تستطيع تجاوزها على الإطلاق. وهناك الكثير من حوادث منع الكتب، والفهرس ما يزال شيئاً لابد من التفكير فيه. وكان بوسعي أن أدرك أن عائلة دونيللي القاطنة في بلدة "باللي كاهين" قد تجد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة، حتى ولو كانت مريحة.

وحينما اقتربت الساعة من الواحدة، كنت مخموراً بشكل واضح، وقلت أنه أصبح عليّ أن أرحل. ولشد دهشتي اعترض على ذلك قائلاً،

- "لا. لا. يمكنك أن تتناول طعامك هنا. سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير. فإذا لم يعجبك هذا، لدي بعض القمح الطازج الأخضر". وذهب إلى المطبخ، ورحت أنا أقرأ بعض

يتكلم لم ينم عن أية نوايا سادية. وتذكرت فجأة حكاية أنه قد عاش وحيداً لمدة طويلة. كان جائعاً إلى الجنس معزولاً في وحدته عن البشر، ولا شك أنه استمتع بالحصول على من يبادله الحديث. ولم يكن في هذا أي شيء غير طبيعي.

ولكنني بدأت أتمنى لو أنني كنت قد أخرت موعد زيارتي إلى وقت متأخر من هذا اليوم. فقد بدأت أشعر بأنه ينوي أن يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والمساء. كان بوسعي أن أرحل، بالطبع. ولكن دونيللي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي، وكنت سأحصل على خمسة آلاف دولار إذا كتبت عن هذا الرجل. كان بوسع الإحساس بالذنب وحده أن يبقيني جالساً في هذا المكان، طالما أني كنت ألقى الترحيب.

وحينما انقضت فترة العصر وأقبل المساء، بدأت أتثاءب مرة كل دقيقة. لكن يبدو أن دونيللي لم يلاحظ ذلك. كان قد أتى بمقعد لا ظهر له ولا مساند. وجلس عليه، ورفع ساقيه على المقعد الخشبي. وأصر على أن أجلس أنا على المقعد غير المريح ذي المسندين، ورفع ساقي على السرير. كنا في تلك اللحظة نشرب البيرة - من نوع البادوايزر المعبأة في علب من الصفيح. وكان يدخن سيجاراً من نوع الشيروت. وحاولت من حين إلى آخر، أن أعيد الحديث إلى موضوع دونيللي، ولكنه كان يتجنبه. وأخيراً في حوالي الساعة الرابعة، سألني إن كنت بحاجة إلى بعض المشي. فوافقت على اعتبار أنها محاولة لكسر هذا الدوار الشبيه بالتنويم المغناطيسي. كنت قد بدأت أشعر بالانزعاج في صحبته. وكان بوسعه أن يرى أن النعاس بدأ يسيطر عليّ، وربما كان من واجبه أن يقترح عليّ أن أنام لمدة نصف ساعة على الأقل، أو أن يتركني لكي أقرأ مذكرات إيزموند دونيللي. ولكنه كان يريد أن يتكلم، ومن الواضح أنه لم يكن يهتم بما إذا كنت أريد أن أنام أم لا.

رغم حرارة الجو، ارتدى دونيللي قميصاً نظيفاً ووضع ربطة عنق، وارتدى سترة رياضية. أما أنا فحملت سترتي على كتفي. وأصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه إلى ناديه الخاص في لندن ليحتسي كأساً في فترة ما بعد الظهر. أما أنا فشعرت بانحلال الإرادة، وأنا عاجز عن اتخاذ قرار ما، غارقاً في عرقي. ولما كنت قد أصبحت واعياً لأنه يتحدث بدافع داخلي قاهر، فإنني لم أعد ألتفت إلى ما يقول إلا نادراً، وإن كنت مضيت في سيري إلى جانبه على أرض الحقول المهجورة التي تصلبت تربتها. وتبعنا الكلب الأصفر الضخم، وكان ساقاه من الطول بحيث بدا لي كما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحركة البطيئة. وسار

دونيللي بخطوات واسعة، مشيراً بعصاه إلى أشياء مختلفة تثير الاهتمام: "هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الإعدام الفوري. لقد أعدمت عصابة "الكلان" ثلاثة من الزنوج هنا منذ سنوات قلائل".

- "ماذا كانوا يفعلون؟".

- "كانوا يشعلون النار في مخازن القش".

كانت بعض المناطق المعشبة التي سرنا فوقها جميلة، ولكنني دهشت بسبب كمية الصفائح الصغيرة الصدئة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان. اتكأنا على سور قائم لنرقب حفارات البترول، وفجأة لاحظت أن دونيللي كان يحمل مسدساً في حزام معلق بكتفه تحت سترته. سألته:

- "لماذا تحمل هذا السلاح؟".

- "بسبب الأفاعي".

ومن الواضح أنه شعر بأن ضجة الحفارات كانت تغطي على الحديث، لأنه سارع باجتذابي بعيداً. ولاحظت أنه ظل ينظر إلى ساعته من حين إلى آخر سألته:

- "أأنت ذاهب إلى مكان بعينه؟".

توقف طوفان الكلام للحظة ثم قال: "كلا". وبدا أنه كان صادقاً. بدأت أشعر بالعطش، وكان توتره ينتقل إليّ بالتدريج. قلت:

- "إلى أين نحن ذاهبان؟".

- "أوه، ظننت أنه من المستحسن أن نسير مسافة ميل آخر أو نحو ذلك، ثم نعود إلى البيت".

وكانت كلمة "نسير" غير مناسبة على الإطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى أنني ابتسمت. وقلت، "ينبغي أن أفكر الآن في العودة". ولكنه تجاهل ملاحظتي، وإن كان قد عاد فنظر مرة أخرى إلى ساعته. كان الكلب الأصفر الضخم ينبح ويزمجر أمام دغلة كثيفة من الحشائش في إحدى الحفر الكبيرة. نظرت في الحفرة، فرأيت أفعى كبيرة سوداء تتلوى

حول نفسها وتفح، وحينما رآتني، انتصبت برأسها واقفة. وتوقعت من دونيللي أن يطلق عليها النار. ولكنه اكتفى بأن قال: "هيا بنا".

تسلقنا سوراً واطئاً فتخطيناه إلى طريق ضيق قذر. كانت هناك أبنية لمزرعة على بعد عدة مئات قليلة من الياردات، ورأيت صندوقاً للبريد أشار إلى أننا الآن نسير فوق أرض شخص آخر.

فجأة قال دونيللي:

- "يبدو أن هناك حريقاً".

- "أين؟".

أشار إلى حقل مجاور لمبنى المزرعة، ولكن كان كل ما استطعت أن أراه خيطاً واهناً من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش. ولكن بعد دقائق قليلة، كانت ألسنة اللهب تتصاعد بعنف في الهواء، والدخان الأسود يتكاثف ويتلوى مثل جني يوشك أن يتجسد خارجاً من قمقمه الصغير. فجأة كان دونيللي يجري ومسدسه يتأرجح ليرتطم بمؤخرته، والكلب الكبير يجري إلى جواره وقد لوى رأسه نحو سيده مثل جواد السباق الأصيل الصغير إذ يجري إلى جوار أمه. تسلقنا جداراً واطئاً آخر وعبرنا حقلاً تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثاً عن غذاء. وكان هناك أيضاً رجال يجرون من اتجاه مبنى المزرعة.

أدركت سريعاً بعدم جدوى جرينا بهذه الصورة، فقد أصبح واضحاً أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ومن المؤكد أن النار ما كان يمكن أن تخمد قبل وصولنا إليها. وهكذا خففت من سيري وبدأت أسير ببطء عبر الحقل، ويداي في جيبي. وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونيللي. ومن المؤكد أن الحريق كان ضخماً. كانت ألسنة اللهب من القوة بحيث كانت تحمل أجزاء كبيرة من أعواد القش المشتعلة التي بدأت تمطرنا بأجزائها الصغيرة المتساقطة، أو تطير مع الهواء في بقع رمادية. وكان من المستحيل أن يقترب أحد من الحظيرة المشتعلة لمسافة تقل عن خمسين ياردة، فقد كانت الحرارة فظيعة. انفجر شيء ما - ربما كان برميلاً - وسقط جزء من السقف. تصاعدت دفقات الشرر كما لو كانت نوعاً من الألعاب النارية. قلت شيئاً ما لدونيللي، ولكنه تجاهلني. نظرت إلى وجهه، ثم صرفت نظري بسرعة. كان فكه الأسفل بارزاً ومتصلباً، وكانت عيناه تحدقان في جمود كما لو

كانتا مصنوعتين من زجاج أزرق. كانت حالته أقرب ما تكون إلى من يقنع بطوفان الضجة والدخان الذي نشاهده أمامنا. وحتى عندما هب الدخان ناحيتنا، ودمعت عيناي منه، ظل هو يحدق كما لو كان منوماً. كانت قبضتاه متصلبتين داخل جيبي بنطلونه. كان هناك شيء ما في بروز وجهه جعلني أتحقق من أن عاطفة مروعة تجتاحه من الداخل. وبشكل ما، كان بوسعي أن أفهم هذه العاطفة. كانت النيران جليلة وهائلة، وكانت هناك سمة موسيقية متناغمة تجمع بين أصوات التشقق والحرارة وطوفان الشرر.

شعرت بأن بعض المتفرجين الآخرين كانوا ينظرون إلينا بشيء من النفور، كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان، ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلست فوقه. وبعد نصف ساعة، حينما لم يكن قد تبقى شيء من الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية، وصلت سيارة الإطفاء.

قال شخص ما من خلفي: "أتسمح بإخباري باسمك"؟ ووجدت شرطياً ضخم الجثة ينظر إليّ بطريقة تنم على الرفض الكامل. وكان رجلان يقفان خلفه، يحملان البنادق، وبدا عليهما أنهما من عمال المزرعة. أعطيته اسمي، وقلت أنني كنت مع الكولونيل دونيللي. عندها قال أكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطي:

- "أوه، إنك مع دونيللي، أليس كذلك؟"

دهشت للنغمة العدائية في صوته. تجهم الشرطي في وجهه، ثم قال لي:

- "أتسمح بأن تخبرني كم من الوقت ظللت هنا؟".

- "بعد بداية النيران بقليل. كنا نتمشى".

أدهشتني الأسئلة التالية، ولكنها بدت أكثر سهولة. سألني:

- "من أنت؟" وحينما وضحت له أنني أحاضر في جامعة "باتون روج" أصبحت لهجته أكثر تهذيباً. كان عقد قيامي بالمحاضرات في جيبي، وبطاقة هوية كنت أحملها في أمريكا على الدوام. وكنت على وشك أن أسأل إن كان من الأمور الخارجة على القانون أن أتوقف لأراقب حريق، ولكن بدا لي أن هذا السؤال لا جدوى منه. فحص الشرطي أوراقي، وشكرني بأدب، ثم سار بخطوات واسعة نحو دونيللي، يتبعه الرجلان. وقف الكلب الأصفر الضخم إلى

جوار دونيللي، وحينما اقترب منه الرجلان بدأ ينبح نباحاً خافتاً، كما لو كان يتهيأ للقفز. أمسك دونيللي بحزام رقبة كلبه. وكانت المحاورة قصيرة، ورأيته يشير نحوي. ثم جاء إليّ وهو يتثاءب وقال، "حسناً، أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعود".

كانت آلة الإطفاء قد راحت أخيراً تصب الماء فوق البقايا الملتهبة، وتصاعدت سحابات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم.

- "فيم كان كل هذا؟".

- "أوه، إنهم يشكون بشدة في الإغراب في هذه المنطقة".

- "ولكن ما كان بوسعهم أن يشكوا في أننا نحن الذين أشعلنا الحريق".

هز كتفيه ثم بدأ يصفر بفمه لحناً إيرلندياً. سار عائداً بنفس الخطوات الواسعة. ولكن بدا لي أنه لم يعد متوتراً. كان خلال القسم الأول من مسيرتنا يتكلم ويسير كإنسان آلي، أو مثل رجل تركز عقله بثبات على شيء آخر سوى ما يتحدث عنه. أما الآن فكان بشراً سوياً، مستريحاً. وحينما دخلنا المنزل، بالغ في سروره وبهجته، فوضع يده فوق كتفي وقال، "حسناً، أظن أننا نحن الاثنين نستحق مشروباً بارداً كبيراً".

جاء بزجاجات من الجعة الإنكليزية - من نوع "وورثينغتون". وبينما كنت أراقبه وهو يصب الجعة في الكوبين، ويترنم لنفسه بلحن ما، طرأ شيء ما، أبله، على رأسي. كان الإجهاد قد غمرني بإحساس من اللامبالاة. أطعت هذا الدافع الداخلي الغلاب وقلت،

- "لا أعتقد أن لك علاقة بهذه المسألة، أليس كذلك؟".

للحظة سألت نفسي إن كنت قد أسرفت في البوح بما شعرت به. ولكنه قدم إليّ كأس الجعة وهو يبتسم ابتسامة التلميذ البريئة السعيدة، وقال،

- "يا له من سؤال غريب. كيف كان يمكنني ذلك؟".

وفجأة، وبيقين لا يمكنني أن أشرح أسبابه، عرفت أنه كان على علاقة بالحريق. ربما كان السبب هو طريقة نطقه لإجابته على سؤالي، أو فهمه الفوري للسؤال. إن رجلاً بريئاً كان جديراً بأن يتردد قليلاً، وأن يتساءل إن كان قد فهم السؤال على النحو الصحيح.

جلست في المقعد ذي المسندين، وشربت الجعة باستغراق ونهم. وحينما نظرت إليه مرة أخرى كان ذلك اليقين قد اختفى. وكان شكي مبعثه أن الرجل كان معي طول اليوم... سمعته يقول،

- "أشرب في صحة إيزموند دونيللي".

شربت، وبدا لي هذا النخب دون مناسبة.

ذهب إلى المطبخ وسمعت أصوات إعداد الطعام. كان قد أدار مفتاح المذياع - وهذه علامة أخرى تدل على الارتياح. هبت نسمة باردة من خلال النافذة المفتوحة. وكلما أمعنت في التفكير في المسألة، كلما زاد ميلي إلى تصديق إنه كان على علم مسبق باشتعال النار في ذلك الموعد. كل شيء يتناسب تماماً مع هذا الافتراض، محاولاته بإقناعي بالبقاء، الحديث الميكانيكي الخالي من الرغبة الحقيقية، المسيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار، المسدس الذي حمله، والكلب الضخم الذي اصطحبه معه، تزايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من دغلة القش ونظراته المتلاحقة إلى ساعته، إن الرجل ولا شك مصاب بهوس الحرائق. ومن المحتمل أن يكون هو الذي أشعل النار بنفسه في مباني مزرعته. وربما كان هو الذي أحرق معمل تفريخ الدواجن أيضاً. وفجأة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي إنه من المحتمل أن يكون هو الذي أشعل الحريق الذي أعدم من أجله الزنجيان. ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ أكان شريكاً له هو من أشعل النار حينما اقتربنا من المبنى. إن في هذا خطراً عظيماً، بالتأكيد. إذن أكانت وسيلته أداة للاشتعال ذات توقيت. لابد أن هذا هو الجواب.

انتهيت من كأس الجعة وبدأت أشعر بالنعاس. صحوت حينما جاء بالطعام - بطاطس مشوية بالطريق الفرنسية وسجق من لحم البقر، صب لنفسه مزيداً من الجعة. وأكلت على صينية وضعتها فوق ركبتي، كان من الواضح أنه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت درايكولا في شيء، وهو حريص على سره المرعب وإنما بدا مثل رجل متعب أنهكته سنواته الخمسون، اعتاد أن يقسو على نفس بشدة ولم يكن يهتم بأن يتناول وجبات من الطعام الجيد. وعرفت أن من واجبي أن أدلي بشكوكي إلى شخص ما - ربما إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة لويزيانا. ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل هذا. لقد كان مضيفي. ولم يكن لي إلا أن آمل أن يقبض عليه في وقت قريب.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام. ثم قلت:

- "لقد كنت شديد العطف حقاً، ولكن لابد لي بالفعل من التفكير في العودة..."

كان يجمع الصحون فوق صينية، قال بطريقة عابرة:

- "ماذا؟ ترحل قبل أن ترى مخطوطة دونيللي؟".

كنت عاجزاً عن تصديق أنني سمعت بطريقة سليمة، سألته: "مخطوطة؟".

- "هذا هو ما جئت لأجله، أليس كذلك؟".

- أتملك حقاً شيئاً من مخطوطاته؟"

أومأ برأسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها. وحينما عاد، أخرج مفتاحاً من جيبه، وفتح الخزانة الخضراء في الركن، قال:

- "ليست هذه المذكرات للنشر، بالطبع".

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة، وعلى الرف السفلي عدد من المظاريف المنتفخة، تناول أحد تلك المظاريف وناولني إياه. كان يحتوي على ملف ضخم من الأوراق ربطت بخيط شمعي. كان الخط متميزاً شديد الخصوصية، ولكنه سهل القراءة إلى الدرجة الكافية:

"فالماوث، ٦ مارس، ١٧٨٧

الزجاجة تفرق. الرياح الغربية تهب برفق فوق المياه، والدخان يتصاعد بهدوء إلى سقف الحجرة، والبحارة يتثاءبون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة. لقد غادرني بيكفورد لكي يذهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل. وبقيت أنا هنا، يداعب النعاس جفوني وأنا في هذه الحالة من السكينة الهادئة، أرقب فتاتين شابتين، جميلتي التكوين، ترتديان برشاقة أنواعاً جميلة من الثياب المحلية، وتسيران على حافة البحر، يا لتلك المخلوقات اللذيذة

المجيدة! من الذي يستطيع أن يجادل فيما أكده زوزيموس البانوبوليتاني[1] من أن المرأة لم تنبت من نفس الجذر الذي أنبت الرجل، وإنما خلقت للناس من كوكب آخر بعيد، ثم سمح لها بأن تعيش في كوكبنا هذا، كوكب الذكور، كما لو كانت خاطرة من خطرت الخيال! أليست المرأة هي لغز الخلق الجليل، الحضور المرئي للسحر في هذا العالم المتحلل البيوطي؟[2]

قال جودوين أن أسقف كامباري الشهير كان أفضل وأكثر قيمة من خادمته، ولكنني لست على استعداد لأن أبادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الأساقفة. كانت الغادة - التي تسمى كلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح، وقال بيكفورد - الذي لا يروق لذوقه نوعها - أن للفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي. وقلت أنها مؤخرة مستديرة بأكثر مما يمكن لفتى، على الأقل، إذا كان لي أن أحكم بناء على النهد الصغير الذي كان بوسعي أن أراه حينما انحنت على المائدة لكي تصب الزبد الذائب على قطعة اللحم أمامي. وحينما اقتربت مني همست لها بأنني على استعداد لأن أتنازل عن تاج مملكة في مقابل قبلة منها، فضحكت واحمر وجهها. ولم أكن قد أوليتها إلا القليل من الاهتمام حتى تحدث بيكفورد عنها. ولكن تركزت الآن أفكاري عليها، وتسلل إله المتعة المشاكس الصغير إلى صدري وجعل قلبي وسادة لرأسه. في كل مرة كانت تدخل فيها إلى الحجرة كنت أنظر إليها كما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة. ومن المؤكد أنه لابد قد لاح لي أن الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل أن أتفحص مفاتنها فحصاً أكثر دقة. ورغم أنني أعتقد أنني أتمتع بقدر من صفات الأنوثة أقل مما يتمتع به بيكفورد،

(١) زوزيموس البانوبوليتاني: مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الإمبراطور ثيو ديسيوس الثاني وألف عدداً من الكتب عن انهيار روما من سيطرة أوغسطس حتى عام ٤١٠م متجاهلاً الفترة من حكم بروبروس حتى عام ٢٠٢ م. لم يكن كتابه الأخير قد اكتمل حتى عام ٤٢٥م. واعتمد في كتابته على مصادر موثوق بها مثل المؤرخين ديكسيبوس وأونابيوس ولم يكن عمله يخلو من أحكامه التاريخية ولا من الحس الأسلوبي، وإن لم يكن دقيقاً في ذكر التواريخ وكثيراً ما تناول عصوراً طويلة بطريقة عابرة.

(٢) البيوطي نسبة إلى "بيوطيا" مملكة مدينة أسبرطة الإغريقية القديمة التي كانت مهنة رجالها الأساسية هي الزراعة والحرب.

فإنني مدين لفضول باندورا[1] المهلك بقدر يستطيع أن يدفعني إلى تجاهل كل الاعتبارات الأخرى. وحينما اقتربت مني لكي تعيد ملء كاسي، مددت ذراعي من حولها وسمحت ليدي بأن تستقر فوق فخذها، عارفاً بأنها إذا اعترضت على هذه الخطوة، فإننا لن نتقدم إلى ما هو أبعد منها. ولكنها وقفت بهدوء، مثل جواد أحسن تدريبه. ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر، وسحبت يدي. ولم تتح لي فرصة أخرى لملاطفتها خلال تناول الطعام. ولكنني عندما غادرت الحجرة، دسست في يدها جنيها ذهبياً، وهمست لها: "هذا لك يا عزيزتي. وهناك خمسة أخرى تنتظرك إذا أنت جئت إلى غرفتي حينما يأوي كل من بالبيت إلى فراشه". ولم تقل شيئاً وهي تخفض عينيها، ولكنها أخذت النقود. وقال لي بيكفورد فيما بعد أنه قد اكتشف أنها متزوجة من صياد، وأنني ربما أكون قد أضعت نقودي سدى. فأجبته بأن النقود التي تعطى لفتاة جميلة لا تضيع أبداً سدى، إذا ما كانت فاضلة، لأن هذه النقود لابد أن تعتبر قرباناً يقدم إلى افروديت، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الثناء، حينما يطيب لها، وفي أي وقت تشاء.

لم تمضي على مقولة بيكفورد بأني أضعت نقودي سوى عدة ساعات حتى تهدمت تماماً، وثبت بالدليل على خطأ تصور بيكفورد، لأن العروس الجميلة انزلقت تحت غطائي في الساعة الثالثة من الصباح، بعد أن كنت قد تخليت عن كل أمل، ولم تنكسر عليّ شيئاً بعد ذلك. سألتها هامساً عما كان من أمر زوجها. فقالت أنه كان قد خرج مع أسطول الصيد. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً من التيل الخشن، سرعان ما رفعته إلى ما فوق رقبتها. قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة، لأنني ما كنت أبداً أطيق صبراً مع الأصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التقدير والحنان. يضاف إلى هذا، إني عرفت أن الفتاة كانت هبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر[2]، وأنها تستحق قسماً من الصلوات الواجبة لقاء عطيتها

(١) باندورا - في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة حواء، أم البشر التي خلقها زيوس كبير الآلهة كي يفسد حياة الإنسان (الرجل) الذي خلقه بروميثيوس بأن أرسل معها صندوقاً هدية للرجل وأمرها ألا تفتحه. ولكن فضولها (الذي زرعه فيها زيوس) دفعها إلى فتح الصندوق فانطلقت منه خفافيش الآلام والعذابات مع فراشة "الأمل" البيضاء الوحيدة.

(٢) هي "فينوس" أو "افروديت" ربة الحب والجمال والزواج في الميثولوجيا اليونانية التي خلقها أبوها زيوس من زبد البحر وخرجت من صدفة لؤلؤة في البحر قرب قبرص.

الثمينة. وهكذا فقد لاطفت أذنيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بأن تتحدث إلى نهديها، بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القطيفية للمعبد نفسه. وفي ذلك الحين، كانت تقلصات ردفيها تنطق بالرغبة، وحينذاك، نقلت لساني إلى مستقره الصحيح في فمها، وأخذتها بنعومة تسلل الرجل إلى فراشه (..) وظللت أقبل شفتيها كما لو كنت أعوض ما فات من عمر بأكمله من الإمساك والزهد. وقد صعب عليّ أن أصدق أن هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم المشوية أمامي ومنحتني لمحة خاطفة من حلمتين لاحتا لي وكأنما تشكلتا منذ لحظة وجيزة. ورغم أن ردفيها كانا ساكنين الآن - هذان الردفان اللذان كانا مستديرين بأكثر مما ينبغي لغلام - فقد ارتعش جوادي في داخلها، كما لو كان عاجزاً عن أن يصدق أنه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ.. ومضينا في رياضتنا حتى انبلج الصبح حينما غادرتني. رقدت في مكاني ورحت أفكر في المناقشة التي دارت بيني وبين بيكفورد في العربة بالأمس: حول الأسلوب الإغريقي في الحب أكثر روحانية وجلالاً من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء. وفي خلال طوفان إخلاصي كان بوسعي أن أتمنى لبيكفورد صحبة زوج كلارا - صياد السمك - على أن يحمله معه في عربته ذات الجياد الأربعة. ولكن أما كان من الممكن لمثل هذا اللقاء أن يكون لقاء نافر العروق مشبعاً بالشهوة، كما لو كان أنداد الفرسان يتصادمون بحراب من اللحم؟ إن مثل هذا اللقاء قد يكون جزءاً من عالم سيد الشمس المتين العضلات[1]، وليس جزءاً من عالم الماء السحري الأخضر الذي تحكمه أرتميس[2].

كنت أقرأ ناسياً وجود دونيللي. وقد جعلتني ملاحظته عن أن هذا المخطوط لم يكن للنشر، جعلتني أقيد ما شعرت به من توتر في إطار ضيق. ولكنني شعرت بأنني قد مارست مثل ذلك من قبل، في لحظات حرجة أخرى من حياتي (مثلاً حينما قابلت أوستين في معرض أعمال دياجليف). كان شعوري أن يكون إحساساً بتكرار مشهد كنت قد جربته من قبل.

(١) هو هيليوس (أبوللو) رب الشمس والفنون، عالمه عالم الحساسية والانسجام الكوني.

(٢) أرتميس ربة القمر، أخت هيليوس أو أبوللو واسمها الروماني ديانا وهي ربة الصيد والغابة المجللة بالضباب، عالمها هو الليل والضباب، عذراء أبدية لم تنجح في أي حب رغم جمالها.

كان دونيللي قد عاد إلى زجاجة الشراب. ورفضت الكأس التي عرضها علي منه، ولكنني قبلت كوباً من جعة البادوايزر. وحينما بلغت نهاية المشهد، وضعت المخطوطة المجلدة على المائدة. سألته:

- "أنت واثق تماماً من انك لن تكون راغباً في نشر هذا المجلد؟".

- "أظن هذا".

قلت: "سيجعل هذا الموقف من المشروع كله مجرد هراء. إنني أفهم الآن ما عنيته من أن نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير. ولكنني لا أتبين كيف استطيع أن أوصي فليشر بأن ينشر نسخته. سيكون هذا نوعاً من العبث".

- "أوافقك على هذا".

- أليست هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق؟".

أشعل سيجاراً جديداً. قال:

- "ستغضب الأسرة للغاية إذا نشرت هذه الأوراق".

- "ولكنك قلت انك لست على علاقة طيبة بالأسرة".

- "كلا. لست على علاقة طيبة بهم. ولكن لا أريد أن يكون هذا سبباً لإثارتهم.

لم أستطع احتمال هذا الموقف، خاصة أنه جاء من نفس الرجل الذي أحرق مخزن شخص آخر منذ وقت قصير، ولكني تمالكت نفسي واستطعت جاهداً أن أغير أسلوب معالجتي للموقف، وسألته كيف وصلت الأوراق إلى حوزته. ولاح عليه أنه يفكر في الإجابة على السؤال للحظة، ثم قال:

- "أجل، أعتقد أنه لا ضرر من إخبارك بهذا. حينما قام دونيللي بزيارة روسو في نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونيللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - أهدى

إليه مقالاً، مكتوباً بالفرنسية، يرفض فيه فلسفة هيوم[1] ودالامبير[2] وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه، في كتاب جون مورلي عن "حياة روسو". وأصبح دونيللي وروسو صديقين، رغم فارق السن بينهما. ولكن روسو كان يجتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته. فقد كان كل القساوسة في نيوشاتل يملأون عظاتهم بالهجوم عليه، وجرى اتهامه بأنه سحر رجلاً كان قد مات بالتسمم الكحولي. وذات صباح، اكتشف دونيللي أن شخصاً ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه - ومن المؤكد أن الصخرة لو سقطت عليه لقتلته. وأزاح إيزموند الصخرة، وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدواً بارزاً لروسو، وكان أيضاً الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العضلية بأن يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الأول دون معونة من أحد. وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظم ترقوته. ولكن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بالنسبة لروسو المسكين ومن كل الوجوه، فقد كان عليه أن يغادر البلدة على أي حال - وكان الناس قد وصلوا إلى مرحلة قذفه بالأحجار في الشوارع. وبعد ذلك بعامين، حينما كان روسو يعيش في لندن كضيف على ديفيد هيوم، سأله دونيللي عما كان من أمر مخطوطته، فقال روسو أنه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس، وأنه سيعيدها حينما يعود إلى هناك. ولكنه لم يفعل ذلك أبداً.

"وقد حدث بعد الحرب بفترة قصيرة، إن كنت مقيماً في مدينة لوزان وتعرفت ببائع كتب يدعى كلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل. وأخبرته - بقصة مخطوطة مقال دونيللي فقال لي انه قد يكون قادراً على مساعدتي. وبعد ستة شهور، كتب إليّ خطاباً وعرض عليّ أن يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل إلى حد كبير - وهذا ما ينبغي على أن أضيفه هنا. وأظن انه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله، في

(١) ديفيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ. مؤسس النزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة الحديثة، عرف عنه تقييده للمعرفة الإنسانية بممارسة التجربة والانطباعات ممارسة جزئية وفردية، وكان ذا تأثير بالغ الخطورة في الفكر الميتافيزيقي الحديث.

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧١٧-١٧٨٣ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي، اشترك مع ديدرو في تحرير "دائرة المعارف" وكان من مؤسسي النزعة المادية العلمية الحديثة، المتحمسة بالفهم التاريخي والجدلي لحركة الكون والمجتمع.

صندوق قديم للأشياء المهملة والتالفة وقد عثر أيضاً هناك على كراسة لمذكرات الرحلات كان دونيللي قد كتبها.

"وبعد ذلك بعدة سنوات، كتب إلي كلوزو ليسألني إن كنت ما أزال مهتماً بمخطوطات دونيللي، وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة أخرى في جنيف. وكنت أعرف أن إيزموند قد استأجر منزلاً في جنيف فأمضى هناك الجانب الأكبر من العشرين عاماً الأخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائداً إلى إيرلندا قبل عام واحد من موته في عام ١٨٣٠، وأخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية. وليست لدي أية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف عند رحيله عنها، رغم أنني أملك بالفعل نظرية لتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيء من الأهمية. كان بايرون قد زار إيزموند في جنيف - وكان قد التقى به عن طريق شريدان. وبعد هذه الزيارة ببضعة أسابيع، كان بايرون يكتب لصديقه "هوب هاوز" من مدينة بيزا الإيطالية، ليقول له أنه يقرأ الآن "أكثر المخطوطات التي رآها عهراً وتشويقاً بقلم إيزموند العجوز". وأنا أفترض أن "إيزموند" المذكور في رسالة بايرون كان هو دونيللي - وفي هذه الحالة، يكون بايرون قد استعار المخطوطة من إيزموند دونيللي ونسي أن يعيدها".

كان علي أن أعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونيللي قصته، ورغم أنه كان قد شرب معظم زجاجته الثانية من الشراب، فقد كان يتحدث ويتناقش مثل كاهن محترف يتناقش في موضوع بعث الجسد والروح بعد الموت.

ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت قد بدأت أشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله. وقد أقول أنني رفضت أن تكون لدونيللي مثل هذه السيطرة علي. وكنت بالفعل قد قررت أن أعيد إلى فليشر مبلغ الخمسة آلاف دولار وأن أنسى الموضوع كله، وهكذا لم أهتم أدنى اهتمام بما إذا كان من الممكن إقناع دونيللي بأن يغير رأيه أم لا. وحالما قررت ذلك لم أعد أهتم، شعرت بالحرية واللامبالاة. وقررت أنه مهما حدث، فإنني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعة فأعود إلى فندقي الصغير. سألت دونيللي عن كيفية بداية اهتمامه بجده الأول. فقال أنه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة في بيت الأسرة في باللي كاهان. سألته كم من السنوات من عمره قضاها هناك.

- "سنوات قليلة جداً. لقد انتقلنا إلى دبلن حينما كنت في الخامسة من عمري، ورحلنا إلى اللايبو وأنا في التاسعة".

- "هل فكرت في كتابة يوميات لرحلاتك؟".

طرحت هذا السؤال من دون أدنى اهتمام حقيقي، فقد كان السؤال لمجرد شغل الوقت بأي شيء، مهما يكن. وكانت النتيجة طوفاناً من البوح والكشف عن الذات لا يكاد يصدق.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

- "لم أداوم أبداً على كتابة يومياتي، لأنه كان هناك الكثير جداً من الأشياء التي لم أجرؤ أبداً على تسجيلها".

- "ولكن هذا السبب لم يمنع إيزموند من كتابة يومياته".

ابتسم ابتسامة غريبة، مغتصبة، وقال:

- "كانت حياة إيزموند الجنسية من النوع الذي كان بوسعه أن يكتب عنه. أما حياتي أنا الجنسية فليست كذلك".

ظننت أنه كان يشير إلى إحراق مخزن القش، أو مات بتعاطف وقلت أنني أدركت ما يعنيه وفهمته. فقال بنوع من التخابث الذاتي المجهد:

- "أشك في أنك قد فهمت ما عنيته تماماً. حينما كنت في الثامنة من عمري، كانت لدينا مربية اعتادت أن تضربنا على مؤخرتنا وأن تعبث بأعضائنا الجنسية".

-" من تعني بصيغة الجمع هذه؟".

- "أخي إيزموند، وأنا. وكان إيزموند يكبرني عام واحد. كانت هذه الفتاة اسكتلندية من مدينة كلاسكو - واحدة من أولئك الخادمات ذوات الأجساد الضخمة والصحة الجيدة. لقد أحبها كل منا إلى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها. كنا نتبعها أينما ذهبت مثل كلاب الراعي. وذات يوم كنا نجري ويطارد أحدنا الآخر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من البورسلين الثمين، ووقعت المزهرية وتحطمت. كان والدانا

بالخارج، ورجونا بريدجيت ألا تخبرهما بالأمر. فوافقت على أن تقوم بإخفاء الشظايا، ولكن بشرط أن تعاقبنا هي بنفسها، فابتهجنا كلانا، لهذه الفكرة. فأمرتنا بأن نصعد إلى حجرتنا وأن يخلع كل منا بنطلونه. وحينما عادت بالعصا كنا عاريين بالفعل. جلست على السرير وأمرت كلاً منا بأن ينحني على ركبتها، ثم ضربت كلاً منا عشر ضربات ردفية".

- "هل أثارك هذا جنسياً؟"

- "ليس بصورة حقيقية، على الأقل لم تثرني العقوبة البدنية. أما ما أثارني فهو كوني عارياً أضغط بجسدي على ركبتها".

لن أحاول أن أسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها، لأنه راح يرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات أهمية حقيقية. وكان ما قاله، أنه وأخيه اتفقا على أنهما استمتعا كثيراً بذلك العقاب، وأنهما قررا أن تبقى تعاقبهما بريدجيت لمرات عديدة، ولذا عندما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية، تعمدا أن يكسرا شيئاً ما، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة أخرى. كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الملابس القصيرة. فكان يستطيع أن يضغط بعضوه التناسلي على ركبتها أثناء ضربها له - وقال أن إحساسه بهذا الوضع كان بالغ الحد لدرجة أنه كان يغشى عليه بعدها. وفي هذه المرة، رأت بريدجيت أن عضوه كان منتصباً وهو يبتعد عنها، فمدت يدها إلى أسفل ولمسته... وقال دونيللي، أنه منذ تلك اللحظة، لم يكن يفكر - هو وأخوه - في أي شيء آخر إلا في كيفية إقناعها بضربهما مرة أخرى. وبعد أسبوع أو نحوه، لم يعد من الضروري أن يحطما شيئاً لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات. فحالما كانوا ينفردون في المنزل، كان - هو وأخوه - يقترح أن يلعبوا لعبة المدرسة، فتقوم هي بدور المدرسة، ويجيبان على أسئلتها إجابات خاطئة عامدين، فتأمرهما بعد قليل بالتوجه إلى غرفتهما. وهناك يخلعان ملابسهما، ويقومون جميعاً بالاستعراض كاملاً مرة بعد أخرى..

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغا التاسعة، فقد نقل والده إلى الملايو، حيث كان يعمل مديراً لأحد مناجم الصفيح. وحينما كانوا بعيداً عن إنكلترا سمعوا بأن بريدجيت قد تزوجت، فغمرهما اليأس، وكان كل منهما قد راهن الآخر على أنه سوف يتزوجها عندما يكبر.

بعد ذلك بعامين، كانا قد نسيا ذكرى بريدجيت أو كادا. وفي أحد الأيام، سألتهما والدتهما عن رأيهما فيما إذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة أخرى. كان زوجها قد تركها، وكانت هي تريد أن تبتعد عن اسكتلندا. ولحقت الفتاة بهم حينما كانوا يقضون إحدى إجازاتهم في لندن، ثم عادت معهم إلى الملايو. وقال دونيللي أن جسدها كان قد ازداد ضخامة وثقلاً، وأن كلاً منهما قد وجدها أكثر جاذبية مما كانت من قبل. وحالما أتيحت الفرصة للانفراد بها في المنزل، سألها شقيقه إن كان ستضربهما إن أساءا سلوكهما فقالت: "بالطبع" وقال دونيللي أنهما اهتزا من البهجة لهذه الإجابة.

وطوال الأسابيع الأولى بعد عودتهم إلى الملايو، لم يحدث شيء. فقد كان لديهم خدم من الأهالي، وخشيت هي أن تبتذل نفسها أمامهم. ولكن الطقس الحار والافتقار إلى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلاها تصرف النظر عن حرصها.

كان الرجال من الأهالي يتجولون عراة تقريباً فزعمت أن تنشئتها كانت تنشئة دينية وأنها تشعر بأن هذا الوضع يصدم مشاعرها. وكان الصبيان يستمتعان بإغاظتها وأحياناً بـ "قرصها" فكانت تصفعهما. وكان بوسعهما أن يشعرا من تزايد قوة الضربات أنها كانت متنفساً لشيء آخر إلى جانب الضيق. وحدث أن رأتهما عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام، فصدرت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونيللي الجنسي. وثارت غيرة إيزموند، وفي تلك الليلة، تعارك هو وشقيقه عراكاً مريراً، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما.

وذات يوم، ضبطتهما مختبئين في كوخ في الحديقة يدخنان السجائر، وقالت لهما أنها سوف تعاقبهما على الفور. وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل. وكان من المستحيل عملياً أن يخلعا كل ملابسهما، فأنزلا بنطلونهما فقط وضغطا نفسيهما على ركبتيها. وقال أنه حينما انتهت هي من "العقوبة" إن كل منهم قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة. وكان هو واثقاً من أنها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم أنه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت).

وبعد ذلك بعدة أيام، صادف أن اصطحبت والدته شقيقه إيزموند إلى البلدة القريبة لتشتري له بعض الملابس. فصعد هو إلى حجرة بريدجيت ووجدها خالية، ففتح خزانة ملابسها، وعثر على الثوب الذي اعتادت أن ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلن. وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة. خلع ملابسه كلها، وفرد الثوب على الفراش، ورقد

فوقه، وراح يتشمم رائحته المتميزة. وفجأة سمع صفقة الباب، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي. وذهبت هي عبر المنزل إلى المطبخ. وأراد هو أن تراه راقداً فوق ثوبها، فقلب شيئاً ما وأسقطه على الأرض بصوت مرتفع. هتفت، "من هناك"؟ ثم صعدت إلى الطابق العلوي. تظاهر بأنه نائم، وفتح عينيه متظاهراً بأنه جفل، أمامها وهي تحدق فيه. وكانت في حالة شديد من الضيق كونه عبث بخزانة ملابسها، ونظرا إلى ما بداخله. وقالت، "سيكون علي أن أعاقبك - قم". وحتى قبل أن ينحني فوق ركبتها كان عضوه قد انتصب، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك. التقطت فرشاة شعرها وأمرته بأن ينحني فوق ركبتها. وفي هذه المرة، لاحظ أن ركبتيها كانتا متباعدتين أكثر من المعتاد، وأنه عن طريق الضغط بحذر على أعلى ثوبها، يستطيع أن يجعل الثوب يرتفع إلى فخذها. وحاول أن يحدق إلى أعلى ساقيها، ولكنهما كانا يواجهان الباب، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء. وفجأة قالت:

- "هذا المكان ليس مرتفعاً بما يكفي. تحرك حول الفراش، إلى الجانب الآخر".

ثم انتقلت إلى حافة الفراش الأخرى - المواجهة للنافذة. انحنى فوقها مرة أخرى، ودون مقدمات جذب ثوبها إلى أعلى. وفتحت هي ركبتيها أكثر، ورفعت إحداهما مسندة إياها على مسند للأقدام، واستطاع أن يرى كل شيء إلى قمة فخذيها. كانت ترتدي سروالاً داخلياً غير محكم له فتحات سيقان واسعتان، ومع انفراج ساقيها لم يكن "حجر" السروال يغطي شيئاً. وبدأ يحرك عضوه المنتصب على ركبتها وهي تضربه. ثم غيرت وضعها، وبدأت يدها الأخرى تحتك بعضوه، ثم أطبقت يدها حوله ببطء. وفجأة بدأت تضربه بغضب، وتخبط بكل ما تملك من قوة، وفي نفس الوقت شعر بلذة حادة بين فخذيه جعلته يشعر كما لو كان سيغشى عليه. وكاد يسقط بين ساقيها، بينما استمرت هي تضربه، وأخيراً ارتجفت وألقت بفرشاة الشعر. قالت، "أوه. لقد جعلتني أشعر بالمرض". ثم رقدت على ظهرها فوق الفراش، وقد أغمضت عينيها. ورقد هو الآخر على الفراش. وقال أنهما كانا مجهدين، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم. وحينما سمعا صوت الأم، وقد عادت إلى المنزل، أسرع إلى حجرته. وقال لشقيقه فيما بعد، "سوف أتزوج بريدجيت وأجعلها تضربني كل يوم".

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث، وفي خلال هذه الفترة، خطبت بريدجيت إلى مهندس من مهندسي المناجم، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية. ولكنها ظلت تؤجل زواجها منه لأنها قالت أن مسز دونيللي لن تستطيع أن تستريح دون معونتها في المنزل، ولكن السبب الحقيقي هو أنها أرادت أن تظل قريبة من الشقيقين وأن تستمر في عمليات الضرب. وأخيراً، فاز المهندس، فتزوجته، وانتقلت معه إلى أمريكا الجنوبية.

ولمدة أسبوع أو نحوه، شعر الشقيقان بالوحدة، وبأنهما مهجوران. ثم حدث ذات يوم أن قال إيزموند، "تظاهر أنت بأنك بريدجيت". ورقد على وجهه وفق السرير، وراح أخوه يضربه بحزام جلدي. وبلغ إيزموند نشوته. وبعد ذلك، تسلم إيزموند الحزام، وتخيل دونيللي أن بريدجيت هي التي تضربه، وبلغ نشوته هو الآخر.

وحينما عادت الأسرة إلى إنكلترا، وكان دونيللي في الرابعة عشرة، أرسل هو وأخوه إلى مدرسة عامة صغيرة. وأصبح دونيللي تابعاً لأحد التلاميذ الصغار Fug (حسب الأوضاع التي كانت سائدة في المدارس الإنكليزية)، أما إيزموند، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعاً. ولم يكن دونيللي تابعاً مرضياً حتى إنه كان يستمتع بأن يضرب مرة كل أسبوع. وذات يوم، وبعد أن ضربه التلميذ المكلف بحفظ النظام، جعله هذا التلميذ يخلع بنطلونه ثم اغتصبه. ولما كانت مؤخرته ما تزال تؤلمه من الضرب، فإن التجربة كانت مؤلمة ألماً مزدوجاً، واستمتع بها دونيللي استمتاعاً يفوق كل متعة شعر بها من قبل. ولكنه اكتشف أن اللواط دون الضرب المصاحب للعملية، لم يعطه أية لذة.

وليس من الضروري هنا أن أقول إنني لم أرحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسي، بل إنني قبلت مزيداً من الشراب. وظل دونيللي يتحدث ويتحدث، شارحاً بالتفصيل كل تجاربه في كل مبغى زاره في أرجاء العالم. وكان الرجل مصاباً بالكثير من العاهات النفسية والكوابح والثوابت حتى أن الأمر ليتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - كان متعلقاً بشعر النساء، وأحذية النساء الجلدية الرقيقة، وقمصان التنس، أحذية المطر ذات العنق الطويل والمصنوعة من المطاط والمعاطف الواقية من المطر، والبنادق، والسياط، والعصي، وشفرات الحلاقة.. وفي حوالي منتصف الليل، أطلعني على مجموعته من البنادق، والصور الفاضحة، والسياط والعصي. وناولني سوطاً مصنوعاً من تسعة من ذيول

القطط وسألني أن أجربه. فرفعت بالسوط في الهواء، فأغمض عينيه كما لو كان يصغي إلى موسيقى ممتعة، ثم قال بلهجة حالمة:

-"أتحب أن تستخدمه؟".

-"على جسدك أنت؟". كنت قد خمنت أن هذا هو ما يسعى إليه.

-"أجل".

-"كلا، سأشعر بالبلاهة".

قبض على ذراعي وقال:

-"حتى ولا في مقابل المخطوطة؟".

-"أتسمح لي بأخذها في هذه الحالة؟".

-"يمكنك أن تنسخها ثم تعيدها إلي".

-"وهو كذلك".

أصبح صوته نوعاً من "النحنحة" وهو يقول:

-"تعال إلى الداخل، هناك".

دخلنا الحجرة الأخرى، لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم، من طراز قديم، لشخصين، مزود بوسادة كبيرة لاحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحاً من الخشب. وفي كل ركن من أركان الحجرة علقت أحزمة جلدية تنتهي إلى قابضات يمكن أن تمسك بالأيدي.

خلع ملابسه ببطء، ودون ما علامة توحي بالحرج. لاحظت أن الستائر على النوافذ كانت ثقيلة جداً. وعرفت الآن السبب الذي جعل دونيللي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزرعته. ففي مبنى خشبي من هذا النوع، كان صوت الضربات حتماً سيسمع ومن مسافة بعيدة، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة، حيث يمكن أن يسمع صوت كروان صغير على بعد ميل كامل.

رقد على الفراش عارياً، ووجه إلى أسفل، ونظرت إليه نظرة مباشرة طويلة لأول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة. كان ظهره، وردفاه، وفخذاه تحمل أكثر قليلاً من مجرد آثار وندبا السياط. بدا جلده في هذه الأجزاء، كما لو كان طريقاً غطاه الصقيع ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهاباً عدة مرات. وكان من المدهش أن يستطيع أن يشعر بشيء ما تحت كل هذه الندوب القديمة، ذات الجلد المدبوغ.

كان عليّ أن أحكم القوابض فوق معصميه، ثم فوق كاحليه، وأن أشد الأحزمة الجلدية شداً محكماً حتى يتمدد جسده تماماً. في البداية تركت الأحزمة الجلدية دون إحكام، ولكنه صرخ بي نافذ الصبر "أكثر إحكاماً". وبعد ذلك، أدار وجهه ناحيتي، مغمض العينين تحشرج صوته وهو يقول: "الآن".

كنت أعرف أنه لا فائدة من التراجع. وكان ما تساءلته عنه في داخلي هو ما إذا كان باستطاعتي أن أستمر في ضربه حتى أجعله يسألني أن أكف مكتفياً بما ناله من الضربات. وهكذا رفعت الشيء الذي أعطاني إياه فوق رأسي - وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي - ثم هويت عليه بأقصى ما أملكه من القوة. أصدر السوط هسيساً مثل صاروخ ينطلق. ودهشت حينما رأيت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل. ترددت للحظة، فقال من بين أسنانه المطبقة: "استمر، استمر، لا تتوقف".

وهكذا، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة، هويت مرة أخرى عليه بكل قوتي، ولو أنني كنت أنوي إيذاءه لكان هذا مستحيلاً بالنسبة لي. ولكن كان من الواضح أنه يحصل على أكثر ما يمكن من البهجة المريحة النشوانة من هذا الضرب. انزعجت حينما بدأ الدم يتصبب من الندبات التي تركها السوط، كما بدأت قطرات الدم تصيبني في وجهي مع طرف السوط كلما رفعته إلى أعلى. ولكنني كلما توقفت كان يصيح في أذني: "أرجوك". وعند لحظة معينة قال: "كف". وظننت أنه قد نال كفايته، ولكنه قال: "والآن، العصا". وكان عليّ أن أبحث عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد، وأن أضربه بها على ردفيه وساقيه. وفي البداية، حاولت أن أجعلها "تفرقع" بأن أضرب بكل ما أملك من القوة - وكانت ذراعي قد بدأت تكل - ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف. فإنها قد انحنت فقط. وبعد عشر دقائق، جلست متهاوياً على مقعد خشبي وقلت:

"لا فائدة، يجب أن أستريح".

ورقد هو في مكانه ساكناً، وتبينت انه كان قد فقد الوعي. وحاولت ان اهزه من كتفه، ولكن أجفانه لم تصدر اية حركة. وسررت عندما رأيت انه ما زال يتنفس. فلو انه مات، لكان من الصعب عليّ أن افسر موقفي بأنني كنت افعل ما فعلته في سبيل قضية الأدب.

عدت إلى الحجرة الأخرى وصببت لنفسي قدحاً من البيرة، ثم ذهبت فأخذت مفتاح الخزانة من جيب بنطلونه وفتحت الخزانة. لم اجد اي شيء ذا اهمية يتعلق بدونيللي الكبير، سوى بعض الظاريف التي لا تحتوي إلا على بعض الخطابات والأوراق المختلفة. كان هناك صندوق في الجزء العلوي من الخزنة، اخذته ونظرت ما فيه. اشار صليب احمر على احد جوانبه إلى انه صندوق للمواد الطبية، وعند النظرة الأولى اكدت محتوياه تلك الإشارة. لفافات كبيرة من الضمادات، وعلبة معدنية تحتوي على اشرطة لاحقة معقمة، وزجاجات من المواد المعقمة والمخففة. خطرت في ذهني فكرة انه إذا استطاع دونيللي أن يحصل على من يضربه مرة واحدة كل عام فقط، لكان في حاجة إلى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة. وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة، لاحظت ان هناك بعض الأشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري، كان هناك عدد من الأنابيب الخضراء، وقد الصق عند كل من أطرافها غطاء مستدير صغير تدلت منه أسلاك تعرفت عليها انا نفسي باعتبارها فتائل تفجير، ثم كانت هناك زجاجة من مسحوق بني اللون خشنة القوام. فحصت أحد الأنابيب، وكان مصنوعاً من البلاستيك، ذا غطاء من البلاستيك عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه. نزعت الغطاءين، وحاولت أن انظر من احد اطرافه كالنظر في التليسكوب، ولكنه كان مسدوداً عند منتصفه من الداخل، كان الأنبوب مقسماً إلى جزئين وتحت ضوء المصباح المعلق في السقف، لاح لي أن السدادة التي تقسم الأنبوب كانت مصنوعة من المعدن.

فتحت زجاجة المسحوق وشممت ما فيها. كانت لها رائحة متميزة، ولكن لم اتعرف عليها. تناولت زجاجة اخرى تحتوي على سائل اصفر، وازحت غطاءها الزجاجي. تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في ايام مدرستي، حامض مركز، إما أن يكون حامض الهيدروكلوريك أو حامض النيتريك. عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم القبلات - ونظرت إلى دونيللي في غرفته حين مررت على بابها - فصببت كمية ضئيلة من

للسحوق البني في الوعاء. ثم صببت بحذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الآخر من الوعاء نفسه، حتى تكونت منه بحيرة صغيرة. رفعت جانب الوعاء بحذر حتى سال الحامض عبره. وحالما التقى الحامض بالمسحوق، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي، وقفزت انا إلى الخلف. تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة، وحرق مكانه. اندفعت إلى المطبخ ودعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش. وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الآخر للحجرة ويندفع إلى الممر الموصل للمطبخ. وكان المسحوق في الوعاء ما يزال يطقطق ويصدر حفيفاً مسموعاً، وتنطلق منه شرارات ملتهبة. فتحت الباب الأمامي للمنزل، ثم مددت يدي بحذر إلى الوعاء. وحينما لمسته انشق إلى نصفين. ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت — وكنت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من المسحوق. وضعت نصفي الوعاء في صحيفة قديمة، وأخذتهما إلى الخارج، كانا ما يزالان ساخنين جداً لدرجة أن اوراق الصحيفة اسودت وتجعدت. وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان اكثر من عشر دقائق بعد أن تركت الباب مفتوحاً.

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش. كانت الطريق بسيطة وتنبت نوعاً من الخداع والمكر كان المفروض أن يوضع المسحوق البني في احد قسمي الأنبوب، ثم يحمل الحامض إلى موقع الحريق في زجاجة صغيرة - وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق. ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الآخر من الأنبوب، على أن يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين المتصاعد من الحامض بالخروج، وبعد ذلك يوضع الأنبوب بحرص على طرف الجزء المحتوي على المسحوق، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعاً إلى اعلى، في وسط الحظيرة او مخزن القش. ومن المفترض ان دونيللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأكل الحامض الحاجز المعدني الفاصل بين جزئي الأنبوب. وإذا خفف الحامض قليلاً لأمكن ان تستغرق عملية التآكل ما يقرب من اربع وعشرين ساعة. وربما كان قد وضع قنبلة الحامض الصغيرة في مخزن القش في الساعات المظلمة الباكرة من صباح يوم الأحد. فلا عجب إن بدا عليه السرور وهو يراقب النار. فقد كانت النيران انتصاراً للتوقيت الدقيق.

اعدت الصندوق للخزانة، إلى جانب الأوراق الأخرى، ثم اغلقتها، واعدت المفتاح إلى جيب بنطلون دونيللي. تملكني شعور قوي بأن عليّ حل مشكلة دونيللي الأخلاقية مع

تهوسه بإشعال الحرائق عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية. واتركها في الخزانة وسط الأوراق، حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري. ولكن مثل هذه القنبلة يمكن أن تحرق المنزل بدونيللي في داخله. وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحدث عنها أرسطو، ولكنها ستكون عدالة قاسية قسوة لا ضرورة لها (أم انه قد يستمتع بها؟).

غطيت دونيللي الراقد بأغطية الفراش، ولكنني تركته مربوطاً إلى أركان السرير، فإنني إذ كنت أنوي أن أنام في هذا المنزل، فإنني جدير بأن أفضل الشعور بأمان، وكانت مجموعته من البنادق والشفرات الماضية تصيبني بالتوتر. بعد ذلك أغلقت الباب ونمت على السرير الصغير. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهبت إلى حجرة دونيللي، فوجدته نائماً. كان تنفسه منتظماً. حللت القوابض عن ساعديه وكاحليه، تقلب وأن. وعندما كانت الساعة السادسة والنصف، كنت أسير متجهاً إلى البلدة. عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحاً، فأكلت بيضاً مقلياً، ولحم خنزير، وجذور خضراوات طازجة، ثم اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت بي إلى هنا. وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت إلى الفندق الصغير، وكتبت أكثر هذه الملاحظات قبل أن أغادر الفندق لكي ألحق بطائرتي بعد الظهر. وقد أرسلت بالبريد مخطوطة دونيللي إلى ديانا، حتى يمكنها أن تنسخها بالآلة الكاتبة قبل أن نطير إلى "شانون" يوم الخميس. وإذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين، فإنني أشعر بأنني في حالة جيدة إلى درجة ملحوظة.

-٦-

٢٢ إبريل، دالاس، تكساس.

▣ وجدتني أتساءل هذا الصباح، عن السبب الذي جعلني أحصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونيللي. وهل هناك مركب سادي خفي في داخلي، لمسة من شخصية "اوستيه"؟ ولكن، خطرت الإجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح. فبشكل غريب، تقدم عاهات دونيللي دليلاً على حرية روح الإنسان. الحيوانات كلها تجفل من الألم وتنكص أمامه. أما دونيللي فقد "حصل" عامداً على الموقف المعاكس. لقد اختار الموقف الذي يقول بأنه ينبغي أن تكون للألم قيمة، وقد جعل هو من الألم قيمة - شيئاً يستمتع هو به. أنا

أعرف أن هذا التفسير يقوم على أفكار من نوع معين، وما إلى ذلك - مثل بريدجيت والجنس والألم - ولكن هذا لا يؤدي إلى أي اختلاف. فإذا استطاع رجل أن يختار ممارسته المتعة عن طريق الضرب، فإنه يستطيع أن يختار ممارسة النشوة الصوفية لمرأى شجرة أو ورقة ساقطة من شجرة. إنه ليس بالضرورة ضحية عواطفه المتقلبة أو احتياجاته الجسدية. و"هذا" هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانته. إنه بشكل مشوه، يحمل سمة من سمات القديسين. إنه قديس لا هدف له ولا غاية.

في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من إبريل طرنا عائدين إلى لندن، ولم يعد لدي المزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات، لأسباب سوف تتضح فيما بعد.

كان في نيتنا أن نعود عن طريق البحر. ولكن اللغز الأدبي، الذي جسده إيزموند دونيللي جعلني أتعجل العودة. كنت أخشى أن يصل باحث آخر إلى "باللي كاهان" قبل وصولي أنا إلى هناك. ولكنني أردت أن أمضي يوماً في مكتبة المتحف البريطاني، لكي أبحث عما يمكنني العثور عليه عن دونيللي. وقبل مغادرتنا "نيوهافن" (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الأصدقاء) كانت مخطوطة دونيللي قد أعيدت إلى "دينهام سبرينغز" عن طريق البريد المسجل. وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين. وكانت رحلتي بالطائرة من كينيدي إلى لندن هي فرصتي الأولى لدراسة المخطوطة.

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع. ولم أكن قد تبينت حين أطلعني عليها الكولونيل دونيللي، أن المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونيللي عن "رفض نظريات الدكتور هيوم"، مع بعض الإشارات إلى "المجادلات الأولية" التي كتبها "دالامبير". وكنت قد افترضت أن دونيللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت أجزاؤها وألصقت بعضها إلى البعض، ولكن اتضح أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كان "الرفض" يقع في نحو ثلاثين صفحة. أما مذكرات دونيللي فلم تزد على العشرين.

كان أكثر ما أثر في من جانب إيزموند دونيللي هو حداثة عقله. كانت اللغة هي لغة والبول[1] أو كراي[2]. أما الفكر فكان دائماً أكثر قرباً من غوته أو حتى وليام بليك.

(١) هوراس والبول (١٧١٧-١٧٩٧) اللورد الرابع لأرفورد - سياسي وكاتب إنكليزي اشتهر بروايته "قلعة أوتورانتو" عام ١٧٦٤ التي تعد نموذجاً للرواية القوطية.

(٢) توماس كراي ١٧١٦-١٧٧١ شاعر إنكليزي وصديق هوراس والبول وأحد رواد الحركة الرومانتيكية الإنكليزية تتميز أعماله بعشق الطبيعة والتأملات الكئيبة والخيال العرض الحزين.

وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم ودالامبير بالغة البساطة، هو أنه حينما يشب الإنسان عن طوق السلطة الدينية، فإنه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة. متى يمارس الإنسان الإحساس بالحرية، هكذا يسأل، ثم يجيب: حينما يشعر بالضجر.. "الضجر هو أن يكون الإنسان حراً، ولكن دون أن يشعر بدافع معين يدفعه إلى الانتفاع بالحرية". وبعد ذلك يبتكر صورة لمجتمع خرافي، على طريقة سويفت[1] لكي يصور ما يقصده من فكرته.

يقول أن بين قمم الجبال العالية في بلاد التتار، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي إلى جنس ضئيل الأجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة. "منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الأزمنة السحيقة، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب أن يحمل كل فرد منهم حملين ثقيلين - على شكل زجاجتين تملآن بالماء، وتعلق كل منهما على أحد جانبي وسط الإنسان. ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا في السير إلى ما وراء بلادهم على طول الهوايت هول. كانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من الميلاد إلى الموت، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه. ولكن أعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين المشي. وفي إحدى الفترات أعلنت مجموعة معارضة أن المقصود من وضع هذين الحملين هو جعل السير صعباً وغير مريح. وبعد ذلك، أعلن أكثر هؤلاء المتمردين جسارة، أن الإنسان ينبغي أن يكون قادراً على الطيران مثل الطائر أو أن يطفو مثل البالون، وأن تلك الأحمال إنما فرضت عليهم بغرض منعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلقوا من أجلها. وتشتعل الثورة، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير بالملاحظة بإعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس أحزمة أحمالهم ويخلعونها عنهم. ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء، باستثناء أنهم يجدون السير صعباً من دون تلك الأحمال، وأن المحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة. ولكن الأشخاص الأكثر تعقلاً ومحافظة يستمرون في حمل أثقالهم. أما الأكثر جسارة فيتدربون على السير من دونها، وسرعان ما يعلنون أن الأمر ليس سوى عادة، وأن العادة هي مرجعه الوحيد. وتستبد بهم البهجة بهذا الإنجاز الجديد حتى أنهم في البداية، يمعنون في السير ليلاً ونهاراً، ويذرعون الوادي

(١) جوناثان سويفت (١٦٦٧-١٧٤٥) شاعر وكاتب تهكمي إنكليزي - عرف بكبريائه وحساسيته. من أشهر أعماله مجموعة "رحلات جاليفر" التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وكاريكاتيرية يجسدها جانباً من قيم البورجوازية الصاعدة والمتغطرسة في عصره.

من أقصاه إلى أقصاه، بل إنهم يحاولون تسلق الجبال، وسرعان ما يكتشفون أن الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول إلى منتهاها أو اختراقها. ثم حدث أن سقط بعض ممن تخلصوا من أثقالهم فريسة لغضب جنوني. فيندفعون متهوسين من طرف الوادي إلى طرفه الآخر حتى ينهاروا من الإجهاد. ويحاول آخرون أن يخترقوا الجدران الصخرية الملساء ليخرجوا من الوادي، فإما أن يسقطوا من مرتفع عالٍ حينما ينال منهم الإعياء والكلال، أو يقذفوا بأنفسهم بسبب الرعب أو اليأس. لكن مع مرور الوقت، يفضل العدد الأكبر ممن تخلصوا من أحمالهم أن يجلسوا في بيوتهم، وقد تملكهم الضجر تماماً، طالما أنهم عرفوا كل شبر من الوادي. وكانوا يهاجمون الآخرين الذين احتفظوا بأحمالهم، فيصفونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات. ولكن بعد أجيال قليلة، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من أحمالهم، لأن افتقارهم إلى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون إلى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة. وأخيراً لا يبقى على قيد الحياة سوى أولئك الذين حافظوا على أثقالهم. فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم، وطوال أجيال عديدة لا تعود "الثورة العظمى" سوى ذكرى مرعبة. حتى تظهر فئة من الشعب تعلن أن الإنسان قد خلق لكي يطير كالطير...

تبدو القصة متشائمة إلى حد كبير، وأنها استعارة رمزية من قصة الخطيئة الأصلية. ولكنني أميل إلى رفض هذا الرأي، لأن دونيللي يقول: "لقد كان هناك نفر من بين أولئك الذين حاولوا تسلق الجبال، لم تقع عليهم أبصار أحد بعد أبداً، ومع ذلك فإن عدداً من الرعاة الذين ترعى أغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي، أكدوا أنهم سمعوا أصواتاً تنادي وتلغط من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم، حيث كانت قمم الجبال تختفي وراء السحب". وبكلمات أخرى، فربما استطاع عدد قليل من أولئك المتسلقين أن يصلوا إلى الأراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال.

إن مايقوله دونيللي - وهذا تصور جدير بالاحترام إذا كان صادراً عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو أن "الناس يحتاجون إلى أثقال"، وإنما يقول أن الناس "في الوادي" يحتاجون إلى أثقال. إنهم أصحاء، أقوياء يحبون المغامرة (أي يحبون المشي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها أن يحافظوا على تلك المميزات في واديهم الضيق الصغير هي أن

يحملوا أثقالاً على الدوام. ولكن ثمة عدد قليل من بينهم، عدد قليل جداً، يولدون وهم يحملون روح متسلقي الجبال الجسورين.

وقد كان دونيللي متسلقاً جسوراً للجبال بالفطرة، منذ ولادته، وكان هذا واضحاً. وهو ما خدعني. لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبقاً لما قاله الكولونيل دونيللي)، وكان كاتباً موهوباً، ومفكراً أصيلاً، وصديقاً لروسو وويلكز. فلماذا إذن لم يترك سوى هذا الأثر الضئيل على التاريخ؟ فإذا كان "رفض فلسفة هيوم" ومذكرات الرحلات المنشورة، هي كل ما أملكه لكي أبدأ عملي، فإنني قد أجد لزاماً عليّ أن أستنتج أن أمامنا موهبة أضاعت نفسها مبكراً، مثل رامبو أو وولف. ولكن المذكرات غير المنشورة لا تترك مجالاً للشك في أن موهبته ظلت دون أن يلحقها الفساد. إذن، فماذا حدث؟

ولابد لي أن أشير وأؤكد، في شكل جملة اعتراضية، أن الجزء الفلسفي من "الرفض" والذي يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا المقال أهمية، تميز بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني أن أفكر في وجود شيء يماثلها ظهر قبل ظهور ف. هـ. برادلي[1]. إنه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي "تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية" يثبت فيها أن فكرة العلة والنتيجة عند هيوم مرتكزة على عاداتنا، وأنها لا تمثل "علاقة ضرورية". يقول هيوم: "لنفترض أن رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم، ولكن دون تجربة" أفلا يكون من المستحيل بالنسبة له أن يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان يراقب كرتين من كرات البليارد وتصطدم إحداهما بالأخرى، فإنه من المحتمل ألا يستطيع أن يخمن - اعتماداً على ذكائه وحده - أنهما سوف يصدران صوتاً كالفرقعة الصغيرة عند اصطدامهما، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين. إنه سيظن، اعتماداً على معرفته الضئيلة، إنهما قد يلتصقان أو يقفزان في الهواء، أو يقفان ببساطة جنباً إلى جنب".

وينقض دونيللي بسرعة على العبارة التي تقول "يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم" ويشير إلى أنها زلة قلم.. "يتضمن كلام هيوم أن إدراك آدم لكرات البلياردو سوف يكون إدراكاً بريئاً وغير متحيز، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لإدراك كامل البراءة - مثل إدراك

(١) فرانسيس هربرت برادلي (١٨٤٦-١٩٢٤) فيلسوف إنكليزي مثالي ارتبط فكره بفكر هيغل.

طفل حديث الولادة - أن يستوعب الكرات على الإطلاق - أو بالأحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون أن يستوعبها، مثلما قد أنظر إلى خطاب كتب بلغة لا أعرفها. فإذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم، وبقدر كافٍ لكي يراقب كرات البلياردو باهتمام، إذن فلابد أيضاً أنه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة. إنه ربما لا يعرف أن كانت الكرتان سوف تقفزان منفصلتين أو تمتزجان مثل قطرتين من الماء، ولكنه يعرف أن شيئاً ما سوف يحدث، الأمر الذي يعني أنه يعرف أن نتيجة ما ينبغي أن تتبع السبب".

إن رجلاً يتمكن من إيجاد هكذا فلسفة أو تصور وبهذا الشكل المتميز، كان حرياً من جانب آخر أن يخلف وراءه صورة دقيقة عن الفترة التي عاش فيها، إذن فكيف تحول الأمر إلى أن لا يعرفه أي شخص حتى إنني لا أكون قد سمعت به مطلقاً قبل تكليفي بهذا الأمر؟ وحتى إذا كان هو نفسه لم يكتب إلا القليل - فلا بد أن يكون الآخرون قد ذكروه - بوزويل[1] على سبيل المثال أو حتى كراب روبنسون[2]. إن الإظلام الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل لشيء لا يمكن فهمه.

كنت قد كتبت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس، أسأله إن كان يستطيع أن يعثر لي على أي مادة ممكنة حول دونيللي. وأسرعت إلى هناك فور وصولي إلى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت. ودعاني تيم موريسون - الذي يعمل في إدارة الكتب المطبوعة - إلى شرب فنجان من القهوة في غرفة الموظفين. وكنت قد أخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن اقتراح أن أقوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دونيللي. إن نظرة تيم إلى الحياة وقورة ومحاذرة - وهو يعطيني دائماً انطباعاً لرجل يحدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعاً ما بطريقته المترددة الموفقة. قال:

- "أعتقد أنك تعرف ما تفعله. أعني إنك لا تريد أن تنتهي إلى السجن بسبب الاحتيال على القراء"...

(١) جيمي بوزويل ١٧٤٠-١٧٩٥، أشهر كتاب التراجم في إنكلترا، اشتهر بكتابه عن (صاموئيل جونسون).

(٢) هنري كراب روبنسون (١٧٧٥-١٨٧٦) كاتب يوميات وذكريات (أشبه بالتراجم) إنكليزي.

وأكدت لـه أن ليس ثمة خطر في ذلك، وأبرزت لـه المخطوطة المنسوخة على الآلة الكاتبة من مقالة "رفض لفلسفة هيوم". راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت أنا أحتسي قهوتي وأتطلع إلى عناوين صحيفة "الجارديان". وأخيراً قال:

-"أكاد أجزم أن هذا يبدو أصيلاً. وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد. لماذا أعطي هذا المقال لروسو؟ إنه بأرائه تلك لابد كان يظن أن روسو أبله كامل البلاهة".

-"لست واثقاً من السبب. ثمة عنصر من التفاؤل في شخصية دونيللي وفكره ربما تتجاذب مع روسو. هذا إلى جانب أن روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون. إنه في الحقيقة لم يقترح أبداً أنه ينبغي للناس أن يعودوا إلى الطبيعة".

قال "كلا، كلا". وبدا عليه الشرود. سألته إن كان قد عثر لي على أي كتب عن دونيللي. قطب جبينه وهو ينظر إليّ داخل قدح قهوته ثم قال:

-"من الأفضل أن تأتي لكي تنظر بنفسك".

عندنا إلى مكتبه، الذي لا يصل إليه المرء إلا بعد متاهة من الممرات وعدة مجموعات من الدرجات الحلزونية. كانت غرفة المكتب مرتبة بطريق توحي بخلوها من أي خطأ أو عيب. وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة مجلدات برزت من خلال صفحاتها قصاصات من الورق. قال لي أن أجلس أمام المكتب، ثم جلس هو على المقعد الكبير المواجه لي، وأشعل سيجارة، ثم عاد إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للآمال. وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كنت قد رأيتها بالفعل من قبل، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر المملوكة لشخص يدعى جون موري، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعاً بايرون الشعرية، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دونيللي أنه، "سيد ودارس إيرلندي" ولكنه لا يقدم أية معلومات أخرى متعلقة بحياته - ولا حتى إن كان دونيللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب. (وقد كان حياً بالفعل يومها، فقد كان في الثانية والسبعين عام ١٨٢٠). وكانت هناك إشارة قصيرة إليه في كتاب جيلبين، "يوميات إنكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر" الصادر في عام ١٨٧٦، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن مدينة البندقية ألفه كاتب نسيت اسمه. وجاءت الإشارة الهامة

الوحيدة إلى دونيللي في خطاب كتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونيو عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في أعمال بايرون الكاملة، التي أشرف عليها بروثيرو وكولريدج، المجلد التاسع ص٤٢٠)، ويقول فيها، "قال لي شيري (شيريدان) إنه لم يعرف أبداً شخصية أكثر وحشية من والدي ("جاك المجنون" بايرون) رغم أنه كان قد عرف ويلكيز ودونيللي في أيام شبابهما". ويقول بايرون في خطاب آخر إلى ويليام جيفورد (المجلد ١٣ ص١٩٣)، "لقد أدهشتني وصدمتني جداً تأكيدات إيزموند دونيللي والتي أشار فيها إلى أن خلونا وخلو عالمنا نسبياً من المغنى، حينما نوضع في مقارنة مع الكل القهار، الذي لسنا فيه مع عالمنا سوى ذرة ضئيلة، هو ما دفعه لأول مرة إلى تخيل أن طموحنا إلى الأبدية والخلود يجب أن يتضاعف عدة مرات".

وبينما كنت أسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها - فقد كان لابد لي أن أجهز مقدمتي على نحو من الإنحاء - كان تيم يفحص بعض الأوراق في خزانة قريبة. وحينما انتهيت من الكتابة، وضع أمامي ورقة واحدة. كانت الورقة صورة مكبرة لصحيفة من أحد المخطوطات. ولم تكن قراءة الخط مستحيلة، رغم ما كان هناك من تكرار لخطأ كتابة حرف "ف" بدلاً من حرف "س". وكان نص المكتوب في الورقة:

"... كان مقتنعاً بأنه قصد إلى الوفاء بالتزامه..

وحينما ذكرت عادة أكل الكلاب في أوتاهايت، قال جولد سميث أن هذه العادة شائعة أيضاً في الصين، وأن جزار الكلاب شائع جداً مثل أي نوع آخر من القصابين، وأن مثل هذا الشخص إذا رحل إلى خارج بلاده، تهاجمه كل الكلاب.

جونسون، "ليس هذا راجعاً إلى قتله للكلاب يا سيدي. إنني أذكر قصاباً في بلدة ليتشفيلد، كان معرضاً على الدوام لهجمات الكلب الموجود في المنزل الذي كنت أسكنه. إن رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم، مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها.

جولد سميث، "أجل، فإن الحيوانات عموماً تبغض أي علامة تدل على الذبح أو تشير إليها وتنفر منها. فإنك إذا وضعت وعاءً صغيراً مليئاً بالدماء في حظيرة للجياد، أصاب الحيوانات ما يشبه الجنون".

جونسون، "إنني أشك في ذلك".

جولد سميث: "كلا يا سيدي إنها حقيقة يعترف بها العارفون".

وتلت هذه الفقرة عدة سطور كشطت بحبر أسود وثقيل وبعناية بالغة ثم تستمر السطور بعدها تقول:

تريل: "كان الأفضل لك أن تبرهن على هذا قبل أن تضمنه كتابك عن التاريخ الطبيعي. إنك قد..."

نظرت إلى تيم وقد اشتبه عليّ الأمر، وظننت أنه قد أعطاني صحيفة أخرى غير ما اراد أن يعطيني، ولكنه وضع امامي صحيفة اخرى مصورة، غير أنها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول:

جولد سميث (مستمراً): "لقد قيلت لي هذه الحقيقة على لسان إيزموند دونيللي الذي قال لي أنه حاول تملك التجربة".

جونسون (وقد بدأ يسخن): آه، يا سيدي، إنني لا أشك في أن هذا الرجل يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه".

جولد سميث: "إنه لا يفتقر إلى صفات محب للمرح والعربدة".

جونسون: "بالتأكيد. إنني أعتقد أنه من جماعة العنقاء ذوي الميول العربيدة المفعمة بالشر. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الشيطان".

جولد سميث: "ومع ذلك فإنه يعرف الجياد".

تريل: "كان الأفضل لك أن تبرهن على هذا..."

قال تيم:

-"كان من عادة بوزويل دائماً أن يكشط بالحبر الأسود كل الفقرات التي يريد أن يلغيها حتى لا يمكن قراءتها. وهذه صفحة من كتابه "حياة جنسون". وقد سمحت لنا جامعة ييل بالحصول على صورة من غالبية مجموعة إيشام. وقد استطاعوا أن يصلوا إلى حقيقة أكثر ما كان مكتوباً في الفقرات الملغاة".

-"مدهش. كيف عثرت عليها؟"

-"لم أعثر عليها أنا. وإنما حدث أن ذكرت اهتمامك بدونيللي للرجل الذي كان يصنف الصور. وبالمصادفة البحتة - كان قد رأى اسم دونيللي في اليوم السابق".

-"وإذن فربما تكون هناك إشارات أخرى إلى دونيللي في مخطوطة بوزويل؟".

-"هذا محتمل، سأتصل بك إذا وجدنا أية إشارة".

امضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة، ولكنني لم أعثر على شيء آخر له قيمة. وعندما عدت إلى ميدان كينسنفتون (حيث كنا نقيم مع جيرمي وورثينغتون، أحد مديري شركة جون جامبسون لإنتاج الويسكي) ناقشت ما أنجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورثينغتون. واتفقنا على أنه من الواضح أن جونسون كان يكره دونيللي، الأمر الذي لاح لنا أنه يشير إلى أنه كان يعرف شيئاً عن شهرة دونيللي كصعلوك كبير. ولكن لماذا كان من الضروري أن يثور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه؟ لقد كان بوزويل هو الآخر صعلوكاً كبيراً، وكذلك كان ويلكيز، الذي كان جونسون قد وصل إلى نوع من الاتفاق معه. فلماذا السخط على دونيللي والهجوم عليه؟ ماذا كان يعنيه حينما قال: "إنه يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه"؟

وقالت سو أنه من المحتمل الا يكون قد عنى شيئاً بالتحديد على الإطلاق، فيم عدا أن جونسون كان منزعجاً من سذاجة جولد سميث وسهولة انخداعه. وكنت ميالاً إلى الموافقة على ذلك. وحينئذ قالت سو:

"يجب عليك أن تسأل جيرمي عن بوزويل. إنه يعرف شخصاً اكتشف مخطوطة ما لبوزويل".

وكانت هذه أخباراً هامة. كنت قد امضيت جانباً من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل، وقصة اكتشافها، التي كانت قراءتها من الأمور الخلابة. ولما كانت هذه القصة عل علاقة ما بما أسرده الآن، فسوف ألخصها باختصار.

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره، ربما بسبب إصابته بتليف في أنسجة الكبد. وعين ثلاثة من أصدقائه مشرفين على طبع تراثه الأدبي، الكاهن

وليام تمبل، وسير وليام فوربز وإدموند مالون. وكانت تعليمات بوزويل تقول أن هؤلاء الأصدقاء الثلاثة ينبغي أن يقرأوا مذكراته الخاصة وأوراقه وأن ينشروا كل ما يظنونه هاماً ويستحق أن ينشر. وقرأ الثلاثة ما وجدوه من أوراق، ولكن من الواضح أنهم قرروا أن المادة كانت إما شديدة الإملال، وإما أنه تصدم المشاعر والأذواق،إلى درجة أنها لا تستحق أن تنشر. وبعد مقالة ماكولي القاتلة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيد الأخير هبوطاً شنيعاً حتى لقد نسي تقريباً. وكانت السيدات الفيكتوريات من أسرته، اللواتي كن من حين إلى حين يلقين نظرة سريعة على الأوراق، يشعرن بالصدمة إزاء ما رأين، حتى أنهن شعرن بما يبرر لهن ترويج إشاعة تقول بأن مذكرات بوزويل قد أحرقت ويستطيع المرء أن يدرك تأثير فقرة مثل الفقرة التالية من المذكرات، (كتبت في نوفمبر ١٧٦٢).

"التقطت فتاة من شارع ستراند، وذهبنا في عربة وفي نيتي أن أستمتع بها متذرعاً (أي باستخدام مانع للحمل). ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا المانع. فلهوت بها قليلاً. وتعجبت هي لحجم عضوي، وقالت إنني لو كنت قد فضضت عذرية أية فتاة لجعلتها تنزف. أعطيتها شلناً ثم أجبرت نفسي على أن أتركها تذهب دون أن أمسها".

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي، ذهب بيركبيل هيل، ناشر كتاب بوزويل عن جونسون إلى بيت الأسرة في بلدة أوتشينليك - لكي يطلب إلقاء نظرة على المذكرات، ولكنه لم يلق سوى الطرد تقريباً.

وفي عام ١٩٠٥، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن أسرته، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به إلى اللورد تالبوت من مالاهايد، بالقرب من دبلن، وكان من بين ما انتقل إلى حوزته، الغرفة المغلقة الصغيرة التي تحتوي الأوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته. وظهر أستاذ أمريكي، يدعى تشونسي تينكر، فاهتم ببوزويل وأعلن في الصحف الإيرلندية طالباً أي مادة منسوبة له. وتسلم الأستاذ خطاباً من مجهول يقترح عليه أن يحاول البحث في قلعة مالاهايد. فأرسل خطاباً إلى مالاهايد لم يكن له تأثير، فقرر تينكر أخيراً أن يذهب بنفسه إلى هناك. وكان سعيد الحظ في هذه المرة. وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى جانباً صغيراً من مجموعة أوراق بوزويل. وبعد ذلك، ظهر ضابط أمريكي برتبة ليوتنانت كولونيل، ويدعى رالف إيشام، وقد سمع عن الأوراق، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٩٢٧. وشرع اثنان من الباحثين، هما البروفيسور جيوفري سكوت، والبروفيسور فريدريك بوتل، شرعا في عملية

نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور. فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل، بالإضافة إلى مخطوطة كتابه "رحلة إلى جزر الهبريدز مع الدكتور جونسون". وفي عام ١٩٣٠، كان البروفيسور آبوت من جامعة أبردين يعمل في تحقيق أوراق السير وليام فوربز. وهو أحد منفذي وصية بوزويل - فاكتشف كمية كبيرة أخرى من الخطابات والمخطوطات. وكان من الواضح أن فوربز قد استعار بعضاً من الأوراق لكي يفحصها، تنفيذاً لما جاء في وصيته، ثم نسي أن يعيدها إلى أوشينليك. وفي عام ١٩٤٠، تم العثور - مرة أخرى - على المزيد من أوراق بوزويل في حظيرة قديمة للأبقار في مزرعة مالاهايد، وكانت هذه الأوراق تتضمن كتاب "حياة جونسون". وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة. ولم يحدث أبداً أن فسر أحد كيف وصلت بعض أوراق بوزويل إلى حظيرة للأبقار.

من الواضح أن أوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في أماكن متنائية. وفي الحقيقة، فإن أول ما اكتشف من أعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يدي الميجور ستون في بلدة بولوني، وكان قد اشترى شيئاً ما من دكان بقال، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة كتب عليها خطاب موقع باسم "جيمس بوزويل". وكان في مقدور ستون أن يشتري كومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل إلى القس وليام تمبل - وهو كاهن كان بوزويل قد اعترف أمامه بأقذر أعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد أن نقحها وهذبها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو أن تلك الخطابات كانت قد وصلت إلى بلدة بولوني على أيدي ابنة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل إليها في عام ١٨٢٥. وحينما ماتا، بيعت أوراقهما - أو أعطيت إلى تاجر من تجار ورق اللف باعهما بدوره للبقال.

إن اقتفاء آثار التاريخ المعقد لأوراق بوزويل جعلني أدرك المصاعب التي قد أواجهها في طلب حقيقة إيزموند دونيللي. فمن الواضح أنه ما لم يكن الحظ حليفي فإن أي قدر من الصبر والإصرار والمثابرة لا يمكن أن يكون مثمراً على الإطلاق. ولكن كان من الغريب أنني كنت أملك إحساساً غريباً بالثقة، ربما كان ببساطة راجعاً لاهتمامي العميق والبالغ بدونيللي وبأدب المرحلة التي ينتمي إليها. فلو استبعدنا بليك وغوته، فإن كتاب القرن

الثامن عشر عموماً كانوا لا يرتقون إلى ان نصفهم بالكتاب، وهو واقعاً السبب الذي يقف خلف عدم دراستي لهم، فقد كانوا مخيبين للآمال بشدة.

وعلى أساس ما أخبرتني به سو وورثينغتون، افترضت أن جيرمي يعرف أحد أفراد أسرة تالبوت، أو ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الأوراق في حظيرة الأبقار. وحالما ظهر جيرمي على باب المسكن، سألته:

-"ما اسم صديقك الذي عثر على بعض أوراق بوزويل؟"

-"أوي، إنه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة. وإنما عثر عليها شخص يدعى أورورك في بلدة بورتمارنوك".

-"ألم يعثر عليها في مالاهايد؟"

-"كلا. ليس في مالاهايد، رغم أنه من المؤكد جداً أنها جاءت من مالاهايد. فعلى قدر ما أستطيع أن أستنتج، كان قس متقاعد يدعى أورورك قد استعار بعضاً من أوراق بوزويل في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن هذه الأوراق لم ترد إلى مكانها أبداً. وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته".

-"فماذا حدث لها؟".

-"حسناً، اسمع. إنها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى إيزاك جينكينسون بيتس، ويعيش في دبلن. وابن أخيه هو أحد طاقم الاختبار في مصنع التخمير عندنا وقد أخبرني ذات يوم بأمر تلك الأوراق".

-"هل رأيت هذه الأوراق بنفسك يوماً؟"

-"كلا. إن الولد العجوز شديد الحرص عليها. ومن الواضح أن هذه الأوراق مملوكة في الحقيقة لمزرعة مالاهايد - أو ربما كانت من حق تلك الجامعة الأمريكية التي اشترت الأوراق".

-"ولكن ألا تعرف أي شيء عنها؟"

-"ليس الشيء الكثير، فيما عدا أن بعض محتوياتها داعرة إلى درجة كبيرة".

-"هذا يبدو غريباً. أعني، ماذا يمكن لقسيس أن يفعل بمثل تلك الأوراق".

-"ربما كان رجلاً عجوزاً سيئ الخلق أو قذر التفكير".

-"هل تعرف عنوان تلك الشخصية" التي تدعى جينكينسون؟".

-"العنوان ليس تحت يدي الآن، ولكن عليّ أن أطلب دبلن بالتليفون يوم الاثنين - وسوف أسأل هيرد - وهذا هو ابن أخيه".

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الأسبوع. وكنت أعرف أن الفرص المتاحة لي لرؤية الرجل العجوز محدودة، إذا ما كان حريصاً بالدرجة التي ذكرها جيرمي، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد، وهو أن يمارس ابن أخيه عليه نوعاً من الضغط.

-٧-

■ لم تكن تنقضي عدة أيام حتى اتصل بي جيرمي من مكتبه، وكان قد تحدث لتوه مع ابن أخي الرجل العجوز. وقد أكد هيرد أن جينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع أي مخلوق على المادة التي يملكها. ولكنه من خلال المحادثة، كان قد ذكر شيئاً لاح أن فيه شيئاً من الأمل. كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل. ولذلك فإنه قد لا يستبعد أن يكون قد قرأ كتابي "سوسيولوجية الجريمة العنيفة". واقترح جيرمي أن أكتب إليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في إيرلندا في القرن الثامن عشر، وأن أحاول التعرف عليه عن هذا الطريق، وأعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلن.

ولم يكن لديّ ما أفعله أكثر من هذا في لندن. فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خلالهما بعض الأصدقاء، وتناولت الغداء مع أحد الناشرين، وشربت الكثير من "الكوكتيلات". ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته أثناء جولة المحاضرات، ولكنني كنت عاجزاً عن التفكير في أي شيء باستثناء دونيللي. كتبت خطاباً إلى "ملحق التايز الأدبي" حول اهتمامي بدونيللي، وأمضيت امسيت عقيمة في المتحف البريطاني محاولاً أن أعرف إن كان إيزاك جينكينسون بيتس قد كتب في حياته أي

كتاب حول جرائم القتل، ولو أنه قد كتب مثل هذا الكتاب، فإنه ليس موجوداً في مكتبة المتحف. وفي صباح يوم الأربعاء، اصطحبتنا سو وورثينغتون في سيارتها إلى مطار لندن لكي نلحق بالطائرة المتوجهة إلى شانون. وقبل أن نغادر المنزل بلحظة واحدة، اتصل جيرمي بالتليفون وطلب أن يكلمني. قال:

-"كنت أتكلم الآن لتوي مع جيم هيرد مرة أخرى، وذكر شيئاً ربما أعانك في محاولة اقترابك من بيتس العجوز. من الواضح أن الرجل العجوز يؤمن بأن قاتل "جزيرة الآي" الإيرلندي كان بريئاً. فهل تعرف أي شيء عن تلك القضية؟".

-"أتذكر عنها القليل. ثمة رجل يدعى كيروان".

وكانت هذه المعلومات ثمينة للغاية. لحقنا بطائرتنا في منتصف النهار، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط. وكان توم كيني المسؤول عن مأوى السيارات الذي نحتفظ فيه بسيارتنا، قد قاد السيارة القديمة إلى المطار لكي يقابلنا. وبعد ساعتين كنا قد عدنا إلى موكوللان.

ثمة إحساس هائل بالراحة في العودة إلى البيت بعد رحلة طويلة. إنني أحب إيرلندا، الطرق الضيقة، والمدن الصغيرة القديمة، وخضرة الحقول التي لا تصدق، والسحب المنخفضة والبحيرات الفاتنة. بدأت أشعر بشيء مثل الكراهية إزاء دونيللي، لأنه كان يمنعني من الاسترخاء الكامل لمدة أسبوع أو نحوه.

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكوللان، على ناصية حارة ضيقة مبلطة بالأحجار تتحول إلى مجرى مائي في فصل الأمطار. والمنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون، وقد غطيت الجدران بنباتي الخزاز واللبلاب المتسلقين. كنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٣، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب "اليومية الجنسية". وفي أثناء غيابنا، كان زوج ديانا السابق، روبرت كيرستين، يرعى المنزل بدلاً منا. والذي كان قد أصبح منذ عام ١٩٦٠ "مؤلفاً موسيقياً مقيماً" في عدد من الجامعات الأمريكية، وكان قد حقق نجاحاً هائلاً. وفي الخريف الماضي، قرر أنه بحاجة إلى فترة طويلة من الوحدة لكي يؤلف موسيقاه، ولذلك فقد دعوناه للإقامة معنا. وكان يسكن عندنا منذ شهر يناير، وكانت مسز هيلي، زوجة الراعي الذي يسكن إلى جوارنا،

تطهو له طعامه. وكان كيرستين قد رحل إلى دبلن قبل وصولنا بثلاثة أيام، فقد كانت اثنتان من موسيقاه تعرضان هناك وكان عليه أن يقود الأوركسترا. وكان المنزل خالياً ومفعماً بالهدوء. وكانت مسز هيلي قد أشعلت النار في مدافئ حجرة الطعام وحجرة نومنا، فأضفت النار على الحجرات بريقاً مرحاً. كان منزلنا قريباً من العتمة على الدوام، لأن الأشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بخشب الماهوجني الأسود، ولولا الأضواء الكهربائية، لكان صالحاً لأن يكون مسرحاً لإحدى روايات لوفانو[١].

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا - وكانت موبسبي تتقافز على السرير، فتجعل لوالبه تئز - ورحت أنظر إلى غابة "لوف كوريب". كان هناك غيم واطئ قليل بدا أثقل قليلاً من الضباب، ولاحت الأشجار، ببراعمها البازغة، داكنة مبلولة. إن الجزء الذي نعيش فيه من إيرلندا، يتمتع بخاصية "تنويمية"، حتى أن زوار منزلنا يجدون أنفسهم قادرين على النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً على الأقل، ثم يظلون يتثاءبون حتى الساعة الرابعة عصراً. بينما كنت أقف وراء النافذة، وضوء النار يتراقص على الجدران، شعرت باسترخاء هائل، يتناسب أو يفوق وحجم الإجهاد الذي تملكني في جولة المحاضرات التي قمت بها أخيراً، حتى بدت لي مشاعري كما لو كانت تغرق في فراش عميق من الري، وطغى علي إحساس عظيم من السكينة والشعور بالعزلة. وخطر لي فجأة أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيلي قد أطل على هذا المشهد، منذ ما يقرب من القرنين، فرأى الكثير مما أراه أنا الآن. ثم ذكرت ما أكده لي فليشر من أن دونيللي قد أغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين، وهو الأب ريوردان، فشعرت بأنني أضطرب وأعجز عن التفكير. لو أنها كانت ابنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الأمر مفهوماً، إنها فتاة ريفية بزينة جميلة، ربما يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران أو راع للأغنام أو ربما يكون هذا الراعي من أسلاف سين هيلي)، ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة قد رأت دونيللي واقفاً في دكان البقال في القرية يطلب زجاجة من الويسكي أو الجبن فسحرها وخلب لبها السيد المهذب الذي يرتدي ثياباً أنيقة. وربما يكون دونيللي قد نظر إلى الخدين المتوردين المتفجرين بالصحة، وفكر في المتعة التي يمكن أن يحصل عليها لو أنه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من التيل وجرى بيده على

(١) جوزيف شيريدان لوفانو ١٨١٤-١٨٧٣، كاتب روائي إيرلندي، اشتهر بروايته "العم سايلاس" عام ١٨٦٤.

الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جواداً احسن تدريبه. لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكانت قد أصبحت طبيعية ومبهجة، ولكن إغواء فتاتين إنما يدل على نوع من النزعة الحسية، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار.

فجاة قالت موبسي، "باب. أيمكنني أن أستحم الآن؟" فقطعت سلسلة تفكيري. خلعت لها ملابسها، ووضعتها في حوض الاستحمام. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل لكي افتح زجاج نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها إلى جوار النار - كنت قد احتفظت بها طوال مدة طريق العودة حتى اتمكن من الاستمتاع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي. وضعت اسطوانة موسيقية على الحاكي - كونسرتو الكمان والأوركسترا - لدليوس - ثم تركت نفسي لكي أغرق في حالة من الكآبة الناعمة الغامضة. كان النبيذ دافئاً دفئاً خفيفاً للغاية. ويقول أكثر الخبراء في شؤون النبيذ أنه لا ينبغي للمرء أن يعرض النبيذ مباشرة لمصدر الحرارة، ولكنني أجد أن تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي إلى أي ضرر - صببت لنفسي كأساً كبيرة، وجرعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقتي في شرب أول كاس من النبيذ في المساء. فهو - بهذه الطريقة - يلطف الظمأ، ويمنح حاستي التذوق والشم افضل ما في نكهته ورائحته، وينتج على الفور ومضة من الدفء. كانت حقائبنا لا تزال متناثرة إلى جوار الباب، دون أن تفتح، ولكنني اردت أن أستمتع بميزة العودة إلى بيتي. تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل إلى حد ما رائحة الكتب القديمة. وكانت ديانا هي من اشترت معظم أثاثنا في المزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالمزاد - وليس في هذا الأثاث قطعة واحدة يمكن أن توصف بالحداثة. وإذ نظرت حولي، خطر لي أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيللي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماماً، وانه رغم كل ما أعرفه، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها. مددت يدي ففتحت إحدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة لمقال دونيللي "رفض لفلسفة هيوم" وفتحتها كيفما اتفق. قرأت..

"..إنني لا انتقد منطق مستر هيوم، وهو منطق مفحم من مختلف جوانبه، وإنما أزعم أن مزاجه من نوع يمكن أن يخفي عن صاحبه صوراً معينة من الأحاسيس. يستطيع منطقه أن يزيل من الوجود مطامح السيميائيين وآمالهم، ولكن، ما الذي يعرفه عن رؤاهم؟..."

توقفت عن القراءة لكي افكر في تلك الجمل. كان من الواضح أنها تستحق "هامشاً" نقدياً، يشير إلى التشابه بينها وبين فكرة بليك.[١]

كيف لك أن تعرف أن كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

إنما هو عالم هائل من البهجة، مغلق أمام حواسك الخمس؟

عند ذلك بدأت أتساءل مرة أخرى متعجباً، كيف أمكن لمثل هذا الرجل أن يكون صورة ممسوخة من (كازانوفا) يتباهى بغزواته النسائية، ويطارد النساء، وأن يكون كما وصفه جونسون (واحد من جماعة العنقاء ذوي الميول العربيدة المفعمة بالشر)، وان يكون من جانب آخر يمثل هذا الفكر والفلسفة التي تشير إليها مقالة (رفض لفلسفة هيوم).

انتهت الاسطوانة الموسيقية، وذهبت لقلبها على وجهها الآخر، وللحظة نظرت إلى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب. كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال "أياركونت"، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة. وعلى الجانب الآخر من التلال، انتصب صف من أشجار الحور مرتفعاً على صفحة السماء. للحظة عدت إلى غرفة النوم في لونغ ايلاند، أتذوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصغيرتين وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدفء بين الأفخاذ، بينما كنت انظر من فوق كتفها إلى الأشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري. أزحت جانباً كآبتي الغامضة، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق أشجار الحور، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجئ شامل أن الكائنات البشرية لا ينبغي لها "أبداً" أن تقبل مقومات أو مكونات الوعي المباشر الناشيء عن اللحظة القائمة، وأن الآفاق الأعظم والأرهب تقع دائماً فيما وراء حدود الأحكام والتقديرات الفورية المباشرة. للحظة كنت أنا إيزموند دونيللي، أتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيميائيين. اختفت التناقضات، وفجاة فهمت دونيللي. فبالنسبة له، لم يكن السيميائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن، وإنما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان بوسعه أن يغير المعادن الوضيعة للوعي العادي فيحولها إلى رؤيا.

---

(١) ويليام بليك ١٧٥٧-١٨٢٧ شاعر ورسام صوفي إنكليزي. درس الرسم وفن الحفر، تميز بأسلوبه الرمزي الذي عزله عن معاصريه، إلا أنه بات من أهم بناة النزعة التأملية في الفلسفة والفن الغربيين في العصر الحديث.

صرخت موبسي: "بابا، اريد ان اخرج." ناديت ديانا فاخرجتها من مطبخها وارسلتها إلى الطابق الأعلى. كنت اريد ان اثبت هذا الإدراك المتبصر الداخلي وان اكتشف فضاءاته. لأنه كانت هناك - لا تزال - مشكلة واضحة. لا يستطيع احد ان ينكر ان الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي الى درجة اعلى من الحدة. فمنذ لورنس، أصبح هذا شيئاً شائعاً ومعروفاً من ضمن الأشياء الشائعة في القرن العشرين. ولكن لورنس عرف ايضاً سراً آخر من اسرار الدافع الجنسي: "إن ما تعجز نساء كثيرات عن إعطائه، تستطيع امراة واحدة ان تعطيه". ومنذ أن بدأت حياتي مع ديانا، اضمحل اهتمامي بإغواء النساء، حتى أصبح مجرد نوع من الفضول وحب الاستطلاع. بوسعي ان انظر إلى فتاة جميلة فاتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والسراويل الداخلية التي ترتديها، او عما إذا كانت ترقد في سلبية على الفراش ام تتحرك بعنف. ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن ان يؤدي إلى المتابعة العملية. بل إنني في الأعوام الأخيرة، كنت ادهش دائماً إذ اكتشف ميلاً متزايداً إلى رفض تلك الأشكال غير الضارة من الإشباع المتبادل التي تقدمها إليك علاقة ما ولكن "دون شد اية اوتار". وقد حدث في إحدى الحفلات أن قالت لي فتاة ما بصراحة: "لماذا لا نرقد معاً في فراش بعد ذلك؟ هذا افضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين" ولكنني في الصباح، ادركت ان عدم وجود اية اوار لم يكن صحيحاً صحة مطلقة. لقد تداخل جسدان، وبالتالي فقد تداخل عالمنا ايضاً. إن عالمها لم يرق لي بشكل خاص، فقد كان عالماً شديد الغموض والعقم. ومثل كوكبين تقاربا اكثر من اللازم، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الأرضية عند الآخر. وانا لم أعد قادراً على ان اتذكر، كيف كانت تبدو في الفراش، ولكنني أستطيع أن اتذكر بوضوح حكايات معينة سردتها علي، حول فشلها في زواجها، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني. ولقد كان من الأفضل لي لو انني تركتها تدور في فلكها الخاص.

وهذا هو ما يجعلني اشك في صدق كازانوفا. إنه لم يكن غبياً ولا محروماً من الإحساس - وهذا واضح إلى حد كبير. ولكن ليس هناك سوى القليل من الأدلة في "المذكرات" التي توحي بان تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت. إن فتاة ما، شابة و"مقبولة"، ترفض الحريات التي يحاول أن يمارسها معها، حتى تستطيع مجاملاته وملاطفاته ان "تبدل غضبها إلى انفعال اكثر رقة"، وبعد ان تجعله يعدها بالا يهجرها بعد ذلك، تسمح له بان يحل اربطة مشدها الداخلي. وحتى إذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من

عمرها خرجت لتوها من مدرسة الدير، لا نلمح هناك اي إيحاء بالصعوبات المعتادة، الجسدية والنفسية، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية "عدة ساعات لذيذة" او "نسلم انفسنا لنشوة من المتعة تدوم حتى انبلاج الصباح". هناك جو اشبه بجو الحلم يحلق حول جو هذه "المذكرات" باكملها.

—٨—

▣ لم يكن دونيللي صورة من "السنيورجاك كازانوفا دي سينكالت"، وكان هذا واضحاً. وكان الاحتياج إلى اكتشاف المزيد عنه قد اصبح شبيهاً بالتوتر الجسدي. ذهبت إلى حجرة الطعام، حيث احتفظ بكتبي التي تبحث في القانون وعلم الإجرام، ورحت أبحث حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية "قاتل جزيرة الآي" الإيرلندي. وكانت قضية عادية بقدر كبير. كان ويليام بورك كيروان فناناً عاش في بلدة "هووث" مع زوجته في عام ١٨٥٢، وفي عصر يوم من ايام سبتمبر، استاجرا ملاحاً بقاربه، لكي يجذف بهما إلى جزيرة "آي" الإيرلندية، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء "هووث"، وهي على مرمى البصر من مالاهايد. كان يوماً هادئ الجو، وفي الساعة السابع من المساء، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة. وفي الساعة الثامنة، وصل الملاح بقاربه مرة اخرى إلى الجزيرة، فوجد كيروان ما زال مشغولاً برسومه - وهذه واقعة تثير الشكوك، طالما ان الظلام كان قد هبط بالفعل. وقال كيروان انه ليس واثقاً من المكان الذي ذهبت إليه زوجته - وافترض أنها كانت في مكان ما على الجانب الآخر من الجزيرة، لا تزال تسبح. وبعد بحث عثروا عليها في بركة صخرية صغيرة ضحلة، وقد امتلأ وجهها بكدمات كثيرة، وامتلأت رئتاها بالماء. ورغم وضوح البينة على ان موتها كان نتيجة لحادث عارض، فإن الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت إلى تشريح جسدها. وأدين كيروان بتهمة قتل زوجته على اساس الأدلة المستمدة من الظروف نفسها، وكان قد زعم بانه لم يسمع الصرخات التي كان من الممكن ان تسمع من الشاطئ، وكانت له عشيقة وضعت له طفلاً في دبلن. وقد اعتقد كثير من الناس انه بريء، ثم استبدل حكم الإعدام الصادر ضده بحكم بالسجن مع الشغال الشاقة. وخرج بعد هذا من السجن لكي يتزوج عشيقته، ثم هاجر إلى أمريكا.

ذهبت إلى غرفة مكتبي، واشعلت المدفأة الكهربائية، وكتبت على الآلة الكاتبة خطاباً إلى ليزاك جينكينسون بيتس، لأقول لـه انني انوي ان اكتب عن قضية قاتل جزيرة "أي" الإيرلندية في كتب عن الجريمة وتساءلت إن كان في مقدوره ان يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان. ثم خرجت فهبطت التل وارسلت الخطاب بالبريد. وبعد ذلك، شعرت بما يكفي من الاسترخاء لكي اقرأ لموبسي قصة عن الأرنبة بيتر.

-٩-

■ استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، وتمشيت طويلاً حول بحيرة "روس" وحينما عدت أخبرتني ديانا، (اتصلت بك ميس دونيللي من جروم وتريدك ان تتصل بها لاحقاً).

-"هل كانت لهجتها ودية؟"

-"بشكل ما. تقول إنها كتبت لك خطاباً".

كان هناك صندوقان كبيران من الورق المقوى، مليئين بالرسائل التي وصلت في اثناء غيابنا، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية طاقة لفحصها جميعاً، وبينما راحت ديانا تعد لي إفطاري، من البيض والباكون، افرغت انا الصندوقين على ارضية غرفة المكتبة. قلت لموبسي أن تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت إلى ناشري أولاً ثم اعاد توجيهها إليّ - فإن مثل تلك الرسائل يمكن أن تنتظر. فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية، وعدة كتب من ناشرين يأملون لو انني اقتطفت منها فيستخدمون ذلك في إعلاناتهم (وللأسف، فإنهم نادراً ما يرسلون إلي الكتب التي اتمنى أن أحصل عليها مجاناً، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها المقالات الصحفية بشكل سيئ) واخيراً عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد "لايم ريك"، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح.

ولابد لي أن اعترف بأنني لم اكن صريحاً معها صراحة كاملة في الخطاب الذي ارسلته إليها في نيوهافن. فإنني لم أر فائدة من أن تصفق الأبواب في وجهي منذ البداية. ولهذا

فقد أخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن ايزموند دونيللي في أثناء جولة محاضراتي - وتركت لها أن تستنتج ان شخصاً ما من بين المستمعين إلى إحدى المحاضرات قد ذكر الاسم أمامي - وإنني أردت ان اكتب عنه مقالاً أو فصلاً في كتاب سأنشره في المستقبل. ثم خاطرت بذكر إنني قد تبادلت حديثاً مع الكولونيل دونيللي وانني رأيت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونيللي الكبير.

جعلني ردها أشعر بالخجل من نفسي. فإنها - بشكل وفور وإن لم يكن ودياً -، تقول انها كانت سعيدة عندما سمعت بأن جدها الأكبر لم يكن قد نسي بعد نسياناً كاملاً، وإنها قد امضت عدة سنوات في محاولة إقناع احد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات. وقالت انها وشقيقتها ستغتبطان لرؤيتي في أي وقت أذهب فيه إليهما. وفي نفس الوقت فإنهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ بأوراق دونيللي في خزانة خاصة لكي يأتي بتلك الأوراق إلى المنزل...

ومرة أخرى شعرت بوخزات الضمير، واجتاحني إحساس بالميل إلى تجاهل الأمر كله. ولكنني تذرعت بنظرة إلى المخطوط الذي كنت قد نزعت عنه غلافه بالفعل، وقررت انه سيكون من السخف أن اتخلى عن مغامرة كانت بداياتها مثمرة إلى هذا الحد. اتصلت بمركز التحويل الهاتفي وطلبت منهم أن يوصلوني برقم الآنسة دونيللي، اجابني صوت قاطع جاف وإن كان إنكليزياً بقوله،

-"آه، مستر سورم. كان عطفاً منك أن تتصل بي. لقد أخبرتني زوجتك بأنك لم تعد من امريكا إلا بالأمس، وفي وقت متأخر لابد أنك مجهد تماماً".

قلت إنني أشعر بأنني بخير، وسألتها متى تتوقعان وصول الأوراق من مكتب المحامي.

-"أوه. إنها هنا الآن. لقد كان سريعاً جداً. وكنا نقرأها الآن. إنها مادة أخاذة ببساطة. كيف تتوقع أن تسافر إلى هنا؟ بالقطار؟".

وحينما قلت انني سأسافر بالسيارة سألتني لماذا لا اقود سيارتي الآن فوراً لكي اتناول معهما طعام الغداء. نظرت إلى ساعتي وقلت لها إنني إن فعلت هذا فلن اصل قبل العصر. وقبل أن أنهي المكالمة قالت،

"أمل ألا تستاء إذا سألتك سؤالاً واحداً" وغاص قلبي في صدري بينما قالت: أمل ألا تكون مهتماً بأية قصة من الأقاصيص الرديئة التي تحكى عنه؟"

-"أقاصيص رديئة؟" هكذا تساءلت وأنا أشعر بنفسي واقعاً في شبكة عنكبوتية من المداورات وإنصاف الحقائق، ولكنها قالت:

-"لقد رأت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة، إنه كتاب عن جريمة القتل، فأمل ألا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونيللي واللادي ماري جليني؟"

وكنت قادراً على أن أقول، مع إحساس هائل من الارتياح، بأنني لم أسمع أبداً شيئاً من تلك الشائعات. قالت في صوت يشبه صوت رجال الأعمال:

-"حسنا. إنني سعيدة بأن أسمع هذا".

سمعت قرقعة صغيرة، ثم سمعتها تصيح: "تينا، هل تتسمعين على الخط الآخر؟"

-"أجل، يا عزيزتي".

-"لا أريدك ن تفعلي ذلك. فهذه عادة تبعث على الضيق".

وهنا أقفل الخط، نظرت في السماعة لعدة لحظات متسائلاً، ثم وضعته في مكانها.

—١٠—

▣ قبل أن أغادر المنزل، اتصلت بصديق قديم من جامعة غالواي، وهو البروفيسور كيفين روش. وقال لي مساعده أنه في بيته، فاتصلت به هناك.

-"هل تعرف شيئاً عن إيزموند دونيللي؟"

-"الشخص الذي كتب كتاباً عن افتضاض العذارى؟"

-"أتعتقد حقاً أنه كتبه؟"

-"لا أرى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك. الصفحة الأولى من نسختي تحمل اسمه".

-"هي لديك هنا؟ أيمكنني أن آتي لكي أراها؟"

-"بالتأكيد، متى تحب أن تأتي؟"

قلت: الآن". وفي خلال خمس وأربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب كيفين المطلة على خليج غالاوي، والتي يمكن أن أرى منها مشهداً جميلاً لغابتي أينيشمان وأينيشمور.

كنت قد قررت أن أمضي في سياستي القائمة على الصراحة، لأن الأخبار تنتقل بسرعة في إيرلندا. وهكذا، بعد ن تبادلنا التحيات، وقبلت كأساً صغيراً من نبيذ "باشميل"، ناولت كيفين مخطوطة "رفض فلسفة هيوم" وقلت له أنه قد طلب مني أن أعدها للنشر وأن أكتب لها مقدمة. قال:

-"إنها قصيرة، أليس كذلك؟"

-"أمل أن أعثر على أشياء أخرى، خطابات ومذكرات. إنني ذاهب الآن لكي أزور الأنستين دونيللي في باللي كاهان".

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعاً على مكتبه، كان صادراً عن دار "أوبليسك" للنشر في باريس، بعنوان: "عن افتضاض العذارى. تأليف: إيزموند دونيللي". وكانت هناك ملاحظة تمهيدية صغيرة موقعة باسم "هنري ف. ميللر" تكرر الحقائق التي عرفتها بالفعل عن دونيللي - تاريخ مولده ومكانه، وإشارة إلى مذكرات رحلاته، ثم يقرر حقيقة أن هذا الكتاب كان قد نشر بالألمانية وصدر عن دار نشر "بروكهوس" في لايبزيج (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٢٥، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الألمانية - بالإنكليزية في عام ١٨٦٣. فتحت الكتاب على فصل عنوانه: "حول خرافة أن كل النساء متشابهات في الظلام".

روبين، أتوسل إليك يا سيدي، أكمل تعاليمك، لأنني متعلق بكلماتك تعلقي بمعرفة مصيري.

لوردكوبالد، إنك تثير غروري، يا ولدي العزيز. ولكنني أجد جزائي الحق في اتفاقك معي على أهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة. علينا الآن أن ننظر في أمر الخرافة، التي روج لها كلود دي كريبيون ومستر كليلاند، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول: "كل القطط في الظلام، رمادية اللون". يمكنك أن تصدقني في هذا الأمر، حينما التفت إلى الوراء نحو حياة بأسرها في معرفة النساء، لم أتمكن من أن أتذكر أن امرأتين منهما كانتا متشابهتين حينا تنفرج السيقان. إنني لا أتحدث الآن فقط عن مناطق البهجة المنخفضة التي قد تكون ممتلئة أو بارزة العظام، لحيمة أو نحيفة، غائرة أو نافرة، ولكنني أتحدث عما ينبغي لي أن أدعوه بالروح التي تقيم في هذا المكان. وليس هناك رجل طيب الذهن يمكن أن يخلط بين نبيذ بروكواندي الداكن ونبيذ بوردو الأصهب، ويستطيع حتى الطفل أن يذكر الفرق بين التفاحة والكمثرى، رغم أن ثمرة قد تكون ناعمة كثيرة العصارة، وقد تكون أخرى صلبة جافة. هكذا الأمر مع النساء. تماماً مثلما تحكم على مذاق النبيذ من خلال الجرعة الأولى، فإن النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن أن تدرك بوضوح في حركة الملامسة الأولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الرأس القطيفي بينهما. لقد عرفت خادمات كن حادات وطازجات، مثل تفاحة تأكلها تحت ضوء القمر، وأخريات كن رطيبات ناعمات مثل كمثراة أو ثمرة خوخ. وأخريات ملمسهن صلب تستدير أجسادهن لحظة العناق، ولكن داخلهن كان حلو المذاق، مثل ثمرة شمام ناضجة...

وضعت الكتاب جانباً، ونظرت عبر المكتب إلى كيفين، الذي كان ما يزال مستغرقاً في قراءة مقالة "رفض لفلسفة هيوم". لو أنه قد رفع بصره إليه، لكنت جديراً بأن أقول: هذا شيء مزيف آخر. ربما يكون دونيللي هو كاتب الصفحة الأولى، لأنها تتميز بذلك الاقتحام السيكولوجي الذي أصبحت أعرفه وأتوقعه عنده. ولكن الفقرة، المكتوبة عن الشقيقتين تحمل لمسة من تأثير كتاب دي صاد "فلسفة في حجرة النوم". أما الجملة الأخيرة فتحمل أثراً قوياً عن القسوة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تبصر سيكولوجي واضح.

إلا أن كيفين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل، وكنت قد غيرت رأيي وقررت ألا أتكلم. فلو أنني وضحت الأسباب التي تدفعني إلى الظن بأن ما قرأته الآن كان عملاً مزيفاً لكان علي الاعتراف بأنني أعرف المزيد من أعمال دونيللي، وأني نتيجة لمقارنتي بأعماله التي أعرفها فإني أعتقد بأن هذه المخطوطة كانت عملاً مزيفاً. وهكذا، فقد أبديت - بدلاً من

هذا - بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية. أما كيفين نفسه فكان مغتبطاً بمقالة "الرفض" وسألني إن كان له أن يأمر بنسخها، لكي يكتب مقالاً حول تطور أسلوب دونيللي.

ووعدته بأن أتيح له فرصة الحصول عليها بعد أن أطلع الأنستين دونيللي على الموضوع، ثم تركته وانصرفت. كان النهار قد جاوز منتصفه، وكان علي أن أذهب إلى "ليمريك". وبعد أن جاوزت أورانمور فقط تذكرت أنني قد نسيت أن أسأله إن كان يعرف أي شيء عن فضيحة ذكر فيها اسم لادي ماري جليني.

تركت ديانا وموبسي في ليمريك حيث كان بإمكانهما أن يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع، ثم ركبت السيارة عن طريق كورك، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللته تحت شمس أبريل الساطعة. توقفت في بلدة "باللي كاهين" لكي أسأل عن قلعة دونيللي، فقيل لي إنني قد توغلت في الطريق إلى أبعد مما كان ينبغي لي، وإن علي أن أعود ثانية صوب بلدة "أدير" لكي أدور مع الطريق من ناحية معاكسة. وعلى هدي هذه التعليمات، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونيللي حوالي الساعة الثالثة.

ولم يكن البيت قلعة بالطبع، وإنما منزلاً من الطراز الذي ينسب إلى عصر الملكة آن، وقد شيد بأحجار فضية، وأحاطت بمدخله أعمدة كورينثية من صخور حمراء. وكانت الجدران مكسوة بالسناج، واكتسى المنزل بجو من الإهمال الشائع في المنازل الإيرلندية العظيمة، وبشكل خاص في مقاطعتي "كونوت، مونستر". قادني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الأربع عشرة إلى الباب الأمامي. كانت سطوح الدرجات المنحوتة غير مستوية حتى إنني تعجبت كيف يستطيع أي إنسان أن يصعد أو يهبط دون أن يلتوي كاحله. كان نهر "ماي" يجري إلى جانب المنزل، وإطلال دير أبي تنتصب عند الأفق. وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة أن هذا المنزل كان يبدو جديداً وجميلاً حينما ولد فيه دونيللي - لأنه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠، وأن الجدران لم تكن مكللة بالسناج كما هي الآن حينما كان هنا. كانت هذه "الذكرى" أشبه بالقفز إلى الوراء نحو الماضي، تولد عنها إحساس مزعج بجريان الزمن السريع.

وقبل أن أبلغ قمة الدرج، فتح الباب، وبدت وراءه سيدة قوية نشيطة في ثياب ركوب الخيل. كانت قد جمعت شعرها الرمادي بلون الحديد فوق رأسها، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات رولاند سون. وكانت مصافحتها قوية وثابتة مثل مصافحة الرجل. قالت:

-"أنا الين دونيللي. سعيدة لمقابلتك".

كانت لهجتها تتطابق ولهجة الطبقة العليا من الإنكليز، مع لمحة من اللهجة الإيرلندية تبدو في مخرجات الحروف. ثم أضافت تقول: "يسعدني، أنك جئت بالفعل".

كان المكان مقبضاً وبارداً، وبدا في مؤخرته سلم ضخم كثير الدرجات يؤدي إلى الأقسام العليا من المنزل التي يبدو أنها لم تعد تستعمل. كان هناك قدر كبير من المرمر الذي يتناقض بغرابة مع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان. ولكن غرفة المكتبة الواسعة التي قادتني إليها كانت تضم ناراً كبيرة في المدفأة. وكانت هناك سيدة أخرى، تعمل بإبرتها إلى جوار النار، وإن لاحت عليها سمات الرجولة هي الأخرى. قدمتها إلى السيدة الأولى باسم "ميس تينا". كانت ضئيلة الحجم، حلوة الوجه، ولابد أن الثياب النسائية كان يمكن أن تناسبها أكثر. وخمنت أن سراويل الركوب المنتفخة كانت بهدف الاحتماء من البرد. عرضا علي أن أشرب الشاي، ومضت ميس تينا لكي تعده. وقفت ميس آلين أمام النار، وقد باعدت ساقيها، ووضعت يديها وراء ظهرها، ودخلت معي في محاورة عامة حول الطقس والريف وما إلى ذلك. ثم تكلمنا حول أمريكا. وبدا عليها أنها شديدة التطلع إلى معرفة كل شيء عن أمريكا. وبعد عشر دقائق أو نحوها، قالت بطريقة عابرة أنها سمعت أن هناك من الأمريكيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع. قلت إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك فعلاً. سألت: كم يدفعون؟ فحاولت أن أخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت أن الشخص العادل من المحتمل أن يدفع خمسة وعشرين ألفاً لقاء هذا المنزل. سألت بسرعة: "جنيهات أم دولارات؟". قلت: جنيهات. وعند هذا بدا عليها أنها تفكر بجدية وباستغراق كاملين. وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي، مستخدمة طاقم شاي جميلاً من القرن الثامن عشر من المحتمل أن تكون كريستينا شقيقة روبين قد استخدمته بنفسها، تبينت فجأة لماذا كانتا مهتمتين إلى هذا الحد، بعملية إحياء ذكرى أيزموند دونيللي وإنعاش شهرته. لم يكن لهاتين المرأتين أي أطفال، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم

غير المريح، ثم يشتريان شقة جميلة في لندن، وبدا شعوري بالذنب - بسبب هذا البحث عن دونيللي - يتناقص. إن نشر كتاب "مذكرات آفاق إيرلندي" يمكن بالتأكيد أن يزيد من شهرة جدهما أكثر مما يمكن أن يزيدها كتاب مذكرات الرحلات أو مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

سألتني ميس تينا عن كولونيل دونيللي، فأخبرتها بالقليل عن أطوار حياته في السنوات الأخيرة. وبدا عليها الحزن الشديد. قالت أختها:

-"يا للرجل المسكين، علينا حقاً أن نكتب إليه يا آلين".

-"ربما. يبدو أنني أتذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات حوله. هل وجدته غريباً أو شاذاً يا مستر سورم؟"

قلت: "كلا، بأي شكل من الأشكال".

قالت ميس آلين وقد غرقت في التفكير ثانية: "بالطبع. إنه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية".

كان بوسعي أن أرى أنها تفكر في الزواج — ربما من أجل تينا. وخطر لي أن الكولونيل دونيللي ربما أعجب بآلين، فقد بدت كما لو كان تملك يداً ماهرة في الإمساك بسوط الركوب القصير. وسجلت ملاحظة باطنية لكي أتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونيللي.

قالت ميس إيلي: "حسناً" إذا كانت زوجتك في إيمريك، فإنك بالتأكيد لا تريد أن تقضي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما أعتقد. إن ليمريك هذه بحق مكان مخيف. هناك الكثير من المتهوسين اللاعنين. لقد أحرقوا أحد أجدادي قديماً في عام ١٥٤٠. إنه الأسقف دونيللي المعروف باسم جو المقدس. لم ترق لهم مواقفه وآراؤه السياسية".

قادتني وهي تتحدث إلى حجرة صغيرة ملحقة بالمكتبة. كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد، ولذلك فإن الغرفة لم تكن شديدة البرودة، كذلك فإن الحجرة كانت قد نالت شيئاً من دفء الشمس التي مالت إلى الغرب. على مائدة صغيرة كانت هناك مجموعتان كبيرتان للأوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل

الكتاب. فتحت إحدى المجموعتين، فتسارعت نبضات قلبي وأنا أحاول التعرف على "الخط" الذي كتبت به الصفحة الأولى من الأوراق الصفراء الكبيرة الحجم. قالت مس إيلين:

"لقد وضعت قصاصات من الورق في الأماكن التي ظننت إنها قد تثير اهتمامك أكثر من غيرها. إنه يصبح في غاية الإبداع والجمال عندما يبدأ بالوصف. حسناً، سوف أتركك الآن مع المخطوطة، وسوف تظل تينا في المكتبة لكي تناديها إذا احتجت إلى شيء ما".

تركتني بعد هذا بمفردي، وبدأت أنا القراءة - بسرعة - على الفور:

"شارع جراند شوميير، ١١ سبتمبر ١٧٦٦.

(أي حينما كان دونيللي في الثامنة عشرة على الأرجح)

"بابا العزيز"

كان خطاب التوصية الموجه إلى مسيو بليزيو مفيداً للغاية، وقد تناولت العشاء مع أسرته في الليلة الماضية. وهو يبعث إليك بأرق تمنياته وأفضلها. لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الأعوام الماضية، ولكنه ما زال يعيش طبقاً لما تفرضه التقاليد والأوضاع المقررة تماماً. إنه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب إصابته بمرض النقرس، وقد اصطحبتني مدام ليزيو وابنتاها اللطيفتان في نزهة على الأقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مدهشة ومتفردة إلى أقصى حد. هذه المقاهي لا تزدحم بالداخل فقط، إنما توجد حشود أخرى خارجها وثالثة تطل من النوافذ المرتفعة أيضاً، يستمعون جميعاً في "فضول دون مبالاة" إلى مغنين وعازفين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعد التي يعتلونها...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة. كان في مجموعه ممتعاً، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن أن تتوقعه في كتابات هوراس والبول أو آرثر يونغ، كان من الواضح أنه خطاب شاب يرغب بشدة في أن يؤكد أنه لا يضيع حياته ولا أمواله سدى. ونظرت سريعاً إلى الخطابات الأخرى، ورحت أنتقي خطاباً من هنا وآخر من هناك عشوائياً لكي أقرأه كله. ومن خلال القراءة، تعمق لدي إحساس بخيبة الأمل. لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن بوسعي أن أجده في "يوميات الرحلات". وفي الحقيقة، لا يمكن أن يكون

-"ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونيللي كان "عضواً في جماعة العنقاء ذا ميول شريرة لا تخبو".. إنما برزت من خلالها في صورة الشخص المحترم الوقور".

قالت: "أوه، لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً".

-"لم لا؟".

-"أوه، لا أعرف، كانت هناك أقاصيص - شائعات، لا شيء محدد تحديداً كاملاً. لقد أمضى أوقاتاً كثيراً في سويسرا وإيطاليا، أليس كذلك؟

وأنا أعتقد أن الناس كانوا أشراراً إلى حد ما في ذلك الوقت".

قالت عباراتها الأخيرة في كآبة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منعكسة بوضوح. وبعد لحظة إضافة تقول:

-"طبعاً، لابد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من التورية. فإن غلاف مذكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء".

فكرت في هذا للحظة خاطفة، ثم قلت:

-"كلا، إن هذا مستحيل. لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٧٨٣. وقد صدرت الطبعة الأولى من مذكرات الرحلات في عام ١٧٩١".

-"لا أظن هذا صحيحاً. وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ. أتسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها؟ فعينان ليستا على ما يرام..

ذهبنا إلى المكتبة، فقالت بغموض ودود تحديد:

"يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه..".

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام. أخذت سلم المكتبة الذي كان مستنداً إلى أحد الجدران، وتسلقته إلى الرف الذي أشارت إليه. مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أصل إلى عدد من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونيللي على "كعب" كل مجلد. وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب -

من يوميات الرحلات التي كنت قد رأيتها عند الكولونيل دونيللي. وكانت هناك طبعة أخرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٣، ووردت فيها ملاحظة تقول: "الطبعة الثالثة". وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان. وكان عنوانه: "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" تأليف إيزموند دونيللي، طبع من أجل ج. ج. جونسون (ثم قائمة كبيرة بأسماء أخرى)، لندن، ١٧٧١، كان الغلاف الأمامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها، وقد رسمت بالأسلوب المعهود لرسم الشعارات الذي يمكن أن تراه على أوراق الرسائل القديمة. وحينما حدقت فيه خطر لي أن الريش المنتصب على صدر الطائر يمكن أن ينظر إليه أحد أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزاً للعضو الجنسي المذكر. إن الريش على صدر الطائر العادي، على أي حال، لابد أن يكون تجاهه إلى أسفل، بينما تكون أطرافه ناعمة مستديرة، أما هذا الريش فكان منتصباً إلى أعلى، وأخذت أطرافه شكل أصابع "السحق". قلت:

-"من الغريب أن أحداً لم يذكر هذه الطبعة من قبل، ولا يبدو أن الكولونيل دونيللي يعرف عنها شيئاً".

-"هذا محتمل. وأنا أعتقد أن كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت".

-"لماذا؟"

-"لقد شب حريق ما. وسوف تجده مذكوراً في أحد الخطابات. لقد رأيت هذا الخطاب بالأمس فقط".

هبطت من فوق السلم، حاملاً معي الكتاب. وذهبت ميس تينا إلى الحجرة الأخرى، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الأخيرة من أحد الخطابات. كانت الورقة تقول:

"كارثة! لقد أخبرني توك الآن بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها. وإنني لسعيد الحظ لأن هذه الحادثة لم تكلفني شيئاً.

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١. إذن فإن هذا ما يفسر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وإنكلترا" ظل مجهولاً دون أن يسمع به أحد. وبالإضافة إلى هذا، فإن حتى هذه النسخة، مثلما يمكنني أن أرى، لم تقرأ قراءة كاملة من البداية إلى النهاية، لأن كثيراً من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد. رحت أقلب الصفحات حتى توقفت عيناي على كلمة "عنقاء". قلبت ثاني إلى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها. في هايدلبرج انكسرت العربة التي كان من المفروض أن يستقلها دونيللي في رحلة خارج المدينة. وقال له صاحب الفندق إنه لم يكن من الممكن أن يوفر له عربة أخرى، ولكنه أخبره بأن الخوري المحلي، القس كرايز يملك عربة يؤجرها أحياناً للضيوف المرموقين. وعثر دونيللي على كرايز في حديقته يتطلع إلى براعم الزنابق، فأخذه لكي يرى العربة التي كانت موجودة في حظيرة قريبة. وقال الخوري أن العربة لم تستخدم طوال الشتاء وإنها قد تكون مترية مبللة، ونظر دونيللي إليها وقرر أنها ستكون عربة جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها. ورفض الخوري أن يأخذ نقوداً إيجاراً لعربته. وفي طريق الخروج من الحظيرة، لاحظ دونيللي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الأرض وقد غطى القش نصفها. وسأل الخوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان، فقيل له إنها كانت ضمن صفقة أثاث كان قد اشتراها من مزاد منذ أكثر من عام. ولما شعر بأنها شيء لا يتلاءم مع خوري محترم فقد ألقى بها إلى الحظيرة. وفي شيء من الدهشة سأل دونيللي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع قس محترم.

"بدت عليه الدهشة لجهلي، وسألني إن كنت لا أعلم إن هذا الطائر كان رمزاً لجماعة من الهراطقة المجدفين، يعرفون أحياناً باسم "أخوة الروح الحرة" وأحياناً يعرفون باسم "جماعة العنقاء"، وأجبته بأنني لا أعرف إلا أن النقاء كانت تستخدم أحياناً كرمز يعلق على دكاكين العطارة أو الصيدليات، وأنني كنت أفترض أن لهذه الصورة مغزى كيمائياً من نوع ما. وهنا راح الرجل العليم يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء. فقال إنها ظهرت في أوروبا في عصر الطاعون (الموت الأسود)، حينما شاع اعتقاد يقول بأن الإغراق في اللذة الجسدية وشهوتها وقاية مؤكدة من المرض. وكانت الحجة الأساسية لهذا الاعتقاد تقول: إنه لا يمكن أن تكون هناك روحانية أصيلة من دون أن تكون هناك روح داخلية عالية الشفافية. إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يعرف الحقيقة بينما هو يتطلع إلى الخارج نحو ما يحيط بروحه، مغرقاً نفسه في الأشياء الخارجية. إن الروح في ذروة اللذة الجنسية - تكون أكثر تركيزاً منها في أي لحظة أخرى. وقد اعتقد "أخوة الروح الحرة" إن "الله" كامن في

كل مكان وفي كل شيء. وإن كل اختلاجة من اختلاجات البهجة إنما هي كشف من الله. وارتكازاً على هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون كل أشكال الإسراف الشهواني، ويحدث هذا أحياناً فوق المذبح نفسه. وقد اقتلعت محاكم التفتيش هذه التعاليم من جذورها بقسوة عنيفة، ولكن ثبت أن "جماعة العنقاء" كانت تحمل الطبيعة الأسطورية التي نسبت إلى الطائر الذي اتخذته رمزاً لها، فبرزت من جديد، مرة بعد أخرى، من وسط رماد عمود الإحراق الذي مات عليه بعض أعضائها. وطبقاً لما قاله هيرودوتس من أن عمر العنقاء يبلغ خمسمائة عام، فإننا يمكن أن نؤكد بثقة أن هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الأقل لمدة قرن آخر.

واجهته بأنني قرأت في رسالة سانت كليمانت الرماني إلى أهل كورنثه قوله أن العنقاء رمز للبعث المسيحي، ولكن الرجل الطيب أجابني بأن هذا نوع من الشيطنة البابوية، وأن كل الناس يعرفون بأن سانت كليمانت قد قيد إلى مرساة سفينة وألقي به في البحر كعقاب له على مبالغاته. وحينئذ عرضت عليه أن أخلصه أو أريحه من أمر هذا الرمز للانحطاط البابوي، فاتفقنا على ثلاثة تاليرات ثمناً للصورة الخشبية".

كانت هذه هي نهاية الفقرة، ثم لا أذكر ما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب. نقلت الفقرة كلها بخط اليد ثم ذهبت إلى المكتبة وسألت ميس تينا إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي أن مثل هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً ملائماً لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مذكرات دونيللي. قالت إنها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة أبداً، ولكنها أبدت استعدادها لسؤال شقيقتها. وقبل أن أتمكن من إيقافها كانت قد غادرت الحجرة. جلست على ذراع أحد المقاعد، ورحت أتطلع إلى "الملاحظات" دون اهتمام. انزلق الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الأرض، فوقف على حافته وقد انفتحت صفحاته. وحينما كنت التقطه، أدهشني أن شعرت بأن الغلاف الخلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف لأمامي، والأكثر من هذا، كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق، وعلى عكس الورقة المقابلة للغلاف الأمامي، فإنها لم تكن ملتصقة بالورقة الأخيرة من الكتاب. ثنيت الغلاف بخفة، لكي أرى السبب الذي جعله مفتوحاً بهذا الشكل، فتبينت أنه يوجد ثمة جيب بين الغلاف المصنوع من الورق المقوى وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه، وكان الجيب قد صنع بإلصاق

الأطراف الخارجية لهذه الورقة إلى الورق المقوى. وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية. سحبت الورقة من مكانها وفتحتها. كانت الورقة من نوع ممتاز، شديدة البياض وشديدة الرقة، ولم تكن تحتوي إلا على رسم رقيق لعنقاء طالعة من عشها الملتهب بالنار، وكتب تحت الرسم relix qui potuit rerum cogroseere causas وهي جملة لاتينية استطعت أن أتذكر أنها مقتطعة من المعنى الذي أورده فيرجيل: "سعيد هو الرجل الذي استطاع أن يكتشف أسباب الأشياء". أما ما أثر في حقاً فكان الطائر نفسه كان الجناحان وريش الذيل من الذهب، مثلما كان اللهب المتصاعدة من العش. أما بقية جسد الطائر فكان مرسوماً بالدقة التي تراها في رسوم بليك. وفي الركن الأسفل إلى اليمين، وبخط إيزموند دونيللي الذي لا يمكن أن أخطئه كانت جملة تقول:

"تسلمها في ١ سبتمبر ١٧٧١". ولو أن هذا التاريخ لم يكن مذكوراً لكان من العسير علي أن أصدق أن الرسم لم يكن أحدث عهداً به بكثير، لأن الورقة كانت أكثر بياضاً ورقة من كل ما رأيت من أوراق تلك الفترة من التاريخ، ولم يكن يبدو عليها أي سمة من سمات تقادم الزمن.

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها، فدسست الورقة في الكتاب. قالت لي إنه من المؤكد أن ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، إلا إذا كانت مخبأة في إحدى الغرف العلوية المغلقة. شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من إزعاج، ثم أعدت كتاب "الملاحظات" إلى مكانه على الرف. دخلت ميس ألين وسألتني عن تقدم عملي، ثم بدت عليها خيبة الأمل بوضوح حينما قلت أن علي أن أرحل فوراً. أكدت لها أنني وجدت عدداً كبيراً من المعلومات القيمة بين الأوراق،واطلعتها على كراسة مذكراتي لكي أثبت ذلك. اصطحبتني الشقيقتان معاً إلى باب المنزل، وقالتا لي أن أعود في أي وقت.

قدت سيارتي إلى ليمريك وأنا غارق في أفكار متضاربة، ربما يمكن أن يقال أن هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة، ولكن هذا القول لا يمكن أن يكون صائباً كل الصواب. لقد عرفت أن شخصية إيزموند كانت ذات جانبين: الابن البار المخلص وكاتب يوميات الرحلات الدؤوب، ثم "المسافر الشبق" إذا حق لنا أن نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون. ولا يمكن لأي دارس يدرس المادة الموجودة في قلعة دونيللي أن يخمن وجود المسافر الشبق.

ثم لقد كان هناك اللغز الصغير الذي تمثله صورة العنقاء. تحدثت بشأنه مع ديانا بينما كنا نعود بالسيارة إلى غالاواي. إن الخطابات تقرر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١. أما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة العنقاء الخشبية - فقد وقعت في شهر أغسطس من العام السابق. ولسبب ما، استخدم دونللي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - ربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الأصل عن تلك التي اشتراها من الخوري في هايدلبرج. وفي اليوم الأول من سبتمبر "تسلم" رسم العنقاء الجميل الذي رأيته مرفقاً به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف أسباب الأشياء. ومن المفترض أن هذا معناه أنه قد تسلم الرسم عن طريق البريد. واعترضت ديانا قائلة أن المعنى الأقرب أن دونيللي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد كلفه بصنعه. ولم أوافقها على ذلك بقولي فلو كان هذا صحيحاً فلماذا كلف نفسه عناء كتابة: "تسلمته في ١ سبتمبر". ولو أنني تسلمت بالبريد كتاباً كنت قد طلبته، فإنني بالفعل قد أكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله، ولكنني لا أكتب "تسلمته" لأنه من الواضح أنني قد تسلمته. إننا نستخدم كلمة "تسلمته" "تم تسلمه" لكي نوضح عملية دفع قيمة لصكوك، أو للتحدث عن خطاب أو رزمة. أما نظريتي فهي أن إيزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقع من جانبه، أن الرسم وصله دون توقيع ودون أن يحمل اسم صانعه - وإلا لكان بالتأكيد قد كتب: "تسلمته من فلان أو فلان" أو حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي أرفق به.

إذن فمن الذي يحتمل أن يكون قد أرسل الرسم؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزاً؟ أو - وأنا أعتقد أن هذا قد يكون مقنعاً أيضاً - أحد أعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايز قد ذكره؟ كان الاحتمال الأخير احتمالاً مثيراً، رغم أنه لا يمكن إلا أن يكون احتمالاً بعيداً. وقالت ديانا أنه احتمال بعيد بقدر بُعد احتمال أن تكون إحدى السيدات قد أرسلت إليه الرسم هدية أو تذكاراً ربما أرفقت به رسالة غرامية. تمنيت لو أنني قد فحصته بدقة أكثر. فربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل أو بآخر إلى أصلها. أليس من المحتمل أن ورقة ثمينة من هذا النوع لابد أن تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغاً في نسيجه الداخلي؟ وكان علي أيضاً بالطبع أن أقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار أو الرمز الذي حمله غلاف الكتاب. ولو أنهما كانا متطابقين، لكان هذا حجة مؤكدة

تشير إلى أن إيزموند قد كلف شخصاً ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد اشترى صورته من القسيس كرايز.

وكانت هناك أيضاً تلك الحقيقة العجيبة القائلة بأن إيزموند قد كتب يقول إن نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد أقل من أسبوعين من تسلم رسم العنقاء. ومن المحتمل أيضاً أنه من الأمور ذات المغزى - أو غير ذات المغزى على الإطلاق - إنه ربما كان قد عاد إلى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد ذلك أو أنه لم يستخدمه بعد ذلك أبداً - إنني أعرف على الأقل أن هذا الرمز لم يكن موجوداً على طبعة مذكرات الرحلات التي رأيت نسخة منها في لويزيانا، أو على تلك الطبعة التي رأيتها في قلعة دونيللي.

ولم تكن لدي أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يتحقق من أن مثل هذا الحريق قد حدث أبداً. كان هناك افتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج جونسون، ومحاولة اقتفاء آثارها. ووجدت أن هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع، فإنني لا أملك الموهبة اللازمة للقيام بهذا النوع من الأعمال البوليسية. ومن سوء الحظ أن بوزويل كان في أدنبرة يتلقى تدريباً على أعمال المحاماة في السنوات بين ١٧٦٩-١٧٧٢، وإلا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئاً عن ذلك الحريق - طالما أن ج. ج جونسون كان أيضاً هو الناشر الخاص للدكتور جونسون.

-١١-

▣ هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل أيامي التالية لزيارتي لقلعة دونيللي خالية من أي شيء ذي أهمية يتعلق بهذه القصة. كانت خطابات دونيللي هي أملي الذي تعلقت به، أما الآن فلم أكن واثقاً مما ينبغي علي أن أقوم به بعد هذا. طلبت بالتليفون أو زرت كل مكتبة عامة بين مدينتي كورك وسليكو. كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من "مذكرات الرحلات" ولكن لم يكن لدى إحداها أي شيء آخر. وحاول كيفين روش أن يقدم نوعاً من العون، مقترحاً اللجوء إلى بعض معارفه من الأكاديميين الذين ربما كانوا يعرفون شيئاً عن دونيللي، ولكن لم يؤد أي من هذه الاقتراحات إلى شيء نافع. كتبت إلى تيم موريسون في المتحف البريطاني، وإلى كل بائع كتب قديمة أعرفه. ورغم أن تيم كان

عاجزاً عن اكتشاف مزيد من المراجع التي تشير إلى دونيللي، فإنه كان قادراً على إضافة فقرة واحدة إلى "الملف" الخاص لدي بجماعة العنقاء. وكان ما كتبه كما يلي:

"لقد تبادلت حديثاً مع تيد مالوري، وهو خبيرنا المتخصص في شؤون الكنيسة في العصور الوسطى، ودار حديثنا حول ما أسميته "جماعة العنقاء" وكانت لديه نتف مفيدة من المعلومات. قال لي إنه ليس هناك دليل يثبت أن جماعة العنقاء وأخوة الروح الحرة كانا شيئاً واحداً. فقد كانت هذه الأخيرة جماعة من الهراطقة المجدفين، أسسها رجل يدعى أمريك دي بينما كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٢٠٤ ومات في عام ١٢٠٩. وكان أساس تعاليمهم أن الإنسان يمتزج في الله عن طريق العشق، وإنه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للإنسان. ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة، وأحرق عدد كبير منهم على أعمدة منصات الإحراق، وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارغريت من هيتولن، وهي راهبة مزيفة، يبدو أنها كانت مصابة بداء الشبق أو الغلمة".

أما الإشارة الوحيدة إلى جماعة العنقاء التي استطاع تيد أن يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٣٣-١٥٠٨) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية. وهذه هي ترجمتها عن الألمانية من طبعة عام ١٩٠٢، وهي ترجمة بدائية جداً وخشنة:

"من الأفكار التي شاع اعتناقها في أوقات مختلفة أن المعتقدات الخارجة على العقيدة الصحيحة والهرطقية لا تهدد بالخطر سوى أولئك الذين يعتنقونها، ولا أولئك الذين يتصلون بأولين أو يقعون تحت سيطرتهم. ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا إن الله يبغضهم في حد ذاتهم، وأنهم قد يتسببون في عذاب (أو معاقبة) الأبرياء. وإن حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيميريشنسيك لتقدم أكثر الأمثلة رعباً على ذلك. لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء أن يحصلوا على الكشف الإلهي المقدس من خلال اللذة الجسدية بدلاً من الصلاة. وأن قريتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة أسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة. ثم كان أن أرسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعاً ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد السكيثيين الشماليين وعرضها، ومن ثم في العالم كله. وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨".

وبهذه المناسبة، قد يكون من الأمور الهامة بالنسبة لك أن تعرف أن الأثري الروسي تشوفولسون يؤمن بأن الموت الأسود (الطاعون) قد بدأ في معسكر نسطوري بالقرب من بحيرة أسيك - كول فيمقاطعة سيميريشنسيك - وهي مقاطعة في بلاد القرغيز بالقرب من

حدود الصين والهند. وقد دافع عن هذا الرأي وأيده البروفسور ر. بوليتزير في مقالته "الطاعون" في نشرة منظمة الصحة العالمية الصادرة في جنيف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ١٣".

كان كل هذا ساحراً للب بالطبع، ولكنه أثار عدداً من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بحيث أنه كان أيضاً دافعاً إلى الشعور بالإحباط والخيبة. من الذي أنشأ جماعة العنقاء، ولماذا؟ ماذا كانت تعاليمها؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقية، الوالدنيين، والإلبيجانيين، والخليسقيين - وقد اتهم الآخرون دائماً بأنهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محموم تتحول إلى ممارسة جنسية جماعية مسعورة. فإذا كان ينظر إلى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الأسود، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية؟

ولم يكن هذا بعيداً عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره. فلو أنني لم أستطع أن أعثر على المزيد من المعلومات عن إيزموند دونيللي، فإنني قد أتمكن على الأقل من تغذية مقدمتي بمثل هذه المادة. أما فيما يتعلق بالنص نفسه فإنه يمكن أن يتكون من مقتطفا من كتاب "عن افتضاض العذارى" ومن كتاب فليشر المتحول، "م.س". بالإضافة إلى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونيللي، بالإضافة إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم". وكان معنى هذا أن مشكلتي الأساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لمقدمتي.

في يوم السبت التالي لعودتنا من أمريكا، وقعت إحدى تلك المصادفات التي تعلمت منها أن أسلم ببعض الأشياء التي تتضمن أي نوع من أنواع الهواجس أو الأفكار المتسلطة. كانت ديانا، وماري التي تأتي يومياً لمعاونتنا في شؤون المنزل، تفحصان صندوقاً قديماً مليئاً بالخطابات، واضعتين في اعتبارهما أن تلقيا إلى النار بأكبر عدد ممكن منها. والتقطت موبسي خطاباً يحمل علامة خاتم على شيء من الدقة تعبر طرفه الأعلى، وتمثل العلامة صورة الحية ملتفة حول جذع شجرة التفاح، وهي تهمس لحواء. وبالطريقة التي يتصرف بها الأطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه، جاءت موبسي إلى حجرة المكتب حيث كنت جالساً أكتب وقالت: "انظر إلى ما جئت لك به، يا بابا". وظننت أن ديانا هي التي أرسلت الخطاب معها فألقيت نظرة سريعة إلى التوقيع وقرأت: "كلوس دنكلمان" ثم نظرت إلى الخطاب نفسه. كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطاباً متملقاً حول كتاب

"اليوميات الجنسية" الذي كان قد صدر في فترة باكرة من ذلك العام، وكان كاتب الخطاب يسألني إن كنت على علم بأعمال ويلهلم رايخ، ثم راح يسجل عناوين كتب ينبغي عليّ في رأيه أن أقرأها. كان خطاباً من نوع مألوف، وحتى بالنسبة إلى الإيحاء بأن كاتب الخطاب يملك الكثير الذي يمكنه أن يعلمني إياه لو أنني عنيت بأن أصغي إليه، وإن علينا أن نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة. وكانت ديانا قد كتبت عليه بخط مهوش:

"تمت الإجابة عليه ٦٠/١١/٩" واعتقد أنني قد شكرته على اقتراحاته، ووعدته بأن أقرأ الكتب التي ذكرها. وكنت على وشك أن ألقي الخطاب في سلة المهملات القائمة إلى جواري حينما التقطت عيني اسم "آ. دونيللي". وكانت الجملة تقول: "من الطبيعي أن تكون أفكار كورنر قد أثارتها كتابات مفكرين متعددين: دي صاد وكراولي و"آ. دونيللي" وكيرارار وإدوارد سيلون.. الخ". من الواضح أن كورنر كان تلميذاً لرايخ الذي اعتقد أن النشوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية.

وكان العنوان على الخطاب هو "كومبلين جاردنز، هامبستيد الغربية". وبدا لي أنه من غير المتوقع أن يكون كاتب الخطاب ما يزال مقيماً في نفس العنوان بعد تسع سنوات ولكن الأمر كان يستحق المحاولة، وهكذا فقد كتبت إليه خطاباً أذكر له فيه اهتمامي بدونيللي.

وفي يوم الاثنين التالي، كان عليّ أن أفكر من جيد في المشكلة المحرجة التي تمثلها الأنستان دونيللي القيمتان في قلعة دونيللي. وصل خطاب في ذلك اليوم، يحمل توقيعيهما معاً، ولكن يمكن أن نفترض أن كاتبته هي ميس ألين. قالت إن مقابلتها لي كانت أمراً ممتعاً، وكيف أنها كانت قادرة على أن ترى من لمحة واحدة أنني كنت جديراً بالثقة وأن سمعة إيزموند سوف تكون في أمان بين يدي. رحت أئن تحت وطأ شعوري بالحرج وأنا أقرأ الخطاب. كانت مسرورة من أن كاتباً له مثل سمعتي قد اهتم - في النهاية - بإيزموند وشعرت بأنني سأكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له.. ألقيت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي. كان عزمي الأول أن ألقي به في سلة المهملات وأن أنساه. راودتني فكرة أنه ليس سوى نوع لعين من المضايقة وأنهما يجب أن تتركاني وشأني. إن لدي أشياء أخرى أقوم بها أفضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها. ومن الطبيعي أن يكون إحياء الاهتمام بإيزموند شيئاً في صالحهما إلى درجة عظيمة،

فإنهما سوف تكونان قادرتين على بيع أوراقه إلى إحدى الجامعات الأمريكية بمبلغ كبير من المال.

إلا أن المشكلة ظلت تؤرقني. كنت قد عقدت العزم ألا أعود إلى الاتصال بهما ثانية. وعلى كل حال، فإنني لم أستفد في شيء بأي جزء من المادة التي تملكانها. إنني لست مديناً لهما بشيء. وعليّ الآن أن أمعن في الخداع، أو أن أقوم بعمل من أعمال كبح النفس بأن أتجاهل خطابها. وفجأة قررت أنه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط، أن أخبرهما بالحقيقة كاملة. ارتديت بسرعة ثوباً منزلياً وهرعت إلى حجرة المكتب، متلهفاً على الخلاص من هذه الفكرة بتنفيذها. كان خطاباً طويلاً - وكان لابد له أن يكون بمثل هذا الطول، طالما أنني كنت مصمماً على التحلل من حملي. بدأت بالإشارة إلى أنها لابد تعرف أن كتاب "عن اقتضاض العذارى" كان منسوباً إلى دونيللي - بل إنني رأيت منه نسخة في بيت أستاذ في غالاواي. وأخبرتها بأمر الناشر في نيويورك، وشرحت لها أنه كان مصمماً على المضي في هذا العمل على أي حال، سواء تعاونت معه أم لا. وبينت لها أن مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور، وأنه في تقديري الخاص، ليس هناك سبيل لتبرئة ذمة إيزموند، في ظل الظروف الحقيقية القائمة، سوى نشر أكبر عدد مكن من أعماله الأصيلة الحقيقية. وبصراحة أيضاً أخبرتها بأنه لم يكن ثمة في الأوراق التي تملكها ما يمكن أن يكون ذا نفع لي، طالما أن خطاباته التي كان يرسلها إلى بيته كانت خالية من كل ما يدعو إلى اللوم، بالقدر الذي لابد لكل إنسان أن يتوقعه.

وفي طريقي إلى صندوق البريد قلت لنفسي أنه من المحتمل أن يكون ما أفعله الآن عملاً غبياً. إنني لم أذكر ما أقوم به لديانا، طالما أنني كنت واثقاً من أنها ستبذل جهدها لكي تمنعني نه. بل إن ميس دنيللي قد تكتب خطاباً إلى الناشر وإلى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروعي فتحجب عني كل مصادر المعلومات. ولكن كانت هذه المخاطرة لابد لي من القيام بها وتحمل نتائجها. أسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعراً بإحساس الرجل الذي يسدد مسدساً إلى رأسه بنفسه.

وفي الصباح التالي، كنت ما أزال مخدراً من أثر النوم حينما دق جرس التليفون. رفعت ديانا السماعة الموضوعة إلى جوار الفراش ثم قالت:

-"ميس ألين دونيللي تريد أن تكلمك".

كانت تتملكني حالة من الضجر، وشعرت بما يغريني أن أطلب منها إبلاغها أنني لست في المنزل، ولكن ضميري تدخل وكسب الموقف، وقلت أنها لو اختلفت معي، فسوف أستطيع على الأقل أن أمضي في خطتي دون أن أكره نفسي.

جاء صوتها في التليفون: "هيللو، مستر سورم؟"

-"هو الذي يتكلم".

-"لقد تسلمت خطابك الآن تواً. إنني شديدة السرور لأنك كنت صريحاً معي إلى هذا الحد. هذا منتهى الرقة والدماثة من جانبك. لقد طلبتك الآن لكي أقول لك إنني أفهم ما تقصده تماماً".

-"أتفهمين قصدي حقاً؟"

كنت مبهور الأنفاس للمفاجأة، وكنت أتساءل متعجباً عما ترمي إليه في النهاية.

-"اسمع. أستنتج مما تقوله أنه ليس هناك الكثير الذي تستطيع عمله مع ذلك الناشر".

-"أخشى أن يكون الوضع بهذا الشكل".

-"حسناً، بالضبط. إذن فإن أحسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من أن الأمور لن تفلت من أيدينا. علينا أن نحرص على مراقبته باستمرار. لقد اتفقت أنا وتينا أن علينا أن نقدم كل مساعدة ممكنة".

قلت أنني أشعر بالابتهاج بالطبع. ولكني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقوله أو أفكر فيه. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستجمع أفكاري ولكنها لم تمنحني الفرصة.

-"إننا نود أن نناقش هذا الأمر معك. متى يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

-"أي وقت ملائم لكما سيكون ملائماً لي".

-"ما رأيك في اليوم بعد عدة ساعات؟".

قلت إنني موافق على هذا، وشعرت بموجة من الراحة تجتاحني حينما أنهت المكالمة وانقطع خط الاتصال.

في تلك اللحظات كانت ديانا قد أعدت الشاي وكنت قد بدأت أفهم ما حدث. إن الشقيقتين دونيللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر "اليوميات الجنسية" التي كتبها إيزموند، وخاصة إذا ما استطاعتا أن تبيعا المنزل. وقد أكدت لهما أن اليوميات لم تكن مجرد أدب داعر مكشوف، وأنها قد تؤدي إلى خطوة حقيقية نحو بعث سمعة إيزموند، وأن في هذه الأيام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يطرف أحد جفنه إزاء نشرها. وكنت قد أشرت إلى مذكرات بوزويل وما إليها، ولابد أن ميس إلين قد قررت أنه من الأفضل لها ولأختها أن تدخلا غمار هذه التجربة وأن يكونا في مقدمة المتلهفين والساعين في خوض التجربة، واكشف عما يمكن الكشف عنه. ومن المؤكد أن الكشف الكامل عن أوراقها سوف يكون نافعاً في كتابة الجانب التاريخي عن حياة إيزموند في المقدمة. ولكنها إذا كانت تأمل في إقناع فليشر بدفع خمسة عشر ألف دولار أخرى في مقابل استخدام تلك الأوراق وما تملكه من مواد عن إيزموند، فإنها لابد ستنتهي بآمالها إلى الإخفاق والخيبة.

كنت أشعر بكآبة لا حد لها وأنا أقود السيارة إلى ليمريك بعد ساعات قليلة من منتصف النهار، وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيفين روش واستعرت منه نسخته من كتاب "عن افتضاض العذارى". وكنت أحمل معي الآن الشذرات الأخرى من "اليوميات الجنسية"، ربما في ذلك مخطوط فليشر الأصلية. ولكنه كان يوماً جميلاً. كانت رائحة الهواء طازجة وبدا كل شيء مجللاً باللون الأخضر حتى لقد كان من المستحيل ألا يستمتع المرء به. وحالما استرخت أعصابي وقررت أن أنسى الشقيقتين دونيللي، اجتاحني إحساس عظيم بالدفء والخصوبة، وبإمكانيات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميولنا إلى البقاء محصورين في سجون دوافعنا الصغيرة. وتبلور هذا الإحساس أكثر حينما جلست لكي أحتسي قدحاً من البيرة خارج دكان لبيع البقالة على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من جورت، مصغياً إلى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجري نحو "لوف كوترا". وفجأة أصبح شيئاً غير ذي بال سواء ذهبت إلى ليمريك أم بقيت في مكاني. سوف يستمر الماء يسيل في مجراه، وسوف تبقى على حالها هذه الشجرة بأوراقها ذات الألوان الليمونية والتي تطل على المجرى كأنها تراقبه أو ترعاه. بدا لي واضحاً أنه يكمن هنا واحد من أغرب وأهم ما يتعلق

بالوجود الإنساني. هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والأحداث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العثور على ذاته فيها، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلاً من ذلك - من خلال اللانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة. ماذا يحدث؟ وقفت على حافة الجسر ورحت أرقب الماء وهو يعكس أشعة الشمس، وبدا لي أن شيئاً ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه، وينطلق بعيداً في اتجاه البحيرة. وحينما عدت إلى السيارة وبدأت أقودها، اجتاحني إحساس غريب كأنما تحررت روحي من الجسد، وكأنما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر طليق يحلق أحياناً في الأعالي ثم ينقض فجأة إلى أسفل من حين إلى حين، وحينما عاد عقلي إلى الشقيقتين دونيللي، كان إحساسي بالاختناق والضجر قد اختفى.

حينما رأيت ميس إيلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني، عبرت بي لحظات فهم مفاجئة، ولكنها قضت على هذا الفهم بأن أخذت يدي في قبضتها الرجولية وراحت تقول: "حسناً، حسناً. من بواعث السرور أن أراك ثانية". ثم دخلنا إلى قاعة المكتبة ولم تكن ميس تينا هناك. اتخذت مجلسي على مقعد مترب ذي مسندين وكان من مقاعد القرن التاسع عشر، كان معرضاً لأشعة الشمس، تاركاً ميس إيلين تتولى مهمة الكلام. وكان عليّ أن أعجب بذهنها الوقاد.

كانت تقول:

-"حسناً، ليس هناك مبرر فيما أرى للوقوف في وجه هذا الكتاب. ومثلما قلت أنت، فإنه كان من القدر له أن يصدر آجلاً أو عاجلاً. وهكذا فإن أحسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك. وبهذه المناسبة، في أي جامعة كنت تعمل؟".

أجبتها بأنني لم أكن أعمل في أي جامعة، ولكنها تجاهلت ذلك وأزاحته جانباً ثم قالت: "لا تعتقد أن لهذا أية أهمية. من الواضح أنك فتى من نوع كفؤ وذكي، فلو أنك كنت البادئ بكتابك عن إيزموند، فسوف يكون على الآخرين أن يتبعوك حتماً".

كانت تسلم بداهة بأنني ينبغي أن أكتب ترجمة كاملة لدونيللي، ولم أكن أحب أن أخيب أملها في هذه المرحلة، وهكذا فقد أومأت برأسي ولم أقل شيئاً. وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر، حيتني كصديق قديم، وحينما أخذ كل منا قدحه وطبقه، قالت:

-"يجب عليّ أن أقول، إنها كانت مفاجأة كاملة لي أن أسمع أن إيزموند كان سيئ السمعة إلى هذا الحد. إنني لم أبدأ بهذا الكتاب الذي تدعوه "باقتضاض العذارى". نطقت بهذه العبارة دون أي بادرة تدل على الحرج، فانتهزت أنا هذه الفرصة لكي أخرج الكتاب من حقيبة أوراقي، بالإضافة إلى النسخة التي كتبت بالآلة الكاتبة نقلاً عن مخطوطة الكولونيل دونيللي. وبينما كانتا تلقيان عليهما نظرات عابرة، قلت:

-"ترى هل يمكنكما السماح لي بأن ألقي نظرة أخرى على كتب دونيللي؟"

ثم أنزلت "الملاحظات" والمجلدات الأربعة لكتاب "يوميات الرحلات" من مكانها، ثم عدت فاتخذت مجلساً على المقعد القريب من النافذة، حتى لا أشعرها بالحرج. ومن حين إلى آخر، كنت أسمع ميس آلين وهي تغمغم قائلة: "انظري!" ثم تدفع بالكتاب إلى ميس تينا، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة، *ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر أصواتاً متلاحقة كالفرقعات.*

فتحت كتاب الملاحظات، وأخرجت رسم العنقاء. رفعت الورقة لكي أعرضها للضوء، أجل، كانت هناك علامة مائية، أخفى الرسم جزءاً منها. وعندما أمعنت النظر جيداً كان عليّ أن أكبح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع. كانت العلامة المائية على شكل عنقاء!

قارنت بين الرسم الدقيق المليء بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن أن يدعى بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف. كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية، ولكن كانت هناك ستة اختلافات. لم يكن الرسم واحداً بشكل قاطع تماماً.

حينما رفعت ميس إيلين عينيها لكي تنظر إليّ، أطلعتها على رسم العنقاء. نظرت إليه بسرعة ثم قالت: "آم، إنه جميل، إلى حد ما". ثم أعادته إليّ، لم تكن مهتمة اهتماماً حقيقياً.

قالت ميس تينا: "هل أطلعت مستر سورم على الخطابات، يا عزيزتي؟"

-"آه كلا، لقد نسيت".

ذهبت إلى الحجرة الصغيرة المجاورة، وعادت بحزمة من الأوراق حزمت بشريط. قالت: "أخبرتني تينا بانك اردت أن تعرف إن كان هناك حفر على الخشب لطائر العنقاء في الخزانة العلوية، ولذلك قمنا ببحث دقيق، ولكننا لم نعثر على عنقائك، غير أننا عثرنا على الكثير من الأوراق القديمة - صناديق كبيرة مليئة بها. ولا أظن أن لأكثرها علاقة بايزموند، ولكن يبدو أن هذه الأوراق كانت خطابات موجهة إليه".

حللت عقدة الشريط بسرعة، وحالما بدات في فصل الأوراق عن بعضها سقط على الأرض شيء ما من مظروف مفتوح. التقطت هذا الشيء: كان رسماً دقيقا محفوراً دون إطار، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من قوقعة محارة ربما كانت من محارات اللؤلؤ. كان الرسم لفتاة شديدة الجمال، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكتفين، ولم يكتب عليه شيء.

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد ايزموند دونيللي، وبدا أن بعضها كان مرسلاً من شخص يدعى توماس والجريف، وبعضها ممن يدعى ويليام استون، وبعضها ممن يدعى هوراس جليني. ولم يبد على الأوراق انها كانت خاضعة لأي نظام أو ترتيب. كان بعضها داخل أغلفة وبعضها الآخر دون غلاف. ومن الواضح ان والجريف كان قساً من دبلن، أما استون فقد عاش في كورك. وسرعان ما تبينت أن جليني كان زميلاً من زملاء الدراسة رافق دونيللي في غوتينغين. ومن الواضح أنه كان ابناً للورد "جليني أوف جو لسباي" في مقاطعة شاتر لاند. وفي وسط هذه الكومة من الخطابات، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء. وبداخله، عثرت على قصاصة من الورق، قطعت أطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على المحارة، وكتب عليها بخط يد ايزموند دونيللي: "لادي شارلوت أنيجستر. الابنة الثانية لإيرل فلاكستيد". وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت أنه صحيفة من خطاب كتب بخط ايزموند دونيللي. وحينما قرات هذه الصحيفة عرفت انني قد عثرت على شيء جديد لكتابي. كانت الصحيفة تقول:

"قال فولتير في قاموسه الفلسفي أن التحزب والخطأ مترادفان طالما أنه ليس هناك مكان للرأي المتحزب في الأمور التي نعرف أنها حقيقة صادقة. كما نرى عل سبيل المثال في الهندسة أو العلم. وهو يقول أن معتقداتنا الدينية ينبغي أن تقوم على أمور تتفق عليها كل العقول. ولكنه يمضي لكي يؤكد ان كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الأمانة

والصدق. وليس هذا صحيحاً، لأن البوذيين لا يقبلون بالله، ولليسوعيين تحفظاتهم على مسألة الأمانة. فهل ثمة إذن اي اساس مشترك للاتفاق الديني؟

ان حجتي ايها الصديق العزيز تقوم على قولي بانه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع ان يقتنع بان هذا العالم لغز غامض. إننا لا نحتاج إلا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف ان كل معتقداتنا التي ترقى الى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على اساس من التعود، نطيعها مثلما نطيع قواعد لعبة "البيكيت" او "الهويست" من العاب الورق، ولكن دون دليل يبرهن او يؤكد صحتها.

والأديان تؤكد ان ما يقع خارج نطاق قواعد الألعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته، او ان الله وحده والملائكة يعرفه ويعرفونه. ولكن العلم قد علمنا ان من الممكن ان نفهم أي شيء إذا كان منهج البحث متكاملاً بما فيه الكفاية ومنطقياً.

وقد أضيف الى حجتي ايضاً قولي بان معتقداتنا التي تصل الى مرتبة اليقين •او ان ما نحن موقنون بوجوده) ليس مما يمكن رؤيته، وانما مما يمكن ان يحس به، مثلما احس الآن بدفء الشمس فوق يدي في اثناء الكتابة. وقد اقول ايضاً أن ما تعودنا عليه من محاولة الوصول الى الحقيقة بوسائل الإبصار او الاستنتاج العقلي، قد اعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول أن يعرف الفرق بين عصفور من عصافير الكناري وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الإبصار وحدها. إن لغز العالم الغامض يصبح ماثلاً امامنا في تلك اللحظات التي تتحرك فيها أرواحنا حركة شديدة عميقة او حينما يستبد بها القلق او يزعجها شيء ما إزعاجاً قوياً، وذلك إذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة. في لحظات الغموض تلك نصبح كما لو كنا قد ادركنا وجود تيار قوي يجري تحت الأرض، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من فيرض، وربما نشعر احياناً بشدة قربه منا حتى ليمكننا حينذاك ان نسمع صوت جريانه.

إنني حينما أشكو من السام، فإنني اصبح مثل من اصابه الصمم بسبب إصابة برد في الرأس، حينذاك لا اسمع شيئا. وحينما ارفع بصري لكي انظر الى وجه شارلوت انجستر، يختفي بالصمم، واسمع صوت جريان الماء تحت قدمي.

ومن المؤكد انه إذا كان الدين هو ذلك الإحساس بغموض العالم والخليقة، وبضخامة وامتداد ذلك اللغز الغامض، إذن فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدلنا على الطريق المقدس أفضل من النساء والجبال؟ لماذا لا ينبغي أن يكون..."

تنتهي القصاصة هنا، في منتصف الصحيفة، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما. ولكن كلمات "أيها الصديق العزيز" بدت لي كما لو كانت توحي بأن دونيللي إنما كان يكتب مسودة أولية لخطاب، وإنه قد قرر فجاة أنه قد يكون من الأفضل أن يشرع في نسخ ما كتب في الخطاب نفسه وأن يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة إلى مسودة. فمن الذي كان سيتلقى هذا الخطاب؟ كان الغلاف الذي احتوى القصاصة موضوعاً وسط حزمة الخطابات الواردة من هوراس جليني، وكانت خطابات جليني إلى دونيللي تكثر من الاقتطاف من كتابات فولتير وفونتانيل ودالامبير، كان الافتراض المعقول إذن أن يكون جليني - وهو زميل دونيللي في الدراسة بالكلية العليا في غوتينغين - هو من يتلقى خواطر دونيللي الخاصة وتأملاته الدينية.

كانت ميس إيلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانباً، وراحت تنظر من النافذة نظرة غائمة. سألتها:

-"هل حدث أن سمعت عن سيدة تدعى اللادي شارلوت أنجستر؟"

جفلت الأختان معاً لدى سماعهما هذا السؤال. وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد أن رمقت أختها بنظرة سريعة:

-"لماذا؟ أجل. كانت ابنة إيرل فلاكسفيد..."

ثم توقفت عن الكلام، كما لو كانت قد شعرت بالحرج، ولكن ميس إيلين أنهت كلام أختها بقولها: "وشقيقة لادي ماري أنجستر التي أصبحت فيما بعد ماري جليني".

لم أكن بحاجة إلى من يذكرني بهذا الاسم الأخير، فقد ظل الاسم عالقاً بذهني منذ الأسبوع الماضي حينا ذكرته ميس إلين أول مرة في التليفون. قلت:

-"هل حدث أن عرفت أن إيزموند كان يحب اللادي شارلوت؟"

قالت ميس تينا: "يقولون إنه كان يحب الثلاث".

-"الثلاث؟"

-"لادي ماري ولادي شارلوت، ولادي مورين". قالت هذا ثم نظرت إلى أختها بضيق.

هزت ميس إلين كتفيها وقالت:

-"أعتقد أنه سيكتشف حقيقة الأمر على أي حال".

قالت ميس تينا: "لقد كن جميعاً جميلات جداً بكل تأكيد".

-"هل توجد لهن أي صور؟"

--"أوه، أجل. إن الصورة التي رسمها رومني[1] مشهورة تماماً".

-"أين هي؟"

بدت عليهما إمارات الدهشة لجهلي، وقالت تينا:

-"هنا، بالطبع".

-"أيمكنني أن أراها؟"

نهضت كلتاهما دون كلام، وقادتاني خارج الحجرة. وفي البهو، اختفت ميس إلين لدقائق قليلة، ثم عادت وهي تحمل مفتاحاً ضخماً. عبرنا البهو نحو بابين كبيرين من خشب الماهوجني. قالت ميس تينا:

"يصر رجال شركة التأمين على أن تظل قاعة اللوحات مغلقة، فإن بعض الصور تساوي قدراً كبيراً من المال".

فتحت ميس إلين الباب، فهبت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة. أضاءت الأنوار، فدخلنا إلى "المعرض الطويل" وكان بارداً كالثلج. كانت النوافذ مغطاة بالضلف الخشبية،

(١) جورج رومني (١٧٣٤-١٨٠٢) رسام إنكليزي رومانتيكي اشتهر بلوحاته التاريخية وبتصويره للوجوه ولوجه الشخصيات المعاصرة.

والمناضد والمقاعد مختفية تحت الأغطية. كان من السهل أن أتصور أن أحداً لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كاملة على الأقل. قادتني إلى صورة صغيرة نوعاً ما معلقة على الجدار الأخير. كانت الصورة بحاجة إلى تنظيف، ورغم هذا فإن ما علق بها من أتربة لم يخف جمال الوجوه الثلاثة. كانت الفتيات في وقفة تقليدية تبدو وراءهن خلفية من الأشجار وجزء من نبع ماء جار. كانت شارلوت - التي رأيت صورتها منذ قليل - معروفة لدي بسهولة وعلى الفور. وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشقيقات الثلاث. كان وجه شارلوت بريئاً ذا خدين ورديين، كوجه أركادي أصيل. أما الفتاة الجالسة إلى جوارها مباشرة وهي تلاعب كلباً صغيراً كثيف الشعر، فكان من الواضح أنها أكثر ذكاء، بوجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة. أما شعرها فقصير يكاد يشبه شعر الصبيان. قالت لي ميس تينا أن هذه هي ماري، التي أصبحت فيما بعد لادي ماري جليني أما مورين، والتي كان من الواضح أنها أصغرهن، فقد كان لها وجه لابد أنه أصبح بعد ذلك بالغ الجمال، وكانت تبدو هي الأخرى رقيقة كريمة. كان من الواضح أنها فياضة العاطفة دافئة القلب، من النوع الذي يمكن أن ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة. امتدت إحدى يديها لكي تلاطف الكلب. هذه الإشارة الواضحة الرمز إلى طبيعتها النزعة بالتعاطف.

قالت ميس تينا بكبرياء: "لقد دفع إيزموند وحده ثلاثين جنيهاً لرومني في مقابل تلك اللوحة. وقد عرضت علينا خمسة آلاف جنيه ثمناً لها".

كان بوسعي أن أرى السبب الذي دفع إلى رواج الشائعات عن وقوع إيزموند في هوى الشقيقات الثلاث جميعاً. فبعد التحديق في صورة الوجوه الثلاثة لمدة خمس دقائق أصبحت أنا نفسي قريباً من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة. كانت لكل واحدة منهن مميزات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه كلما أطال المرء التحديق فيه. لقد كان بوسعي أن أكتب رواية عن ثلاثتهن.

-"ألديكن صورة يبدو فيه وجه إيزموند؟"

-"أوه، أجل. لدينا اثنتان. واحدة بريشة ريبورن والأخرى بريشة رسام يدعى زوفاني".

لم تحو إلى لوحة زوفاني إلا بالقليل. كان الوجه جامداً لا ينم عن حركة، مفتقداً إلى أي أثر من شرارات الحياة. كان دونيللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكئاً على شجرة. كان من الواضح أنه بالغ الطول نحيف القامة. أما الوجه فكان طويلاً، بارز الفك، مستقيم الأنف.

أما لوحة ريبورن فكانت أكثر إيحاء. لم يكن فيها أي ادعاء أو تظاهر، ولا تكاد تظهر فيها أية خلفية. ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسماً تخطيطياً سريعاً تهيئة لرسم الصورة نفسها. ولكن ريبورن كان قد استطاع أن يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللهفة، حينما رسمه متطلعاً إلى الأمام كما لو كان يصغي إلى قصة ممتعة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه وجه وسيم، كان الأنف ذو العظمة الناتئة والخدين البارزين قد جعلاني أفكر في صورة شرلوك هولمز. ولما التفت عن هذه اللوحة لأنظر مرة أخرى إلى لوحة زوفاني، رأيت مميزات أخرى في تلك الأخيرة. حجم الصدغ الذي يوحي بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير، مثلما يمكن أن تراه على وجه جواد أصيل جيد التدريب واقفاً كالتمثال في ساحة العرض قبل بداية السير.

وبينما كنا نغادر الحجرة - وقد تجمدت أجساد ثلاثتنا - قلت:

-"أظن أن إيزموند كان يمتلك كل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود من المعجبين والمعلقين".

-"هل تظن هذا؟" وبدت على كلتيهما سمات اللهفة إلى الإجابة.

-"إن هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصاً ملائماً تماماً للحكايات العاطفية - شخصاً "بيرونياً" تماماً، إنه شخصية أكثر إثارة للاهتمام من بوزويل نفسه".

"لقد رأيت ذات مرة فيلماً عن شوبان. كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة. وكنت أبكي طوال العرض" قالت ميس تينا.

-"أتخيل أنهم قد يروق لهم أن يصنعوا فيلماً عن إيزموند".

-"أيمكننا أن نربح الكثير من المال؟"

-"تخيل هنا".

قالت ميس تينا، "إذن لقاسمناك الربح معنا".

-"هل تعرفين شيئاً عن حكايته مع الشقيقات الثلاث؟"

-"ليس على وجه التحديد، إنه اقرب إلى ان تكون حكاية عائلية".

-"وماذا عن موت لورد جليني".

قالت ميس ايلين، "لقد اصيب بالرصاص. ولست اعرف الكثير من التفاصيل، ولكن أبي قراها مرة في مكتبة دبلن القومية، ولذلك فإنه ليس من الصعوبة البالغة ان تراجعها. كان هناك همس حول ما احاط بايزموند من شكوك، ولكن ابي قال إنه ليس من المحتمل ابداً ان يكون الفاعل. اتمنى ان تتولى انت توضيح ذلك الأمر".

-"سوف ابذل جهدي بالتاكيد".

قبل ان اغادر المنزل، صعدت معهما لمشاهدة الخزائن العلوية. كانت شديدة الظلام، يعلوها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الأشياء التي تراكمت عبر القرون: إطارات صور مكسورة، كتل واشكال اخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها، قطع اثاث محطمة، انية اغتسال من البروسلين، حزم من الأوراق التي يمكن ان تكون اي شيء، من حسابات المزارع إلى اليوميات المفقودة. نظرت إلى هذه الحزم نظرة عابرة وفهمت ما كان البروفيسور ابوت قد شعر به بالتاكيد في الخزائن العلوية في منزل فوربس، عندما احاطت به المخطوطات، ولكن ذكرى ابوت منحتني فكرة جديدة.

-"اليست لديكما اية فكرة عن الشخص الذي عينه ايزموند لكي يكون مشرفاً على تراثه الأدبي؟"

نظرت إحداهما إلى الأخرى نظرة لا تنم عن شيء.

-"كلا. سوف نحاول أن نكتشف ذلك".

وقبل ان اغادر المنزل قلت إنني لابد ان أعود مرة أخرى في موعد قريب جداً لكي انظر في الأوراق. وحينذاك - ولشدة دهشتي - قالت ميس تينا، "اليس الأبسط إذا هو اخذها معه، يا

عزيزتي؟" فقالت مسز الين دون تردد، "اوه، بالتاكيد". واخذتا في معاونتي في عملية نقل الأوراق ووضعها بشكل فيه بعض الترتيب في مقعد السيارة الخلفي، ورفضتا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التامين. ورحت اقود السيارة وانا اشعر بما يشبه الثقل يحط علي بسبب ثقتهما. عندما اخذت افكر في هذه الثقة، شرعت في فهم السبب. لقد كانتا وحيدتين واقرب الى الإفلاس رغم انهما تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة مع شح الموارد والمعين، دون اي احتمال لشيء جديد إلا ان يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة. ومن المحتمل انهما كانتا تتساءلان ايهما سوف تغيب قبل الأخرى عن هذه الحياة. وحينما تموتان، فمن المحتمل ان يذهب المنزل ميراثاً لأحد ابناء الأسرة البعيدين من الذين يقيمون في كندا او نيوزيلاند. ولكن كان العالم الكبير يطرق الآن بابهما. كان هناك شيء ما تحلمان به - الناشرون، تعويضات الفيلم، الدارسون المتخصصون وهم يتهافتون جماعات جماعات لزيارتهما. وقد ارادتا ان تؤمنا بكل ذلك وان تصدقاه، ولذلك فقد ارادتا ان تؤمنا بي وان تصدقاني، او تقبلاني قبولاً كاملاً، وان تنظرا إلي بشيء من الود المكين. اما ما اعتبرته انا اعظم العقبات - وهي سمعة ايزموند باعتباره من كتاب الأدب الداعر المكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئاً لا علاقة له بالعقبات او ا لمعوقات، منذ ان أعلن لهما عن زيف وصف كتاباته بالأدب الداعر او عدم معقولية هذا الوصف، وصرحت لهما بانني انوي ان أعلن هذا الراي في الكتاب المنشور نفسه. كانت الأجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونيلي - عن طريق الكولونيل دونيلي - صريحة من الناحية الجنسية، ولكنها لم تكن اكثر صراحة من مذكرات بوزويل، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة باسلوب جيد.

جعلتني هذه الاعتبارات اشعر بانني في حالة افضل. كنت قد ظننت انه ليس هناك فرصة معقولة لإحياء ذكرى دونيلي حينما إعطاني فليشر مخطوطة "المذكرات". ورغم كل شيء فقد كانت هذه نظرة مرضية.

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة، عرفت إننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت ام لم تظهر اية مخطوطات اخرى لدونيلي. فإذا استبعدنا مخطوطة دونيلي، كانت هذه الخطابات اكثر ما حصلت عليه حتى الآن جاذبية وإثارة للخيال.

من الصعب ان تتخيل ثلاثة اشخاص يتبادلون الرسائل ويكونون ذوي شخصيات اكثر اختلافاً من توماس والجريف ووبليام استون وهوراس جليني، إلى جانب انهم قد

كشفوا عن تعقد شخصية دونيللي نفسه. كان والجريف رجلاً من دبلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات، وكانت خطاباته إلى دونيللي تهتم أساساً بهذين الموضوعين. أما أستون فكان يدرس اللاهوت في إحدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٢، وهو تاريخ الخطاب الأول، وأصبح فيما بعد قسيساً في باللينكولج، بالقرب من مدينة كورك (حيث كان يقع منزل عائلته). وقد أزعجه إلى درجة كبيرة ما ظهر أنه ميلان متناقضان في شخصية دونيللي، تجاه عدم الإخلاص وتجاه "الحماس" (أي التعصب أو الإيمان الغيبي). فحينما كان دونيللي يقتبس من فولتير وبايل ومونتسكيو، كان أستون يجيبه بحجج مستمدة من مواعظ جورتين وأوجدين، وتيللوستون وسمارليدج وشيرلوك. ولقد وجدت كل ذلك حشواً لا لزوم له وكئيباً إلى درجة لا تصدق - المناقشات الطويلة المدققة دقة من يريد أن يشق شعره بالطول إلى نصفين، حول موضوعات التناسخ والجبرية ومقدار ما في الأناجيل من حقيقة الخ.. ولكن كان من الواضح أن أيزموند لم يكن يرى أن هذه المناقشات قد تكون مضجرة، ذلك لأن إجابات أستسون كانت طويلة مطنبة، مما يشير إلى أن رسائل دونيللي مساوية لها في الطول والإطناب.

ولكن خطابات جليني كانت هي التي تلاءمت مع ما كنت أعرفه بالفعل عن أيزموند دونيللي. فبعد أن قمت بترتيبها طبقاً لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من التخمين - فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح أنها استمرت من شهر مايو، عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١. كان جليني وايزموند معاً في غوتيغين أغلب تلك الفترة، ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات أستون ومن الواضح أنهما كانا يتبادلان الرسائل حينما كانا يفترقان لمدة طويلة، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيراً لأنهما كانا صديقين إلى حد كبير.

أما قصة علاقتهما، وهي التي أصبحت قادراً على تجميعها من خلال خطابات جليني فكانت كالتالي: حينما التقى أيزموند دونيللي بروسو وبوزويل في نيو شاتل، انتقل بعد ذلك إلى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤. وفي شهر يناير قضى أسبوعاً في البندقية، ثم قضى أسبوعاً في مدينة غراتز. في طريقه إلى غوتيغين. وهناك تعرف على جورج كريستوف ليتشنبرج، الذي أصبح فيما بعد فيلسوفاً بارزاً (ولكنه كان مهتماً في الأساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالقسيس هوراس جوردون جليني. وكان هذا

الأخير شاباً وسيماً داكن البشرة، يكاد يكون يهودي الملامح، وكانت لكنته اسكتلندية واضحة في نطقه للإنكليزية، وكان أكبر بقليل من دونيللي، ولكنه أقل ثقافة بكثير، وكان الابن الثاني لأحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة أو المتحضرة من تلك البلاد. كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة، ليتشنبرج وجليني ودونيللي - وهو *الاهتمام الدائم بالجنس الآخر*. وكانت غوتيغين مليئة بفتيات المزارع الشابات المترعات بالصحة والعافية، وهن اللواتي وصفهن ليتشنبرج بقوله: "المخلوقات التي تتقافز مرحة في وديان هارز أو وديان وسلينج واللواتي لم تقع أنظارهن أبداً على مبلغ من النقود أكثر من الثالر الواحد، واللواتي ينظرن إلى قبعة السيد النبيل المزينة بالريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات أصحاب تلك القبعات كالأوامر الملكية". وكانت غوتيغين بلدة ذات شهرة أكاديمية سامية، على العكس من هال أو يينا أو جيسين وهي المدن التي كانت مليئة بأدعياء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو المبارزات. ولكنها مثل أكثر المدن الأخرى في ألمانيا، كانت منظمة تنظيماً رفيعاً، يسودها انضباط صارم حيث اعتاد الفلاحون أن يطيعوا أوامر سادتهم مع الإشارة هنا أن تلك الأماكن كانت جزء من إنكلترا، وكان الملك جورج الثالث دوقاً لهانوفر بالإضافة إلى كونه ملك بريطانيا العظمى، وهو واقعاً ما كان قد دفع والدي أيزموند إلى اختيارها مقر لدراسة ولدهما. وقد ابتهج أيزموند وجليني حينما اكتشفا أن تلك المخلوقات اللذيذة لم تكن بحاجة إلى الإغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن. ويذكر جليني في أحد خطاباته أن ليتشنبرج أغضبه باتهامه إياه بأنه كان يسعى إلى افتضاض كل عذراء في مقاطعة هانوفر، استعداداً لأن يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له أن يعود إلى وطنه الطهري المتزمت.

ولكن جليني كان أبله إذا ما قورن بأيزموند، أو أنه كان رجلاً ضيق الأفق. وقد سيطر عليه أيزموند سيطرة كاملة، ومن الواضح أن جليني قد أثار ثائرة أستاذ لهما يدعى كاستنر حينما قال له أن أيزموند واحد من أعظم العقول في أوروبا بعد موسير مندلسون. (وبعدها، اعتاد كاستنر أن ينادي أيزموند ساخراً باسم "الأستاذ الأعظم") وكان ما سحر جليني في شخصية دونيللي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي. كان ليتشنبرج شديد الذكاء واسع الثقافة، ولكنه أيضاً كان ضعيف الجسد عاجزاً كالأحدب. كان أيزموند يملك مؤهلات كبيرة وجيدة في استخدام السيف، وكان فارساً جيداً وسباحاً ممتازاً، ومحبباً إلى النساء، كما كان أيضاً قريباً من أن يكون شاعراً وفيلسوفاً

ومتصوفاً. أما جليني فكان قد خضع لسيطرة أبوية شديدة الوطأة، وكان ميالاً لأن يكون تابعاً مقهوراً. وفي غضون شهور قليلة كان دونيللي يصفه بأنه، "نموذج للشهامة والشهوانية والإغواء والبذاءة والعناد والقدرة على افتراع العذارى". ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خادمات المدينة ذوات الأجساد الضخمة، وشرعا في توجيه انتباههما إلى بنات الأساتذة وغيرهم من المواطنين المحترمين. ومن الواضح أن الدهشة قد تملكتهما وغمرتهما البهجة لما لقياه من نجاح، وكاد ايزموند أن يتعرض لخطر كبير على أثر علاقة كادت تتحول إلى الزواج من الابنة الصغرى لقسيس في بلدة نورتين هاردنبرغ، وهي الآنسة أولريكادوسان. ولكن علينا ألا نفترض أن ايزموند وجليني لم يكونا يفترقان أبداً. ومن الواضح أن جليني ما كان يمكن أن يبتهج لو أنهما افترقا، ولكن ايزموند كان يهتم أيضاً بقراءة كانط وبدارسة الرياضيات والفلك. ويشير جليني إشارات عديدة إلى إهمال ايزموند لشأنه. ولكنه كان يعجب بايزموند إعجاباً حاراً حتى لقد كان على استعداد لأن يقبل أي قدر من انتباه يمكن أن يوليه ايزموند له.

إن الخطاب الذي أرسله جليني إلى ايزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٦ خطاب نموذجي حقاً. أنه يستهلك صفحة ونصف صفحة من الشكوى من أن دونيللي قد أهمل دعوته له لتمضية عيد الميلاد في منزل الأسرة بالقرب من جلوسي، وفي وصف مباهج الرحلة شمالاً في أواخر شهر نوفمبر. ولابد من قراءة وصف جليني للطعام الذي التهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ أن يصدق أن هذا هو ما كتبه بالفعل. لقد بدأ الطعام في السابعة والنصف صباحاً بإفطار من شطائر الشعير وأسماك السالمون المسلوقة، واللحم المقلي ولحم سيقان الخنزير، والحلوى والفواكه المسكرة. ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقاً بوصف مغامراته الغرامية في أثناء العطلة. "كنت قد قررت في البداية أن علي أن استحوذ على كرم فتاة تدعى ماجي ماك بين، وهي ابنة أحد الفلاحين الذي يؤجرون أرضنا، والتي كانت قد أعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل أن أغادر المدينة، رغم أنها كانت قد أقسمت في ذلك الحين أنها تفضل أن تموت على أن تفقد احترامها لنفسها". وقد ثبت أن افتضاض ماجي كان أسهل بكثير مما كان يتوقع. وقد تم ذلك في أحد مخازن الحبوب بعد حفلة رقص كان السيد الشاب في أثنائها محور اهتمام الفتيات كلهن. (ففي مثل هذه المنطقة النائية، يختلط السيد بأجرائه ومؤجري أرضه بحرية كافية). وشعر جليني بنوع من الإغراء يدفعه إلى مواصلة قصة غرامية مع ماجي،

الأمر الذي كنت جديراً بأن أقوم به في الماضي دون أي تفكير، ولكنني في هذه المرة راجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم القائل بأن الهدف الأساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طزاجة التجربة وجدتها، وكان عليّ أن أعترف بأن رغبتي في الفتاة كانت تفقد حرارتها تدريجياً، وأن رؤية قبعته الحريرية الخفيفة وإزارها الملونة لم تعد تؤدي إلى تأثيرها القديم وقد حاولت دون نجاح أن أكرس عقلي للدراسة..".

"وفي اليوم الثامن والعشرين عادت شقيقتي ماري (التي قابلتها أنت في بيرث (من *كيلنكاردين، حيث كانت قد قضت عيد الميلاد مع فيوناغوتري وهي ابنة صديقة قديمة* لأمي. وأختي، كما تعرف، نحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة لسنها (الرابعة عشرة) ويمكنني أن أقول، دون كبرياء لا مبرر له، إنها تحبني بدفء لم أفعل أنا سوى القليل لكي أستحقه. وقد أحسست بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت أن فيونا قد تغيرت إلى درجة عظيمة في أثناء الثمانية عشر شهراً التي انقضت منذ رأيتها لآخر مرة. إنها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى أفكار وأساليب الطفلة، بينما يكون الجسد جسد امرأة. إنها تملك وجهاً ساحراً ورديا، وشفة عليا أقصر بكثير من رفيقتها الأمر الذي يعطي لفمها شكلاً بارزاً قد يظنه البعض تجهماً على سبيل الخطأ. كانت في طفولتها أقرب إلى الصبيان في ألعابها وسلوكها (إذا جردنا هذه العبارة من كل ما تدل عليه من عدم تواضع أو رقة) ولطالما تعاركت معها وصارعتها وأمسكتها من ساعديها بقوة. أما الآن، وطالما أنها أصبحت على مثل هذا الجمال، فقد قررت أنني قد أفعل ما هو أسوأ من اتباع نصيحة مستر شتيرن فأنشئ علاقة عاطفية معها، حتى ولو كانت من جانب واحد إلى حد ما..

(لقد وضعت أنا هذه النقاط في الأماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحطاط في دوافعه، طالما أنها لا تؤدي إلى غرض ما، وقد ثبت أن هذا كان أكثر سهولة مما توقعت، ذلك أن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أعاملها مثلما أعامل ماري، باهتمام كثير وبود أخوي. إنني أقول لك في أمانة كاملة أن أفكاري حتى تلك اللحظة كانت بريئة إلى الدرجة التي يمكن أن يتمناها الراعي الصالح جايس. كانت في حجرتهما مدفأة جيدة، وقد قضيت هناك ساعات طويلة أحتسي أقداحاً من الشاي وأصف لهما عادات هانوفر وأهلها، شاعراً بالعالم كله مثلما كان يشعر به عطيل المغربي. ولقد وجدت أن الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين أكثر إمتاعاً ومسرة من دراسة فلاكوس وأقنعت نفسي في لحظة ما بأن

هذا هو ما عناه روسو وما كان يفكر فيه عندما تحدث عن النعيم الثاني الذي تهبنا إياه الطبيعة.

"ولكن للأسف، لقد لقيت مشاعري السامية هزيمتها الأولى في اليوم الثاني من العام الجديد، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء. كانت الفتاتين تلعبان حينما دخلت الحجرة، وحينما اشتركت في لهوهما، لم استطع ان امنع نفسي من ملاحظة اهتزازات ردفي فيونا حينما قفزت فوق السرير لكي تهرب من ماري، ولا شكل سمانتي ساقيها الجميلتين حينما انحنت إلى الأمام مرة ثانية. وحينما مدحت ما طرأ على شكل جسدها من تغير، لم يبد عليها الحرج، وإنما ضحكت على ما قالته، وقالت ماري ان السبب يرجع الى تناول الكثير من اللحم السمين. وبعد ذلك طلبتا مني ان اقرا لهما من كتاب "جرانديسون"، الأمر الذي قمت به تلبية لسؤلهما، جالساً اما نار المدفأة على البساط السميك، بينما جلستا الى جواري تحيطان الثوبين الأزرقين من الموسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي ستقام في "ستراشبيفيري" في شهر فبراير. وبعد قليل، استغرقت ماري تماماً فيما كانت تسمعه حتى لقد القت بالثوب جانباً ووضعت راسها على حجري مادة ساقيها لكي ترفعهما على مقعد صغير قريب، وبعد لحظات قصيرة حذت فيونا حذوها. ثم تحركت ماري الى اعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيها، كاشفة عن اجمل ساقين رأيتهما في عيد الميلاد.. وحينما دق الجرس يدعو اهل البيت إلى العشاء، ابتهجت حينما لاحظت ترددها في النهوض، وتظاهرت بأن هذا التريث كان لأنها غرقت في النوم، ولكنني انا، الذي كان بوسعي ان ارى حركات جفونها، اعرف الحقيقة.

"في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم، لأن الوزير كان يريد ان يرد على دعوتنا، ثم اخذهما ابي واخي موراي في نزهة بالعربة لكي يطلعاهما على منظر أبراج قلعة داتروبين. ولكن حينما رأيت فيونا قبل أن نتناول طعام العشاء، قالت: "لقد افتقدنا قراءتنا اليوم. عليك غداً أن تقرا ضعف ما قرأناه امس". جذبتها قريباً مني، وتركت يدي تتجول فوق ظهرها. سالتني عما افعله، فقلت: "ارى كم من الأزرار غير مثبت في موضعه".

"كان اليوم التالي، الأربعاء، مشمساً وبارداً، وكان "اللورد" جليني بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تشتكي امر اغنامها، وحينما اخبرني جامي هذا الخبر، قلت له انني سأستمر في النوم لكي اتناول طعام إفطاري، وأطلب الماء الساخن في العاشرة. وبعد ذلك بقليل،

وبينما كنت في ثياب نومي واقفاً أؤدي تمرينات الصباح، دخلت ماري وسألتني ان كنت احب أن اتجول معهما في غرف القصر الخالية. وسرعان ما جاءت فيونا للبحث عنها، واعجبت الاثنتان بقماش قميص نومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي اشتريتها في ستراسبورغ من سوق الحرير. وحينئذ قصت فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمتها الذي كان يجري وقد ارتد أكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد المائدة للضيوف. وقالت له ان يرتدي سترته فاجابها: "بالتأكيد يا سيدتي، ولكن السترة تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك. وقد نزعتها الآن لتوي، وانا اكره ان اخلع سترتي وصداري، ولا ادري إلى متى ساظل قادراً على تحمل هذه "اللاأكمام" الباردة. "وضحكنا جميعاً على هذه النكتة، ولاحظت في رضا كيف انها نظرت إلي وانا في هذه الثياب الليلية دونما حرج يزيد على ما قد تشعر به ماري، الأمر الذي دلني على انها تفكر في مثلما تفكر في اخيها الشفيق. وهكذا، فقبل ان استاذنهما في الخروج، لكي ارتدي ملابسي، احطت خصر كل منهما بذراع وضغطتهما إلى صدري، ولاحظت ان امتلاء فيونا قد يحفظ للرجل دفئه دون حاجة إلى قميص للنوم.

"ليس عليّ هنا، يا عزيزي تيد، ان أصف الصباح وصفاً كاملاً، وإلا لأصبح هذا الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورتون. ولذلك فدعني اكتفي بالقول إننا قد فرحنا وضحكنا كثيراً، وانتهزت انا كل فرصة لكي أطارد كلامهما، من أجل ان نشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر، ولكي أجعل فيونا تتعود على ان تألفني. وكان علي بالطبع أن أكرس الكثير من انتباهي لماري، لكي لا اثير الإحساس بالتنافس بينهما ولكي اجعل فيونا تتقبل لمساتي كشيء طبيعي. ولم التق في هذا المجال باية مقاومة، لأنهما جميعاً كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية.. لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس المستخلص من كل هذا يا تيد، لكي تضمنها تاريخك. إن الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكده ليتشنبرغ من أن المشاعر والأحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية. لقد كانت ماري شقيقتي، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيونا، كما لو كنت شيئاً قابلاً للاقتراض، وقد قبلت فيونا هذا القرض وما تبعه من انواع الرعاية والاهتمام الأخوي، ولما كنت الآن قد حصلت على تصريح بأن أعامل فيونا مثلما اعامل ماري، فلم يكن عليّ حينذاك سوى ان اعامل ماري بالألفة التي اريد ان أعامل بها فيونا حتى أجعل الأمر كله يبدو طبيعياً دون افتعال.

"وقد ظهرت ميزة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم، حينما ذهبت إلى غرفتهما لكي أقرأ لهما من كتاب "جرانديسون". كنت أعرف أنهما تنويان تجربة الثوبين الأزرقين من الوسلين قبل القيام بخياطة الأشرطة. ولذلك فقد ذهبت مبكراً. كانت فيونا ما تزال تخيط ثوبها، ولكن ماري وقفت في قميصها الداخلي، تحاول أن تجرب مشداً مصنوعاً من عظام الحوت. وطلبتا مني أن أقدم النصح من وجهة نظر الرجل، الأمر الذي قمت به بسعادة بالغة، بينما كنت أساعد ماري في شد أربطة المشد. قلت لهما أن نساء باريس، في البلاط الملكي، يفضلن ارتداء ثياب تترك صدورهن كلها عارية...

وبعد ذلك ساعدتها في ارتداء الثوب، وتحدثت مثل مليونير عن المحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية أو العظام في صناعة الأزرار، وعن محاسن اتخاذ بعض الغرز المتينة فوق عروة الزرار!

"حينذاك، كانت فيونا قد وضعت إبرتها جانباً. فسألتهما إن كانت تحتاجني لكي أفك أزرارها، هذه الأزرار التي كانت بين نهديها هذه المرة. وبدا عليها الخجل، ولكن ماري المخلصة لي أكثر - مثل تاجر شرقي ذكي - أنها لن تفوز أبداً بمثل هذا الخادم المدرب، وبناء عليه، دخلت الفتاة في جو اللعبة، فسمحت لي بأن أفك أزرارها وأن أجنب ثوبها إلى ما تحت الكتفين، وفي هذه المرة لم أسمح لنفسي بمزيد من الحريات مع الكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين أمام عيني؛ لأنني شعرت أن ماري قد تجتاحها الغيرة. وبدلاً من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الأزرق..

"دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما. ولكن حالما أصبحنا وحيدين مرة أخرى، اقترحت أن نعود إلى قراءتنا قبل أن يسود الظلام (لأن الساعة كانت بعد الرابعة). قالت ماري إنهما لابد أن تبدلا ثيابهما أولاً، ولكني قلت لها أن الأمر لا يستحق هذا التعب، وأنهما على أي حال يمكن أن تعرفا إن كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر أم لا. واقنعتهما تلك الحجج، فجلستا إلى جواري على البساط السميك. وحالما بدأت في القراءة، عادت ماري فوضعت رأسها على حجري، وسرعان ما حذت فيونا حذوها واتخذت كل منهما وضعاً لا يسمح لها برؤية الأخرى، لكنني اتخذت إجراء وقائياً إضافياً ضد التلصص المتبادل بأن أسندت الكتاب إلى رأس ماري بحيث يمكن أن يسقط إذا هي تحركت. ويمكنك أن تلاحظ أن هذه الحيلة تركت يدي

كلتيهما حرتين.. وفي هذا الوضع شعرت كأنني مشعوذ "محشور" بين جرانديسون الفاضل وبين زهرتي الشتائيتين. ولما كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة إلى أسفل، والظهر مفتوحاً، فلم تكن هناك مشكلة في أن أدس يدي إلى ما وراء الإبط، ثم إلى ثديها الأيمن. دلتني حركات جلدها تحت ملاطفاتي أن هذا التقدم لن يكون موضع الرفض.. وحينما بدأت في الضغط على الحلمة اليمنى، لم يكن بوسعي أن أحكم على النتيجة إلا من تزايد معدل تنفسها شهيقاً وزفيراً. وجدت في ذلك بهجة كبيرة حتى أنني بعد قليل، حركت يدي إلى فمها وضغطت على الشفة السفلى، ثم لعبت بها قليلاً بين إبهامي وسبابتي. واطبقت هي شفتيها حول إصبع السبابة، وراحت ترضعه كما لو كان حلمة طفل صناعية تعطى له لكي يهدأ حتى يأتيه الطعام. وحينما تعبت من هذه اللعبة، دست يدي إلى صدرها مرة أخرى، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الأمامي من الثوب...

.. ثم قالت فيونا: "لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة. حدثنا عن غوتيفين". قلت "ماذا تحبان أن تعرفا؟" قالت: "احك لنا مرة ثانية حادثة قتل الطلبة مع الرحالة". وهكذا تنفست عدة مرات بعمق حتى أستعيد سيطرتي على نبضات قلبي، ثم أعدت عليهما الحكاية القديمة المعتادة..

"كنا نعرف جميعاً أن الجرس سرعان ما سوف يدق، وأضاف هذا إلى متعنا متعة أخرى.. وحينما قلت: "سرعان ما سيحين وقت العشاء" فغمغمت فيونا نافدة الصبر. وجعلني هذا أقرر أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام. سمحت لليد التي استقرت على ردف فيونا أن تتحرك إلى أسفل، وجذبة جانباً قماش الثوب. وبعد لحظة واحدة، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية، مبتهجة بنعومتها ورقة استدارتها. ومن المؤكد أنها كانت شيئاً ممتع الملامسة، حتى لقد كان بوسعي أن استمر في ملاطفتها حتى دق الجرس...

"أسرعت هابطاً إلى مائدة العشاء وحينما سألني الوالد عن الفتاتين قلت أنني لم أرهما، ثم أرسلت جامي إلى الطابق العلوي لكي يدعوهما. هبطا بعد أن ارتدت كل منهما ثوباً آخر، واعتذرتا بالنوم أمام نار المدفأة..

"والآن يا صديقي العزيز، وأنا أختتم هذه الرسالة الجرانديزونيانية، يجب عليّ مرة أخرى أن أثني على التعاليم الملهمة التي أدت إلى هذه النتائج المرضية. فإن الرجل الذي

يستطيع ان يمضي ساعتين منكباً على مثل هذه النشوة السامية إنما يكون قد مارس جانباً من حالة الآلهة، ولابد ان تصبح روحه اكبر بعد تلك المادية".

وينتهي خطاب جليني بصفحة ونصف صفحة في تاملات من هذا النوع. ولن اقتطف هذه التاملات لأن في اسلوبها الكثير من القعقعة الناتجة عن التفاخر، ولا تصل إلى مستوى الجزء السابق من الخطاب. وإلى جانب التاملات، يؤكد في النهاية انه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات، وانه سيحاول استكمال العمل الذي بداه. ولكن فشله في ذلك يظهر من خطاب كتبه في شهر يونيو التالي، حيث يهنئ نفسه لأنه لم يكمل خطته، "لأن التفكير في التعقيدات التي كان يمكن ان تنشا يجعلني اعرق واهتز من الخوف والألم" واظن انه يشير ببساطة إلى التعقيدات التي لابد ان تنشا من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كاملة وبعيدات بعداً كاملاً عن اي ثقافة، وقد اصبح عشيقاً لفيونا في عام ١٧٦٨، اي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين..

-١٢-

▣ لقد اقتطفت الفقرة السابقة على طولها لأنها توضح اشياء كثيرة، هناك اولاً، الإشارة إلى "التعاليم الملهمة" التي توحي بان جليني يعتبر نفسه تلميذاً لأيزموند في مثل تلك الأمور. هل يستطيع احد، في الحقيقة، ان يقبل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧؟ كان ميلي الأول هو ان ارفض الكثير منه باعتباره نوعاً من الإعراب عن رغبات كامنة اكثر منه استعادة لأحداث وقعت بالفعل، وعلى انه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة التي تشير الى ما كان للأخوين كريبيون وكليلاند من نفوذ وتاثير. ولكن ظهر لي بعد هذا ان جليني لم يكن ذلك الرجل الماهر. بل ان بعضاً من التعبيرات اللبقة في الخطاب كانت مستعارة من ايزموند نفسه. والحق انه قد ينبغي للمرء ان يقول ان الأهمية الرئيسية لذلك الخطاب هي انه يكشف عن مقدار ما تاثر هوراس جليني بطابع ايزموند وشخصيته. كلا بل انني اعتقد ان ما حدث هنا كان اكثر اهمية بكثير. فقد كان جليني - مثله في ذلك مثل اكثر النبلاء الشبان في ايامه - شديد الميل إلى النزعة الحسية الشهوانية منذ سن مبكرة، وهو يذكر في مكان آخر ان زوجة احد الفلاحين قد اغوته وهو في الحادية عشر من عمره، ويذكر في مكان ثالث انه قضى اسبوعاً سيئاً للغاية

حينما استغرقت الدورة الشهرية لفتاته وقتاً اطول مما ينبغي. ولكن كان شهوانياً بطريقة لا خيال فيها، مولعاً بقرص ارداف الخادمات، وكان سريع الضجر بالغ الكآبة على الفتيات اللواتي ينتمين إلى طبقته، وكان يحبس لسانه في فمه تماماً مع النساء اللواتي يعجب بهن حقاً. كان ابوه يقسو عليه ثم فرض عليه حمايته من بعد ذلك، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه الأكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي، بعد ان أخذ يشرب البراندي والماديرا طوال ثلاثة ايام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكد يعرف امه التي كانت قد انفصلت عن ابيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لأنه ضربها بسوط من سياط الركوب. كان هوراس جليني احد سادة الريف المتخلفين عاطفياً. ثم حدث ان التقى بايزموند الذكي المتوقد، الذي ربما كان اكثر منه نضجاً بما يعادل عشرين عاماً من التجربة. ولست اظن ان هوارس جليني كان شاذاً جنسياً، ولكنني اظن ان الطريقة الوحيدة الملائمة للتعبير عما حدث في غوتيغين هي القول بانه قد وقع في حب ايزموند. لقد اخذ عنه افكاره، واساليبه في التصرف، واسلوبه الأدبي، والأشياء التي يشغل بها نفسه، كان الأمر يشبه الوضع بين "الأسطى" المعلم الكبير، وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى أسرار الصنعة والحرفة. كانت النساء يتنهدن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر. وكانت المسالة كلها تحمل طابع خاصية مدهشة اشبه بتحقق حلم من احلام اليقظة. وعندما عاد الى "جلوسبي هاوس"، عاملته الفتيات كما لو كان بطلاً مظفراً عائداً من الحرب. وعلى الرغم من انه كان يعيش على بعد اربعمائة ميل او نحوها عن "حبيبه" فإنه راح يعيش ويفكر كما لو كانا لا يزالان معاً في غوتيغين. وبدلاً من أن ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره، فرض على نفسه نظاماً قاسياً، وراح يدرس هوراس وأرسطو. ثم عقد عزمه على إقامة علاقة "عاطفية" - اي انها علاقة مصمدة وعلى قدر من التباعد - مع صديقة شقيقته الجميلة - وإذ كان يقيم تلك العلاقة، فإنه كان يستلهم نوفليس وبو ودوسون وعدداً آخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة. ولما الهمته مثله العليا وافكاره، اصبح قادراً على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها. ولكنه عاد بعد ذلك - برهاناً على ان الآلهة ما تزال معه، وأن السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان ابداً - عاد فتبين أن هاتين الطفلتين تعجبا به مثلما اعجبت به ماجي ماكبيد والقرويات الأخريات، وانه يستطيع ان يلعب بالنار، معرضاً حتى لباب قلبه للحريق. ويظل حلم اليقظة دون ان يقطعه او يحطمه احد. لم يكن لديه اي اهتمام جنسي بشقيقته. فقد كان يعرفه جيداً جداً. ولكنهما مثل اوراق الأشجار، سقطا في

دوامة حلم اليقظة، ومن مركزه الساحق كالآلهة، كان باستطاعته أن يختار ما يصنع... ولكن كان من الحكمة - من جانب والده - أن يضع الفتاتين في سرير واحد. وانقضت أيام العطلة، وفي منتصف يناير، بدأ رحلة العودة إلى غوتيغين، متخذاً الطريق الطويل والشاق المار بلندن من أجل أن يسافر مع ايزموند بدلاً من أن يسافر بالطرق الأقصر والأقل مشقة من "داندي" إلى "سوكسهافين"...

... كان باستطاعة المرء أن يدرك من أن طول الخطاب وما حشي به من تفاصيل تلك الكبرياء المتفجرة التي شعر بها جليني وهو يكتب تقريره إلى معلمه. بأن الرجل الذي كان وحيداً، من دون أن يكون معه من ينصحه أو يوجه خطاه، اجتاز الامتحان بأحسن العلامات الممكنة..

وعليّ الاعتراف هنا أن خيبة الأمل كانت هي استجابتي الأولى إزاء خطابات جليني. كما أن مشاعري إزاء دونيللي عادت - بتأثير تلك الخطابات - فعبرت بأزمة هبوط من تلك الأزمات الدورية السابقة. ولكن من الضروري أن أوضح هنا أنني لم أرفض تلك الخطابات في البداية على أساس أخلاقي - مثلما سيعرف ذلك أي قارئ لكتابي "اليوميات الجنسية". لقد كنت دائماً - مثل دونيللي - مسحور اللب بمشكلة الجنس، لأنها تبدو كما لو كانت تحتوي على المفتاح المؤدي إلى أسرار نوع من الوعي أكثر عمقاً. ولقد سيطر عليّ دائماً شيء كالهاجس المتسلط عن الكيفية التي تبدو بها التجربة الجنسية وكأنها تنزلق من بين الأصابع كالزئبق أو الذهب المسحور في الحكايات الخرافية، ولابد لي هنا من سرد - مكرراً - عدداً من التجارب الأساسية التي تبدو لي أنها تحتوي على مفتاح هام يؤدي إلى الكشف عن ذلك الغموض.

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عصر أحد تلك الأيام في الفراش مع فتاة تدعى كارولين، وهي طالبة في أحد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرترود كوينس. وقد كانت كارولين - ولم أعرف لذلك سبباً حقيقياً - واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي يولدن عندي مستوى حاداً إلى درجة غريبة من مستويات الشهوة، أي من الرغبة الجسدية المجردة من أي شيء آخر. وقد قالت لي ذات مرة، إنني حينما مارست الجنس معها تظاهرت هي أحياناً بأنها كانت تغتصب، وإن هذا قد زاد من متعتها. وقد جعلني هذا أتبين بطريقة تكاد تكون لا شعورية، بأني كنت أتظاهر باغتصابها، فأعاملها تماماً مثلما يعامل

رجل جائع قطعة جيدة الطهو من اللحم، فيقضم ويلتهم بشهية متفتحة كشهية حيوان. وفي عصر ذلك اليوم بالذات، مارست الجنس معها سبع مرات. كان الأمر أشبه بمباراة. وبعد إحدى هذه المرات عدت من الحمام، فوجدتها جالسة بسروالها الداخلي، وهي تحاول أن تربط مشبك حمالة صدرها. دفعتها على ظهرها فوق الفراش، وجذبت ساق السروال، وولجتها بحركة واحدة تقريباً. ومرة أخرى فيما بعد، وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وكنا على وشك الانصراف مارست الجنس معها مستنداً على الباب. كان هناك دائماً عنصر من الصدمة والمفاجأة في التحامنا.

وبعد ذلك شعرت بالإجهاد الكامل، والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعبد الهادئ النفس، كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد نضبت تماماً وجفت، حتى أستطيع أن أركز ذهني على أشياء أكثر أهمية. فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي أتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب، وكنت أسكن في شقة أرضية في أحد المنازل، وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الأعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه إلى درجة أنني كنت قادراً على إلقاء نظرة خاطفة إلى ساقيها حتى أطراف جواربها العلوية. كان هذه النظرة مثل ضربة قوية على أعلى المعدة. تبينت مصدوماً أن رغبتي الجنسية لم تكن قد نضبت. لم يكن قد نضب سوى فضولي المباشر ورغبتي المؤقتة إزاء كارولين. كان من الواضح أن البئر لا قرار لها.

وتحققت من الشيء نفسه بعد عدة شهور، حينما كنت في طريقي لكي أمضي الليلة مع كارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع صديقاتها. دخلت محلاً لبيع حاجيات النساء لكي أشتري لها زوجاً من الجوارب. وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل، كانت ورائي مجموعة من تلك "الخانات" ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن الجديدة. التفت بطريقة عارضة، فرأيت أن سيدة كانت داخل إحدى تلك الخانات". وقد أولتني ظهرها، من دون قميص داخلي. ومرة أخرى، تملكتني صدمة الرغبة الهائلة. ورغم أن المرأة كانت متوسطة العمر، كما تبينت حينما التفتت. وفي ظل ظروف عادية ما كنت لأوليها اهتماماً لثانية واحدة، وعندما هممت بمغادرة المحل، تملكني إدراك قوي بأن ليلتي مع كارولين لن تلمس هذا العمق مع الاستجابة الجنسية ولن تبلغ أطرافه.

وقد أدى بي ذلك إلى تكوين فكرة تقول بأن الانحرافات الجنسية إنما هي محاولة للهروب من ذلك الجوع الغريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصراً أساسياً من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي. إن "الموقف" الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الأمل. (وهناك قصة الطبيب النفسي الذي نصح رجلاً غنياً بأن يغمض عينيه وأن يردد المرة بعد المرة: "إنها ليست زوجتي. إنها ليست زوجتي..."). تقوم كل أشكال الانحراف على إضافة عنصر من عناصر "المحرم" إلى الموقف الطبيعي: على الفتاة أن تسير جيئة وذهاباً وهي ترتدي جوارب سوداء، وهكذا. وقصة الكولونيل دونيللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي إلى نفس النتيجة. وقد تكون هذه النظرة كئيبة أو على شيء من التجهم إلى الدافع الجنسي، طالما أن أي شيء يمكن أن يكف عن أن يكون محرماً طالما أنك استطعت - مرة واحدة - أن تقنع شخصاً آخر بأن يشاركك في حلم اليقظة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهدف لا يكف عن الابتعاد..

ومنذ خمسة أعوام، وفي دبلين تحديداً، وقع حادث يمكن وصفه بالعارض والصغير، قلب هذه النظرة رأساً على عقب كنت أسير في مكتبة كلية ترينتي، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما. كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة. لم أكن قد رأيتها قبل ذلك أبداً، وحاولت لمدة عشرة دقائق أن أستخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي. ثم تذكرت: لقد ذكرتني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي. كانت فتاة جميلة، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها حينما كنت أنا في الرابعة أو الخامسة. وكنت أنظر إليها كما لو كانت أماً إضافية لي. ولم أشعر أبداً بمثل السعادة التي كنت أشعر بها حينما كانت تلاطفني أو تبدل لي ملابسي أو تساعدني على ارتداء حذائي. وحينما بلغت العاشرة، تزوجت، كنت أعرف التفاصيل الجسدية للفعل الجنسي، وكان هذا الفعل يبدو لي مثيراً وشريراً إلى درجة مرعبة. وذات يوم رأيت هازل في محل البقالة، جميلة مثلما كانت سابقاً، وكانت ترتدي إزاراً أسود اللون وجوارب بيضاء. جعلتني فكرة أن زوجها يملك الحق في رفع هذه الأزرار وخلع تلك الجوارب أشعر بغيرة معذبة. فكرت في الأشياء التي لابد أنهما يفعلانها في الظلام، ونظرت بقوة إلى وجهها، ظاناً أن هذه الأشياء لابد أن تكون قد تركت أثراً ما. ربما كان أثراً من نشوة حالمة، أو ربما علامة شريرة ما. تخيلت أن حياتهما، حينما يعود زوجها من العمل إلى البيت، لابد أن تكون حفلاً جنسياً

طويلاً مترعاً باللذائذ. ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماماً، بالضبط كما عرفتها دائماً، ربما كانت أكثر نحافة بقليل، ودون شريطها الوردي..

هذا التفكير في هازل - التي كنت قد نسيتها طوال خمسة عشر عاماً أو أكثر - أعادت إلي ذكريات فتيات أخريات كنت أعجب بهن حين كنت صغيراً جداً. فتاة كانت تسكن على بُعد منزل واحد من منزلنا وكانت تبدو لي مثل قديسة. وفتاة أخرى في الشارع التالي لشارعنا كان وجهها البيضاوي يدفعني إلى الظن بأنها أجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة. وعمة لي ذات روح فياضة، لم تكن تكبر هازل كثيراً، تعودت أن تأخذني إلى السينما ثم إلى مشرب شاي قريب.. كان شيئاً شبيهاً بالصدمة أن أتذكر كم كان كبيراً ذلك العدد من الفتيات - وكلهن أكبر مني سناً - اللواتي نظرت إليهن نظرتي للربات المقدسات. لم يكن قد طرأ على ذهني من قبل أنني قضيت طفولتي في مجتمع أمومي، محاطاً بنساء عبدتهن كالآلهة، ولا أطلب من إحداهن غير ابتسامة، أو تربية حنون، لأنني في سنوات مراهقتي كنت أفكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردهن الرغبات، يملكن اليد العليا على الرجل بسبب الكنز الكامن بين أفخاذهن، الكنز الذي يستطعن أن يمنعنه أو يهبنه حسب إرادتهن ووفق مشيئتهن. وكانت وظيفة الرجل عندي هي أن يحصل على الكنز، بالإقناع، أو الحيلة، أو بالعنف ومنذ ذلك الحين، كرست نفسي لمهمة الذكر العادية، مهمة الكشف عن أكثر ما يمكن من تلك الكنوز. ومع هذا فقد ظل الميل إلى تجسيدهن أو تخيلهن في صورة مثالية قوياً على حاله، وبدا هذا الميل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية. والآن أدركت هذا التناقض. كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة. ما أردته من النساء هو نفس ما كنت أريده من هازل: تعاطف الأخت الكبرى ورقتها، الملاطفات والانتباه، تلك الأشياء التي تولد الإحساس الذاتي بالأمان والثقة. لقد لاحظت دائماً ذلك الإحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخترق العضو الذكري حلقة العضلات عند فتحة عضو الأنثى، ثم ينزلق إلى الأعماق الداخلية الدافئة التي تربت عليه بحنان، وقد رأيت الآن أن هذا كان ببساطة أكثر الملاطفات الرقيقة قرباً من المطلق. كانت هازل، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتلمس خدي برقة، أو تضع يدها على رأسي، وكنت جديراً في مثل تلك اللحظة بأن أشعر بفيضان فوري من الرضا والإحساس بالإشباع. إن عملية ولوج جسد امرأة ليس سوى صورة متضخمة من هذه اللحظة. إنه نوع من الملاطفة، إيماءة رقة، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - أكثر أجزاء جسدك خفاء والتصاقاً بدخيلتك وبما تخفيه حناياك - تلاطفه بأكثر أجزاء

جسدها خفاء وحميمية. إن النزعة العدوانية التي أطلق عليها لورنس اسم "الحرب الجنسية" تتطور من الجوع إلى ذلك الاحتياج، تماماً مثلما تتطور نزعة الإجرام من الفقر وحتى فكرة "كازانوفا" المتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الأساس - وخاصة ذلك النوع من الـ"كازانوفا" الذي يريد أن تظل نساؤه في حالة إخلاص كامل له، بينما يسمح له بأن يفعل ما يحلو له. إنها الرغبة في الثقة الكاملة بحب الأنثى وبخضوعها. كل نساء العالم يحببنه، وكلهن يرغبن في منحه حبهن، وحتى معرفتهن لأنه الآن في الفراش مع امرأة أخرى لا تؤدي إلى أي فرق أو اختلاف.

قادني كل هذا إلى معرفة السبب الذي جعلني افقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في الأعوام الأخيرة القليلة. لقد حصلت - في شخصيتي ديانا وموبسي - على مجتمع مكون من شخصيتين نسائيتين تعجبان بي. وتم إشباع الجوع إلى الأنثى حتى هذا متخماً. أما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق واصبح في وسعي أن أكرس كل انتباهي لأمور أكثر جدية، لمسائل الفلسفة والنمو الإنساني.

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني، ومع ما افترضته عند ايزموند دونيللي من فلسفة خلاعية قائمة على "فكرة" الفجور. شعرت أن هذه الفلسفة تدل إما على عدم التحقق أو عدم النضج، رغبة الصبيان الصغار في الأمن. ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن ماري وفيونا - هي التي أقلقتني، لأنني قدرت أنها حادثة عارضة وقعت من دون تدبير، لقد أراد جلبني علاقة "عاطفية" فتحولت إلى علاقة جنسية. ولكن كانت هناك خطابات أخرى أشارت إلى أنه كان قادراً على اتباع أسلوب أكثر خشونة وأكثر منهجية. فقد حدث على سبيل المثال أن عاد في عيد الميلاد التالي إلى البيت عن طريق الشمال، مبحراً من امستردام إلى جريمسي، فقرر أن يمضي عدة أيام في "أوزنا بروك"، لكي يتفرج على كاتدرائيتها وقلعتها. كان الفندق الصغير مزدحماً فأعطى جلبني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق المغسل، شاركه فيها خادمه، وهو من أهالي لندن ويدعى دوجيت. وبعد منتصف الليل بوقت كثير، هبط إلى الطابق الأسفل ليذهب إلى دورة المياه، ثم وقف برهة قصيرة مستنداً بظهره إلى جدار المغسل الذي كان دافئاً. وبينما كان يقف هناك، خرجت فتاة من الفندق وذهبت إلى المغسل، ولما أصبحت بالداخل خلعت ملابسها، وصبت ماء دافئاً في أحد الأحواض، وغسلت نفسها، بينما راح جلبني يتلصص عليها من النافذة. ثم ارتدت الفتاة ملابسها، وذهبت لكي

تنام في غرفة أخرى في نفس البناء. وكان جلبني على وشك أن يتبعها، حينما سمع صوت رجل، بدا له أنه صادر من غرفتها. وفي الصباح التالي، طلب جلبني من خادمه دوجيت أن يكتشف كل ما يستطيع عن الفتاة، وما إذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء. وجاءه دوجيت بعد عدة ساعات وقال له إنها فتاة محترمة، وإنها ابنة أخت صاحب الفندق، وإنها مخطوبة لرجل يعمل مساعداً لأحد النجارين، ولكنها لم تستطع أن تتزوجه حتى الآن لأنه "معلمه" رفض أن يعطيه الإذن بذلك، ورفض صاحب الفندق رفضاً قاطعاً أن يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتتح لنفسه محلاً يعمل فيه لحسابه. وقدر جلبني أنه من المحتمل أن يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتها في الليلة السابقة، فقرر أن يتخلى عن فكرة النوم معها.

وبعد ذلك في نفس اليوم، قال دوجيت لجلبني أنه سمع إشاعة تقول أن الفتاة حامل - فقد كانت تصاب بحالات غثيان في أثناء عملها. وأحس جلبني بإمكانية اتخاذ سبيل آخر للوصول إلى الفتاة، فقال لدوجيت أن يحاول اكتساب ثقتها، وأن يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكي يبدأ عمله الخاص. "كنت على استعداد لأن أدفع ألفاً من الجنيهات في سبيل متعة أن أترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل". ولكن اكتشف أن العشيق يمكن أن يبدأ عمله معتمداً على مبلغ أقل من هذا بكثير، لا يزيد على مائة وخمسة وسبعين تاليراً، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيهاً. وقال دوجيت للفتاة أن لسيده قلباً عطوفاً وأنه قد يستحق أن تلجأ إليه - فإن هؤلاء السادة الإنكليز مبذرون ومندفعون. وتبعاً لذلك، طرقت الفتاة بخجل باب جلبني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، فقال لها أن ادخلي. ألقت الفتاة "خطاباً عن حاجة حبيبها إلى النقود، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملاً، وما إلى ذلك. فتح جلبني كيس نقوده وأخرج عدة قطع ذهبية. ولما اتسعت حدقتا الفتاة وهي تحملق إلى تلك القطع، أحاط خصرها بذراعه، وهمس لها قائلاً إنها تستطيع أن تربح تلك النقود لحبيبه بسهولة كبيرة. وحاولت الفتاة أن تخلص نفسها وأن تبرح الحجرة، فقال لها إنه يعرف بأنها حامل. وأخافها هذا القول، فترددت، وأشار جلبني إلى النقود، وقال أن أحداً لن يعرف أبداً، وإن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. وإنها ستعيش في سعادة بعد ذلك إلى الأبد... سمحت له بأن يقبلها، وأن يداعب صدرها. أغمضت الفتاة عينيها، ومن الواضح أنها قررت أن الأمر يستحق التضحية، حينما سمعا شخصاً يناديها. انفلتت مبتعدة، فأخذ جلبني النقود ووضعها بقوة في يدها، ثم قبلها ثانية، فأسرعت خارجة.

وفي ذلك المساء كانت هي التي تخدم على المائدة، استطاع جليني أن يجعل عينيه تلتقيان بعينيها مرتين، فاحمر وجهها في المرتين. كانت قد أصبحت مدينة له بجسدها. وكان جليني يعرف أنه لا خطر على نقوده معها. فقد كان دوجيت قد استطاع أن يعرف أنها واعدت حبيبها على لقاء في ذلك المساء، وأنها بلا شك قد حملت إليه النقود.

وفي تلك الليلة، انتظر جليني حتى سمعها تعبر الفناء وتدخل المغسل. وفي هذه المرة لم تخلع ملابسها كلها، محتفظة بقميصها. فتح جليني الباب واندس داخلاً. بدا عليها الذعر، ورجته أن يخرج. وقالت له إن خطيبها كان ينتظرها في حجرتها. همس لها جليني أن الأمر لن يستغرق سوى لحظة واحدة. أمضى عدة دقائق في تهدئتها وإقناعها أن تهدأ وتسكن.. ودفعها حتى استند ظهرها إلى المرجل الخامد، وأخذها في تلك اللحظة، وعلى الفور. وبعد ذلك، همس لها أنها إذا كانت تريد خمسة وعشرين جنيهاً أخرى لكي تقيم منزلها، فليس عليها إلا أن تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. ثم ارتدى ملابسه وتركها.

استبد به الغضب عندما لم تلب الفتاة دعوته. قابلها بالصدفة في أحد دهاليز الفندق، فنظر إليها متسائلاً، فهزت رأسها وأسرعت تبتعد. ولم ينجح دوجيت هو الآخر في إقناعها. كانت الفتاة قد وفت بنصيبها من الصفقة، ولكن لاح لجليني أنه من غير المعقول إطلاقاً أن تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة، ثم منعت نفسها عنه بعد ذلك. "كنت على استعداد لأن أنفق كل جنيه أملكه لكي أقضي ليلة في الفراش مع هذه الشيطانة الصغيرة الفاضلة". قال لدوجيت أن يحاول ابتزازها بأن يهددها بإخبار عشيقها، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في اختطافها وحملها معه في عربة خاصة. ولكن الفتاة كانت قد نالت كفايتها، فاختفت في تلك الليلة. والمفترض أنها قد لحقت بعشيقها، الذي كان الآن قد أصبح مستقلاً عن معلمه. وفي حالة مزاجية سيئة الغاية، استقل جليني عربة إلى أمستردام معزياً نفسه بفكرة أن "تلك الدقائق الخمس في مواجهة المرجل الخامد، كانت تستحق خمسة وعشرين جنيهاً من نقود أي رجل". هذه الحادثة تفوح منها نكهة منفرة. كان قد رآها عارية فأراد أن يمتلكها، كان بوسعه أن ينتظر، وأن يجعلها تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. فقد كان من الواضح أنها مستعدة للوفاء بنصيبها من الصفقة ، ولكن كان من الأكثر إثارة ومتعة أن يمتلكها في الظروف التي كان قد قرر في البداية أن يمتلكها فيها - وخاصة أن عشيقها كان ينتظرها في حجرتها. ومن المهم أن نلاحظ استخدامه لكلمة "فاضلة". لم تكن الفتاة فاضلة، لأنها كانت

حاملاً. ولكن رؤيته هذه إليها هي ما جعلته يرغبها: رؤيتها في صورة المحترمة الفاضلة، تعشق رجلاً آخر. فكم يكون رائعاً أن يخلع عنها قميصها فيضاجعها مستنداً إلى مرجل المغسل، وبنطلونه متدل على كاحليه! ولكن إذ أنجز هذا، فقد أراد أن يحتل الأرض التي غزاها، وأن يكرر كل العملية الممتعة برمتها. لم يكن من الطبيعي أن يبتز فتاة فيهددها لكي يأخذها إلى فراشه، أو أن يفكر في حملها عنوة في عربة خاصة، ولكن هذه الفتاة "الفاضلة" ولدت عنده رغبة في الغزو، وفي أن يحط من شأنها. وحتى إذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية، فإنه يعتمد على فكرة أنه قد حصل عليها مرة، وإذا ظلت هي مخلصة لزوجها حتى نهاية حياتها، فلا شيء يمكن أن يمحو تلك الحقيقة. إن أكثر أنواع النزعة السادية عند الرجال خشونة وفظاظة هي ما تجلل الحكاية كلها. ولكن جليني يصفها في خطابه إلى دونيللي كما لو كان واثقاً من موافقته على سلوكه. وكان إحساسي الخاص هو أنه إذا لم يكن دونيللي قد وجد الحادثة ونظر إليها باعتبارها شيئاً رديئاً وغير "مشرف" بنفس نظري لها، إذن فإنه لن يكون أحسن من جليني في شيء، وإذن لكانا مجرد صعلوكين يحملان عقلين قذرين. ولكن لما لم أكن أملك شيئاً من خطابات دونيللي، فإنني لم أكن أملك سبيلاً إلى معرفة ردود فعله إزاء مكاشفات هوراس جليني.

-١٣-

▣ طوال الأيام العشرة التالية لم يحرز "بحثي" عن دونيللي أي تقدم. ولابد لي من الاعتراف ببعض الكسل المحبب، أو بالأحرى، بشيء من الميل العكسي، الرافض لأن أستغل طاقاتي بمهمة مدفوعة الأجر أو لأن أنكب عليها وحدها دون غيرها. لقد شعرت وأنا أقرأ الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الأنستين دونيللي بأنني أشبه بتلميذ يقوم بأداء واجبه المنزلي، ولقد كنت أكره مثل هذه الواجبات.؟ وبدلاً من هذا رحت أملأ صفحة أخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الظاهراتية وحول دراسة ويتينغشتاين، الذي كانت روايته "زيتيل" قد وصلت لتوها من بلاك ويلز.

ثم حدثت بعد ذلك عدة أشياء دفعة واحدة. فقد نشرت صحيفة التايمز الإيرلندية خطابي الذي أعلن فيه عن طلبي لأية مواد تتعلق بدونيللي، وبعد يومين، نشر الملحق الأدبي التايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن. وأخيراً أرسل إلي كلاوس دنكمان خطاباً

اعتذاراً من هامبستيد، وفيه أن خطابي إليه لم يصله في موعد مناسب، لأنه ترك لمدة طويلة على مائدة قاعة الاستقبال في عنوانه القديم، حيث لاحظه احد الأصدقاء بالصدفة. وكتب إلي رجل يدعى و.س.ل. الوريتش من بلدة كورك، يقول إنه كان صديقاً للمرحومة جين أستون التي ماتت في عام ١٩٤٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونيللي. ولكنه لم يكن واثقاً مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك. وأخيراً، كتب إلي كايف م. بيتس، حفيد إيزاك جينكينسون بيتس، من دبلن ليقول أن جده مريض، ولكن إذا تصادف وجئت إلى دبلن فإنه سيكون سعيداً لرؤيتي. وأضاف أن جده ابتهج لأنني أبديت آراءه حول مرتكب جريمة قتل جزيرة الآي الإيرلندية، وإنه يود أن يناقشها معي شخصياً. ثم اضاف في لاحقة نيل بها الخطاب يقول، "لقدرأيت خطابك في عدد اليوم من التايمز الإيرلندية. وإنني قد أكون قادراً على تقديم بعض الاقتراحات". وأثارت قلقي هذه الجملة الأخيرة بأسلوبها الحذر. فإنه لم يستطع حتى أن يذكر اسم دونيللي. وبدا لي هذا الأسلوب دليلاً على أنه يكاد بالفعل يعرف شيئاً ما، ربما كان شيئاً أكثر حتى من أن يثق بنفسه إذ يلمح إليه.

وكان خطاب كلاوس دنكمان طويلاً جداً، وراح يناقش كتبي مناقشة مطولة مستفيضة. ولكن إشاراته إلى دونيللي كانت مختصرة. قال إنه سمع الاسم من اوتو كورنر، تلميذ ويلهلم رايخ، الذي تحدث عن دونيللي باعتباره واحداً من أوائل الكتاب الذين لاحظوا أهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية. ثم قال دنكمان، إنه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على أن يزودني بالمزيد من التفاصيل. فعلى قدر علمه، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين إلى ألمانيا.

كان لدي شعور قوي برغبتي في أن أسرع إلى دبلن لرؤية كليف بيتس. ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة كان عليّ إنجازها، وإلى جانب هذا، فإن العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء. ولذا فقد كتبت إليه خطاباً دون توقيع، أتحدث إليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونيللي، وأضفت أنني أرجو أن أراه عاجلاً في فرصة مقبلة. ثم تحولت إلى مسألة اقتفاء آثار خطابات دونيللي التي كانت في حوزة جين أمستون - رغم أنني فعلت هذا دون كثير من الحماس. ولاشك أن خطابات دونيللي تلك ستكون حول موضوع جورتان وتيللوستون وغيرهما من أصحاب محافل

التنويم المغناطيسي. ذهبت إلى كورك وقابلت مستر الدريتش الذي كان بوسعه أن يخبرني أنه كان لجين أستون أقارب يقيمون في بلدة بيلكولي بالقرب من كينسيل. لذهبت إلى هناك بالسيارة لكي أكتشف أن هؤلاء الأقارب قد ذهبوا إلى كورك لكي يبتاعوا حاجياتهم وأنهم سيغيبون نهاراً بأكمله. وهكذا فقد عدت إلى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق، ثم عدت لزيارة مستر فيليب أستون - وهو حارس شواطئ متقاعد - في الساعة السابعة مساء. وقد كانت هذه الرحلة سدى، فالرجل لم يكن يعرف شيئاً عن خطابات دونيللي، ولكن أعطاني عنوان قريب آخر له يدعى برنارد أستون في ليمريك. وقصدت هذا الأخير في اليوم التالي في طريق عودتي إلى غالاواي، وكان الرجل قد سمع شيئاً عن خطابات دونيللي، لكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها، واقترح أن اتصل بطبيب جين استون، جروج أوهفرنان في كورك الذي كان يعرفها جيداً. (ولاحظت مدى ارتباك عينيه وتهدلهما عندما ذكر اسم الطبيب الأمر الذي أوحى إلي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت أقوى قليلاً مما يستطيع أن يوافق عليه).

كنت أشعر بأن إحساس (كافكاوي قد بدا يتملكني، وبت أشعر بأني أدور في حلقة مفرغة من دون أي اقتراب حقيقي من الهدف المقصود، وشعرت بإغراء الاستسلام. أردت أن اقتطف نصف صفحة من حديث دونيللي عن موضوع الخطيئة والغداء، ولكن بدا الموضوع يلوح أكثر إزعاجاً مما يستحق. وحينما وصلت إلى البيت، ودعمت عزيمتي بكأس كبيرة من الكلاريت، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور أوهفرنان. قيل لي أنه ليس هناك من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد، ولكنه لم يعد يعمل في المستشفى. بشعور آخذ من التبلد سألت إن كان بوسعهم أن يوصلني بالطبيب المشرف، ثم أخذت كأساً كبيراً أخرى. بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر، وقال أن الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني إن كان يستطيع أن يساعدني في شيء. عرفت أنه كان من المستحيل أن أقنعهم بأن يعطوني الرقم، ولكني رجوت أن يجعلوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته. وكان علي أن أوضح نوع العمل الذي أقوم به - وهو أنني كاتب وأنني أريد أن أتتبع مصير بعض الوثائق، وأنني قدرت أن الدكتور أوهفرنان يمكن أن يساعدني في تتبعها. وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الآخر أن أنتظر قليلاً، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي أن الـ "أوهفرنان" موضع البحث لم

يكن مسجلاً باعتباره طبيباً. شكرته وقطعت المكالمة، ولاح ذلك لي كأنه نهاية الخيط والطريق.

ولكن، وبعد ذلك بساعتين، وبينما كنت على وشك الاستسلام للنعاس وأنا استمع إلى موسيقى "فراصنة بينزانسة" دق جرس التليفون. فاجابت ديانا على النداء، وقالت لي أن الطبيب المشرف في مستشفى كورك يريد أن يكلمني. وكان هو نفس الرجل، وكان قد القى نظرة على القوائم القديمة فعثر على اسم الدكتور أوهفرنان، ثم استطاع بشكل ما ان يعثر على مكانه. كان العنوان في كيلارني. شكرته مضطراً إلى ذلك، ثم اخذت اسمه وعنوانه لكي أرسل إليه نسخة من أحد كتبي. ورغم أن الساعة كانت قد جاوزت العاشرة، فقد قمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور أوهفرنان. ذكرت له اسمي وقلت أنني كاتب، فاصبح على الفور ودياً جداًوقال لي انه قد نشر عدة كتب، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك ابداً، وعندما سار بنا الحديث إلى ان وصل إلى موضوع أيزموند دونيللي تذكر انه "كان قد" راى خطابي في التايمز الإيرلندية وانه فكر في الاتصال أو الكتابة لي. وقال أن نعم، بالتأكيد. انه يملك عدداً كبيراً من خطابات دونيللي بالإضافة إلى أوراق اخرى، وانني ساكون موضع الترحيب الكامل إذا شئت أن افحصها في أي وقت يكون ملائماً لي. فاتفقت معه على موعد في اليوم التالي.

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الأربع والعشرين التي قضيتها مع جورج اوهفرنان، ورغم انها تستحق الوصف بالتأكيد. إنه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر ابيض وشارب ابيض، كان يبدو كواحد من أولئك الناس الذين يولدون سعداء مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من احداث او ظواهر. أهداني نسخاً من كتبه، "كلونماكنويز وقصائد أخرى"، "مانجان، وعصبته"، "مذكرات متمرد إيرلندي". بالإضافة إلى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية. كان قد عرف بيتس معرفة جيدة، وامضى عدة امسيات مع جويس في باري، وكان نديم شراب لجو غارتي. سجلت ملاحظات طويلة عن اقاصيصه في مذكراتي اليومية، لأن صورة هذه الأقاصيص التي وردت في كتابه "مذكرات متمرد إيرلندي" اكثر تهذيباً إلى حد كبير واقل نزوعاً إلى اسلوب رابليه التهكمي اللاذع من الصورة التي سردها لي بنفسه. كان الطبيب مضيافاً كريماً، فقد دعا اثني عشر صديقاً لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة كالونات من الجعة المصنعة في المنزل

بالإضافة إلى عدد كبير من زجاجات ويسكي كامسون. وفي الساعات الباكرة من الصباح، حينما تخبط آخر ضيوفه نحو سيارته، حكى لي قصة علاقته بمسز استون في خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياتها، وكانت قد ماتت في الثامنة والأربعين من عمرها بسبب الربو. واخيراً اخذني الى خزانة هائلة، تمتد من الأرض الى السقف في حجرة النوم حيث كان علي ان انام. واطلعني على اكوام من المخطوطات الملفوفة والخطابات المغلقة في حزم محكمة موضوعة في اضبارات سوداء ثقيلة، وقال "سوف تعثر على الكثير من تراث دونيللي في وسط هذه الكتلة"، ثم تركني لكي ابحث عما اشاء. كانت الساعة الرابعة صباحاً، والغرفة باردة كالثلج رغم وجود مدفاة كهربائية ذات مشعل واحد. كنت قد شربت كثيراً وانتابني صداع خفيف. ولكنني شرعت في جذب الأوراق من الخزانة اعتماداً على الصدفة في رؤية خط يد أيزموند دونيللي. وبعد ان ازعجت عدداً قليلاً من العناب واثرت كمية لا بأس بها من الغبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة إلى ويليام أستون. وكنت حتى ذلك الحين قد اخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الخزانة. ولكن في نهاية رف الركن، كان هناك مغلفان أسودا اللون. جذبتهما والقيت نظرة على أحدهما. كان الخط هو خط ايزموند. نظرت إلى الصفحة الأولى، كانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بدايتها. فتحت المجلد الآخر. كان يتكون من أوراق من الحجم المتوسط، ربطت أطرافها بعضها إلى البعض، وقد كتب على الصفة الأولى: "١١ اكتوبر عام ١٧٦٤. كنت دائماً أعقد العزم على الاحتفاظ بكراسة مذكرات يومية أسجل فيها أعمالي يوماً بعد يوم، ولكنني فشلت حتى الآن في المداومة على تنفيذ هذا العزم. لقد فقدت عدد كبير من الأحداث الهامة، حتى كان علي في النهاية ان اصمم على تنفيذ هذا القرار، مهما كان الثمن من الجهد او الشموع..."

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت إلى الفراش، إلا ان النوم فارقني. في عام ١٧٦٣ كان ايزموند لا يزال في السادسة عشرة من عمره. إذن فإن هذه المذكرات هي اقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة. كان خط اليد اكثر وضوحاً وسهولة في القراءة من الخط الذي رأيته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الآن. كان إحساسي بالانتصار قوياً لدرجة انني شعرت برغبة للذهاب إلى الدكتور اوهفرنان في حجرة نومه لكي اطلعه على ما وجدت. ولكن لم يمنعني من ذلك إلا شكي في أنه ينام فيها مع المرأة الشابة الممتلئة التي تخدم منزله، الأمر الذي جعلني اكبح جماح نفسي. وكان ما ادهشني هو أن أوهفرنان لم يذكر لي تلك المذكرات. لقد قال لي انه يعرف ان ثمة خطابات من

دونيللي، ولكن كان هذا هو كل شيء. فالاستنتاج إذن هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها. وحينما سألته في الصباح التالي، أكد لي هذا الاستنتاج. فإن مذكرات رجل إيرلندي، بروتستانتي انجليكاني النزعة والمذهب، من القرن الثامن عشر، لم تكن من الأمور التي يمكن أن تثير اهتمامه، لأنه كان كاثوليكياً ووطنياً. وكانت مشاعره إزاء كرومويل أكثر عنفاً من مشاعر أي إنكليزي تجاه هتلر.

قرأت حتى مطلع الفجر، ونمت حوالي ثلاث ساعات، حتى أيقظتني مدبرة المنزل بالشاي، ثم ارتديت معطفي فوق المنامة وعدت ثانية إلى الخزانة. وفي خلال نصف ساعة، كنت قد "فرزت" ثلاث حزم أخرى من الخطابات، ومجلدين آخرين من المذكرات، بالإضافة إلى مخطوطة "يوميات الرحلات" الخاصة بدونيللي. وحينما دخل الدكتور أوهفرنان لكي يقول لي أن طعام الإفطار قد وضع على المائدة، وجدني محاصراً بالأوراق مغطى بالتراب، جالساً في مواجهة الخزانة الخالي. وحينما أطلعته على المذكرات، ابتسم وقال:

-"حسناً، إنني مسرور لأنك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء".

حينئذ انتهزت الفرصة لكي أطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل:

-"تعني أنني أستطيع أن استخدم كل هذه المادة؟"

-"بالتأكيد. لم لا تستخدمها؟"

-"هل تفضل أن أعمل هنا، أم أن بوسعي أن أستعيرها؟"

"أوه، أي شيء تفضل. انزل الآن معي وكل شيئاً".

ثم عرج خارجاً في خفة، بينما جلست في مكاني أغمغم كمجنون.

-١٤-

■ ولابد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات، بدأت في الندم على قبولي التعاقد مع فليشر. كان مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الدولارات قد لاح لي مبلغاً عظيماً في ذلك

الوقت، ولكن مع وجود كل هذه المادة التي استطعت الحصول عليها شعرت بأنني أستحق أكثر من هذا بكثير. ذلك أن المذكرات الجديدة أزاحت جانباً آخر من شكوكي حول خلفية دونيللي الثقافية وقيمته الذهنية. لقد أطلعتني هذه المذكرات على السبب الذي جعل هوارس جليني يعجب به إلى هذا الحد. لقد كان رجلاً تسلطت عليه الطبيعة المروّعة للتجربة الإنسانية. ولكن فلندعه يتحدث عن نفسه:

"يقول لي ابن عمي فرانسيس أنني قوي الشعور بذاتي مسرف في الغرور، ولكنني أدعو السماء لكي تشهد علي أن هذا غير صحيح. إنني في الأغلب أكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقيراً لذاته، وكثيراً ما يبلغ عدم رضاي عن ذاتي أن أشعر برغبة أن أطلق على رأسي الرصاص فأنسفه. إنني أكتب هذه المذكرات عسى أن أستطيع أن أدخل شيئاً من النظام والاستمرار على حياتي. لأنني أشعر بالسقام حتى لباب القلب بسبب استهجاني واستنكاري لذاتي. كثيراً ما تشكو النساء من انتقاد الرجال إلى الثبات على العهد، ولكن لماذا ينبغي علينا أن التمتع بصفة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئاً من الثبات في أي شكل آخر من أشكال الفكر أو الإحساس أو الرغبة؟ بالأمس، ألقى الواعظ المشهور الدكتور جيلليس موعظة في كنيستنا، وقد حركتني هذه الموعظة إلى حد عظيم، فأقسمت على أن أبدل حياتي في المستقبل لكي أسير تبعاً لوصاياه فأعيش فقط على أساس من الاتفاق مع ضميري وإحساسي بالفضيلة. كان اليوم عاصفاً شديد البرد إلى درجة أكثر مما يسمح بالمغامرة بالخروج من عتبة الباب. وفي هذا الصباح قرأت في خرافات جيلليرت بالألمانية لمدة ساعة قبل أن يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة أخرى، فأصبحت غارقاً في إحساس وحشي من الفراغ والخواء. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن رؤية أي طريق يستطيع من خلاله ضميري أو إحساسي بالفضيلة أن يؤثر على هذا الإجهاد الذي يستهلك الحياة ويدمرها. ربما يستطيع ضميري أن يدلني كيف أتجنب ارتكاب الخطأ، ولكنه لن يستطيع أن يدلني على كيفية الهروب من الملل والضجر. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أقتل للمخلوق الذي صاغه الله على صورته من نفس هذا الضجر؟ ذلك أن الله إله لأنه يستطيع أن يخلق، ولذلك فإن رجلاً يسحقه الضجر لأكثر المخلوقات بعداً عن صورة الله.

لقد عقد الدكتور جيليس مقارنة شديدة الحذق والبراعة بين الجسد والعقل، قائلاً أن الجسد يملك نظاماً أو أسلوبه الخاص للتخلص من الإفرازات السيئة أو الضارة سواء كانت

طبيعية أو نتائج المرض، بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام أو الأسلوب. لو أصابني "دمل" لانصرف من تلقاء نفسه. ولو أصابني الإمساك فإن تفاحة خضراء ستكفي لتخفيف الانقباض، ولكن لو أنني ممتلئ حسداً أو ضغينة، فلن ينفعني أي مظهر مهما كان، فإما أن أتيح الفرصة للتعبير عما يحتبس في صدري، أو أن أسحبه عن طريق فعل مضاد. وليست هناك قناة طبيعية للتصريف، لابد لتصريفه عن طريقة تشبه ولادة "ماكدف" قاتل ماكبث في مسرحية شيكسبير: "انتزع من رحم أمه قبل أوان النضج والولادة". أو ليس يصدق هذا - وحتى أكثر منه - على ذلك "الضجر الحياتي" الذي يخنقني. إنه نوع من انقباض الروح، دمل لا يريد أن ينصرف.

أعرف أنني لا يمكن أن أكون سعيداً دون الشعور بأن نشاطي موجه نحو غاية ما، ولكنني لا أعرف كيف ألملم روحي فأشحنها بهدف معين أو غاية محددة. منذ نصف ساعة، تناولت ديوان تومسون[1] الذي يحمل عنوان "شتاء" وقرأت فيه:

يتنزل الوابل الأبيض عبر الهواء الساكن،

رقيقاً يترنح في البداية، حتى تأتي في النهاية الرقائق السميكة

تسقط في كل مكان، طولاً وعرضاً، وسريعاً ما يعتم النهار

بالفيضان المستمر. الحقول المدللة الحبيبة،

ترتدي ثيابها الشتائية من أنصع ألوان البياض،

كلها ناصعة مشرقة، عدا حيث يذوب الجليد الجديد

على طول المجرى المراوغ...

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاماً يشبه سقوط الجليد الهابط على حواسي ألا توجد في داخلي شهية إلى السمو الجليل يفسدها الآن الإجهاد، مثلما يئن جوع معدتي فأشعر بالغثيان إذا أكلت كثيراً من الشطائر المسكرة؟

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠-١٧٤٨ شاعر إنجليزي، له ديوان (شتاء) عام ١٧٢٦، وديوان (الفصول) الذي أخذ فكرته عن أستاذه في اللاهوت روبرت ريكالتون.

أولا تستثار تلك الشهية فتستيقظ من خمودها إذ تتذكر حقول الشتاء؟ وكذلك حين تتذكر قعقعة السيوف في ملحمة أوسيان؟[1] وأيضاً إذ تتذكر اهتزازات نهدين حينما تسرع فتاة في صعود الدرجات. لماذا لا نملك عصا نضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفاقاً؟"

هنا يردد أيزموند الموضوع الرئيسي في المذكرات، إنه ما ندعوه الآن بالطاقات والقدرات الخفية للاوعي. هذا الموضوع يتسلط عليه كالهاجس المسيطر. وهو يعود إليه مرة بعد أخرى. "إن قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان، وقذائف مدافع الرياح، النجوم نفسها ترقص عبر السموات لكي تقول لنا أن لا شيء في العالم يبقى ساكناً سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتأنيب الذات". وهو يسأل مراراً عن السبب الذي يجعل ذكاء الإنسان "ينفيه" بالضرورة من حياة الكون ويتساءل متأملاً فيما إذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء؟ إن المعرفة ذاتها، القدرة على التفكير، هي التي كانت تفصل الإنسان وتفرقه عن الله. وحتى في سن السادسة عشرة يبدي دونيللي معرفة واسعة تماماً بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر، بل إنه يقتطف عبارات من جورج هربرت[2]. ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الأول - المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تتغير النغمة. وأظنه قد أعاد قراءة جملته التي يطالب فيها "بعصا نضرب بها الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفاقاً"، لنه يتحدث مرة أخرى عن النهود المهتزة. كان النهدان اللذان يفكر بهما هما نهدا ابنة عمه صوفيا، التي كانت تقيم عندهم فترة الإجازة مع والدها ووالدتها، إن صوفيا مونتاغو، ابنة عم إليزابيث منتاغو (وهي إحدى العضوات الأصليات في جماعة "الجوارب الزرقاء")، قد أصبحت واحدة من فاتنات هذه المرحلة المرموقات. وحتى في ذلك الوقت، حينما كانت في التاسعة عشرة أو تكاد - فإنها قد جذبت الكثير جداً من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت "ماي فير" الذي أقامته المضيفة الشهيرة. وكان أيزموند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف أنه لم يكن واقعاً في حبها، لأنه كتب يقول: "إنها بلهاء، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع إحدى الربات". ويكتب عنها

(١) أوسيان — شخصية تحمل وجهين تاريخ وأدبي، ففي التاريخ كانت له شخصية أحد المحاربين الذين نزلوا شمال سكتلندا في القرن الثالث، وفي الأدب عرف كشاعر فذ، تنسب له ملحمة شعرية عن حروب الغالبين في فرنسا وإنكلترا وألمانيا، نشرت في العام ١٩٦٠.

(٢) جورج هربرت ١٥٩٢-١٦٣٣. شاعر إنكليزي أخلص للشعر وحده، يعد من شعراء مدرسة جون دون الميتافيزيقية.

فيما بعد قائلاً، "قالت لي صوفيا إنها سمعت مستر بوزويل يتناقش مع دكتور جونسون مدافعاً عن تعدد الأزواج، وأن مسز مونتاغو أجابت بأنه ليس هناك أمراً على قيد الحياة تمتلك حكمة ضئيلة إلى الحد الذي يجعلها تريد أكثر من زوج واحد في الوقت الواحد". إن لفكرة بوزويل جذورها، وقد تأصلت فيما بعد، وكذلك تأصلت أفكار روسو في كتاب هيلويز الجديدة" التي قرأها بالفرنسية، كما قرأ رواية ريتشارد سون "كلاريساهرلو". ففي رواية روسو تنشأ علاقة حب بين البطلة دولي ومعلمها سانت بريو، ويدافع عنهما روسو محتجاً بأن هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يحب أحدهما الآخر وتمنعهما الظروف من الزواج. أما رواية ريتشارد سون فهي أخلاقية إذا ما قورنت برواية روسو، إنها معالجة لحكاية إغواء كلاريسا الفاضلة واغتصابها على يدي الأفاق الصعلوك لفليس. وتموت كلاريسا تحت وطأة تعذيبها لنفسها وشعورها بالعار، ويقتل لفليس في مبارزة. ويكيل أيزموند صنوفاً من التهكم لريتشارد سون باسم روسو. لماذا يمكن أن تنهار فتاة وتضمحل حتى الموت لأن رجلاً قد فعل معها شيئاً طبيعياً؟ إن حضور ابنة عمه الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في طليعة ما يشغل ذهنه، وفي وقت قصير يشرع في التعبير عن آراء تدفعه على تقرير المحافظة على سرية مذكراته. إنه - مثل عدد كبير من النقاد - يشك في أن موقف ريتشارد سون إزاء اغتصاب كلاريسا لم يكن موقف الرفض المرتعب. وإنما المتعة السرية الشريرة. "فمن الذي يمكن ألا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة، خاصة إذا لم تكن متمالكة لوعيها ولا تعرف شيئاً عما يجري لها؟" وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باغتصاب كلاريسا وهي تحت تأثير المخدر، بدلاً من اتباع طريقة لوريس، ثم يجيب على تساؤله قائلاً، "إذا كانت الفتاة فاضلة إلى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها بأي طريقة أخرى، فإن لفليس علي حق في اتباعه لهذا الأسلوب. إن جمال الفتاة، مثل جمال أنواع معينة من الطيور الاستوائية، قد خلق لكي يغري الذكور ويوقعهم في حبائله، فلماذا ينبغي عليها أن تشكو إذا كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح؟ إنها تشكو لأن هدفها هو أن تحصل على زوج في مقابل فضيلتها. ولكن لنفترض أن زوجها المحتمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في أن يكرس حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شرفه بأن يتوقف عن الطراد؟ لماذا لا يستطيع أن يحاول انتزاع الزهرة بدلاً من أن يشتري الحديقة بأكملها؟"

ومن المهم أن نلاحظ أنه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون إلى تفضيل أن تغتصب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي. ولكن هذا السؤال يستمر في مداعبة

تفكيره. إنه يسأل، "أليس ذلك لأن إحساس الرجل بالالتزام يقابل من متعته؟ أليس من الحق أن استمتاعي بزجاجة من النبيذ يمكن أن يضيع تماماً إذا عرفت أن علي أن أدفع خمسيناً من الجنيهات لقاءها غداً؟" وهو يمضي إلى مناقشة فكرة بوزويل عن تعدد الأزواج، ويؤكد أن هذه الفكرة ليست سوى تعبير آخر عن رغبة الرجال الطبيعية في أن يعربوا عن ولائهم وأن يدفعوا ما قرر عليهم.. "بأن يصبوا دناناً من عصير الخلق في الحلق الصحيح المناسب".

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا إلى شيء. ولكنه على الأقل أدى إلى بداية تفكير أيزموند في الجنس. ويؤدي هذا به إلى كتابة معالجة تقريرية ممتعة عن تجاربه الجنسية حتى ذلك الحين. وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستة شهور فحسب. كانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى، جوديث، وكانت قد جاءت عائدة من ليونز. وهو يدعوها باسم مينو رغم أنه من الواضح أن "ماري" هو اسمها الحقيقي.

حينما عدت من دبلن، كانت جوديث قد عادت إلى البيت منذ نحو ستة أسابيع. وفي البداية لم أنتبه إلى مينو أيما انتباه، إذ وجدت أن وجهها على شيء من القبح. كان صدغها كبيراً جداً، وكان لها أنف مثل الزرار الكبير. ولكن في اليوم التالي لعودتي، وبينما كنت راقداً على الحشائش الحديثة التشذيب بالقرب من حافة مجرى الماء،، سمعتها تضحك وتقول: "كلا، كلا. ليس هذا هو المكان المناسب". ثم سمعت صوت رجل يتهكم على لكنتها قائلاً، "كالا، كالا، ليسا هذا هوا المكان المناسب" وكان الرجل هو شون فراهرش، الذي يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحديقة، وكان عملاقاً ضخم الجثة برزت على صدغه الأيمن ندبة كانت نتيجة ركلة قاسية من مهرة عصية. لم تكن سراويله ولا ستراته تناسبه أبداً،لأنها كانت غالباً مما يستغني عنه شقيقه الأكبر، الذي كان أقصر منه بمقدار ست بوصات. لم أكن قادراً على رؤية أي منهما، لأنهما كانا راقدين وسط الحشائش الطويلة تحت إحدى شجرات التفاح. وبعد دقائق قليلة من الصمت، قالت مرة ثانية: كلا، ليس هنا". أجابها، "إذن تعالي إلى الإصطبل" قالت: "كلا. لا أستطيع. يجب أن أعود لأقدم الشاي". (وكانت جوديث لابد أن تتناول الشاي في العصر. عادة جاءت بها من الخارج). ولكنني سمعتها تعده بأن تذهب إلى الإصطبل بعد تقديم الشاي، ثم وقفت، ونفضت شعرها بيديها، وأسرعت تبتعد. وقف شون راقتي، وربط بنطاله عند وسطه بقطعة حبل ثم ذهب في اتجاه الإصطبل.

كنت أعرف سمعة شون بين فتيات القرية، رغم انني لم اكن قادراً ابداً على فهمها، لان ندبته وعينه المشقوقة أعطياه مظهراً مفزعاً إلى اقصى حد. كانت شقيقاتي يطلقن عليه اسم "سيكلوبس". ولكنني كنت في هذه اللحظة أتحرق شوقاً وفضولاً لمعرفة ما نوى على فعله معها، رغم أن ذلك لم يكن صعب التخمين. كنت قد راقبته وهو يرشد العضو المنتصب لأحد الجياد النافدة الصبر لكي يولجه في مهرة جديدة، ولم يكن لدي شك في انه جيد التدريب على استخدام "آلته" والسيطرة عليها. ولكنني لم اكن اعرف شيئاً من التحام الرجل بالمرأة، غير اني قررت الآن، وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها، أن عليّ ان اعالج هذا النقص الخطير في تعليمي. وعلى هذا فقد دفعت نفسي إلى الجزء الذي يوضع فيه القش في الإصطبل - لأنني خمنت أن هذا هو المكان الذي كان يقصده - ثم تسلقت صاعداً إلى القسم العلوي منه، بين أكياس الفاصوليا وأجولة البذور. كانت الأرضية كلها مغطاة بالقش، والرائحة لذيذة مثيرة. كان تخميني أنهما ينويان أن يتمتعا بالتحامها فوق هذا البساط الطبيعي أقرب بكثير إلى الواقع، ولكن إذا كان قد "وضع في راسه" أن ينظر إلى القسم العلوي، فإنه سيتعين عليّ أن اختبئ وراء الأكياس والأجولة في الركن.

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في تقليب القش بشوكة كبيرة، لم يكن بوسعي أن أراه، ولكني عرفته من صوته وهو يغني اغنية "موللي مالون". ثم صعد بعد ذلك إلى الطابق العلوي، آخذاً معه "أحضاناً" هائلة من القش، لكي يبعثرها وينشرها على الأرضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقدت فيه. من هذا التصرف خمنت أنهما ينويان أن يخلعا ملابسهما وأن يفعلا ما يريدان هنا في القسم العلوي، وليس في المدخل السفلي كما كنت أظن.

بعد دقائق قليلة، جاءت مينو، ولبرهة قصيرة لم اسمع صوتاً. رفعت جذعي على ركبتي وتلصصت ناظراً فوق الأجولة. كانا واقفين بالقرب من الباب، وكانت قد احاطت عنقه بذراعيها، تبادلا حديثاً هامساً وأشار هو إلى السلم. خفضت جذعي ورقدت. اغمضت عيني حتى يظنناني نائماً إن وقعت عيونهما عليّ. صعد هو أولاً، ثم استدار وعاونها على صعود السلم الذي كان ممتداً وراء المنصة العالية. كان الضوء ضعيفاً، ولكن كان بوسعي أن أراهما بشكل جيد. وقف هو وظهره إلى الجدار، فألقت هي بذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة طويلة. ثم أنزلت إحدى يديها ومدتها إلى الحبل الذي حلت عقدته بجذبة واحدة. سقط

بنطاله إلى ركبتيه، كاشفاً عن ردفين هائلين مشعرين كانا في مواجهتي. تحركت يدها متجولة بينهما ولم يكن بوسعي إلا ان اخمن ما كانت تفعله في هذا المكان... رفعت وجهي فوق الأجولة، ولكن لم استطع ان ارى سوى القليل، لأنهما كانا غارقين وسط القش، وكان الضوء قليلاً بالقرب من الأرض. وفجأة صرخت صرخة حادة، وخشيت ان تكون قد رأتني فأخفيت نفسي غاطساً إلى الوراء من جديد. ثم سمعته يأمرها بالصمت، فصرخت مرة ثانية، ولكن بصوت اقل ارتفاعاً. همس القش وصر كما لو كانت الاف من الجرذان تمرح داخله، واستمرت هي في إطلاق الصرخات والأنات، كما لو كانت تتألم. ثم اصبح الصرير عنيفاً حتى دفعني إلى التلصص من جديد، فرأيته يحرك ردفيه فوقها كما لو كان يأمل ان يصنع ثقباً في الأرض... بينما اندست قدماها في ثنيتي ظهره، ولو كان هناك المزيد قليلاً من الضوء، لكان في وسعي ان ارى المشهد الصحيح الدقيق للعملية. ثم حاولت أن تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجأة. رقدا في مكانهما، ساكنين تماماً، ثم تنهد تنهيدة عظيمة، وبدا عليه انه يوشك أن يجفل مرتداً إلى الوراء من فوقها. وحلت هي وثاق ساقيها من حول ردفيه، وتركتهما تتمددان مستقيمتين بينما رقد هو في مكانه فوقها دون حركة.

لابد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني إلى حافة قريبة من الاستثارة التي بلغت لحظة انفراجها الخاصة قبل أن تتوقف حركاتهما ببعض دقائق. ولما كنت قد انتهيت، فقد أملت أن يرتديا ثيابهما وأن يسمحا لي بالهرب من هذا الوضع المقيد. ولكن الصمت الذي اطبق واستطال اقنعني بأنهما قد غرقا في النوم، رغم أنني لم أجرؤ على الحركة لكي اكتشف إن كان تخميني صحيحاً أم لا. وبعد أن مرت عشر دقائق، شرعا في التحرك ثانية. ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى انني رجحت انهما لم يفعلا سوى أن عادا إلى مؤتمر العشق الذي يعقدانه. رفعت عيني فوق الأجولة فاكتشفت ان تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة، لأنه كان راقداً على ظهره مثل فارس مصروع، بينما جثت هي على أطرافها الأربعة، وبدت كما لو كانت تحاول أن تنفث قدراً من الحياة في الجمرات الخابية بأن تنفخ فيها بعض الهواء. وبعد قليل، أثمر جهدها ثمرته، وتأجج اللهب في الجمرات من جديد..."

يمضي تقرير أيزموند في إطناب واستطالة حتى ليكون من غير المجدي أن ننقل منه المزيد هنا. كانت الفتاة مصابة بالغلمة مستعرة الشبق، رغم ان ايزموند كان اقل خبرة

بكثير من ان يدرك هذا، لقد دفعت فارسها إلى مزيد من النشاط ثلاث مرات، ثم تركته في النهاية غارقاً في نوم بلغ من العمق ان ايزموند كان اخيراً قادراً معه على أن يخطو على اطراف اصابعه فوق جسده دون أن يشعر به.

ولكن الطور التالي كان نموذجياً ومطابقاً لما هو منتظر من ايزموند حتى أنه يجب أن يسجل هنا. ان يعترف بانه لم يكن قادراً على رؤية ما يجري ولكن الأصوات كانت دالة ولا يمكن الخطا في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية. والآن، وقد راى الفتاة عارية، فإن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية ان يتقاسمها مع فتى الإصطبل. إنه يكرر عدة مرات ان جمال جسدها قد ادهشه، وكان قبل هذا يظن دائماً ان التالين الإغريق قد أسرفوا في المبالغة في جمال شكل الجسد الأنثوي. وفي طريق عودته إلى المنزل، خطر له ان الفتاة يمكن ان تخضع للابتزاز والتهديد لكي تسلم نفسها. لم يكن عليه إلا ان يهدد بان يبلغ شقيقته بانها تعشق فتى الإصطبل. ذهب بعد هذا إلى حجرته لكي يغتسل وينفض التراب عن ثيابه، ثم ذهب عبر جناح الخدم إلى حجرة مينو. ولم يلح له ان ثمة احداً بالداخل، فتح الباب واطل براسه في الحجرة.

"كانت حجرتها خالية، وللحظة ناقشت نفسي أانتظرها ام أعود راجعاً الى حجرتي. ثم سمعت صوت مياه تسيل في المرحاض الملحق بالحجرة. وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنه حاجز صغير - فعرفت انها هناك بالداخل. اغلقت الباب خلفي وخطوت إلى الداخل على اطراف اصابعي. ولكن احد الواح الأرضية صر تحتي فنادت: "من هناك؟" فقلت باكثر ما استطعت هدوءاً: "ايزموند". اطلت براسها وقالت: "اوه، سامحني، إنني من دون ثياب". وقفت في مكاني، شاعراً بانني ابله لا شان له، الأمر الذي اغضبني، امسكت بثوبها، الذي كان ملقى على احد المقاعد، ورفعته لتغطي جسدها عند العنق وهي تسال: "اتحمل رسالة؟" ولكنها كانت تبتسم كما لو كانت قد وجدتني ممتعاً، وساعدني هذا على التخلص من توتري. كنت احدق فيها بقوة، محاولاً أن اعرف إن كانت ترتدي قميصها ام لا، حتى انها لم تبق طويلاً في شك من هدفي. كانت هذه هي أول مرة اعرف فيها ان تبادلاً في الآراء يمكن أن يحدث دون نطق كلمة واحدة. تحركت عيناها من قدمي الى راسي، وعادت ثانية. قلت: "الجو بارد هنا، او شيئاً من هذا القبيل. ثم خطوت الى الأمام، واخذت يديها وامسكت بهما فرفعتهما واطللت تحت الذراعين. كانت ترتدي القميص، ولكنه كان متدلياً

تحت عنقها، غير ان منظر الكرتين غير المحميتين دفعتاني إلى العمل بقوة حتى انني لم اطل التردد، وإنما اخذت الثوب منها والقيته على الفراش. على النهد الأيسر رايت اثار صفين من الأسنان،وحينما بدا عليها انها على وشك الاحتجاج اشرت إلى تلك الآثار. هبطت بعينها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم استطع سماعه، ثم حنيت راسي إلى الحلمة الصغيرة التي وقفت الآن عارية. وبينما كانت تنظر، جذبت حزام القميص. توقعت منها ان تقفز مبتعدة، ولكنها وقفت في مكانها بهدوء وتركتني لكي اخذها بين شفتي ثم بعد لحظة، وضعت يدها على راسي وربتت على شعري. ثم حلت رباط حزامي. لم اضيع وقتاً اكثر من هذا. وإنما دفعتها إلى الوراء نحو الفراش الصغير، ووضعت يدي على الجزاء المنخفضة التي كانت مبتلة لأنها كانت تغسلها حينما دخلت الحجرة. ودون أن اخلع بنطالي او حذائي سقطت فوقها، وولجتها دون صعوبة...

مرة أخرى يبدو الوصف اطول جداً من ان نقتطفه كله. لقد بقيا في حجرتها ساعة أخرى، ودفعته الفتاة للدهشة إلى أن يمارس الجنس معها ثلاث مرات أخرى. وبعد ذلك تبادلا الحديث، واعترف ايزموند بانه قد راقبها مع شون رافرتي. وبدلاً من أن تشعر بالمهانة، ضحكت ضحكة مرتفعة، وسالته إن لم يكن قد شعر بالغيرة فقال: "لم اكن حينذاك. ولكني اشعر بها الآن" قالت له إن ذلك سخف لا معنى له، طالما ان المفروض في الرجال والنساء ان يتبادلا المتعة.

من الصعب القول إن كان ايزموند سعيد الحظ أم سيئه في اختياره عشيقته الأولى. حقاً إن اراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً، ولكن قصة حب اكثر طبيعية - ذات جانب عاطفي بالإضافة إلى جانبها الجسدي - كانت جديرة بان تساعد على موازنة تلك الآراء. كان ما يزال غير مدرك لأن هناك شيئاً ما غير طبيعي في مطالب مينو الجسدية طالما انه وجد نفسه قادراً على ان يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها. كذلك فإنه ليس من الحقيقي تماماً أن الانجذاب القوي بينهما كان محروماً من جانبه الوجداني. بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماجاً معها. لقد كف عن التفكير في كلاريسا ولفلبس، أو جولي وسانت بيو، وراح يفكر في قصتهما باعتبارها قصة مينو ودي جريو - رغم انه يعترف بانه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريفو باعتبارها شيئاً سخيفاً وغير واقعي.

ايزموند انها كانت على قدر من الخجل، فتحمل مشقة أن يسليها، اعارها كتاب "هيلويز الجديدة" بعد ان انتزع منها وعداً بان تخفيه عن الأنظار. (والسبب في هذه اللمسة من السرية ليس واضحاً، لأنه يذكر في مكان آخر انه لم يكن بوسع ابيه ولا امه ان يتحدثا الفرنسية وربما كان يريد ان يقيم مع الفتاة نوعاً من العلاقة الخاصة). ولكنه كان يخشى ان تشعر مينو بالغيرة، فحاول الا يكون اهتمامه بالقادمة الجديدة شديد الوضوح. ولكنه كان يبخس مينو قدرها! فبعد عدة أيام، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه، قالت له انها تظن ان دلفين واقعة في هواه وقالت له انه غبي لانه لم يلاحظ ذلك. وقرر ايزموند ان يكتشف الأمر، بالأساليب العادية، وهي ان يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر الى جانبه، وان يلمس يدها او وسطها حينما ينفرد بها، لكي يرى ان كانت ستقبل مثل هذا النوع من الألفة. وقد قبلته فعلاً. ففي اثناء نزهة وسط خرائب الدير امسك بها في احد الأركان وقبلها، فانفجرت في البكاء. ابتعد هو منزعجاً وقد اختلط عليه الأمر، لكي يسال مينو رايها. قالت له مينو ان دلفين كانت اكثر جذبة إزاءه منه إزاءها، وان دموعها كانت لأنها حدست ذلك، وهذا تحليل جدير بالاحترام. وهكذا فحينما انفرد بها في المرة التالية سالها ايزموند: "الا تحبين ان اقبلك؟" وأكد لها انه لن يفعل ذلك ثانية إذا هي اعترضت. احمر وجهها، وقالت عدة جمل لا رابط بينها، وحينما ضغط عليها، اعترفت بانها لا تعترض على ذلك. دعاها ايزموند لجولة اخرى بين اطلال الدير، وامضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها. وفي عودته، كان لابد ان ينطلق إلى حجرة مينو لكي يمتلكها، كانت سيطرته على نفسه طول النهار اكثر مما يحتمل. قالت له مينو إنه عاشق بليد، وان ما يحتاج إليه هو الرقة والملاطفات. إن عليه ان يربت على وجهها وذراعها، واي جزء من جسدها يتصادف ان يكون مكشوفاً. اي ان يعودها ان تستجيب باستمتاع للمسته، ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة. ويستغرق وصف ايزموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات. كانت دقائق عملية الإغواء تسحر لبه. وبعد اسبوع سمحت له بان يكشف نهديها لكي يلاطفهما، وان يقبلها فوق الركبتين - رغم انها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلتا يديها لكي تمنع اي مزيد من التقدم. تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بريو، ووافقت نظرياً على أن شخصين في وضعهما لابد ان يكونا عاشقين. ولكنها - في التطبيق - وضعت خطاً فاصلاً حاداً بين الملاطفات وممارسة الحب.

من المؤسف ان ايزموند لا يقول لنا شيئاً عن تاريخ مينو السابق، ولا حتى عما إذا كان قد سالها هو عنه ام لا. (لقد كان من المهم أن نعرف ان كانت حيويتها الجنسية غير العادية فطرية ام مكتسبة)، انها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الغلمة الشبقية جديرة بان تدرس في كتاب مرجعي. كانت تحب أن تعض بالأسنان وخاصة في نهديها وردفيها، وكانت تحب أن تضرب على مؤخرتها بشريط من الجلد..

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتهما تلك العلاقة، لم تكن تخفي عنه أنها كانت تمضي أكثر ما تستطيع من الوقت مع شون رافيرتي، وكان ايزموند واقعاً تماماً تحت سيطرتها حتى انه لم يشك في ذلك. بل انها حاولت ان تقنعه بان يختبئ في الإصطبل مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع شون. ولكن كبرياء ايزموند- او ربما تظاهره الأخلاقي البروتستانتي - ثار ضد ذلك.. بل إنه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه انها ستخبر شون عن علاقتها به هو، وان ثلاثتهم يمكن ان يشتركوا في الاعيب الإصطبل.

في أغسطس اتخذت القصة تحولاً غير متوقع، يدفع المرء إلى ان يتساءل إذا كانت مينو (واسمها الآخر لم يسجل) واحدة من أكثر نساء زمنها تعقيداً وابعدهن عن التقيد بالمواصفات المعتادة. فقد حدث أن فتاة تدعى دلفين لانتير، وهي إحدى معارف جوديث، جاءت لكي تقيم في قلعة دونيللي. ويستطيع المرء أن يستنتج من وصف ايزموند لها انها لم تكن ذات جمال تقليدي، لأنه يقول ان وجهها كان يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رقتها وعينيها الواسعتين البنيتين. وكان من سوء حظها ايضاً ان تكون مشوهة تشويهاً بسيطاً، فقد حدث أن سقطت من إحدى العربات في طفولتها فانكسرت عظام احد ردفيها وأحد كتفيها ولم يستطع الأطباء أن يعيدوا العظمتين إلى حالتهما الطبيعية، فكان عليها أن تحمل نفسها على ساقيها بطريقة مضطربة. ورغم ان اباها كان فرنسيا فقد كانت أمها ايرلندية وكانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة. (ومن الأمور ذات المغزى ان ايزموند يتحمل مشقة تسجيل التفاصيل عن فتاة من طبقته، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو، الأكثر تعقيداً وجذباً للاهتمام).

كان ايزموند صبياً في السادسة عشرة من عمره، رومانتيكياً، وكان ينظر في تأمل إلى كل امرأة يقابلها. فإذا كانت مينو صورة من مانون ليسكو، فإن دلفين كانت اقرب الى شخصية جولي - او ربما كانت اقرب إلى "كلير" الرقيقة الحلوة الطبع في نفس الرواية. رأى

غير أن مينو الفريدة في نوعها قدمت اقتراحاً أدار رأسه. كانت مقتنعة بأن دلفين كانت فاضلة. (فضيلة نظرية بسبب عدم الخبرة) - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تملك فضولاً كافياً. قالت لأيزموند أن يأتي بدلفين إلى الإصطبل في عصر اليوم التالي، وأن يؤكد عليها ألا تنبس بأي صوت حينما يدخل شون رافيرتي لكي ينشر القش استعداداً لدورتهما المعتادة من ممارسة الجنس: "فإذا رفضت أن تنظر، فإنها فاضلة حقاً، ويكون من الأفضل لك أن تهرب قبل أن تتزوجك. وإذا نظرت، فإنها ملكك بالفعل".

وبينما كانت الساعة الفاصلة تقترب، أصبح أيزموند عصبياً، وقرر عدة مرات أن يتخلى عن كل هذا المشروع المستحيل المنافي للطبيعة والعقل. وانتابه الشك في أن الفتاة التي تستطيع أن تضع خطأً فاصلاً بمثل تلك الحدة، جديرة بأن تهدم اللعبة كلها بأن تكشف عن مكان اختبائهما. وأعلنت شقيقته عن رغبتها في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم، فقالت دلفين أنها تود أن تذهب معها، وأطلق أيزموند تنهيدة ارتياح عظيمة. ولكن دلفين - في اللحظة الأخيرة - عادت فقالت أنها تشعر بصداع، وقالت أمه أنها ستذهب بدلاً منها. وبدأ أيزموند يلعب لعبة أشبه بالروليت الروسي ضد القدر. لقد أراد للمشروع أن يفشل، ولكنه كان راغباً في أن يمضي في تنفيذ كل خطواته - باحثاً بلهفة عن أول عذر يبرر له التخلي عنه. ذهب إلى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف وسألها إن كانت تشعر بالرغبة في المشي معه قليلاً. خرجت معه فاتخذا طريقهما المحبب صوب بلدة آدار، ثم عادا سائرين إلى جانب المجرى المائي وهما يلقيان الحصى في المستنقعات الضحلة. وتحدث أيزموند عن طفولته، وعن الساعات التي أمضاها في قراءة الكتب الممنوعة في الإصطبل. •ولا يبدو أن في هذا شيئاً أسوأ مما جاء في كتاب "الراهبة" لمسز أفرا بيهن، أو في كتاب "فرديناندا" أو "الكونت فاثوم" لسمو لينتس). وبينما كانا يعبران فناء المزرعة، اقترحت دلفين أن يلقيا نظرة على الإصطبل. كانت الساعة الآن النصف بعد الرابعة، وكانت هناك فرصة لاحتمال أن يكون شون بالداخل بالفعل، ولكنه لم يكن هناك. قادها أيزموند فوق السلم إلى القسم العلوي الشبيه بالمنصة، ثم ذهب إلى المكان الذي كان قد أعده بالفعل في الركن - واضعاً أجولة نظيفة على الأرضية - ثم ألقى بنفسه عليها. فعلت دلفين نفس الشيء دون تردد - ولاشك أن هذا كان هو ما كانت قررته بينها وبين نفسها.

"أضعنا قليلاً من الوقت في الحديث، ولكننا غرقنا على الفور في القبلات والملاطفات الناعمة التي عبرت بسرعة إلى النقطة المعهودة من الألفة. لم تكن ترتدي أية مشدات، ولذلك كان سهلاً أكثر من المعتاد أن أكشف نهديها. وأن أبدأ الهجوم بشفتي. وكنت قد لاحظت من قبل أنني أستطيع أن أزيد متعتها بأن أعض الحلمتين برقة شديدة، ولحظتها كانت تشبك كاحليها وتضغط بشدة في حركة تلقائية، الأمر الذي استنتجت منه أن النقطة التي تنضغط بينهما كانت مستعدة لتقبل مزيد من الاهتمام. ولكن حينما تحركت الشفتان فوق ركبتيها، أسرعت تغرس أصابعها في شعري وتمسكني بقوة، كنا في هذا الوضع حينما سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم، فأسرعت من فورها تسوي ذيل ثوبها، وكانت على وشك أن تجلس حينما وضعت إصبعي على شفتي وهززت رأسي محذراً. جلسنا في مكاننا، لا نكاد نتنفس، ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون ينثره ويرتبه فوق الألواح بشوكته الطويلة، ثم هبط إلى أسفل، وعاد حاملاً "حضناً" آخر من القش، وهمست لها أن تظل صامتة وأن كل شيء سيكون على ما يرام، لأنه لم يكن سوى فتى في الإصطبل، وهو صديق خاص لي. ولكن حينما حاولت أن أقبلها ثانية هزت رأسها ودفعتني بعيداً.

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب، فقالت: "أسرع. هذا هو وقت الخروج. ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الأسفل، فجلست بسرعة مرة أخرى دون أن أحثها على الجلوس. كنت قد رتبت الأكياس اللينة أمامنا بحيث تستطيع أن تنظر من ثغرة بين اثنين منهما دون حاجة إلى الوقوف. انزعجت دلفين وهمست تقول: "ماذا إذا كانا سيجيئان إلى هنا؟" ولكنني طمأنتها، مشيراً إلى القش. أظن أنها في تلك اللحظة بدأت تشك في الغرض الذي كان شون يرتب القش من أجله بهذه الطريقة لأنني رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة.

صعد شون أولاً ووقف هناك، وما أن لحقت به مينو حتى ألقت ذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة بالغة الطول. عرفت طبيعتها لأنني كنت قد خبرتها بالفعل، فقد كانت ماهرة بصورة رائعة في إشعال النار في الدماء بحركات جريئة من لسانها. ثم حلت الحبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كاحليه... لاحظت حينئذ بابتهاج أن دلفين كانت تتابع كل حركة بأكثر ما يكون من الفضول وتذكرت ما قالته مينو من أنها أصبحت بالفعل ملكاً لي. حينئذ مددت يدي وجذبت كتفي ثوبها إلى أسفل، ومددت كلاً من يدي تحت إبطه لكي أضع كلاً منهما فوق أحد نهديها. لم تبذل أية محاولة لمنعي، كان بوسعي

ان احس بقلبها يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت اصابعي. كانت مينو الآن دون ثيابها راكعة امام شون. وكنت اكثر اهتماماً بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها ان استفيد من موقفي الحالي مما كنت مهتماً بمتابعة تطورات مباهجها الحارة... وعدت إلى ملاطفاتي... فرفعت ذيل ثوبها فوق مستوى ركبتيها، وسمحت ليدي بان تضغط على فخذها. وفي هذه المرة لم تاتي باية حركة لكي توقفني. ولكن حينما حاولت ان ادس إصبعي هزت راسها وضغطت فخذيها بإحكام اكثر. كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى ان صرير القش وحده هو الذي منع الآخرين من سماعه ... غيرت وضعي، وبدات اعض نهديها.. ثم قبضت اصابعها على شعري... وانطلقت من صدرها تنهيدة طويلة، ثم هوى جسمها إلى الأمام، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم أكن على استعداد لدعمها بيدي. كانت الأصوات القادمة من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع،ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك اصوات عاصفة تهب في الخارج. تركت نفسها تسقط على الأجولة، واغمضت عينيها، وهي تمد وتفرد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها. هدات من لهفتي بشيء من الصعوبة، وانا الاحظ عودة تنفسها إلى انتظامه، ولكنني بعد خمس دقائق او نحوها، وخشية ان تغرق في النوم،تفقدت ما احرزته من تقدم، فرقدت إلى جوارها وقبلتها. رقدت في مكانها كما لو كان نائمة، فوضعت يدي على ركبتها، ثم زحفت بها... وكانت الأصوات القادمة من الناحية الأخرى للحاجز قد توقفت، وكان كل شيء قد صمت الآن حتى كان بوسعنا ان نسمع حركة فار صغير. ولذلك لم ابذل اي محاولة اخرى لتحسين وضعي، وإنما رقدت في مكاني، ويدي فوق فمها الداخلي المبلل... رقدنا في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة، ثم سمعت همس مينو، فعرفت انها قد جددت طاقاتها، وانها الآن قد عزمت إلى إثارة خنزيرها النائم الذي كانت إجابته مجرد زمجرة... وانطبقت ذراعاها بقوة حولي، فغطيت فمها بقبلة.

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطباعاً بان ايزموند كان قد اصبح بالفعل كازانوفا لا يترك شيئاً للظروف او للمصادفات. ولكن الأحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع. إن كازانوفا كان جديراً بان ينتابه التعب من الفتاة قبل ان يبتعد عنها. اما ايزموند فقد قرر ان يحبها، وانه سوف يتزوجها. ومن المحتمل ان يكون قد شعر بالخجل من الخطة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها. وكان بالتاكيد يدرك الضرر الذي قد ينزله بها إذا ابدى اي تناقض في رقته إزاء اهتمامه بها. كانت بالفعل تشعر بالخجل منه لسماحها

له بأن يطلع على استثارتها الجنسية، ولكن خجلها كان اكبر لأنها سمحت له بان يستفيد من هذه الاستثارة. ولو انه قد هجرها كلية بعد استسلامها، لكان هذا قد بدا لها في صورة الجزاء الذي تستحقه فعلاً. ولكن ايزموند صمم على ان يثبت ان هذا لم يكن حقاً. لقد انفرد بها - بعد ان غادر شون ومينو الإصطبل، وهدا صرير القش مرة ثانية - فقال لها انهما قد اصبحا مخطوبين. وفي تلك الليلة، حينما ادارت مينو مقبض باب حجرته، وجدت ان مزلاج الباب مغلق من الداخل. وفي الصباح التالي، بحث هو عنها واخبرها انه مخطوب وانهما يجب الا يكونا عاشقين من تلك اللحظة. ويبدو انها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية، بل إنها كانت متعاطفة معه إلى الحد الذي جعلها تحذره من ان يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيداً عن والده. فعمل بنصيحتها. ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة، لأنها اطلعت جوديث شقيقة ايزموند، على السر، الأمر الذي ثبت انه اسوا انواع التقدير. كان من الواضح ان جوديث مغرمة بدلفين، وربما كانت تستطيع أن ترحب بها كزوجة لأخيها في ظل ظروف مختلفة. ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية، وكان آل دونيللي من البروتستانت. وكانت هذه هي اكبر العقبات جدية، لأن الكاثوليكي في ايرلندا كان منبوذاً. كان سادة الريف من البروتستانت. اما الكاثوليك فكانوا مطرودين من الدائرة الاجتماعية. وكانت دلفين ابنة لأرستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد إلى اي اختلاف، طالما انهم كانوا في ايرلندا. وا شارت جوديث إلى هذه الحقيقة، وكانت دموع ومناقشات طويلة. وبدا ايزموند يشعر بانه ارتكب غلطة جسيمة. كان امراً لا اهمية له عنده على الإطلاق سواء تحولت دلفين إلى البروتستانتية، او اصبح هو كاثوليكياً، او اصبحا كلاهما بوذيين. لقد اراد ان يتزوجها لأنه مدين لها بالحب والحماية، ولأن إغواءه لها قد منحه إحساساً قوياً بالرضا عن نفسه. وقد اصبحا الآن "مخطوبين" وكانت هي ترفض حتى ان تذهب إلى الإصطبل. وهو يقول بسخرية في مذكراته انهما كانا جديرين بان يكونا اكثر سعادة لو انه لم يذكر كلمة الزواج ابداً.

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاطبة وموفقة بين الرؤوس في الحلال، ونصحت ايزموند بالا يقول لوالديهما شيئاً حتى تتمكن من إعلان انها ستتحول إلى البروتستانتية، وبعد ثلاثة ايام، رحلت هي ودلفين إلى دبلن لكي يعرضا القضية على والديها. وكانت هذه هي آخر مرة يراها ايزموند فيها. فقد عادت جوديث إلى فرنسا على الفور مع عائلتها.. واطلق ايزموند تنهيدة ارتياح، وتسلل عائداً إلى فراش مينو. ولكنه فقد مينو هي

الأخرى بعد شهرين، حينما ضبطها السيد دونيللي الكبير في الإصطبل مع صبي الإصطبل الجديد. وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الأفق، ولكنه كان مهتماً لفضائل ولده ووارثه. ارسلت مينو في عرب البريد إلى ليونز، في الدرجة الثالثة، حاملة مرتب شهر وعدداً من ثياب جوديث القديمة. واهداها ايزموند عشرين جنيها كان قد ادخرها للنزهة والاستمتاع. وقال لنفسه انه أصبح سعيداً بقدرته على ان يقول ان روحه - واعضاءه الأخرى بالتأكيد- قد عادت إليه، ملكاً خالصاً له من جديد. ولكن بعد رحيلها بشهر واحد، بدأ ايزموند يومياته بقوله: "إنني غالباً اكثر من يعيشون تحت الشمس لعنة وتعذيباً للذات..." كان قد تذوق من المباهج ما هو اكثر جداً من ان يسمح لنفسه بعدها بالخنوع لهذا الوجود الداجن الساكن لأحد السادة المزارعين. لقد اقتسمت تجربتاه مع مينو ودلفين منهاج تعليمه الكامل في مجال فن الحب. كان قد خبر بهجة الغزو الذكري، وإحساس السيطرة على عواطف امرأة، بالإضافة إلى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية. كان يتوق الى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر الى دنانه، ولكن لم يكن هناك من تقدمه إليه. ومضى يتخفف من إحساسه بالإحباط في يومياته، محاولاً أن يعيش ساعاته مع مينو مرة اخرى، وأن يستعيد لحظات إغوائه لمينو. وحاول ان يقرأ، ولكنه وجد ان روسو صار مضجراً، وفولتير ضحلاً، وشتيرن مزعجا دون مناسبة. ولم تستطع سوى كتب جونسون، "راسيلاز" و"امير الحبشة" ان ترضي توقه إلى الجدية، وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب. ان جونسون يثير مسالة غربة الإنسان في شيء "اكبر من" السعادة، واكثر من مجرد القناعة والرضا. قبل ذلك بستة شهور، كان ايزموند جديراً بان ينظر الى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الإشباع الجسدي، وفي التجربة، وفي المتعة، ولكنه كان يعرف الآن معرفة افضل من ذلك.

بعد ذلك، ناتي الى ما كان بالنسبة لي أكثر اقسام اليوميات اهمية. فبينما كان ديسمبر الماطر يخلي مكانه لينابر، غرق ايزموند في أزمة من الانقباض العصبي الحاد، ضاعفها انزعاجه على والده الذي حدث في اواخر ديسمبر ان هاجمته وضربته بقسوة عصابة من المتشردين يبدو بشكل غامض أن دوافعهم كانت سياسية. وقعت هذه الحادثة في الظلام، حينما كان الأب عائداً من منزل خاص محلي غير محبوب، ضرب جواده بحجر، ثم اصابه على الفور حجر كبير اخر فوق عينه اليسرى، فسقط عن جواده فاقد الوعي. وحينما لم يعد إلى البيت عند منتصف الليل، خرج ايزموند وجماعته من الأتباع وسط عاصفة لكي

يبحثوا عنه، فوجده يجر نفسه على طول الطريق نصف عار، وما زال ينزف دماءه بشدة. كان منظر الجراح مخيفاً اكثر من حقيقتها، فبعد عشرة ايام في الفراش، عاد إدوارد دونيللي معافى قوياً كما كان. ولكن احداً لم يستطع ان يعثر على اثر للمعتدين الذين من المحتمل ان يكونوا فريقاً من البحارة كانت سفينتهم تحت الإصلاح في ميناء كاربيرت على مصب هر شانون.

صدم الإقليم كله بسبب هذا العنف، رغم أن إدوارد دونيللي لم يكن بالرجل المحبوب، فقد كان هناك الكثير جداً من الفاقة والبؤس في ايرلندا، من نصيب الفلاحين وحدهم، لدرجة تمنعهم من الشعور باي تعاطف مع مزارع بروتستانتي على شيء من الثراء. كانت السرقة شائعة، وكانت هناك أعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا. ولكن الريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئاً نسبياً ويسوده السلام. ثم بدأت المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث. كان هناك اضطراب في الأمور الزراعية، وبدأ سادة الريف الكاثوليك في استعادة شجاعتهم بعد إخضاع اليعاقبة. ولم يكن ادوارد دونيللي مؤيداً لجورج الثالث، ولكن باعتباره بروتستانتياً كان ينظر اليه كعميل للمغتصبين الإنكليز. ولكن ايزموند كان قد شب في جو من الأمان، ولم يكن بوسع الفلاحين ان يكونوا اكثر خنوعاً وذلة، فكان دائما "صبياً لطيفاً وسيماً يستحق تقدير الشرف" وما الى ذلك... ولكنه الآن، وفي حالته العصابية من الانقباض، بدا له انهم محاصرون من قبل جيران معادين، ينتظرون جميعاً الفرصة المناسبة للضرب في الظلام.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت جوديث اخباراً عن دلفين. كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي. ولم يذكر اسم ايزموند في الخطاب الذي من المحتمل أن يكون قد كتب تحت إشراف ام دلفين، ولكن كانت هناك جملة تقول: "لا استطيع أن اصف البهجة التي اشعر بها حينما اتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الإصطبل القديم" ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة، فإنها لم تذهب ابداً إلى الإصطبل القديم مع دلفين، ولكن ايزموند ادرك المعنى. غير أن المضحك هو انه كان قد نسي دلفين تقريباً، ومن المؤكد انه لم تكن لديه اية رغبة في ان يكون زوجها، ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعوراً بالبؤس والغيرة. وعرف ما يتصف به هذا الإحساس من سخف، وانه لم يحبها، وانه كان سعيد الحظ إذ تجنب الوقوع في شراك ارتباطات اكثر غوراً. ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد إلى اي فرق، فكان كلما فكر

في ملاطفاتهما وسط خرائب الدير أو في مخزن القش، اجتاحه إحساس بالخسارة الفادحة، ويتضاعف هذا الإحساس إلى درجة لا تطاق لأنه كان يعرف أنه نتيجة لعدم وجود ما يفكر فيه غير هذا.

في فبراير كان مريضاً لمدة ثلاثة أسابيع بتأثير جرثومة معوية، وتركزت أفكاره على الدوام حول الموت وحول عفونة القبر. قرأ صلوات جونسون، وتأمل في كتابات روسو. ثم اختطف فجأة لمحة من "الحقيقة" التي كانت تروغ منه على الدوام. لقد قال روسو أن ما كان طبيعياً فهو خير، وأن الشر ينبع من تعقيد الإنسان الذهني، ومن تدخله في شؤون الطبيعة. ولكن أليس العقل نفسه تدخلاً في شؤون الطبيعة وقطعاً لمسارها، نتاجاً مصطنعاً لها؟ إن الحيوان لا يحتاج إلى أي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على مشاكله اليومية. وقد طور الإنسان ذهنه لكي يخدم كسله، لكي يخلق حضارة مريحة دافئة. ثم لما خلقها (ومن المهم أن نتبين هنا أن ايزموند قد ظن أن القرن الذي عاش فيه هو الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير. وكل فكرة تبعده خطوة أخرى عن الطبيعة.

ولكن الشيء الذي بث الذعر في قلب ايزموند ان هو شكه في أ تلك الفكرة قد فسرت إجهاده العصبي وضجره. إن توقده الذهني قد حكم عليه بأن يمتلكه إحساس بالحقيقة. ووقف الدكتور جونسون أمامه باعتباره مثالاً حياً لما يمكن أن يحدث حين يكون الإنسان متوقد الذهن أكثر من اللازم. سيعيش حياة بكاملها من اليأس وتعذيب الذات، مع ومضات قصيرة من الإحساس بالارتياح. وبدأ ايزموند يفكر جدياً فيما إذا لم يكن من الأفضل له أن يموت. "كل شيء أنظر إليه يذكرني ببؤسي. فمثلما تعيد أي ذكرى لعشيقة مفقودة إحساساً مقبضاً باليأس، كذلك فإن أي شيء طبيعي تقريباً يذكرني ببراءتي المفقودة. تذكرني أطلال الدير بالموت، ومجرى الماء الوحل يجعلني أفكر في الغرق، والأشجار العارية تذكرني بالمشانق، ونباح كلب يشعرني بأنني أسير في جنازة ميت. أما الأشياء التي لا تثير أي تداعيات خاصة في ذاتي — حذاء ركوب، كتاب — فإنهما يمكن أن تخلقا يأساً خانقاً يشبه الحزن".

وذات ليلة مطيرة في أواخر فبراير، جلس ايزموند في فراشه وواجه هذا الإحساس بالخيبة وانقطاع الأمل. إلا أن جسده لم يشعر بأي امتنان حقيقي لوجوده في حجرة دافئة، في

الوقت الذي كانت الرياح في الخارج على أشد ما يمكن. فهل يمكن أن يكون هذا الإحساس قد ثار كاستجابة للمطر نفسه؟ نهض وارتدى ملابسه، وأخذ معطفاً ثقيلاً، ثم خرج من المنزل وبدا له أن أسوأ مخاوفه قد تحققت. ملأته الريح إحساساً بالبرودة، ولكنه استمر في إحساسه باللامبالاة إزاء التعب. سار إلى الدير، وجلس مستنداً ومحتمياً بأحد الجدران. ورغم أن قدميه كانتا مبللتين، لم تنجح فكرة نار دافئة في أن تمنحه ومضة من المتعة. كانت بعض البقرات تحتمي بالدار، حسدها لأنها يمكن أن تقدر قيمة ما تقدمه لها حظيرة دافئة جافة من مأوى. وتساءل عن مقدار ما يجب أن يواجه من برد وتعب لكي يستطيع أن يخرج من حالة سباته اللامبالي.

سار عائداً إلى المنزل، وعبر أمام الإصطبل، وفجأة تذكر مينو ودلفين - فغمرته ومضة من المتعة. دخل الإصطبل لكي يستعيد رائحته. صهل جواد عجوز وأخذ نفساً عميقاً وثقيلاً. تسلق صاعداً إلى المنصة العلوية، فوجد هناك كومة من القش ما تزال. حركها إلى ما وراء الأجولة، ثم خلع ثيابه المبللة، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف المتكسر. كان هذا هو الوضع الذي رقد فيه بين فخذين دلفين. وحينما رقد في مكانه، يعيش التجربة من جديد مرة ثانية. غلبه النعاس، فغرق في النوم. وكان آخر ما سمعه من الأصوات هو شخير الجواد العجوز وتنفسه الثقيل أسفل الإصطبل.

كانت ليلته في الإصطبل نقطة تحول حقيقية في حياته وهو ما يظهر في محطات حياته اللاحقة. في أوائل مارس، أصبح الجو أكثر دفئاً على حين غرة. وهذا ما أغرى ايزموند بأن يتمشى في الحقول الموحلة، ليجدد نشاطه تحت أشعة الشمس التي بدأت تمد كل شيء بغتة بالحياة. وقف على ضفة نهر (ميغ) الموحلة، وتساءل عن السبب الذي جعله عاجزاً عن ملاحظة مقدار ما كانت الأمواج الصغيرة عليه من جمال. كان صحيح الجسد وكان في السابعة عشرة تقريباً، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج إلى "الجولة الكبرى". ولابد أن تكون هناك الكثيرات من مينو ودلفين. وفي يومياته في يوم ٢٣ مارس عام ١٧٦٥، يكتب قائلاً:

"إن ما أجد نفسي عاجزاً عجزاً مطلقاً عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات الإنسانية إلى الفشل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي يتجسد في الطبيعة في كل مكان؟ أية كارثة غريبة أعمت عيوننا عن رؤية أعظم الحقائق وضوحاً وجدارة بالملاحظة؟ أي رب

يهدم فوق متاهة مصيرنا البشري، يراقبنا لكي يقبض على عنق ذلك الذي قد يكتشف بالصدفة طريقه إلى بساطة الطبيعة السامية؟"

قبل أسبوعين من رحيله إلى دبلين، ومن ثم إلى باريس (في ابريل عام ١٧٦٥) كان قد انغمس في قصة حب قصيرة اخرى. ففي زيارة قام بها مع والده لأحد المستأجرين من الفلاحين، رأى ابنة أخ الرجل ذات الثلاثة عشر عاماً التي كانت تعيش معه. كانت الفتاة فائقة الجمال. وامضى ايزموند ليلة كاملة يحلم بها، متسائلاً عن الطريق الى رؤيتها مرة اخرى. ولكن الانتصار كان اسهل مما توقع. لقد جاءت الفتاة في اليوم التالي حاملة بعض البيض. وسار ايزموند إلى البيت معها، واتفق معها على موعد في المساء. كانت الفتاة مسحورة به ولم تبذل إلا الحد الأدنى من المقاومة، ورغم أنها كانت عذراء، فإنها كانت ذات تجربة جنسية سابقة. في هذا المساء الأول، سمحت لأيزموند بأن يكتشف نهديها وفخذيها. وفي عصر اليوم التالي قابلها في الإصطبل، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه دلفين. وفي خلال الأسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكناً، وامضيا المزيد من الساعات في الإصطبل على الأجولة، واقسما على الإخلاص الأبدي. ولكن ايزموند في هذه الحالة كان يعرف انه ليس واقعاً في الحب. لقد دفعته سهولة الانتصار الى ما يكاد يكون خيبة أمل فورية. كانت الفتاة جميلة جمالاً لا يضارع، ولكنه حينما اعاد قراءة بداية يومياته حول رؤيته لها للمرة الأولى، بدت لـه كما لو كانت فكاهة ساخرة أخرى من فكاهات القدر برهاناً آخر على وقوع الكائنات الإنسانية في شرك المتاهة التي يبدو إلهها في صورة أعظم الدهاة المحتالين.

في صباح يوم ١٧ ابريل، استقل عربة ليمريك - دبلين، وغمره إحساس عميق من الرضا بينما كانت تلال مونستر وحقولها تتراجع الى الوراء. في هذه المرة، على الأقل، كان إله المتاهة قد هزم، فإن قصة الحب قد انتهت قبل أن تسنح الفرصة لمرارة ما بعد التذوق بأن تتسلل الى اللسان. وقد حدث حينذاك، في اثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك إلى دبلين (١٢٠ ميلاً) ان صاغ ايزموند واحدة من افكاره المحورية، أن الحياة معركة ضد إله المتاهة. ولاح انه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليباً مرسوماً بين عنكبوت هائل ورجل سمين ذي اذنين مشرعتين. وان الميدان الذي يجب ان يختاره للمواجهة هو ميدان الجنس...

إن قراءتي لما كتبه ايزموند عن رحلته إلى دبلين قد ذكرتني فجاة بكليف بيتس، حفيد إيزاك جينكينسوبد بيتس. واقعاً على الرغم من انني قد حصلت على اقصى ما آمله من مادة لاستكمال المقدمة لطبعة فليشر لكتاب (مذكرات آفاق ايرلندي)، وكنت قد ربحت مبلغ الخمسة عشر ألف دولار، إلا ان هذا كله لم يعد له أدنى أهمية تذكر عندي. كان هناك الكثير جداً مما اردت معرفته عن ايزموند - وحينما يتم طبع الكتاب، لابد أن سيكون هناك الكثير جداً من الناس الذين سيتملكهم مثل ما تملكني من فضول. ولابد انه سيمتلئ الميدان بالباحثين. وقد اردت ان اعثر على كل ما يمكن العثور عليه قبل ان يبدأ الاندفاع والزحام. كان ايزموند قد بدأ يسيطر علي كالهاجس المتسلط. وقد انتهى المجلد الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجهاً إلى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥، ولكن من المؤكد انه مستحيل ان يكون قد كف عن كتابة يومياته بانتظام بعد ذلك. كانت هناك أسئلة كثيرة أردت الإجابة عليها. ماذا عن جريمة قتل هوراس جليني، وعن الشائعات حول ايزموند واللادي ماري؟ وماذا عن "القصة" مع الشقيقات الثلاثة؟ ولماذا يكره دكتور جونسون دونيللي؟ وماذا عن "جماعة العنقاء" تلك، التي لم أحصل بشأنها إلا على إشارات مثيرة للشهية؟

بعد عودتي من منزل الدكتور اوهفرنان بيومين، تسلمت بطاقة بريدية من ميس تينا، كانت تقول: "إيلين مصابة بنزلة برد قوية، ولكنها طلبت مني أن اخبرك بأن المشرفين على تنفيذ وصية ايزموند الأدبية كانا هما القس ويليام أستون واللورد هوراس جليني المخلصة تينا دونيللي". للحظة تملكني الارتباك. استون؟ أجل. كنت قد خمنت هذا من قبل. ولكن كيف يمكن ان يكون هوراس جليني منفذاً لوصية دونيللي الأدبية بينما هو قد سبقه الى الموت؟ شعرت بإغراء قوي يدفعني الى القفز في السيارة والذهاب الى قلعة دونيللي، لأن قراءتي لليوميات جعلتني شغوفاً بأن اراها مرة ثانية. ولكنني كنت قد كتبت بالفعل الى كليف بيتس لأخبره بانني انوي الذهاب الى لندن في اليوم التالي، وشعرت بالانقباض إزاء فكرة هذا السفر. رفعت سماعة التليفون وأدرت رقم قلعة دونيللي. اجابتني ميس تينا. وتم توضيح مشكلة هوراس جليني في لحظة واحدة. إنها كانت تشير الى هوراس جليني الابن، ابن صديق ايزموند. قالت ميس تينا:

-"اعتقد ان هذا مما يمكن أن يدركه المرء بالبداهة، أعني أننا نعلم جيداً بأن ايزموند قد وقع في حب ماري جليني".

-"ولكن هل انت واثقة من ذلك؟"

-"لست واثقة تماماً بالطبع. لقد قال والدي لإيلين ذات مرة شيئاً عن هذا، ولكنها لا تستطيع أن تتحدث الآن".

-"ألا تعرفين - اتفاقاً - أين أطلق الرصاص على لورد جليني؟"

-"أعتقد أن هذا حدث في بيته، في اسكتلندا".

شكرتها ووضعت السماعة. إن القدر حقاً يقف إلى جانبي، وقد أوصلتني هذه المكالمة إلى الفهم وإدراك نهاية القصة التي تقول بأن أيزموند قتل هوراس جليني. فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة، فهل كان يستطيع أن يطلب من ابن جليني أن يقوم على تنفيذ وصيته الأدبية وأن يكون مشرفاً على تركته من المؤلفات والمذكرات؟

-١٥-

▣ كنت أشعر بابتهاج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجهاً إلى دبلن في صباح اليوم التالي. ولم يكن هذا مرتبطاً كل الارتباط بدونيللي. كنت قد عزمت مسبقاً أن أسافر بالقطار، حتى تستطيع ديانا أن تستخدم السيارة، ولكنها في اليوم السابق رأت إعلاناً عن سيارة "لاندروفر" مستعملة. وشعرت بأننا نستطيع الآن أن ندفع ثمن هذه السيارة، وهكذا فقد اشتريناها على الفور. كنت أعرف أن هذا تصرف سخيف. ولكن هذا السخف نفسه سحرني، وبدأت غرائزي الخلاقة في الانسياب. أبهجني أيضاً انطلاقي نحو الشرق، وذكرني بأول مرة جئنا فيها للإقامة في إيرلندا فقضينا أيامنا الأولى في اكتشاف البلاد والريف. خطر لي في تلك اللحظة أن كل ما يهم في الوجود الإنساني هو اتساع معين في الوعي، وفي المعنى، وإننا يجب أن نكتشف الحيلة. حينما اشتريت هذه السيارة، كانت ذات ناقل سرعة أوتوماتيكي، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريباً في نفس اللحظة التي أشرع فيها في تشغيل المحرك، أو يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند أول تل في طريقي إلى البلدة. ولذلك فقد ركب محل الإصلاح القريب فيها ناقلة يدوية بدلاً منها، وعلي الآن ألا أشغل الناقلة الأصلي حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة. ولكن إذا حدث أن استيقظت في الصباح بعقل بارد مكتئب، فإنني لا أملك "ناقلة

يدوية" أستطيع أن أشغلها حتى يسخن العقل إلى الدرجة الكافية. إنني كثيراً ما أمضي الساعات، وأحياناً الأيام، محاولاً أن أدفع عقلي رغماً عنه إلى حالة من الاتساع، محاولاً تشغيل الضغط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة. وإلى حد ما أستطيع القول بأني اكتشفت الحيلة، عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله - عضلاتي بالإضافة إلى عقلي. وحينما أقوم بهذا، وإذا لم يقاطعني أحد، فإنني أستطيع تقريباً أن ألاحظ ضغط وعي وهو يرتفع، حتى تكف الأشياء عن التمظهر في صورتها الكئيبة المحايدة. إنها حيل تشبه بالضبط شربك أول كأس لك في المساء - تلك الومضة الدافئة التي لا تستقر في المعدة - وإنما في الوعي".

إن البحث الحثيث عن وعي، أدخلني في الواقع في حدث فيه الشيء الكثير من الغرابة، لغرابته لن أتمكن من إيصاله إلى القارئ، إلا أنني سأحاول إن استطعت أن أصفه. لقد شعرت هكذا بأن هذا هو الشعور الذي انتاب أيزموند عندما بدأ خروجه في "جولته الكبيرة" في عام ١٧٦٥. وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان. الأولى كانت لأيزموند جالساً في العربة الراحلة إلى "لايمريك" - وكانت صورة كشيء حلمت به في أثناء الليل - والثانية كانت صورة الأشجار في "لونغ آيلاند" تبدو فجأة كما لو كانت قدت من البرونز المطلي بالفوسفور، بينما بيفرلي تنحني فوقي. كانت هذه الصورة الأخيرة قوية جداً. كان بوسعي أن أشم رائحة بيفرلي، شاعراً بدفء نهدها العاري على صدغي. ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نوافير البهجة. إن ما تريد الكائنات الإنسانية أن تحققه لهي تلك اللحظات من الطزاجة والاتساع. وإلا يفقدوها في كل مرة يضيع فيها إنتاجهم بين الأشياء دون تركيز على شيء محدد. إنهم يريدون "استمرارية الوعي". ولنفترض أن رجلاً قال لنفسه: "من الواضح أنه لا شيء هاماً مثل هذا، منذ هذه اللحظة سأكرس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية.."؟ وقد عرفت دون أن تخالجني ذرة من الشك أن شيئاً مثل هذا قد عبر بعقل أيزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافراً من لايمريك. كيف؟ لأنني عشت مع أيزموند طوال أسابيع، حتى عرفت كيف كان يعمل عقله.

لحظتها، ومن دون أي تغيير مفاجئ، من دون أي إحساس برؤيا أو بإلهام، انتابني إحساس كالهلوسة بأنني "أنا أيزموند".. كان إحساساً قوياً إلى درجة بالغة السخافة، كنت أعرف أنني أسير بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى "فار درام"، على بعد أميال قليلة وراء

اللون، وأنني كنت أنوي أن أتوقف أمام الحانة عند بلدة موات، لكي أتناول شطيرة باللحم وكوباً من عصير العنب البري. في نفس الوقت كنت جالساً إلى جوار سائق العربة فوق صندوق العربة المتقافز، أشم عرق الجياد القلوي والهواء النظيف لصباح يوم من أيام ابريل بالإضافة إلى رائحة دخان الأذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق.

كان هناك شيء بالغ الغرابة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية. إنها لم تكن "خيالية" بالمعنى العادي! إنني لم أكن "أتعمدها" بشكل ما. وإنما كانت كأنما أن شيئاً ما قد تحرك فاقترب مني مثل قطار يعبر إلى جوار القطار الذي تصادف أن كنت راكباً داخله فيعطيني لمحة قريبة مفاجئة إلى داخل عربة عابرة. ولم يدهشني كل ذلك، وإنما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة. كان ضغطي العقلي مرتفعاً. وكانت السماء أقرب إلى أن تكون مساحة زرقاء باردة، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من المياه الباردة. بدا لي بثقة يقينية كلية مفاجئة: أن الزمن وهم. إنه ليس حالة مطلقة. إنك إذا كنت حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر، فإنك قد تظن أنه من المحتم أن تظل الأشجار تعبر بك وتتوارى من خلفك، وأن الأشجار، بطبيعتها، لا تعيش إلا لحظات قليلة، وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغيير هي انتشار الماء وسقسقته. ولكن الضفة حقيقية، وإذا أمكنك أن تغادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الضفة، فإنك جدير بأن تكتشف أنها صلبة تماماً ودائمة باقية.

وحالما تبدت لي هذه الصورة للزمن باعتباره شيئاً وهمياً، ولحقيقة العالم الذي يعبر خلالها، رأيت طفولتي كما لو كانت شيئاً أستطيع أن أمد يدي فالمسه، تماماً مثلما أستطيع أن أفتح كتاباً على صفحة قرأتها منذ ساعة مضت، أو مثلما أجعل شريط تسجيل يعود إلى الوراء نحو الجزء الذي كنت قد سمعته منذ قليل. وطرأ لي أن حياة ايزموند لم تكن أكثر بعداً من هذا. مجرد قرنين مضيا، أي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين. إن مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة. فإذا كان بوسعنا أن نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل أن يسير بخطوات واسعة عبر القرون.

توقفت عند حانة "مايك كيللي" لأشرب كوب العصير. إنها حانة هادئة على الطراز القديم ذات دعامات خشبية واطئة، ومدفأة أعشاب أسفل الجدار. طلبت شطيرة باللحم، فقالت لي ابنة صاحبة الحانة إنني سأحصل عليها ساخنة يفوح منها دخان الفرن، وفي الحقيقة، كان البخار يتصاعد من القطع الضخمة من اللحم الطري. وبعد أن قدمت لي طلباتي، خرجت وتركتني بمفردي. نظرت حولي، وباغتتني فكرة في سرعة الضوء الكهربائي، إن هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في أيام ايزموند دونيللي. وحينئذ، وبشكل أوضح من ذي قبل، انتابني الشعور بأنني "أصبح" ايزموند دونيللي، أو أنني انحني فوق وانظر إلى داخل وعيه بينما هو ينفلت عابراً أمامي. وفي هذه المرة، وقد قويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر، بذلت مجهوداً إرادياً لكي استبقي ذلك الإحساس وأمسك به. للحظة راوغني. ثم حينما استرخيت ولم أحاول أن أرغمه على البقاء، عاد ثانية: مزيج من الروائح، والأحاسيس والأفكار. ثم فجأة تماماً، بدا أنه "يركز" أصبح كل شيء أكثر وضوحاً. بشكل ما تطابق وعي ايزموند مع وعيه، حتى أصبح بوسعي أن التفت أنا فانظر إلى ماضيه، إلى دلفين ومينو، وإلى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى ايللي (وهو تصغير ايلين). والأكثر من هذا أن هذا الاسم الأخير كان جلياً بالنسبة لي، فإن ايزموند يشير إليها في يومياته بحرف "أ" - ربما خشية أن يفضح فتاة تعيش قريباً منه إلى هذا الحد. وأثارني هذا. لم أكن بالسذاجة التي تجعلني أقبل ببساطة بأنني بشكل ما قد "أصبحت" ايزموند. إنني أعرف الكثير جداً من ألاعيب العقل الشبيهة بالأحلام لاصطناع مثل تلك الفروض أو الاحتمالات. ومن الذي لم يؤلف موسيقى أو شعراً في أحلامه، أو خلق مواقف من الغرابة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر؟ لو أنني استطعت أن أتأكد من أن اسم الفتاة كان ايللي - ولم يكن هذا من المستحيل، من خلال العثور على المزيد من مذكرات ايزموند - إذن لكان في وسعي أن أتيقن من أن هذه التجربة الغريبة كانت نوعاً من الحاسة السادسة، وليست حلماً من أحلام اليقظة.

قاومت الإغراء بشرب المزيد من العصير المخمر - عارفاً أنه يمكن أن يدفعني إلى النعاس - وقمت لتشغيل السيارة حالما انتهيت من تناول طبق اللحم، لم أكن أريد أن استرخي. إن ما أردته كان هو أن أعمق هذا الشعور بالتبصر العميق، بالوصول إلى المعنى. وبعد عشرين ميلاً من السير خارج دبلين بدأت تمطر، ونسيت كل شيء عن تركيزي، مستمتعاً فجأة بحركة زحف مساحتي الزجاج الأماميتين، وبطرقات القطرات الضخمة الدافئة. وحينئذ، ومرة أخرى، ودون أي مجهود، أصبحت "ايزموند". فجأة أدهشتني منازل بلدة "ماي نوث" ودكاكينها، كما لو لم أكن قد رأيتها من قبل أبداً. ولكن حينما اقتربت من كارتون وعبرت بها، ورأيت المنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل ذات مرة إلى دوقات لاينستر -

تحققت من أنني كنت أعرف المكان. وأنني كنت داخله ذات مرة. بالطبع لم يحدث لي "أنا" أن دخلته. لقد كان أيـزموند هـو الـذي دخلـه ضيفاً عـلى صـديق دراسـته روبـرت فيتزكيرالد، ماركيز كيلدار.

طوال الوقت، وبيـنما كنـت أقـود السيارة إلى داخـل دبلـن، وعـلى مسـار شـارع كونيغهام، كنت أشعر بتأثير هذا "الوعي المزدوج". ولو أن أحداً كان معي في السيارة، لكنت قد قلت لـه: "كان هذا هو شاعر شابيليزود في عام ١٧٦٥ ،وهاهو قد أصبح شارع بارك". وكان قبل أن أدخل شارع بارك القديـم، كنت أسير بالسيار على طول شارع وولف تون كواي، فانتابتني دهشة بسيطة إذ أجد نفسي بالفعل إلى جانب نهر الليفي. في عام ١٧٦٥ كان علي أن أتقدم من شارع شابيليزود المزدحم إلى شارع بارك، بينما أرى النهر عبر حديقة "أونج ميدوز" إلى اليمين، ثم على طول شارع كرافل دوك، الذي يكون علي عند ناحيتين أن أستدير إلى اليمين نحو شارع أزان كواي - الذي كان في ذلك الوقت أقصى أطراف ضواحي دبلن الغربية. عبرت الشارع الواقع إلى يميني - الذي كان دونيللي قد نسيه - والذي يؤدي في النهاية إلى جسر بلود. وعـند جسر كراتان شعرت بإغراء يدفعني إلى الاستدارة يميناً ناسياً أنه كان بوسعي أن أستمر في نفس الشارع حتى أوكونـل؟ ففي أيام دونيللي، كان جسر كراتان (الذي كان يدعى جسر اسكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها أن يعبر نهر الليفي. كنـت مقيداً باتجاه نهر شيلبورن في وادي "سـانت سـتيفانز جرين"؟ أن دونيللي حينما ذهب إلى دبلن في عام ١٧٦٥ قد انطلق إلى حانة "الكلب والبطة" في شارع بودنج رو (الذي يسمى الآن وودكواي) وكان المحل تحت إدارة الأسطى فرانسيز ماجين. وهناك أكل عشاء من أسماك السالمون الواردة من بوين، ولحم حمل مشوي، وغسل ذلك بكمية كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول، ثم غرق في النوم في حجرة مريحة بالطابق الأول مصغياً إلى صيحات "نشتري جلد أرانب الغابة وأرانب البيوت"، "سمك البوري من خليج دبلن". كان كل ذلك حياً أمامي حتى إنني وجدت نفسي أتجه اتجاهاً خاطئاً عند كوليج غرين، فيكون علي أن أدور دورة واسعة لكي أصل إلى شيلبورن.

في حجرتي، فتحت زجاج من نبيذ فولني كنت قد جئت بها معي - رغم أن الساعة كانت في الرابعة والنصف - ووجدت نفسي أقل انزعاجاً بسبب تلك المؤثرات الغريبة ذات الوجهتين المزدوجتين، وحتى في تلك الحالة، لم يكن علي إلا أن أغمض عيني لكي أرى صوراً

واضحة لدبلن التي كانت من نواح عديدة شبيهة بتلك التي كان بوسعي أن أراها من نافذتي (رغم أنه في تلك الأيام، كان وادي ستيفنز غرين محاطاً بسور مجرى وخندق وليس بسياج من قضبان الحديد) - ولكن تلك الـ "دبلن" البعيدة كانت أيضاً مزدحمة وصاخبة ولكن شوارعها كانت مبلطة بقطع حجرية صغيرة في الغالب، ومنازلها أكثر نظافة ووقاراً. وكانت أيضاً تفوح برائحة النقانق والسمك وخاصة في منتصف الصيف والقوارب ذات الأشرعة المنتفخة التي ملئت نهر الليفي وولدت تأثيراً لم يكن بعيد الشبه بقنوات البندقية الكبيرة. بعد كاسي الثالثة من النبيذ، كان "الكشف المزدوج" قد خبا من ناحيتين، وطرأ لي أنه من المحتمل أن يكون شيريدان لوفانو قد كتب قصة قوية وكئيبة محزنة عن عقل إنسان ذي طبقتين، يشغله رجلان من قرنين مختلفين. بل لقد كان بوسعي أن أرى - إذ أنظر من خلال مزاج يبه مزاج لوفانو - أنها كانت يمكن أن تكون تجربة مخيفة. ولكن في ذلك الحين، كانت نظرة لوفانو الأساسية نظرة مهزومة وسلبية. وهذا هو السؤال الجوهري الوحيد.

-١٦-

■ اتصلت بنيانا لكي أخبرها أنني وصلت بسلام، وفي نفس اللحظة التي كنت أعيد فيها السماعة إلى مكانها، جاءتني مكالمة من كليف بيتس وكنت قد كتبت إليه لأخبره بأنني سانزل في فندق شيلبورن. سألته إن كان يحب أن ينضم إلي في تناول الطعام، فقبل واقترح أن أذهب إليه لكي نشرب كاساً أولاً. كان يقيم في رانيلاغ رود، في مواجهة النهر، فسرت إلى هناك في حوالي الساعة الخامسة. كان شاباً ممتلئ الجسد له صوت ممتد مثل صوت الدارسين في أوكسفورد. وكانت شقته مريحة، وقد امتلأت خزانة المشروبات بالكثير من الأصناف. كانت هناك أعداد كثيرة من الكتب، بعضها حول المسرح والباليه. كان من الواضح أن كليف بيتس يملك دخلاً خاصاً أو وظيفة حسنة، أو كليهما. كان كل شيء في حجرته ينم عن أنه رجل مغرم بأسباب راحته. وكان يتمتع بجاذبية عظيمة وأسلوب سهل في التعامل والسلوك، ولكن شيئاً ما لاح على فمه أوحى إلي بأنه قد يكون بالغ الخشونة أو عصبي المزاج إذا فشل في الوصول إلى ما يريد أو في شق طريقه إليه.

حينما كنا نشرب كؤوس الفودكا والمارتيني، كان الحوار عاماً، ثم انتقل الموضوع إلى كتبي، وإلى أعمال كتاب عديدين قابلهم كل منا. كان قد عمل في وزارة الخارجية لمدة من الزمن - بعد التخرج من إيتون وباليول - وقابل عدداً كبيراً من الشخصيات المسرحية والأدبية في لندن. أما عني، فإنني دائماً ما كنت أتجنب الكتاب الآخرين، وكانت محاورات المحترفين تضجرني، ولم أكن أعجب إلا بأعمال عدد قليل منهم. وهكذا فسرعان ما بدأت أضجر من هذا الحديث. وبعد نصف ساعة أو نحوها حاولت بلباقة أن أوجهه إلى موضوعات أخرى. سألته عن صحة جده.

-"أوه، أجل. الوالد العجوز يريد أن يراك. كنت قد أخبرته عن عملك".

نظر إلى ساعته وقال:

-"عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريباً. هل تود أن تذهب إليه قبل أن نأكل؟"

قلت: "نعم"، محاولاً ألا أبدو متلهفاً بالقدر الذي كنت أشعر به.

ذهبنا إلى شارع باجون، رغم أننا تأخرنا قليلاً في الوصول بسبب إغلاق الشارع. كان كليف بيتس يملك سيارة من طراز "بورش" واطئة لدرجة أن انتابني إحساس بأن أردافي تجلس على ارتفاع بوصة واحدة من أرض الشارع. وفي الطريق قال بيتس:

-"إنك بالطبع، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال".

للحظة واحدة لم أستطع أن أفهمه، وبدا علي عدم الإدراك. قال:

-"هذا الشخص دونيللي. أعني أنه من الدرجة الثانية تماماً، أليس كذلك كنت أنظر إلى كتابه عن "افتراع العذارى" منذ أيام. إنه شيء فج إلى حد كبير".

هممت بأن أقول أنني أظن أن هذا الكتاب مزيف ومنحول للرجل، ثم لسبب ما، التزمت السكون، وبدلاً من هذا شرحت له حكاية فليشر والمهمة والتي أوكلها إلي.

أوقفنا السيارة في شارع باجون. قال كليف بيتس بشكل عارض:

-"بهذه المناسبة، هل سمعت عن جماعة العنقاء؟"

نظرت إليه. ثم حدث شيء غريب. فجأة كنت أيزموند مرة أخرى، كان أيزموند يطل عليه من عيني.

قلت:

-"بغموض. ألم تكن هذه نوعاً من العبادات السحرية؟"

-"بشكل أو بآخر كان دونيللي عضواً فيها".

-"كيف عرفت ذلك؟"

-"هذا مسجل في أوراق جدي. لقد كان مهتماً دائماً بهذه الجماعة المسماة "جماعة العنقاء". وأن قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك غريغور ماثرز. ربما كنت قد قابلته؟"

-"بالطبع. لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور".

لم يكن هناك وقت لمزيد من الحديث، كنا ندق جرس الباب، وبعد لحظات قليلة فتحت الباب ممرضة شابة. دعاها بيتس باسم "عزيزتي بيتي" وقرصها من مؤخرتها. بدت محرجة لوجودي. صعدنا إلى حجرة نوم في الطابق الأول. كانت حجرة معتمة، رغم أن الضوء كان منتشراً بالخارج. كانت الستائر نصف مسدلة، ونواسة صغيرة تشتعل فوق الفراش.

كان إيزاك جينكينسون بيتس هزيلاً نحيفاً كما كنت أتوقع من خلال وصف حفيده: عجوزاً ضئيل الحجم أصلع الرأس جلده مثل رق قديم مجعد. حينما رفع يديه من فوق المسند لكي يصافحني اهتزتا وارتعشتا رغماً عنه، فأعادهما سريعاً مستويتين فوق الفراش مرة أخرى. سألنا إن كنا نود أن نشرب شيئاً، فرفضنا كلانا، ولكنه أصر وقال: "أعرف أنكم أيها الشباب تحبون أن تشربوا كأساً في مثل هذا الوقت". وقال للممرضة أن تصب لكل منا كأساً من الشيري. تحدث الرجل العجوز لدقائق قليلة عن تاريخ الشيري، وعن نظريته حول السبب الذي كان الشيري لأجله يدعى "ساك"، أي حقيبة، لأن ثمرات العنب كانت تعصر من خلال أجولة كالحقائب. ثم، وفي نصف جملة لم يكملها - حول حديثه إلى موضوع جريمة قتل في جزيرة الآي الإيرلندية. كنت قد قرأت كل ما استطعت العثور

عليه قبل أن أبرح البيت، ولكن ثبت أن هذا لم يكن ضرورياً. فقد راح الرجل يتحدث في انسياب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق أو نحوها.

وحينما توقف للحظة قصيرة، قال كليف بيتس!

-"لقد سمع مستر سورم عن جماعة العنقاء".

-"أوه. أجل. حسناً. بالطبع. لقد كان دونيللي عضواً في تلك الجماعة. لقد كانت شيئاً مقرفاً من نوع لا يثير البهجة أبداً. أجل. بالطبع. ينبغي أن تعرف أنها نبعت من اعتقاد يقول بأنه إذا تضاجع رجل وامرأة فإنهما يصبحان غير قابلين للعدوى بأي مرض. وبذلك أصبحت هذه العقيدة في زمن الموت الأسود مبرراً لكل أنواع الفجور. ومع حلول عصر دونيللي أصبحت مجرد عصبة شبه سحرية تضم جماعة من المهووسين الصعاليك. هل تعرف كتاب دي صاد "مائة وعشرون يوماً من أيام سدوم"؟ إنني واثق ثقة كاملة من أن دي صاد كان يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - أتعرف الصعاليك العواجيز القذرين الأربعة الذين أقاموا نوعاً من المعرض الجنسي في أحد المنازل الريفية؟ لقد ظن توم وايز العجوز دائماً أن هذا هو السبب الذي جعل دي صاد يمضي أكثر حياته في السجن. لقد كان يعرف الكثير جداً عنهم".

تدخل كليف قائلاً، "توماس. ج. وايز. المزيف الأدبي، إنك تعرفه".

-"حسنا، ربما كان كذلك وربما لم يكن. إنهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقاً إلى هذا الحد. غير أنه كان دائماً صديقاً جيداً لي إلى حد بعيد. مثلما أقول، فإنه كان على اقتناع كامل بأن جماعة العنقاء هذه، كانوا يسعون وراء دي صاد.."

غمز لي كليف بعينيه

-"ولكن لماذا ينبغي أن يطاردوه إذا كان مثلهم في السوء؟"

-"إنه لم يكن. كلا، لقد كان يسخر منهم. أتفهم؟"

يجب علي أن أوضح أن تفسيرات الرجل العجوز لم تكن بمثل الوضوح الذي جعلتها به هنا. كان حديثه من النوع الذي يصعب تتبعه، تقطعه وترقمه غمغمات وأصوات أنفية

غريبة. لم أحاول أن أنقض أو أناقش حديثه الغريب عن دي صاد، ولكن أملي في الحصول على أية معلومات مفيدة راح يخبو ويتلاشى. سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء.

-"لقد رأيت نسخة من تلك النشرة النادرة. وكانت هذه هي بداية معرفتي بوايز في الحقيقة".

-"أية نشرة، يا سيدي؟"

-"أوه، النشرة الشهيرة.. التي كتبها هنري مارتل وجورج سميثسون. كليف، أنظر في الدرج العلوي هناك، أتسمح؟"

لم تكن النشرة في الدرج العلوي، ولكن بعد عشر دقائق - راح بيتس في أثنائها يصب الاتهامات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام، وعلى رأس ممرضته خاصة - تم العثور عليها في خزانة أخرى. اختطفتها بلهفة. كانت موضوعة في غلاف خارجي مراكشي أحمر، وكانت في حالة أقرب إلى الفساد.

فضح المؤامرة الشريرة، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل، م. أ. جورج سميثسون. د. د

طبعها للمؤلفين ج. روبنسون. ضفة النهر القديمة، ١٧٧٣

كان كليف يسأل بأكثر ما يملكه من نعومة وقدرة على الإقناع،

-"لا أفهم لماذا تظنها حقيقية مع أنها جاءتك من رجل مثل وايز؟"

انتفض الرجل العجوز للنقاش وأصبح لاذعاً حاداً،

-"سوف أشكرك إذا أنت لم تتحدث بهذه الطريقة عن وايز. إنه لم يكن مزيفاً أكثر مني. لقد كان يحاول أن يدافع عن ذكرى صديقه هنري باكستون فورمان".

قلت،

-"على أي حال، من المؤكد أن النص الأصلي لأي عمل مزيف كان على الدوام حقيقياً؟ لم يكن الأمر سوى نوع من التاريخ المجتزئ على النشرات؟"

-"تماماً". قال الرجل العجوز، ثم التفت إلى كليف وقال، اترى؟ إنه يعرف عن المسألة اكثر مما تعرف انت!"

تركتهما يتناقشان، ورحت اقرا بسرعة عاصفة. اتخذت النشرة كلها نغمة اخلاقية مرتفعة، واتهمت جماعة العنقاء بانها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وطالما ان هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع مذكرات دونيللي، فانني لن اقتبس الكثير منها هنا. .اذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس العجوز عن الجماعة، فقد كان بوسعي ان ارى لماذا كان ينظر اليها بعين الفرض. وجدت نفسي اتذكر عدداً معيناً من النشرات والمقالات التي صدرت عن راسبوتين بعد مقتله في عام ١٩١٧، وكانت مليئة باتهامات غامضة، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية، وعن جرائم الاغتصاب والعهر، والاحتفالات المقززة. وطبقاً لما قاله كاتبا النشرة، كانت الجماعة أساساً تنظيماً من السحرة لممارسة أعمال السحر. وكانت الفقرة التي اثارت اكثر المناقشات - بعد نشر مقالي عنها في مجلة "اتلانتيك منثلي". كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها "السيد الأعظم" او اي واحد من اتباعه المصطفين لكي يتمكن من استعباد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من "سراويلهن الداخلية الملوثة بالدم" بعد دورتهن الشهرية، ثم يقطع ثقباً في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الأنثوي، ثم يرتدي هذا السروال فوق ذكره العاري لمدة سبعة ايام وسبع ليال. وبعد هذه الفترة تصبح العذراء مجبرة على تلبية نداءات السيد الأعظم لكي تسلم له عذريتها، ثم تستسلم له بعد ذلك في اي وقت، حتى ولو كان على بعد الف ميل. وتتلو ذلك، القصة الغريبة عن "اديلي كريسبين" التي امتلكها السيد الأعظم في ليلة زفافها "في نفس الوقت" الذي كان زوجه يمتلكها فيه، والتي كان طفلها يحمل ملامح السيد الأعظم - شعر اسود، وبشرة سمراء، وما إلى ذلك (كان السيد الأعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى، الذي تفاخر بانه قد ترك بذرته في رحم كل امراة جميلة من المجتمع الروماني الراقي. ويشير المؤلفان إلى هذا التفاخر باعتباره مثالاً على الفقر الأخلاقي الوحشي بدلاً من ان يكون صورة للكذب الخيالي المختلق) وقد قتل عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٧٩١ على يد هندريك فان جريس، الهولندي الشبيه بالوحش. والمفترض ان فان جريس كان يزن اكثر من ثلاثمائة رطل إنكليزي (١٥٠ كيلو غرام)، وانه غالباً ما كان يفقد ضحاياه الوعي، بل يقتلهم، بمجرد أن يترك وزنه الضخم يسقط فوقهم، واصبح فان جريس سيداً أعظم لمدة لا تزيد على العامين، أصيب خلالهما

بمرض الزهري الذي نقلته إليه سيدة البلاط الرومانية ماريا غرينكا التي قيل انها كانت ذات طبيعة قاتلة، حتى ان فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد اصبح جبلاً لا ملامح له من اللحم المترهل. وفي "مجلة التحليل النفسي" الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩ فسر البروفيسور آرام روث القصة كلها على أساس التصور الفرويدي - بادئاً من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولع الجنسي بالأشياء ذات العلاقة او المدلول الجنسي) المرتبطة بالسراويل الملوثة بالدم - ورفض القصة - او رفض تصديقها - على اساس انها نتاج الخيال القوطي المليء بالأسرار الوحشية. وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة، اشارت ميس ماركاتينا بوندليسون الى انه لم تكن ثمة حاجة إلى الاختراع، طالما انه من الممكن العثور على اكثر الطقوس الموصوفة في كتب السحر الأسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر، وتشير ايضاً إلى ان ستيف دي لابريتون قد وصف شخصاً ما يبدو شديد الشبه بفان جريس (تحت اسم كوبير - بالميزو) في كتابه "ليالي باريس في عام ١٧٨٨) واصفاً إياه بانه "المنحرف الأسطوري". وكنت انا من لفت انتباههما إلى الفقرة المتعلقة بريستيف.

قال الرجل العجوز، "لقد كانوا مجرمين، هؤلاء الناس، مجرمين منحطين. ارايت من الذي جاء بالجماعة إلى فرنسا؟"

كنت قد رايت ذلك حقاً. قال مؤلف النشرة ان جيل دي ريز قد اصبح عضواً في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٤٢١) بعد أن رشحه لها كاهن مخلوع. كان مارتل وسميشسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من أن الجماعة لم تكن اكثر من تطور لتعاليم "اخوة الروح الحرة". فبعد أن رفضوا كل قانون اخلاقي هدفه تحقيق اكمل تعبير عن "اعضاء المتعة". ويقول المؤلفان، كان اعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان، ويتخصصون في الاغتصاب او في مضاجعة الجثث. كانوا يتقدمون للتطوع لحراسة جثث الفتيات الصغار - والصبيان. وينتظرون حتى ينام الجميع ثم يغتصبون الجثة جنسيا. الشيء الوحيد الذي يمكن ان يقال في صالحهم - في الحقيقة - هو انهم حاولوا دائماً ان يتجنبوا إنزال اي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم. وقد حدث أن فتاة من بائعات اللبن اغتصبها اثنان منهم ثم تركاها مقيدة مكممة تحت كومة من اوراق الأشجار، حتى عثر عليها بعد ذلك بيومين. وهددت اخرى بانها ستجد نفسها حاملاً بجنين كالوحش إذا فاهت بكلمة واحدة، وبذلك كتمت السر حتى طمانتها دورتها الشهرية التالية. "ولما كانت القاعدة التي يتبعونها

هي ألا يقتلوا ضحيتهم أبداً حتى يتجنبوا عملية التعرف عليهم فيما بعد. "وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الأدوات (باروكات الشعر والأهداب والعدسات...الخ) من ألوان مختلفة حتى يكون بوسعهم أن يغيروا ألوان كل شيء، حتى عاداتهم نفسها". وكان جيل دي ريز هو أول شري يعتنق آراءهم، وكان قد استقبله وتلقاه كعضو في لجماعة شخص يدعى جيل دي سيى. كان الحديث عن السيمياء في محاكمته ضرباً من السير في طريق مظلم مسدود، طبقاً لما جاء في النشرة. وكان القتل الجماعي للأطفال - ببساطة - تعبيراً عن "الشهوانية الشيطانية" التي أفعمت بها قلوب جماعة العنقاء.

فإذا ثبت أن ريز كان عضواً في جماعة العنقاء، إذن لأقام مارتل وسميثسون قضيتهما على أساس أنها كان منظمة شريرة ومروعة. ولكنهما في الحقيقة لا يقدمان أي دليل على اعتقادهما في أنه كان عضواً في الجماعة. شعرت بالميل إلى أن أشير إلى ذلك للرجل العجوز، ولكن كان من الصعب أن تعترض الطوفان الجارف من الذكريات. وأخيراً استطعت أن أسأله إن كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء.

-"أجل. إن لدي أهم خطاب يمكن أن تتصوره كان قد وصلني من توم وايز. كنت أتراسل معه بشأن هذه الجماعة - لابد أن هذا كان في عام ١٩٠٥. كليف انظر في هذا الدرج العلوي مرة ثانية".

أعرض كليف بوجهه، ولكنه راح يبحث - طائعاً - بين أكوام من الأوراق القديمة. دخلت الممرضة حاملة إناء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وضعته في إطار معدني معلق بالسرير. وحينذاك غطى بيتس العجوز رأسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار. وأعتقد أن هذا كان نوعاً من العلاج للربو. عرضت أن أساعد كليف بيتس في البحث عن الأوراق، فقال: "أتتوقع أن تعثر على شيء هام.." والتقط النشرة التي كنت أقرأها. ألقيت نظرة على كومة من الخطابات القديمة، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من المفروض أنني أبحث عنه، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقمه. جذبت إضمامة سوداء من قاع الدرجة ونظرت إلى ما بداخلها. وجعلني ما رأيته انظر بسرعة إلى الرجل العجوز، ثم إلى حفيده، ولكن لم يكن أحدهما منتبهاً إليّ. كانت الإضمامة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة أو نحوها من مخطوطة كتبت باليد، تعرفت على الخط، كان خط بوزويل. كان أول سطر من الصفحة الأولى يقول، "السبت، أول فبراير"

وأن شخص ما قد أضاف عام ١٧٦٦ بالقلم الرصاصي. مرة أخرى نظرت إلى كليف. كان منغمساً كلية في قراءة النشرة. وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حاله للممرضة التي كانت تعيد ترتيب الفراش. جذبت مقعدي قريباً إلى الدرج، وجلست لكي أقرأ المخطوطة. في لحظة ما، نهض كليف ونظر من فوق كتفي. تساءلت صامتاً إن كان يمكن أن يسألني عما كنت أفعله بحق الشيطان. ولكنه ذهب وجلس في مكانه ثانية، واستأنف القراءة.

كان التقرير يصف مغادرة بوزويل لباريس في صحبة تيريز لوفاسور، عشيقة روسو "وهي التي كان بوزويل قد وصفها في يوميات أخرى - اكتشفتها فيما بعد - بقوله، "إنها فرنسية خالصة مليئة بالحياة"). وكان الاثنان في طريقهما إلى إنكلترا، وقد سافرا معاً بحثاً عن المؤانسة. وفي الليلة الثانية قررا أن يشتركا في فراش واحد في أحد الفنادق الصغيرة. ولشدة مهانة بوزويل، فشل في أداء واجباته الرجولية، فانفجر باكياً، وقال: ويستطيع من يقرأ هذا الكلام أن يجد آثار بكائي على الصفحة السابقة". ولكن تيريز أعادت إليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بأن أدت إليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشقيها معاً، - وهي الركوع على ركبتيها أمامه وملاطفته بفمها. "جعلني منظرها وهي متكومة أمامي في هذا الوضع المهين أشعر بالشفقة الأمر الذي أعاد حيويتي إليّ بقدر عظيم حتى إنني أرقدتها على ظهرها فوق البساط وأتيتها في التو والساعة مثل عجل بري. وأظن أنها رضيت تماماً عن "حجمي" لأنها شهقت بدهشة، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة". إنني أنقل الآن من الجمل القليلة التي استطعت أن أنقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبي. عرفت أنني كنت أنظر إلى مخطوطة بوزويل التي استطاع إيزاك جينكلينسون بيتس أن يختلسها بشكل ما من مالاهايد. ومن الواضح تماماً أنه لم يكن له أي حق في امتلاكها. ولذلك فقد عرفت انعدام أي فرصة لسماحه لي بأن أستعيرها أو حتى بأن أنسخها في منزله.

قال كليف بيتس، "هل عثرت على تلك الورقة عن دونيلي؟" جفلت وقلت، "لا" ثم نظرت إلى الرجل العجوز. كان رأسه مختفياً تماماً، وكنت واثقاً من أنه لم يسمع، قال كليف،

-"أرجو أن تقرأها. إنها مضحكة بشكل مرعب".

غمغمت بشيء ما، آملاً الا يطرا على ذهن بيتس العجوز ان يسالني عما كنت اقرا، او ما إذا كنت قد عثرت على خطاب وايز. قفزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل ان يبرز نفسه، مخاطباً ذاته بكلمة "انت " متاملاً في مميزاته من الجاذبية والجدية الأخلاقية. في يومية الأحد ٩ فبراير، عثرت على الاسم الذي كنت ابحث عنه. وصل بوزويل وتيريز إلى كاليه وسط عاصفة ممطرة. ونزلا في فندق يقول عنه ببساطة انه فندق مدام دوتشيزن، حيث نزل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الأرضي. بدل بوزويل ملابسه وهبط يتمشى في المدينة. "وبالقرب من رصيف الميناء، ربت شخص ما على كتفي، والتفت لكي ارى ايزموند دونيللي الذي كان قد وصل إلى هنا بعربة البريد القادمة من دانكيرك". وذهبا عائدين إلى فندق بوزويل، حيث كان بوسع دونيللي ان يحصل على حجرة لنفسه. ومن الواضح أن بوزويل ودونيللي كانا قد التقيا في دريسدن، امرا لنفسيهما بطعام وقنينة كبيرة من النبيذ الجيد، وتحدثا عن ويكليز وهوراس والبوك اللذين كانا قد قابلاهما في باريس. ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف انها كانت قد قابلت دونيللي وهي مع روسو في نيوشاتل - ويقول بوزويل، "علي أن اعترف بانني شعرت بغصة لحرارة تحيتها، وللطريقة التي ظلت تردد بها ان هذه كانت مفاجاة ممتعة". قرروا ان يتناولوا العشاء معاً، واخذهما ايزموند إلى منزل خاص لتناول الطعام. "وعلى مائدة العشاء، تحدث كثيراً حديثاً فاحشاً، ولما لم يبد على الآنسة انها تضررت من ذلك فقد اشتركت في الحديث، وشعرت باختفاء كابتي وانحراف مزاجي". ثم عادوا إلى فندقهم، وقال بوزويل مازحاً انه يامل من ايزموند ان ينظر إلى لقائهم نظرة بريئة إذا حدث والتقى بروسو في لندن. وحينئذ، وبالصراحة غير المعقولة التي عرف بها بوزويل دائماً، مضى فاخبر ايزموند عن فشله مع تيريز، وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى انه شرب زجاجة كاملة من النبيذ قبل ان يذهب معها إلى الفراش. واصبح الحديث اكثر وداً وكله جو من الصداقة الحميمة. وتحدثت تيريز عن غلظة الإنكليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس. وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض ايزموند أن يعرض استاذيته في هذا الموضوع في التو واللحظة. ثم خطر له أن إذا استحوذ ايزموند على تيريز فإنه سيحصل على سبب معقول يشعره بالبراءة إذا التقى بروسو فيما بعد، وهكذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة. وجاء دور تيريز في اظهار الدهشة وما اصابها من صدمة، وراح ايزموند يلومها ويسخر منها منهما إياها بالتصنع وعدم الصدق. وعند ذاك، قررت انه لن تكون هناك جدوى من إخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على ان تكون

عملياً رايها وتقديرها لقوة ايزموند في فن العشق. قال ايزموند لبوزيل، "هيا يا سيدي، هيا لكي نثبت لها ان الكلت هم دم الحياة لأوروبا". فقهقهت تيريز، وكان بوزويل مصمم على ان يبدو في صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن صديقه الشاب (وكان ايزموند يصغره بثماني سنوات) فاصطحبهما إلى حجرة النوم.

وما حدث بعد ذلك يتخلص في ان بوزويل وايزموند ساعدا تيريز في خلع ثيابها. وحينما أصبحت في ثيابها الداخلية شرع الرجلان في ملاطفتها. وثبت كل منهما فمه على احد نهديها (...)

ان وصفه لمنظر ايزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك - نموذجاً كلاسيكياً في مجاله... وهذا الوصف يستمر لصفحتين اخريين، ولكن كان هذا كل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير. كانت الممرضة تساعد بيتس العجوز لخلع حقيبة البلاستيك، ولذلك فقد أسرعت في القراءة حتى اصل إلى النهاية، حيث يصف بوزويل، بعد فشله الأول، كيف استطاع ان يشفي نفسه بمضاجعتها بقوة "باسلوب شعرت بالأسف لأنني لم اكن قادراً على مشاهدته بنفسي". وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما غمغمت تيريز قائلة، "آه، إنه لمصير محزن ان اكون عشيقة رجل عجوز". وامضى بوزويل وتيريز وايزموند الليلة في نفس الفراش - الذي كان كبيراً بما يكفي ثلاثتهم - ونظر الثلاثة إلى الموقف بطريقة طبيعية حتى انهم كانوا يغرقون في إغفاءة قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس. واخيراً غرق بوزويل في النوم بينما كان ايزموند يحاول إقناع تيريز بان ياتيها من الخلف. ولكنه في النهاية قنع بان يقلبها على ظهرها ثم يصعد فوقها مرة اخرى. وفي هذه المرة، شبعت حتى رغبة تيريز التي طال كبتها في جواد قوي شاب، فرقدت مستسلمة في سلبية، وهي تشهق بضعف، بينما كان بوزوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة "كنت آخر من امتلكها تلك الليلة" كذلك يقول مفاخراً، ولكنه يضيف، "ولكن علي أن اقول - للأمانة - ان دونيللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها". وفي الليلة التالية، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته، فامضى الليلة في فراش ايزموند. ويعترف بان قلبه كان قد انصرف تماماً عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية. "رغم اننا كنا قد رأينا فتاة صغيرة في نحو الرابعة عشرة من عمرها في دكان الفران، كانت جديرة بان تلهمني الحياة طوال ما تبقى من أيام الأسبوع". وفي اليوم التالي قال لهما ايزموند ان لديه عملاً لابد

أن يبقيه في كاليه عدة أيام أخرى. وبينما تحرك بهما القارب عن رصيف الميناء إلى السفينة التي كانت ستقلهما إلى إنكلترا، نظر بوزويل خلفه فرأى أيزموند واقفاً على رأس الرصيف مع الفتاة ذات الربعة عشر ربيعاً. ولحسن الحظ فإن تيريز لم تلحظهما. "بعد العودة إلى دوفر في اليوم التالي (٢ فبراير) تمضي يوميات بوزويل المنشورة قائلة: "ذهبت صباح أمس إلى الفراش في ساعة مبكرة جداً، وقمت بواجبي مرة واحدة، لكي تبلغ أهدافي ثلاثة عشر في مجموعها. وكنت حقاً منفعلاً بها في ود صادق". ولكنه لا يسجل كيف أصبحت أهدافه الصحيحة تماثل عدد أهداف دونيللي.

التقت عينا بيتس بعيني فهز رأسه محذراً. كانت المرضة قد خلعت الحقيبة المصنوعة من البلاستيك. أغلقت المخطوطة التي كنت قد أنهيت قراءتها لتوي، ودسست كراسة مذكراتي الصغيرة في جيبي. التقطت كتيباً صغيراً من تأليف روسكين، وحينما سألني الرجل العجوز عما كنت أقرأ قلت أنني وجدت هذا الكتيب وأنه سحرني. قال حفيده أن علينا أن نرحل الآن، وبدا أن المرضة وافقت على ذلك.

-"هل سألني صديقك كل الأسئلة التي كان يفكر فيها؟"

قلت بتردد: "هناك سؤال واحد أخيرا، يا سيدي. عن أيزموند دونيللي.."

-"دونيللي؟ من ذاك؟"

وضح كليف من أقصده. قال الرجل العجوز:

-"آه، أجل، أتذكر الآن، لقد كان عضواً في جماعة العنقاء.."

-" كيف عرفت؟".

-"دعني أتذكر.. كيف عرفت؟ آه، أجل. أخبرني وايز بذلك. قال ذلك في الخطاب الذي أردتك أن تراه. هذه النشرة التي كنت تقرأها.. إنها ليست بقلم.. أياً كانت أسماؤهم. إنها بقلم شخص آخر، صديق لدونيللي. لا أستطيع أن أتذكر اسمه. إن له لقباً".

-"لا يمكن أن يكون هوراس جلبني. أيمكن ذلك؟"

-"آه، أجل. هذا هو الرجل. لورد جلبني".

-"ولكن كيف عرف وايز بذلك؟"

لسوء الحظ، تدخل كلي بيتس لأنه فسر هذا الكلام على أنه هجوم آخر ضد وايز، وشرع يشن دفاعاً طويلاً عن صديقه القديم. قررت أن أترك المسألة عند هذا الحد، إلى جانب أنني كنت جائعاً، شكرته ووعدته بأن أزوره مرة أخرى وغادرت المكان. وفي الخارج قال كليف بيتس معتذراً:

-"أترى. إن الوالد العجوز ثرثار كبير".

-"هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت أقرأها؟"

-"آه، هل عرفت أنه بوزويل؟ أجل، بالطبع، لقد قرأتها. أظنها قطعة رائعة من أدب الدعارة. لقد ظللت أحاول طويلاً أن أقنعه بإرسال نسخة منها إلى ذلك الرجل الذي يشرف على نشر مذكرات بوزويل. ولكنه لم يوافق".

-"بالطبع. إنها ليست ملكه".

-"أنت واثق؟"

لخصت له قصة أوراق بوزويل. قال:

-"إنه يزعم دائماً أنه اشتراها مقابل خمسة جنيهات، ويقول أن لادي كالبوت رأتها بالصدفة ذات يوم وطلبت من زوجها أن يحرقها. فقال أنه سيفعل ذلك، ولكنه وافق على بيعها إلى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات".

-"ربما كان هذا صحيحاً. هل لديك المزيد من أوراق بوزويل؟"

-"كلا على قدر ما أعلم. هذه هي الأوراق الوحيدة التي رأيتها".

كان المطر قد بدأ يهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن. قلت بطريقة تقليدية:

-"أشكرك لاصطحابي إليه. إنه رجل عجوز لطيف".

-"أوه، إنه على ما يرام. إنك لا تعرفه".

عجبت لهذه الإجابة، ولكنني قررت ألا أضغط عليه. فلم تكن هناك حاجة حقيقية إلى ذلك. وحينما جلسنا في البار رحنا نحتسي بعض النبيذ الأحمر، قال:

-"يحق لي أن أتخيل أن جدي واحد من الشخصيات التي تمثل أسوأ تركيبة من الخصائص المتضاربة التي يمكن أن تجدها في دبلن في هذه الأيام. إنه - أولاً - كذاب. لقد تظاهر بأنه لم يعرف اسم دونيللي. هراء. إنه يعرفه مثلما تعرفه أنت..."

-"إذن لماذا.."

قاطعني قائلاً: "وهو ثانياً، ربما كان أصغر رجل في إيرلندا..." وطوال الدقائق الخمس التالية راح يضرب لي أمثلة على حقارة جده ووضاعته كانت بالتأكيد مقنعة تماماً. وربما كان الرجل نموذجاً من النماذج الإيرلندية، لأن مانسيورين، يصف شخصاً يماثله في بداية روايته "ميلموث الجوال". ويرجو هذا الشخص متوسلاً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أن يدفنه في مقبرة من مقابر الصدقة المخصصة للفقراء. ثم تلت ذلك قصص عن عدم أمانة جده. "ثم هنالك تلك الفتاة المسكينة التي ترعاه. إنها ما تزال طالبة في معهد التمريض، ولذلك فإنه لا يكاد يدفع لها شيئاً. ولكنه يقنعها بأن تنام معه مقابل وعده لها بأن يترك لها مالاً في وصيته. هو بالطبع ما كان يحلم بهذا".

دهشت وسألته، "أنت واثق من هذا؟" فإن الرجل لم يكن يبدو على صحة كافية لكي ينجو من آثار حلم جنس".

-"بالطبع. إن الفتاة تنام معي في ليلة عطلتها".

كنت قد بدأت أشعر بالانقباض. كان كليف بيتس يصف خطايا جده وأخطاءه في تشف حقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية.

-"لماذا لم تخبرها بأن الرجل لا ينوي أن يترك لها نقوداً في وصيته؟".

غمز بعينه وقال، "إنها قد تتركه. وهذا لن يفيده ولن يفيدني".

اقترحت أن نأخذ نبيذنا معنا إلى حجرة الطعام. قال:

-"هل تمانع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الأسفل"؟

-"كلا. إذا كنت تفضله".

وجدنا مادة على جوار النافذة المطلة على الشارع. سألته،

-"من هو وارث جدك؟"

-"أعتقد أنني الوارث"

-"إذن لماذا تحتقره إلى هذا الحد؟"

-"ليس لهذا علاقة بذاك. إنه خنزير عجوز. وأنا على أية حال لست بحاجة إلى نقوده. إنه ميسور الحال تماماً. وربما كان هذا هو السبب الذي سيدفعه إلى أن يجعلني وارثه. إن جيم، ابن أخيه، جيم هيرد، يحتاج إليها أكثر مني.

قطع كلامه فجأة وأطل من النافذة. كان المطر لا يزال يهطل، وكان أمامنا خلف النافذة طفلة صغيرة، كانت تنظر إلينا، وهو ما دفعنا كلانا للنظر إلى بعض نظرة تساؤل. ثم ابتسم كليف لها. سألته،

-"أتعرفها؟"

-"كلا". ولكنه مع ذلك كان يشير إليها بإصبعه. هزت رأسها رافضة. قام وخرج إليها. توقعت أن أراها تختفي قبل أن يصل إليها. ولكنها وقفت في مكانها، بدت وكأنها خائفة وباردة ومبتلة، وكانت ملابسها رثة إلى حد كبير. قال لها شيئاً ما، هزت رأسها علامة الرفض. ثم أخذها من كتفها، وأجبرها على السير أمامه. بعد لحظة كانا قد عادا إلى مائدتنا. قال،

-"إنك لن تنزعج إذا انضمت إلينا. أليس كذلك؟"

قلت إنني لن أنزعج. ولكنني كنت أكثر اهتماماً بما ستشعر به إدارة المحل. كانت أكبر سناً مما بدت عليه من وراء الزجاج. أربعة عشر، أو خمسة عشر عاماً، تقريباً. كان شعرها مرفوعاً على شكل ذيل فأر، وكان أنفها يرشح من البرد، وترتدي سترة قصيرة ذات كتفين منتفخين وليس فيها سوى "زرار" وحيد. كان المطر قد رسم خطوطاً على ما تأصل فوق وجهها من أوساخ، وكانت تبدو كمن لم يغتسل منذ أسبوعين. ولكي أكون

ابيناً، فقد لاح لي ان العطر كان سبباً فيما فاح منها من روائح اكدت تلك الحقيقة. سألها كليف:

-"ما اسمك؟"

-"فلورنس".

-"هل يدعونك فلو؟"

-"اجل"

كانت لهجتها لندنية قحة Cochsney جلست في مكانها، تحك يديها الباردتين الواحدة بالأخرى، فتبدو كصورة مجسمة للبؤس. كان النادل ينظر الينا في اشمئزاز رافض، وظننت ان مدير المحل كان على وشك ان يأتي إلينا ليطلب منا مغادرة المكان فقد كان يحملق فينا بقوة. قال كليف:

-"اتودين ان تأكلي بعض السمك والبطاطس المقلية؟"

اومات براسها، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فاقدة الحياة. نادى كليف على النادل، وامره بان يأتي بما ارادته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكبرياء. كانت مشاعري مختلطة غير واضحة. إذا كان قد دعاها إلى الدخول بدافع الشفقة او العطف إذن لكنت اوافق، رغم انني كنت سافضل اصطحابها الى مكان أكثر هدوءاً وعتمة. ولكنه كان شخصية من نوع غريب ومعقد حتى إنه كان من الصعب التاكد من دافعه. ظننت أن الفتاة بدت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته. وأخيراً اقترحت انه من الأفضل ان نصعد الى حجرتي، على ان نطلب إرسال طعامها إلى هناك.

-" كلا، كلا، ولماذا يجب علينا ذلك؟ إننا على ما يرام هنا".

كنت جالساً إلى جانب الفتاة ملاصقاً لها. وكنت افضل لو انني كنت اقل قرباً. اخذت سترتها منها لكي اعلقها على المشجب، ففاحت منها رائحة جعلتني اظنها قد وجدتها في كومة من القمامة بعد ان كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك. ان لي انفاً حساساً

الى درجة غير عادية، ولكن حتى رغم ذلك، فإن السترة لم تكن شيئاً عادلاً بالنسبة لجيراننا على الموائد القريبة.

كانت الوجبة واحدة من اكثر ما عرفته بعداً عن الراحة او المتعة، فطلبت زجاجة اخرى من الشراب في محاولة لنسيان ما شعرت به من حرج. لم استطع ان افهم السبب الذي جعلها توافق على الدخول. كانت تجيب على الأسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من ان ترفع صوتها، وقد جلست في وضع متجمد مقيد، كما لو كانت تتداخل في نفسها لإحساسها المستمر بالبرد. وبدا كليف كما لو كان مستريحاً لهذا الجو. راح يتحدث بصوت مرتفع وبابتهاج واضح، وهو يقص عليّ حكايات عن مهرجان كان السينمائي، وعن آخر افلام بركمان، وهي حكايات لم تستطع أن تثير لدي ادنى قدر من الاهتمام. حاولت ان اتحدث إلى الفتاة، ولكن كان واضحاً انها تفضل لو تركت لشأنها. شعرت براحة اكبر حينما غادر جيراننا على المائدة المجاورة لنا. حينما وصل سمكها وبطاطسها المقلي، اغرقتهما بالخل والطماطم المحفوظة، فاصبحت رائحتها اقل ظهوراً. رفضت الفتاة أن تتناول شيئاً من الحلوى، الأمر الذي شعرت له بالراحة والغبطة. كنت قد نويت أن أضيف الوجبة كلها إلى حسابي في الفندق، وبدلاً من هذا دفعت الحساب نقداً وتركت للنادل هبة كبيرة. لم اشعر بالرغبة في الظهور بمظهر نزيل الفندق.

قال كليف باقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وارستقراطية:

-"حسنا، إذا لم تكن ستتناول المزيد، فيمكننا ان نذهب إلى مسكني لنتناول شيئاً من الشطائر بالجبن!".

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام، فلم اعترض. الى جانب انني توقعت ان تتركنا الفتاة بعد هذا. كان منظر وجهها التعيس يجعلني كئيباً. ولم تكن سعادة النادل بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل.

وفي الخارج قال كليف: "حسنا، إنني لا اعرف كيف سننحشر جميعاً في سيارتي ذات المقعدين".

ظننت ان هذه الجملة كانت إيحاء مؤدباً للفتاة بالانصراف، ولكنها ظلت واقفة في مكانها. قال:

-"أوه، حسناً، سنرتب هذا الأمر. تعاليا". وجذب ذراعها بقوة. قلت:

-"ألا يتوقع والدك عودتك إلى البيت؟"

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: لا"

في السيارة البورش جلست على ركبتي في هذه الزنزانة المقفلة. وقد طلب مني كليف بيتس ألا افتح النافذة. كانت الرائحة السمكية أكثر قوة. كان عليها أن تضغط بظهرها عليّ لكي تدخل ركبتيها في مساحة الفراغ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول: "سنكون في البيت حالاً - أو هو - هناك ثقب.. هنا - "وكان يشير إلى جواربها. ثم غمز لي بعينه وقال: "أحسدك!". نظرت إليه بدهشة قليلة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يرى في هذه الطفلة المبللة ذات الأنف السائب موضعاً للرغبة الجنسية؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم؟"

بدت لي سلبيتها نوعاً من الشذوذ. حينما توقفنا أمام شقته توقعت منها أن تبدي شيئاً من المعارضة. فكيف لها أن تعرف على أي حال أننا - نحن الاثنين - لا ننوي اغتصابها؟ ولكنها وقفت في مكانها دون أن تبالي بشيء، حتى أخذ كليف بذراعها وقادها نحو الباب.

بدت أكثر غرابة وشذوذاً في هذه الغرفة الجيدة التأثيث. ألقت بسترتها فوق الأريكة، ثم ذهبت فقبعت متداخلة بجانب المدفأة، وبدت غير مهتمة على الإطلاق بكل ما يحيط بها. قال كليف:

"فلنسمع بعض الموسيقى، ما رأيكم؟ هل تعرف كانتاتا جميس أوزوالد المسماة عربة التراب؟ عليك أن تعرفها. إنها ممتعة". تساءلت بيني وبين نفسي إن لم يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة. ولكنه أخرج أسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل، ووضعها على الحاكي. عرض عليها أن تشرب كأساً ولكنها رفضت. أخرج الجبن والشطائر والزيتون المحشو إلا أنها رفضتها أيضاً. غير أنها حينما قدم إليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة المحشوة أخذتها دون أن تنبس بكلمة واحدة، وجلست تلتهمها. وقد باعدت ما بين ساقيها أمام النار، وراحت تسقط نثار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي المسندين وعلى البساط الأبيض الفاخر. اتخذت مقعداً على الجانب الآخر من المدفأة، وكان كليف قد جلس بالقرب منها. بدأت أتساءل إن كانت قد سكرت. ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالاته

الكاملة، ولم يكن حتى ينم عن الكآبة. وحينما كان يتحدث إليها كانت تجيبه إما بكلمات مفردة، وإما أن تهز رأسها أو تومئ به. وبعد أن التهمت عدداً هائلاً من الشطائر الصغيرة طلبت شيئاً تشربه. ذهب إلى المطبخ وجاءها بزجاجة من الكوكاكولا وأنبوبة لامتصاص الشراب. حينما انتهت كانتاتا "عربة التراب" قالت دون أن يبدو في صوتها الاهتمام الشديد: "لماذا لا تضع شيئاً من الموسيقى اللطيفة". أخرج أسطوانة من موسيقى مانتوفاني وفرقته، وبدا أن هذا الاختيار قد أرضاها، ثم إنها لم تقل شيئاً.

فكرت في أنه كان ربما يأمل أن أقوم أنا فأنصرف لكي أتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت أن الوقت قد تأخر، عارضني على الفور، وأضاء جهاز التليفزيون لكي نشاهد نشرة الأخبار. جلست في مكاني، ارتشف كأساً من الشراب، عارفاً بأنني سرعان ما سأشعر بالسكر، ومع ذلك فقد كنت أشعر كما لو كنت لم أشرب سوى الماء طول النهار.

بعد نشرة الأخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال إيرلندا. ربت كليف على ذراعي وأشار إلى الفتاة. كانت نائمة. قال برقة:

"إنها لطيفة. ألا تظن ذلك؟" وجدت أنه من الصعب أن أعثر على إجابة مناسبة. وأخيراً قلت" "إنها بحاجة إلى حمام جديد"؟. بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع، وغض بصره وقال: "أجل، المسكينة..."

-"ألا تظن أنه يجب عليك أن تأخذها إلى البيت؟ ألا يمكن أن يثير والدها بعض المشاكل؟"

-"أوه، لا أظن ذلك. يمكنها أن تنام هنا إذا أرادت ذلك"

سلمت دون مزيد من المعارضة. كان يعرف ما يفعله خيراً مني.

كانت قد غرقت في النوم واضعة إحدى ساقيها فوق أحد مسندي المقعد، والساق الأخرى أمام النار. غيرت وضعها قليلاً فانزلق ذيل ثوبها فوق ركبتيها. ابتسم كليف في وجهي، وانحنى إلى الأمام وصوب نظرة قريبة فوق ذيل الثوب. توقعت أن تستيقظ ولكنها لم تتحرك. التفت إليّ وقال: "انظر" ولكني هززت رأسي قائلاً: "كلا. أشكرك". تظاهر بأنه يريد أن يطلعني على شيء هام، فغيرت وضعي ونظرت إلى ما فوق ذيل الثوب. كان الجوربان

لسمبكان مليئين بالثقوب والشقوق. كانت ترتدي سروالاً طويلاً مصنوعاً من القطن، ولكنه كان ممزق "الحجر" بشكل سيئ حتى إنه لم يكن يخفي شيئاً. ابعدت عيني سريعاً - ليس بدافع الترفع أو اللامبالاة، وإنما لأنني كنت ساشعر بخجل جديد لو أنها فتحت عينها في تلك اللحظة. قلت:

-"ماذا في ذلك؟"

بدا عليه الحزن والتفكير مرة ثانية.

-"من الواضح أنها تنتمي إلى اسرة فقيرة، فلا عجب أنها ليست نظيفة جداً".

لمس كتفها وقال: "اتريدين النوم هنا". جفلت ولكنها لم تفتح عينيها، وفجاة أصبحت عاجزاً عن معرفة ما إذا كانت تتظاهر بالنوم. تحسس قماش ثوبها وقال: ستصاب بنزلة برد إذا ظلت بهذه الملابس". نهض واقفاً ووضع يداً تحت ذراعها ويده الأخرى تحت ركبتيها، ورفعها. حركت رأسها وقالت شيئاً. خطر لي الآن أنها إما أن تكون تتظاهر بالنوم أو أنه قد وضع شيئاً في الشراب الذي تناولته. فإذا كان ذلك قد حدث، فلابد أنه استخدم مادة هايدريت الكلور، فهي وحدها القادرة على إنتاج هذا الخدر الكامل.

تبعته إلى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل أن أساله عما كان يفعله. كانت الحجرة مريحة ودافئة. وضعها على حافة الفراش الكبير، ثم خلع حذاءها، ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام. سألته: "أهذا تصرف حكيم؟" قال: إنني لا أنوي أن أضعها في فراشي بهذه الملابس. لقد قلت بنفسك إنها متعفنة". عثر على الحزام فجذبه وفتحه بعنف، ثم جذب الثوب النصفي فخلعه من قدميها. لم تكن ترتدي قميصاً داخلياً. لا شيء سوى الجوربين المسوكين بزوج من دوائر المطاط، والسروال الداخلي الذي كان رباطه المطاطي بعيداً تقريباً عن خصرها. قال: "جسد صغير جميل". وكان في هذا شيء من المبالغة. كانت نحيفة، والبطن الصغير كان مسطحاً لدرجة أن عظمتي الردفين برزتا بوضوح. أمسك بطرف الصدار الصوفي الخفيف، وكان ذا لون أخضر شابه لون الطين والتراب - ورفعه، ثم حركها فقلبها على جنبها حتى يستطيع أن يجذبه من فوق رأسها. كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم، وكانت أشرطة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعة من

للطاط الأسود إلى بقايا القماش بطريقة خشنة. وقطع شريط المطاط باظافره. كان النهدان الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما. نظر إليّ وقال:

-"هل سننالها؟"

قلت على الفور: "كلا. دعها وشانها".

مد يده فجاة ووضعها على مقدمة بنطالي فقفزت إلى الخلف كما لو كان قد ضربني. ابتسم وقال:

-"لا يمكنك أن تتظاهر بانك غير مستثار".

كبحت رغبتي في ضربه وقلت: "لماذا لا تضعها على الفراش ثم تتركها لكي تنام؟"

-"كلا. سيخيب أملها".

كانت مشاعري مختلطة وغامضة. كنت واثقاً من أنها متيقظة. ولكن إذا لم تكن، فإنني كنت سأعتبر شريكاً في اغتصابها. كنت سأعتبر شريكاً على أي حال، طالما أنها لم تبد أي نوع من الاستجابة. انحنيت إلى الأمام وقرصت كتفها. لم تتحرك. كان كليف بيتس في تلك اللحظة يقهقه بطريقة غير عاقلة. قبض على نهدها باصابعه وقال: "قولي له أنك مستيقظة يا حلوة". انحنى إلى الأمام كما لو كان يريد أن يقبلها، ولكنه أخذ شفتها السفلى بين أسنانه وعضها (..)

اقترب مني وامسك ذراعي. وما زال انتصابه ظاهراً، ووجدت أنه من الصعب أن أبعد عيني عنه. قال متملقاً:

-"لقد أديت لك خدمة اليوم. اسمع، حينما يموت الرجل العجوز، سوف أرث كل ما لديه من مخطوطات. وسوف أسمح لك بأن تأخذ ما تشاء".

-"ذكرني الموقف فجاة بالكولونيل دونيللي، وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن احتمل، قلت:

-"اسمع، إذا كنت تريد أن تنالها، فاذهب وافعل ما تشاء. إنني لن أمنعك، ولكنني لا أريد مشاركتك في هذا. وأنا لا أريد أيضاً أن أحميها".

قلت ذلك بسرعة لأنني استطعت ان ادرك انه كان يرمي إلى إقامة حفل جنسي ثلاثي الأطراف.

-"ألن تنصرف؟"

-"كلا. سوف انتظر".

-"سأترك الباب مفتوحاً". ثم اندفع إلى حجرة النوم، فرأيته يقذف بنفسه فوقها مرة أخرى (...) ذهبت فعثرت على زجاجة من النبيذ في خزانة مشروباته فملئت لنفسي كأساً كبيرة. ولم تترك لي الأصوات القادمة من حجرة النوم مجالاً للشك في أنه كان يستمتع بها. وكانت تتخللها أنات وتعليقات مثل: "أوه، أوو، أيتها العاهرة الصغيرة.." وأخيراً توقفت الأصوات. مضيت في تناول الجبن والزيتون، مع قراءة نسخة من كتاب وايت: "أخوة الصليب الوردي" وجدتها على أحد رفوف الكتب. بدأت أشعر بالنعاس. سوف يكون من الكذب أن أقول انني لم أكن مستثاراً جنسياً إلى حد ما. كانت سلبية الفتاة المطلقة قد أثارت فضولي، وإن ما تشعر به من فضول إزاء فتاة لقريب جداً من الرغبة في أن تخلع لها ملابسها. وإذ جلست على المقعد ذي المسندين الذي كانت تجلس عليه، تذكرت سروالها الداخلي الممزق وأعضاءها التناسلية المكشوفة وتجدد الشبق. كنت جديراً بأن أمارس معها الجنس في ظل ظروف مختلفة. ولكن ما أضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس، ومحاولته لدفعي إلى مشاركته في عملية بدت لي كالاغتصاب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة إلى فندقي، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم، ولم أرفع عيني لأنظر ما يجري. ثم رأيت كليف بيتس واقفاً على بساط صغير عند باب الحجرة، عارياً، حاملاً الفتاة بين ذراعيه مرة أخرى.

-"لقد جئتك بها مرة أخرى".

-"هذا عطف منك، ولكن عليّ أن أرحل".

-"أوه، لا. لا ترحل" ركع على ركبته، ووضعها على البساط المصنوع من جلد حيوان أبيض عند قدمي. كانت هي الأخرى عارية كما ولدتها أمها الآن.. ثم خرج من الحجرة.

انحنيت فوقها ولمست ذراعها. قلت: "أنت مستيقظة؟". لم تصدر عنها حركة، كان صوت المياه الجارية يأتي من الحمام، وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك، حاملاً إناء من البلاستيك الأحمر يتصاعد منه البخار.

-"ماذا تفعل؟"

كان الماء معطراً. أخذ منه إسفنجة استحمام، وعصرها، ثم دعكها بصابونة كبيرة معطرة بعطر الليمون. وبدأ يغسلها بعناية، متجاهلاً ما جرى على البساط من ماء، ثم أخذ منشفة وجففها (...) ثم رفع عينيه نحوي وقال: "هاك هي، لا يمكن أن تكون أنظف من هذا"..

-"إن كل ما تحتاجه الآن هو بعض الثياب النظيفة".

-"أوه، أظن أننا نستطيع أن نرتب ذلك".

نهض واقفاً وقال:

-"هاك هي، إنها ملكك..

استدار وذهب خارجاً من الحجرة، وأغلق وراءه باب حجرة النوم. كان هذا نوعاً من الإغراء، كانت مراقبتي له وهو يلاطفها بالإسفنجة قد جعلتني انتصب. انحنيت فوقها ولمست نهديها. كانا باردين. خطوت فوقها واتجهت إلى خزانة الكتب، ثم خطوت على أطراف أصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبته فانفتح. سمعت صوتاً خافتاً ووجدت كليف بيتس جالساً على الباسط، وقد بدا عليه الانزعاج. قلت: "معذرة. إنما أردت أن آخذ شيئاً أغطيها به". واتجهت إلى الفراش، وأخذت غطاء ثم عدت ثانية إلى الفتة الراقدة على البساط أمام المدفأة. وبينما كنت أغطيها ظننت أنني رأيت ابتسامة على شفتيها.

سمعت صرير قفازات السرير في الحجرة الأخرى. جلست وفتحت كتاب وايت على فصل "الصليب الوردي". ثم غلبني النعاس ولابد أنني نعست فعلاً. استيقظت حينما انزلق الكتاب من فوق ركبتي. نظرت إلى الساعة، كانت في الثانية والنصف. فجأة، جلست فلورنس، ونظرت إلى الغطاء الذي غطيتها به.

-"كان هذا شيئاً لطيفاً منك".

-"عفواً". وكنا كلانا نتحدث بصوت منخفض.

قالت، "حسنا، اظن ان من الأفضل لي ان ارحل".

-"بهذا الشكل؟"

-"كلا".

عبرت الحجرة واتجهت إلى صندوق اثري مليء بالأدراج في احد الأركان، وجذبت احد الأدراج ففتحته. بدات في إلقاء الملابس الداخلية على الأرض. فتحت الدرج الأخير، واخرجت زوجاً من الأحذية.

قلت، "لقد جئت إلى هنا من قبل؟"

"آخذ حماماً مرة واحدة في الأسبوع، في المتوسط".

ودون ان يبدو عليها الحرج ارتدت مشداً ذا حزام، وقد بدا هذه المرة جديداً ومن طراز حديث. ثم ارتدت جوربين. ارتدت بعد ذلك سروالاً داخلياً، ثم حمالة صدر، طلبت مني ان اربط خطافها. زحفت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخلياً، ولكن لم يكن هناك شك في هذه المرة في ان كليف بيتس كان غارقاً في نوم عميق. كانت فلورنس قد ارتدت قميصاً داخلياً دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي، وقد بدا غالي الثمن لعيني غير الخبيرتين. ذهبت إلى خزانة قريبة من الباب واخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الخزانة، اتضح انها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالليمون مكونة من قطعتين. اتجهت إلى المرآة المعلقة فوق المدفأة ومشطت شعرها بفرشاة اخذتها من الدرج. كان شعرها في ذلك الوقت جافاً، وبعد ان مشطته بدا اللون الأحمر الذهبي نفسه الذي رايته في مكان آخر. زينت وجهها بضربات قليلة من احمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقطيفة صغيرة على صدغيها. حينما التفتت إلي لم اكد اتعرف عليها. كانت ما تزال تبدو صغيرة السن، ولكن كان يمكنني الآن ان اقدر عمرها بعشرين عاماً. كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معتادة عليها.

-"مستعد؟"

""إيه .. أجل".

من خزانة البهو اخرجت معطفاً كان متناسباً تماماً مع الحلة، ومظلة من نفس اللون.

واخيراً وضعت قبعة حمراء صغيرة على راسها. اطفات المدفأة الكهربائية، ثم اطفات النور، وخرجنا، واغلقنا الباب وراءنا بهدوء.

سالتها، "اين تقيمين"؟

-"اوه، لن اعود الآن إلى البيت، انت تقيم في شيلبورن؟"

"أجل".

-"ساعود معك إلى هناك لأرى ان كانت لديهم حجرة لي. لا يمكن ان اتحمل مشقة الخروج إلى مالاهايد".

كانت لهجتها ما تزال لندنية بوضوح، ولكنها لم تعد لهجة الكوكني (سوقة لندن). كان المطر قد توقف، فسرنا في الشوارع الخالية. سالتها ان كانت تعرف جد كليف بيتس.

-"اوه، أجل. إنه كان يعيش في مالاهايد. وهناك قابلت كليف. والوالد العجوز لا يقل عنه سوءاً".

-"باي شكل؟"

-إنه يحبهن صغيرات. كان من عادته ان يناوشني حينما كنت في العاشرة".

بدت راغبة تماماً في الحديث، وتكلمت بطريق تلقائية، واحياناً بطريقة تشبه اسلوب رجال الأعمال، وليست كمن تبوح بدخيلتها او تكشف عما بنفسها. كان كليف قد اغواها عندما كانت في الثانية عشرة - حيث كان قد عرض عليها ان يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة غالية ان هي جاءت إلى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها من المدرسة لعدة ايام. كانت ابنة غير شرعية لامراة تعمل سائقة سيارة عامة، وكانت ترتدي ثياباً

سيئة ولا تتناول ما يكفي من الطعام. كان من الواضح تماماً - رغم أنها لم تصرح بذلك بوضوح - أن ما جلب كليف إليها هو أنفها السائب وثيابها المزقة. كان فقدها لعذريتها صدمة مؤلمة. وان كليف يعاملها معاملة طيبة جداً. فلاطفها وهداها، وجعلها تشعر بالثقة والأمان. وذات يوم، بعد أن خلع ثيابها بعناية ودلكها بزيت الزيتون، انقض عليها بكل قوته وأزال بكارتها بضربة واحدة عنيفة. صرخت وبكت لمدة نصف ساعة، حتى خرج من المنزل واشترى لها الدراجة التي كانت تريدها منذ وقت طويل. واستمرت مواعيد لقائها معه في حجرته، وسرعان ما اشترك معهما الرجل العجوز، كانا يدفعنا لها نقوداً كثيراً، وتحدث الرجل العجوز مع أمها عن تبنيه لها. كانت الأم تعرف ما يجري بالطبع، ولكن النقود كانت أكثر من أن ترفض.

كان اعتراض كليف الوحيد هو أنها تنفق على الملابس أكثر مما ينبغي. كان جزءاً من خياله الجذاب أنها يجب أن تظل مشردة مهلهلة الثياب. وكان قد اعتاد أن يتسكع أمام محلات الثياب المستعملة لكي يشتري لها ثياباً مهلهلة قذرة. وكانت هذه الثياب تصلها بالبريد، مع بطاقة صغيرة يخبرها فيها أين ستقابله، وفي أي وقت. كان عليه أن يمثل دور من يلتقط فتاة من الشارع، وكان عليها أن تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل أبداً. وكلما كان في مقدوره، كان يأتي معه بشخص آخر، ثم يقوم بتمثيل مشهد الاغتصاب العجيب الذي شاهدته بنفسي. سألتها إن كان أصدقاؤه قد قبلوا أن يمتلكوها بناء على دعوته بينما تكون هي غائبة عن الوعي بشكل واضح. قالت:

-"أوه، أجل إنك الثاني - الذي يرفض ذلك".

-"فماذا يحدث حينذاك؟"

"-لا شك أنك ستدهش تماماً عندما أقول لك بأنهم أحياناً كانت تبلغ بهم الاستثارة حداً كبيراً حتى أنهم يستمرون في تبادل الفرجة طوال الليل. فإذا كنت سعيدة الحظ، انشغل الرجلان أحدهما بالآخر وتركاني وشأني".

-"إذن فإن كليف شاذ جنسياً؟"

-"أوه، إنه كل شيء".

لاح لي أن كاتب الفندق كان يعرفها. أخذت منه المفتاح، وصعدنا إلى الطابق العلوي معاً. وفي الطابق الثاني، حيث كان يجب أن نفترق، قالت: "هل آتي إليك وأتحدث معك؟" عرفت ما كانت تعنيه قلت:

-"أظن أن عليك أن تنالي قسطاً من النوم، لقد قضيت ليلة متعبة".

ابتسمت في وجهي وقال:

-"إنك لطيف. لن يهمني التعب."

وقفت على أطراف أصابعها وأحاطت عنقي بذراعيها. قبلتها وشعرت بنبضة شبق مفاجئة.

قالت: "ليلة سعيدة". ثم سارت مبتعدة في الدهليز. كبحت رغبتي في متابعها، وذهبت إلى حجرتي. وقبل أن أدخل الفراش، تناولت ستة أقراص من فيتامين "ب" وشربت كأساً من الماء. ولكن هذا لم يؤد إلى النتيجة المرجوة. استيقظت في الصباح بفم جاف ورأس يدق ويلف كالمحرك أو مولد الكهرباء.

قدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالزبد جعلتني أشعر بمزيد من الإنسانية. جلست في الفراش، أقرأ صحيفة الصباح، وأتساءل إن كانت الرحلة إلى قلعة مالاهايد يمكن أن تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وطاقة. ولكن الإغراء كان أقوى بأن أضع الورقة التي كتب عليها "لا تزعجني" على باب حجرتي من الخارج ثم أنام ما تبقى من ساعات الصباح. دق جرس التليفون، فكان مثل محراث دائري يغوص في تربة تركيزي الهشة. تساءلت بيني وبين نفسي وأنا أرفع السماعة إن كان المتكلم هو كليف بيتس. وشعرت بإغراء يدفعني إلى وضع السماعة في مكانها دون أن أجيب. دق الجرس ثانية، فرفع السماعة. سمعت صوت رجل يقول:

-"مستر سورم؟"

-"أنه يتكلم".

-"أنا الستير جليني. هل كتبت إلي رسالة؟".

قلت: "يا رحمة السماء. كيف حالك؟ جميل منك أن تطلبني".

-"أخبرتني زوجتك بأنك تنزل في فندق شيلبورن. اسمع، ما الفرص المتاحة لقدومك إلى لندن؟"

-"هذا ممكن. ما الذي تفكر فيه؟"

-"هذا شيء أطول من أن شرحه في التليفون، ولكنني مسحور اللب تماماً بكل هذه الحكاية عن دونيللي. وأن لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك. هل تعرف أن قصر جلوسبي قد بيع؟"

-"كلا. لم أعرف بذلك".

-"أخشى أن يكون هذا هو ما حدث، منذ عامين. لقد تنبأوا بخطابك. كان أخي الأكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب. واكتشفنا أن أوضاعنا أكثر تعقيداً مما كنا نظن - ضرائب التركات وما إلى ذلك - مع أننا قررنا أن نبيع قصر جلوسبي. اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر. أعرف أن هناك أدراجاً ضخمة مليئة بالأوراق. وهي ما تزال ملكي بالطبع".

-"هل حاولت الاقتراب منها؟"

-"أوه، أجل. هذا الرجل ميللر، شخص لطيف تماماً. لو استطعت المجيء إلى لندن لأمكننا أن نذهب معاً إلى هناك".

فكرت بسرعة ثم قلت:

-"متى ستكون خالياً من العمل؟"

-"أي وقت. إنني لا أعمل الآن".

-"لو أنني أخذت طائرة إلى لندن اليوم، هل ستكون خالياً؟"

-"أوه، أجل، بالتأكيد. سأسعد لرؤيتك".

أخذت رقم تليفونه، وقلت له أنني سأتصل به ثانية، وأنهيت المكالمة. اتصلت أولاً بالمطار فعرفت أن طائرة من شركة "إير لينجوس" ستطير إلى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، وأن علي أن أكون في المطار قبل ذلك بثلث ساعة لكي أحصل على تذكرتي، فأكدت لهم أنني حجزت التذكرة لنفسي، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعدوا قائمة حسابي. اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم أجد غير موبسي التي كانت في رعاية المرأة التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها. قلت لها أن تقول لأمها أنني سأسافر إلى لندن وإنني سأتصل بها فيما بعد. ثم اتصلت بالستير جليني مرة أخرى، وقلت له أنني سأكون في مطار هيثرو في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. كنت في عجلة من أمري، وراح رأسي يدق محذراً، ولكنني اتخذت موقفي النهائي، وصعدت إلى الطائرة قبل خمس دقائق من إقلاعها، أخذتني سكرة النعاس قليلاً خلال الرحلة، فنمت وعندما صحوت وجدت الطيار يعلن هبوطنا.

في مبنى المطار أعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي أن أذهب إلى مكتب شركة "إير لينجوس" للطيران. ذهبت إلى هناك، فوجدت في انتظاري شاباً طويلاً أشقر الشعر.

-"مستر سورم؟ أنا ألستير جليني".

كان أصغر سناً مما توقعت - لا يكاد يكون قد أنهى عقده الثاني. كان شعره طويلاً، وكان بنطاله "البلوجينز" وسترته المصنوعة من جلد الحمار أبعد ما كنت أتوقع أن أجده عليها، وإن كان في نطاق هذا العمل. كان وسيم الطلعة إلى أقصى حد، وإن كان شعره أقصر قليلاً لاستطاع أن يجمع ثروة إذا ما كان قد عمل "موديلاً" للرجال".

قلت أنه لطيف منه أن يقابلني. فقال:

-"عفواً. لو أنك لم تأت إلى لندن، لجئت أنا إلى إيرلندا".

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز "ميني مايستور". في الطريق إلى حيث يأخذني مضيفي، سرد علي بالتفصيل ما كان قد أخبرني به في التليفون. كان أخوه غوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره، بعد عام واحد من زواجه. وكانا آخر من تبقى من عائلة جليني، وأصبح قصر جلوسبي ملكية مشتركة بين ألستير

وبين زوجة شقيقه، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت اندروز. وكانت الضرائب المفروض على التركة ثقيلة، وحينما تمت عملية تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له إلا القليل بالإضافة إلى قصر جلوسبي (رغم ان الستير كان له دخل مستقل ورثه عن جدته لأمه). كان قصر جلوسبي نادراً مثل فيل ابيض، ولكنه ايضاً كان متهالكاً فقد اكد لهم الوكيل انه لم يكن يساوي متاعب بيعه، وان الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع. ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة اخيه ان يبيعاه. وفي خلال اسابيع قليلة تسلما عرضاً كبيراً إلى درجة لا تصدق من رجل أعمال كندي كان يريد "قلعة اسكتلندية" لكي يستخدمها كمقر له في إجازاته. ابرما الصفقة بسرعة، وقرر الستير ان هذا هو الوقت المناسب لتحقيق امله في تكوين فرقة للغناء "البوب" فانتقل إلى لندن. ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق، فاصبح يعيش بهدوء في هولانداراك ويدرس فن التصوير على امل ان يصبح مصوراً صحفياً.

سالته كيف أصبح مهتماً بدونيللي.

-"أظن انه من الأفضل ان اترك انجيلا لكي تشرح ذلك. إنها زوجة شقيقي غوردون. وهي تنتظرنا في الشقة.

يجب علي ان اعترف بانني شعرت بنوع من خيبة الأمل. كان الستير جليني شاباً لطيفاً يبعث على البهجة بشكل واضح، غير انه كان من الصعب ان يبدو في صورة تتلاءم وبحثي عن دونيللي. ولكنني ظننت انه من الممكن ان تكون لمسة ساخرة في مقدمتي لكتاب "مذكرات افاق إيرلندي" إذا انا ذكرت ان لورد جليني الحالي مغني "بوب" فاشل وانه يطمح في الدخول إلى عالم الصحافة. ولاح انه - على الأقل - مهتم بتاريخ اسرته، فقد لخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر، وكيف حدث ان تزوج اللورد اسكندر جليني - جده - وارثة امريكية في عام ١٩٠١. فاستعاد بذلك ثروة الأسرة. ولكن والده عاد بهم إلى الفقر بإقامته في لندن واتخاذه نصف "دستة" من العشيقات.

وصلنا إلى شقته في حوالي الثالثة والنصف. كان عصراً ناعماً ذهبياً، واجتاحني فجاة إحساس بالرخاء وسعادة الحظ وانا اقف على رصيف الشارع في "هولانديموز" اراقبه وهو يغلق السيارة. كانت فتاة تقف في النافذة وتنظر الينا، وتلوح لنا. فقال لي: "هذه هي انجيلا".

كانت انجيلا جليني "اسكتلندية" جداً بشكل ما، نحيفة، جميلة، حيوية، ذات شعر متموج في تجعدات صغيرة ووجه محدودب قليلاً. كانت ترتدي ثوباً صوفياً كان ان يبلغ ركبتيها، وبنطالاً من التيل.

-"اتود شرب الشاي؟ ام مشروباً آخر".

قلت إنني افضل الشاي في هذه الساعة، فذهبنا معاً إلى المطبخ ورحت انظر إلى الكتب على الرفوف وإلى الصور المعلقة على الجدران. كان من الواضح ان الستير قد جاء بكل تلك الكتب من غوردون. فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعاتها الأصلية، ولعدد كبير اخر من الكتاب الإسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل. كانت ظهور الأغلفة الخلفية للكتب تحمل اسم هوراس جليني، ولكن التواريخ المصاحبة للاسم دلتني على ان هذا لابد ان يكون هوراس الابن، منفذ وصية دونيللي.

في ركن رف الكتب رايت كتاباً يحمل اسم "خطابات من احد الجبال" تاليف ريغنالد سميتسون. لم يكن على الصفحة الأولى اسم الناشر ولا تاريخ نشره، ولكن احدهم كتب تاريخ "١٧٨٠" على ورقة ملصقة بالغلاف. كان هناك رسم على الصفحة الأولى - يمثل جبلاً تعلوه شجرة جرداء وظبياً طويل القرنين. شعرت فجاة بان فيه شيئاً مالوفاً لي بصورة غريبة. احسست فجاة بالدوار، وجلست، واغمضت عيني. بدا لي ان صداعي ما زال مستمراً. حينما اغمضت عيني أصبح الدوار عنيفاً كما لو أنني سقطت في دوامة، ففتحت عيني ثانية ونظرت إلى الكتاب. وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث. كنت "قد اصبحت" ايزموند مرة اخرى. ولكنني في هذه المرة لم اكن ارى العالم بعينيه. وإنما كان الأمر كما لو كنا نقتسم راسي. فنرى الأشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين. ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مالوفاً لدي. كنت قد رايته من قبل، فاثار لدي إحساساً بالنفور. كان شيء منفر غير سار مرتبطاً به.

نظرت في الكتاب، وإلى ما وراءه شاعراً بصدمة مفاجئة. فتح الباب، ودخل منه هوراس جليني حاملاً صينية. نظر إلي وقال:

-"انت بخير؟

اختفت الرؤية المزدوجة، وتعرفت إلى المتكلم وكان الستير جليني. قلت:

-"أجل. إنني أعاني من صداع خفيف. هذا كل شيء".

نظر إلى الكتاب على حجري:

-"أوه، أتعرف ذلك الكتاب؟"

-"كلا".

دخلت انجيلا، فقال:

-"أليس هذا مدهشاً يا انجي؟ لقد عثر على كتاب "خطابات من أحد الجبال" ألا يثبت هذا شيئاً ما؟

كانا قد أعدا بعض الشطائر، فتبينت أنني كنت جائعاً. وبينما كنت أتناول الشطائر واحدة بعد الأخرى، اختفت آخر آثار الدمار. كنت قد أصبحت "نفسي" تماماً هذه المرة. واكتمل العلاج بثلاثة أقداح من الشاي الساخن. وفي أثناء الأكل سألتني عن السبب الحقيقي وراء اهتمامهم بأيزموند دونيللي. فبعد موت زوجها، قررت انجيلا أن تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج، فأدرجت اسمها في جامعة أدنبرة، وكان أستاذها هو البروفيسور ديفيد سميللي، كاتب ترجمة جيس هوج. وحينما اكتشف سميللي أن انجيلا هي لادي جليني، سر وثارت حميته العلمية. كان يكتب تاريخاً عن مجلة "أدنبرة ريفيو" وكان جليني واحداً من كتابها الأصليين، ولكنه كان قد أبعد عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت، وهو رجل كانت سمته المميزة الأساسية هي الحقد والضغينة. كانت حدة اللهجة سبباً في أن حققت مجلة "الريفيو" نجاحاً فورياً منذ صدور عددها الأول في شهر يونيو عام ١٧٧٣؛ وكان جليني قد كتب في العدد مقالاً نقدياً ممتازاً عن لورد مومبودو، كما كتب عرضاً فيه شيء من الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري، وهو واحد من أكثر الكتاب الإسكتلنديين نجاحاً في ذلك الوقت. وأخيراً، وبشكل واضح، بدأ جليني يشعر - مثل عدد كبير آخر من الناس، بأن كل هذه المرارة والسخرية لم تكن لتبلغ أي هدف، فكتب إلى ستيوارت خطاباً طويلاً - في أكتوبر ١٧٧٣ - موضحاً إحساسه بأن على مجلة "ريفيو" أن تهدف إلى أن تكون أكثر قوة وبناءً، وأنه لا شك في أن كلاً من هنري، وروبرتسون وبلاير يتمتعون بقيمة حقيقية، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذين حقر من شأنهم على صفحاتها. وكتب ستيوارت رداً ودياً ومعقولاً، ولكن يبدو

أنه شك في ذلك الوقت من أن جليني قد وقع تحت تأثير هنري أو بلاير، فكتب خطاباً ثانياً وصف فيه جليني بأنه "كلب حراسة كهنوتي". (وكان هنري (كاهناً) مسيحياً).

ويمكن أن يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب إيزاك ديزرائيلي "خصومات المؤلفين ومعاركهم". وفي شهر نوفمبر، نشرت مجلة "سكوتس مكازين" وهي مجلة منافسة، دفاعاً قوياً وذكياً عن هنري وروبرتسون، اختتم بهجوم ماهر مميت ضد ستيوارت؛ ويقتطف ديزرائيلي هذا الدفاع كله. وعلى صفحات مجلة "ريفيو" أكد ستيوارت أن كاتب الهجوم - الذي وقع بحروف "م د" - كان هوراس جليني. وأجاب جليني بخطاب على الفور، يقول فيه لستيوارت أنه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم، فإن كاتبه الحقيقي كان صديق أيزموند دونيللي. وكانت نتيجة هذا الخطاب نقداً عنيفاً لكتاب دونيللي "ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا" في عدد فبراير من مجلة ستيوارت. ويقول ديزرائيلي أن جليني أراد أن يتحدى ستيوارت بما يمتلكه من أدوات، ولكن دونيللي منعه من ذلك وثبط من عزمه.

استمرت المعركة، حتى بعد أن انهارت مجلة ستيوارت. ذهب ستيوارت إلى لندن، وساهم بانتظام في الكتابة لمجلة "جنتلمان مكازين". وفي هذه المجلة، وفي يونيو عام ١٧٨١ تحديداً، حدث أن ظهر عرض قصير وإن كان فيه شيء من سوء النية المقصود لكتاب "خطابات من أحد الجبال" وصف فيه الكتاب بأنه: "أبخرة عقل مختل بسبب الشهوات المريضة والحماس الهوائي. وفي العدد التالي من المجلة، أعلن أن مؤلف كتاب "خطابات من أحل الجبال" كان في الحقيقة هوراس جليني.

مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات، في سن الرابعة والأربعين، مليئاً بالمرارة، يمور صدره بالكراهية، مقتنعاً بأن أعداءه قد تآمروا لكي يحطموه.

كانت هذه هي القصة التي سردتها عليّ انجيلا جليني. وكان من الممكن أن تثيرني أكثر مما فعلت بالفعل، لو أنني كنت أقل تعباً. في كل مرة ذكرت فيها اسم هوراس جليني، كنت أنظر إلى السير جليني، وأتعجب إن كان حقاً يشبه جده كل هذا الشبه الذي خيل إلي. فإذا تحققت من ذلك، لحصلت على برهان يثبت أنني كنت على اتصال نفسي (أو روحي) بأيزموند. وحينما انتهت من حكايتها، سألت إن كان هناك صورة لهوراس جليني في جلوسبي.

-"أوه، أجل".

-"كيف يبدو؟"

نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا. قالت أنجيلا:

-"إنه يشبه الستير إلى حد مذهل. وهذا هو السبب الذي يجعله مهتماً به إلى هذه الدرجة!"

وبذلك لم يكن هناك أي احتمال للشك. وبدلاً من أن أحس بالاستثارة لهذا الكشف، شعرت بالانقباض.

التقطت كتاب "خطابات من أحد الجبال" وقلت:

-"ما موضوع هذا الكتاب؟"

-"أوه، إنه عمل معقد متشابك. يظن دكتور سميللي أنه متأثر بكتاب "المواطن العالمي" الذي كتبه غولد سميث. إنه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات القوطية - أقرب شبهاً برواية "قلعة أوترانتو" التي كتبها والبول. إنه كتاب مدهش حقاً بالنسبة لعصره - حينما تضع في اعتبارك أن مسز رادكليف وماتيورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد".

-"أيمكنك أن تسردي علي ملخصاً لقصة الكتاب؟"

-"القصة تدور حول صديقين اسم الأول كونراد والآخر رودلفو. إنهما يشبهان داود وجوناثان في الكتاب المقدس. حينما يقعان في حب نفس الفتاة، يحاول كل منهما إقناعها بأن تقبل الآخر. يذهبان إلى الجامعة معاً ويقسمان على الصداقة الأبدية وأخوة الدم - أنت تعرف مثل هذه الشاعر - . وذات يوم، بينما كان ردولفو واقفاً في إحدى المكتبات، يقترب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح، يعرض عليه أن يقرأ له طالعه. يقول له أن من المقدر له أن يكون واحداً من حكام العالم، ثم يدعوه للمجيء إلى بيته. ويذهب رودلفو - رغم تحذيرات كونراد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض أنها ابنة عبدالله صباح..."

عند هذا، قاطعها الستير قائلاً: "من المؤكد أنه لا يريد أن يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب".

أكدت له أنني أريد هذا. استمرت أنجيلا في سردها بشرك المراكشي رودلفو في احتفالات طقوس سحرية تتضمن كرة من البلور. يقفان في أثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر المكتمل وينظر رودلفو إلى الكرة البلورية. يرى فيها ثعباناً ضخماً ينظر إليه بعينيه الصفراوين، ثم يبدو أنه ينقض عليه. وتنقذ نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج، ومن ثم تصبح عشيقته وتعده بأنها ستتزوجه إذا وافقت أسرته على ذلك. وتعترف له بأن عبدالله ليس والدها، وأن العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو إلى جمعية سرية فرعية تخطط لتدمير أوروبا.

وفي اليوم التالي يكتشف أن نوري و"أباها" قد رحلا. يمتلكه اليأس ويبحث عنهما في كل مكان. وذات يوم، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالاً لثعبان ضخم مصبوب من البرونز فيشتريه بعدد قليل من الكرونات. ثم يكتب كتاباً في أدب الرحلات، يصف فيه الأماكن التي زارها في أثناء بحثه عن نوري، ويطبع على الغلاف صورة الثعبان. وبعد بضعة أسابيع يتلقى رودلفو مظروفاً مغلقاً يحتوي على رسم للثعبان، وأمر بأن يحرق كل نسخ كتابه. وينفذ رودلفو الأمر بأن يشعل النار في مخزن ناشره في لندن، ويموت عدد من الناس في الحريق، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة. وحينما يتم ذلك، يتصل به المراكشي مرة أخرى، فيصبح في مقدوره أن يرى حبيبته وسيدة أحلامه. وبذلك يصبح عضواً كاملاً في الجمعية الشريرة المعروفة باسم "أمر الثعبان". ويشعر أعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيراً سيئاً أو بالأحرى طيباً - عليه، فيأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض فيقتلونها. ولما كان رودلفو قد أصبح *خاضعاً تماماً* لأوامر الثعبان فإنه يقبل بدلاً منها عشيقة جديدة تدعى فاتيما، وهي الأخرى ساحرة...

قد يكون من الملل أن نلخص بقية القصة المضطربة والميلودرامية. ولا يمكن أن يكون ثمة شك في أنها تدين بالكثير لرواية "قلعة أوترانتو" وأنها بدورها قد أثرت في كتابات مسز رادكليف وماتيورين. إن رودلفوا يقع فريسة الإغراء بالقيام بأعمال أكثر شراً باستمرار، على الرغم من محاولات كونراد إنقاذ حياته. وأخيراً يؤمر بأن يقتل كونراد، ولكن هذا كان أكثر مما يحتمل. إن الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود بجوناثان قوية إلى درجة كبيرة رغم تعاقب السنين. وفي اللحظة الأخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعانق هو وكونراد. ويمتلك اليأس رودلفو بسبب أعماله الشريرة، فيقرران الذهاب إلى جبل أثوس

لكي يطلبا المغفرة. وفي المرحلة الأخيرة من رحلتهما، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري الميتة، فيمشي في أثر الصوت الذي سمعه، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة. وحينما يعثر على جثته، يكون الوجه قد تشوه تشوهات فظيعة حتى أن رهبان جبل آتوس رفضوا دفنه في أرضهم المقدسة، معلنين أنه من الواضح أن هذه جثة شيطان. ويقوم كونراد بنفسه بدفنه في وسط منطقة جرداء، ثم يذهب إلى جبل آتوس، حيث يكتب قصته على شكل خطابات إلى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعترافاته.

بينما كانت انجيلا جليني تلخص حبكة الرواية، اختفى ما كنت أشعر به من لتعب. عرفت في تلك اللحظة أن بحثي عن دونيللي قد دخل مرحلة حجرة. إن أكثر أجزاء لغز الخطوط المتشابكة أهمية قد كشف عن مكانه الصحيح. كنت أعرف أن ايزموند كان قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه "ملاحظات" عام ١٧٧١ بوقت قصير، وكنت أعرف أن الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق أتى على مخزن الناشر في لندن. والآن كان من المستحيل أن أشك في أن ايزموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٧١. إلا أنه في ذات الوقت، لا يمكن النظر إلى بقية القصة بجدية. فإن ايزموند لم يشترك في أية خطط شريرة بعد ذلك التاريخ. وظل هو وجليني على صلة ودية وثيقة بعد ذلك طوال سنوات، والمقالة المنشورة في مجلة "سكوتس مكازين" في عام ١٧٧٤، قد كشفت عن أنه كان ما يزال قارئاً مخلصاً لكتب الصلوات. ولم يحدث أن كتب جليني رواية "خطابات من أحد الجبال" إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

إنني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من الستير وانجيلا جليني. ولذلك، فقد كان من الواضح أنني أدين لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة. وهكذا، فعندما سألتني انجيلا: "والآن، ما الذي اكتشفته عن ايزموند دونيللي؟" اقترحت أن تشرب كأساً من الويسكي، ثم سردت عليهما القصة الكاملة، بالصورة التي كتبتها بها هنا، استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات، وانتهيت منها في مطعم في نوتينج هيل ونحن نتناول طعام العشاء. كنت أحمل معي مذكرات ايزموند، بالإضافة إلى خطابات جليني، كنت سعيداً بهما لأنه كانت هناك أوقات لاح لي الأمر كله سخيفاً لدرجة أنه كان من بواعث الراحة أن أقنع نفسي بأنه لم يكن حلماً متشابك الأطراف انتابني وأنا غارق في النوم. أصغت انجيلا دون أن تنبس ببنت شفة، ولم تصرف عينيها عن وجهي طول الوقت. وظل الستير يردد، "يا إلهي" وهو يتمشى في

الغرفة جيئة وذهاباً. وبينما كنا نسير متجهين إلى المطعم، قال: "هل تعرف أن هذا هو أكبر اكتشاف أدبي منذ اكتشاف أوراق البحر الميت؟"، وكان فكاهياً فقد شرعت أنا وانجيلا على الفور في الضحك.

ولكنهما لم يثارا حقاً إلا حينما أخبرتهما بأن ايزموند كان قد أعيد إليه هوراس جليني منفذاً لوصيته الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي. كانا يأملان في العثور على بعض ما تركه جليني من مواد في جلوسبي فأصبح من الممكن الآن أن يعثر أيضاً على بعض من أوراق ايزموند هناك. وأشارت انجيلا إلى أنه من الممكن أن يعتبر الستير منفذاً لوصية ايزموند الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي طالما أنه حفيد مباشر لهوراس جليني الابن، ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من أسرة استون. وهذا يعني أنه إذا نشر المزيد من أوراق ايزموند فإن الستير وانجيلا يمكن أن يشتركا في الأرباح. وكنت قد حصلت بالفعل على أكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب "مذكرات آفاق ايرلندي".

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن ايزموند وهوراس جليني. وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادراً من أن أحداً منهما لم يهتم بحياة جليني قبل بيع قصر جلوسبي. وتذكرت انجيلا أن زوجها كان قد أطلعها على حجرة في قصر جلوسبي حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - إذ عثر على رجل ميتاً في ظروف غامضة. وظن الستير أنه يتذكر شيئاً من هذا النوع هو الآخر. ولكنها حين وصفت الحجرة، لم تكن هي التي تذكرها الستير باعتبارها "حجرة القتل".

نمت ليلتي على أريكة في حجرة الجلوس، كانت انجيلا تحتل السرير الموجود في حجرة الضيوف. وكان الستير يريد أن يرحل إلى اسكتلندا في صباح اليوم التالي، ولكن انجيلا قالت أنه ما يزال عليها أن تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف. وقررت أنا أنه من المناسب لي أن أذهب معها. قضيت الصباح هناك، وعثرت على نسخة من نشرة "مارتل وسميثسون" التي كتباها عن جماعة العنقاء. شعر تيم موريسون بالحرج حينما أشرت له إليها، وقال أنه لم يلتفت إليها في بحثه لأن عنوانها كان "جمعية العنقاء". ولكن أقارن بينها وبين النسخة التي رأيتها معه من قبل، طلبت منه أن يصورها لي لكي أحمل الصورة معي.

تناولت أنا وانجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سيرك كامبريدج. قلت لها فجأة أنه كان عطفاً من جانبهم أن يثقوا بي كل هذه الثقة. فنحن على أي حال،

متنافسون من الناحية التكنيكية. فقد كان من المحتمل أن يقوما - عاجلاً أو آجلاً - والأكثر احتمالاً أن يكون ذلك عاجلاً - بالبحث عن أوراق جلبتي في قصر جلوسبي، وأن الاكتشاف في تلك الحالة - إذا افترضنا أنهما حققا أي نوع من الاكتشافات - كان سيعزى إليهما بشكل كامل. قالت:

-"كلا. إني سعيدة بانضمامك إلينا. إننا نثق بك".

قلت لها شكراً لك. قالت:

-"في الحقيقة، إنني مبتهجة لمجيئك. أتعرف أن الستير كان يعبد أخاه غوردون. وكان الستير هو الذي أقنعني بالزواج من غوردون في الحقيقة. كان مصراً على التحدث عن فضائله والإسراف في إبرازها لكي يقنعني بأن ألتقي به.

وينبغي أن تعرف أنني كنت صديقة الستير في البداية".

-"ألم يجرحه زواجك من غوردون"؟

-"أوه، كلا. لقد ابتهج بذلك. أتفهم ذلك؟ هذا الزواج قربه من غوردون أكثر - كان معنى هذا أنه قد منح لغوردون شيئاً ذا أهمية حقيقية. على أي حال، إنما أردت أن أقول لك في البداية أنني أظن أنه مال إلى أن ينظر إليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها إلى غوردون".

-"ولكنه لم يعرفني إلا منذ أربع وعشرين ساعة".

-"لا يؤدي هذا إلى أي فرق. والشيء الغريب هو أنك على شيء من التشابه مع غوردون، من الناحية الجسدية".

توقفت عن الكلام، وظننت أن وجهها علاه شيء من الاحمرار. شربت جرعة كبيرة من الجعة المعتقة لكي تغطي احمرار وجهها. أدركت ما كانت تفكر فيه، وهو أنه إذا كان الستير قد أهداها إلى غوردون، فإنني يجب أن أعتبر صاحب المكان التالي من بعده. غيرنا الموضوع وتحدثنا عن دونيللي. وحينذاك تذكرت شيئاً كنت قد نسيت ذكره من قبل،

الخطاب الذي جاءني من كلاوس دنكمان. كنت أحمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة العناوين التي أحملها. قالت:

-"لماذا لا تتصل به؟ قد يكون على شيء من الأهمية"؟

-"أعتقد أنه يجب علي ذلك".

ذهبت إلى تليفون المطعم. أجابتني امرأة ذات لكنة أجنبية، ولاح على صوتها شيء من العداء حتى ذكرت لها اسمي، فأصبحت ودية للغاية. وقدمت نفسها باسم أناليزا دنكمان، وشرعت تتحدث بإسهاب عن كتبي. وأخيراً جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون؟ سألني إن كان بوسعي أن أزورهما وأتناول معهما طعام الغداء. قلت أنني سآتي إليهما في الموعد المحدد ولكنني سألت إن كان بوسعي أن أذهب في وقت متأخر من عصر اليوم، فاتفقنا على موعد في الساعة الرابعة.

لم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا التطور، وبدا لي أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسدود. ولكن أنجيلا قالت. "جيد جداً، إنه يبدو على شيء من الأهمية. أيزعجك أن آتي معك؟".

أمضينا ساعة أخرى في المتحف، ولما كان عصر اليوم دافئاً ومشمساً فقد قررنا أن نتمشى حتى هامبستيد. سرنا عبر حدائق بلو مزبري على طول كامدن تاون، ثم أخذنا سيارة عامة إلى بلزي بارك. كان عنوان أسرة دنكمان في كيتس جروف.

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سميكة جداً جعلت عينيه تبدوان بعيدتين وغريبتين، مثل أخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير. بدت عليه دهشة ضئيلة حينما رأى أنجيلا، دعانا للدخول بطريقة مهذبة. تبعناه عبر ممر طويل حتى قاعة عمل (استديو) تسطع بنور الشمس. كانت الأرضية مغطاة بتراب الأحجار المنحوتة، وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء أمازونيات ذوات أثداء وأرداف هائلة. تقدمت إلينا لتحيتنا امرأة ضخمة الحجم رمادية الشعر بعد أن وضعت على المائدة مطرقتها وأزميلها. صافحتني بحماسة بقبضة مثل قبضة مصارع، وأومأت في لا مبالاة ميكانيكية إلى أنجيلا. كانت أقل طولاً من زوجها، إلا أنها كانت تملك بنية مصارع حقيقي، وبدا أن ذراعيها المكشوفتين تحت الكمين المشمرين إلى ما فوق المرفقين - قادرتان على الإطاحة بأي واحد منا

بضربة واحدة. كانت لكنتها الألمانية أوضح من لكنة زوجها، ولكنني لن أحاول إبرازها هنا، ولن أحاول إبراز تكوينات جملها الغريبة. وضعت يداً على كتفي وقالت:

-"حسناً، لقد كنت أنتظر نافذة الصبر تماماً. فمنذ أن قرأت كتابك "اليوميات الجنسية" أردت أن أقابلك. هل لك أن تأتي معي قليلاً إلى حجرتي الصغيرة الخاصة". ثم التفتت إلى أنجيلا وابتسمت وقالت: أتسمحين؟ أريد أن أتحدث إليه على انفراد. كلاوس سيفرجك على الحديقة".

كانت دهشة أنجيلا أقوى من أن تسمح لها بالاعتراض. أما السيدة دنكمان فقد جذبت ذراعي بقبضة من حديد، ودفعتني لصعود بضع درجات. التقت عيناي بعيني أنجيلا للحظة، فرفعت حاجبيها وعضت على شفتها السفلى.

قادتني آنا - اسمها الأول الذي أصرت علي أن أدعوها به على الفور - إلى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ. في الخزانة الجانبية المفتوحة. كانت هناك ثلاث زجاجات سعة كل منها "غالون" تحتوي بالتتالي على مشروبات الجن والويسكي والبراندي. عرضت علي أن آخذ كأساً، ولكنني قلت أن الوقت مبكر جداً على الشرب. صبت لنفسها كأساً ضخمة من الجن، ثم ملأته حتى الحافة عصير الليمون الحامض، ثم أشعلت سيجارة وضعتها في "مبسم" للتدخين لا يقل طوله عن قدم، وألقت نفسها على مقعد مريح ذو مسندين وقد صالبت ساقيها. وفي نفس الوقت، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الأشياء، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة، ذلك أن الأزرار القصير المصنوع من صوف التويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي لجوربها الطويل إلا بصعوبة وهي واقفة. أشارت إلي للجلوس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر إليها وتأملها.

-"أجل، إنك تتمتع بقدرة على النفاذ أكثر جداً مما يسمح به لشاب صغير. كم عمرك؟ حقاً؟ إنك تبدو أصغر بكثير. حينما قرأت كتابك قلت لكلاوس! "آه، لشد ما أسف لأنه لا يعيش في لندن. هناك الكثير الذي نستطيع أن نعلمه إياه". وهاأنت الآن هنا لمدة يوم واحد! يا له من أمر شنيع! ماذا يمكنك أن تفعله في يوم واحد".

قالت لي أن كل كتبي تشهد بأنني أمتلك قدراً كبيراً من الذكاء، والحدس العظيم، ولكن التجربة هي ما ينقصني. "يجب ألا تشعر بالغضب إذا قلت لك أنك غير ناضج في جوانب كثيرة". قلت إنني لست غاضباً. حينئذ، ودون أن تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجرى الحديث، بدأت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب. كان المفروض أن أصبح مدرسة مثل أمي. ولكنني لا أملك صبراً مع الأعداد الكبيرة من الطلبة. إن ما أرغب فيه هو اثنان أو ثلاثة من التلاميذ النجباء. إنني خلاقة مبدعة، أتفهم؟ لابد ليدي من تشكيل الحجر والطين، ولابد لعقلي من تشكيل الأرواح".

نظرت في عيني بطريقة نفاذة وقالت: "والآن أريد أن أسألك سؤالاً صريحاً. حينما تمارس الجنس مع امرأة ما، هل تستطيع أن تسيطر على ذروة نشوتك فلا تبلغها إلا بعد أن تعطيها كل ما تحتاج إليه من متعة؟"

فكرت في ديانا، ثم قلت إنني أظن أنني أفعل هذا.

-"كلا، كلا. ليس هذا ما أردت سماعه. إنما أردت إجابة مخلصة صريحة. يجب أن تفكر في اعتباري طبيبة - كما لو كنت طبيبتك النفسية..."

أخذت جرعة طويلة من الجن، ومدت يدها لتأخذ سيجارة جديدة، وفكت تصالب ساقيها. كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مركزتين على وجهها. صرفت نظرها عني لحظة، ثم رمقتني بنظرة سريعة، وكان من الواضح أنها تأمل أن "تضبطني" وأنا أتفحص جسدها، ثم ألقت برأسها إلى الوراء فأسندته على وسادة المقعد، وأصبح وجهها مصوباً إلى السقف. وأغمضت عينيها. تساءلت إن كان في هذا الوضع نوع من الاختبار. كانت ترتدي سروالاً داخلياً ربما كان مصنوعاً من السيلوفان القرميز، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رفعتهما على وسادة جلدية عن الأرض، وقد انفرج ما بين ركبتيها... كانت مؤخرتها وساقاها جميلة. لكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي، جعلتها تبدو كما لو كانت وحشاً أسطورياً، نصفه الأعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي. نظرت عامداً إلى ناحية المدفأة الخالية، وركزت نظري هناك. كانت تقول:

-"أحس أنك شخص بالغ الخجل يحاول أن يخفي تلك الحقيقة. في هذا أنت تشبه كلاوس إلى حد ما. إن كلاوس هو ابني بالطبع..

-"ابنك؟" صدمتني الدهشة لسماعي ذلك.

-"ليس حرفياً. أعني أن علاقتنا هي علاقة أم بابنها. إنني الطرف الخلاق في العلاقة، الأرض الأم. مثل "أردا" عند فاكنر. علاقتنا قوية جداً. إنني مدرسته. لو أنك سألته لقال لك إنه قد أصبح شخصاً مختلفاً منذ أن عرفني، أكثر عمقاً وأكثر حساسية. إنني أملك تلك القدرة على نقل مواهبي إلى أولئك الذين أحبهم. وحينما أقول "الحب" أعني بالطبع حب المدرسة للتلميذ، لأنه ليس هناك ما هو أعمق من هذا الحب..."

كنت ألقي عليها نظرة سريعة من حين إلى آخر، لكي أكتشف أنها قد غرقت في مقعدها أكثر، حتى أنها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر. ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج. كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقش رسماً توضيحياً على اللوحة. لاح لي أن ما كانت تسأل عنه - بطريقة معقدة وملتوية - هو ما إذا كنت أود أن أنضم إلى كلاوس كواحد من تلامذتها، لكي أمتص بركات معرفتها وموهبتها الخلاقة. كانت تشرح لي الفرق بين ذهن الأنثى وذهن الذكر وذكائهما، حينما سمعنا طرقة رقيقة على الباب. تجاهلتها واستمرت في الكلام. توقعت منها أن تضم ساقيها، أو أن تعتدل قليلاً في جلستها على الأقل، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق. أطل كلاوس من الباب لينظر إلى الداخل.

-"هل ستأتين إلى الطابق الأسفل يا شانز؟"

-"بعد لحظة".

كان منظر ساقيها المنفرجتين من المكان الذي نظر هو منه أقل قرباً إلى عيني - فقد كان بوسعي أن انحنى إلى الأمام قادس إصبعاً - ولكنه كان يستطيع أن يستوعب هذا المنظر كاملاً. لم تلح عليه الدهشة. قال:

"ربما أرادت السيدة الشابة أن تتناول كأساً هي الأخرى. وهذه الحجرة صغيرة جداً. حينئذ سمعت خطوات "السيدة الشابة" وهي تصعد الدرجات. كان علي أن أعجب بتوقيتها المناسب للحظة. ظننت أنها كان تعني أن تظل ساكنة في وضعها لكي تسمح لأنجيلا بالانضمام إلى المتفرجين، ولكن قبل وصول خطواتها إلى الباب بثوان قليلة، تثاءبت، وضمت ساقيها واعتدلت جالسة وقالت:

-"إذن، فلنذهب".

واتجهت إلى الباب، وناولت كلاوس ضربة مداعبة ولكنها قاسية على مؤخرته، وأشارت إليّ وهبطنا إلى الطابق الأسفل في "طابور" واحد. حينما وقعت عيناها على أنجيلا، قطبت تقطيبة خفيفة. كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون، ثم لاح عليها تعبير من استطاع أخيراً أن يتذكر وهو يقول لنفسه "التعب!"

ذهبنا إلى حجرة أكبر وأوسع، أثاثها أكثر طبيعية. قبلت كأساً صغيرة من الشراب، وكذلك فعلت أنجيلا. ولدهشتي أصبحت السيدة دنكلمان الآن وديعة جداً مع أنجيلا. وربما كان ذلك لأن أنجيلا قالت أنها لم تقابلني إلا بالأمس فقط. سألتها كم من كتبي قرأت؟ وحينما اكتشفت أن الإجابة كانت إلا أكاد أكون قرأت له شيئاً على الإطلاق"، أشارت إليها بسبابتها اليمنى وقالت، "عليك أن تبدأي قراءتها على الفور". وبذلك كانت أنجيلا قد لقيت القبول في القطيع بوصفها تلميذة، وسمعت محاضرة عن القدرة على الإبداع والخلق. جلس كلاوس في أحد الأركان، وهو يرشف ماء الصودا ("ليس من المسموح له أن يشرب فالشرب يجعله مسرف العاطفية") ودون أن يبذل أية محاولة للتدخل في الحديث. وحينما توقفت أنا عن الكلام لكي تأخذ كأساً آخر. طلبت منه أن يقص عليّ شيئاً عن كورنر. قال بسرعة:

-"إنني لا أنصحك بأن تهتم به أو تنزعج بشأنه. إنه "شارلتان" مهرج حتى "النخاع".

قالت زوجته: "ليس هذا القول عادلاً تماماً. إنني أوافق على أنه قد أصبح مهرجاً، ولكنه لم يكن كذلك دائماً". ثم وجهت كلامها إليّ: "هل تعرف شيئاً عن رايخ؟"

-" ليس الكثير".

-"كان علامة سيكولوجيا عظيماً - في مثل عظمة فرويد. وقد آمن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على أناس لا يعانون من أي كبت جنسي".

-"هذا يماثل ما جاء به فرويد".

-"بالتاكيد، إن افكاري الأساسية تشبه تلك التي جاء بها فرويد إلى حد كبير، وخاصة مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الأمراض العصابية. لقد امن بأن انواع الكبت تشكل نوعاً من الصدفة او المرارة الصلبة فوق الشخصية، مثل السلحفاة، اتعرفها؟"

لوت وجهها التواءة شنيعة ورسمت بيديها حركة تشير إلى الدرع التي تحمله السلحفاة. اشارت إلى زوجها وقالت:

-"حينما التقيت به اول مرة كان وجهه يشبه القناع - كانت كل عضلاته متوترة مشدودة. كان من الضروري ان اعلمه كيف يسترخي استرخاءً كاملاً وأن يحب اعضاءه التناسلية".

جفلت انجيلا لسماعها التعبير الغريب، سألتها بحذر:

-"بأي شكل؟"

-"بأي شكل؟"

-"ان يكون صريحاً وواضحاً في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية. كان من عادتنا في ستوكهولم ان نعقد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي. كان علينا أن نجلس دون أي بنطالات او ثياب، وندير مناقشة فيما بيننا، نشرب القهوة، ونشجع الرجال على أن يلعبوا باعضائهم التناسلية. تماماً مثل الأطفال. كان هذا رائعاً".

قال كلاوس بوقار:

-"تعودت ان تاتي فتجلس إلى جواري، ثم تجلد لي عميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا. كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات. ان اتعلم الا اخجل من اللعب بالأعضاء التناسلية. حينما كنت صغيراً، كان من عادة مربيتي أن تضربني إذا لمست عضوي. وقد علمني رايخ أن العضو التناسلي ليس سوى اداة للتواصل الاجتماعي، تماماً مثل اللسان او اليد".

نفد صبرانا لكل هذه المقاطعة، فضربت ذراع المقعد بقبضتها وقالت:

-"لو فهم الناس نظريات رايخ فهماً صحيحاً، لكانت الحرب الأخيرة مستحيلة. لقد استخدم هتلر الكبت الجنسي كسلاح سياسي. إن الألمان هم اكثر الأمم كبتاً في العالم. وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة".

سألتها، "وماذا من امر كورنر؟ إلى اين وصل؟"

"إنه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم. إنه هو مبتكر فكرة الكبت الجنسي الجماعي وليس رايخ. كان رايخ ما يزال تلميذ نجيباً صغيراً. انت تعرف هذا النوع. وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصراً على تلك الأفكار المجنونة حول الطاقة الأصلية العضوية، قائلاً أنها زرقاء اللون - وقال أن الطاقة العضوية الأصلية هي التي تجعل السماء زرقاء".

قال كلاوس بكآبة:

-"في هذا الوقت، امنا بأن كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقة في نقائها الأصلي. ولذلك فإنه حينما جاء إلى لندن، جئنا معه".

-"وهل مضيتم في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟"

-"آخ، اجل. اكثر من ذي قبل. وكانت هذه هي المشكلة. كان رايخ قد حذرنا من اننا إذا لم ننتبه بما فيه الكفاية، فإن هذه الاجتماعات لن تظل ذات قيمة علاجية، فتتحول إلى احتفالات جنسية صاخبة. ولكن كورنر لم يلق اذناً صاغية لهذا التحذير. كانت تسيطر عليه فكرة معينة مؤداها ان يظهر الدافع الجنسي كان هذا هو تعبيره عن فكرته. قال أن الجنس يجب ان يتخلص من كل خجل. وعلى اي حال، فإن اكثر الحساسين من الناس مصابون بالخجل الاجتماعي. فإذا كان عليهم أن يقفوا على منصة مرتفعة وان يخطبوا في جمهور محتشد، يصابون بما يسمى "الخوف من المنصة". إلا انهم بسهولة يستطيعون التغلب على هذا الخوف، وحينما يتغلبون عليه يعبرون عن انفسهم بحرية، دون خوف. لقد أراد كورنر أن يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من المنصة".

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس. كانت إنكليزيته اكثر طلاقة بكثير من إنكليزية زوجته. كانت انجيلا تقطب حاجبيها. قالت:

-"ولكن ألا يكون من نتيجة الحرية الجنسية الزائدة كثيراً عن الحاجة تدمير كل ما فيه من متعة؟"

-"كلا!" كذلك صاحا في لحظة واحدة. أسكتت أنا زوجها بنظر صارمة، ثم استمرت تقول في تصميم:

-"بالعكس، إن الخجل الشديد الذي يتملك الناس هو الذي يمنعهم من أن يتعلموا كيفية الاستمتاع بالجنس، برأيك لماذا كل هذه حوادث الاغتصاب وجرائم القتل الجنسية؟ لأن هناك جدراناً سميكة بين الجنسين. يركب رجل سيارة عامة، وتكون هناك فتاة جميلة، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة. إنه لا يغتصبها لأنه ليست هناك فرصة لذلك، وربما كان خائفاً من القانون. هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنسين. المجتمع كله جائع جنسياً. في مجتمع صحي، يستطيع أن يجلس إلى جوارها، وإن يقنعها بأن تجلد له عميرة، دون أن يولي أي إنسان للأمر أية اهتمام. لم لا؟ أنت - "انطلق إصبعها فجأة نحو أنجيلا، التي كانت تجلس منحنية إلى الأمام،وقد وضعت معصميها على ركبتيها - "لماذا تجلسين في هذا الوضع؟ لأنك تظنين أنه وضع طبيعي. ولكنه ليس كذلك. إنك ترتدي "تنورة" قصيرة لأنك تظنين أنها جذابة. لماذا لا تفتحين ركبتيك في جسارة؟"

ابتسمت أنجيلا - وقد تراجعت قليلاً إلى الخلف - وحاولت أن تحول الأمر إلى نكتة وقالت:

-"إذا فعلت هذا فإنني قد أغتصب".

-"كلا ليس هذا منطقياً! لماذا ترتدي النساء "تنورات" قصيرة؟ لكي يثرن اهتمام الرجال. إنك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنظري إلى أي حد يمكنك أن ترفعي "تنورتك" إلى أعلى. ألا ترين ما يعنيه هذا؟ إنك تريدين استعراض أعضائك التناسلية. ولكنك خائفة. إنك تريدين أن تجعلي الرجال يحدقون فيك، ولكنك خائفة من الاغتصاب. أليس هذا دليلاً على أن ثمة خطأ في مكان ما؟"

بشكل تلقائي أمسكت أنجيلا بطرف "تنورتها" وجذبته إلى أسفل. أكملت الأخرى تقول:

-"أترين؟ لماذا ترتدينها إذا كنت تريدين أن تنزليها إلى أسفل؟ لماذا لا تجلسين هكذا؟

انحنت في مقعدها إلى الوراء وفتحت ركبتيها، حتى استطاعت أنجيلا أن ترى نفس المنظر الذي كنت قد رأيته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي. غضت أنجيلا من بصرها، دون أن تضم أنا ساقيها ثانية، مضت تقول:

-"كلا! إن علينا أن ننمي وجود مجتمع متحرر تماماً من مخاوفه الجنسية ودون رغبات محبطة مكبوتة. إذا أراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك أن يعرف إن كنت ترتدين سروالاً أو مشداً، فإنه يجب أن يسمح له بإلقاء نظرة ليتأكد!".

تدخلت لكي ألفت الأنظار عن أنجيلا:

-"لماذا تقولين أن كورنر أصبح مهرجاً؟"

-"لأنه بنظرية مثل تلك، يمكنك أن تجتذب كل الناس غير المناسبين الذي تدفعهم كل الأسباب غير المناسبة. هذا هو ما فعله. إنه يقول بأن غرضه هو أن يعلم الناس الوصول إلى النشوة الصوفية عن طريق الجنس. ولكن كل ما يفعله هو تنظيم حفلات للفسق".

كان من الصعب إيقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة نصف ساعة أخرى وبدا لي ما قالته في صورة فهم جيد إلى حد ما لبعض المشاكل النفسية. من الحق أن أكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية. ولكنني حينما فكرت في ديانا وفي موبسي، وفي مكتبتي التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل جانب، طرأ لي أن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من الجنس. ليست الطريقة المثلى لمعالجة رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو أن أقول له أن يجلد عميرة في السيارات العامة، ولكن أن أدفعه إلى أن يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والأفكار والشعر. وحينما اقترحت ذلك لأسرة دنكمان، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف.

-"ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالإعلاء. إنه رفض لمواجهة المشكلة الحقيقية. إنك تكبت مصدر المشكلة، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء آخر.

بدأت أشعر بنفاد الصبر. كانت الساعة - على أية حال - قد قاربت السابعة - وكان لابد أن يبدأ الستير في التساؤل عن مكاننا. قلت أن علينا أن نرحل. حاولا أن يقنعانا بالبقاء

لتناول العشاء، ولكننا انتحلنا بعض الأعذار. قالت أنا أنها سوف تكتب إلي خطاباً طويلاً، وأنني ربما أجد الفرصة لمساعدتها في إنجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع.

وحينما وقفنا استعداداً للانصراف، سألت أنجيلا:

-"بالمناسبة، هل تعرفان شيئاً عن جماعة العنقاء"؟

هزت أنا كتفيها وقالت:

-"وما تلك؟ جماعة مهووسة جديدة من الشبان؟"

كان من الواضح أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لها، لم تلح أنجيلا على طرق الموضوع. وعند الباب، قال دانكلهام:

-"إنك مغادر لندن اليوم، صحيح"؟

-"غداً".

-"أمل أن نلتقي حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة".

انحنى انحناءة يابسة، قلت:

-"يجب أن أكتب إلى البروفسور كورنر".

قالت أنا: لن تكون هناك أية فائدة من ذلك. لقد أمرته الشرطة بمغادرة إنكلترا فعاد إلى ألمانيا".

-"أوه. إني آسف لذلك. ولكن، لماذا؟"

قال كلاوس، لم يكن أكثر من صاحب بيت دعارة محترف".

في سيارة الأجرة، وفي طريق العودة إلى هولاندبارك، قالت أنجيلا:

-"من المؤكد أنك تبدو كما لو كنت قد قابلت أناساً يبعثون على الدهشة. من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نقابل الدكتور كورنر".

-"ولكن من المحتمل جداً أن تكون هذه طريقاً مسدودة. عليّ أن أعترف بأن دانكلمان قال لي أن كورنر كان أول من ذكر أيزموند دونيللي، ولكنني أفترض ببساطة أنه كان قد قرأ كتابه "عن افتراع العذارى".

تحدثنا عن أسرة دانكلمان. قالت أنجيلا:

-"لا أظن أنك على صواب في النظر إلى كلاوس باعتباره زوجاً ضعيفاً تسيطر عليه زوجته. لقد اجتاحني إحساس غريب جداً حينما نظر إليّ أول مرة".

-"بأي شكل كان هذا الإحساس؟"

-"أحسست إحساساً فكاهياً بأنه كان يريدني أن أفتح ساقي. لقد رأيت الوضع الذي كنت أجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك".

-"إنني أظن - على أي حال - أنها نصف شاذة جنسياً".

-"ما كنت لأدهش من هذا. لم يسبق أبداً أن شعرت بمثل هذا الشعور السيئ الذي اجتاحني وأنا أتحدث معهما. هل لاحظت ذلك؟"

-"أي نوع من المشاعر السيئة؟"

-"حسناً - إنهما "قبيحان" جداً، وهما حقاً منفران جداً حينما يتحدثان كل هذا الحديث عن الجنس. ومع هذا فقد كان لحديثهما - من جانب آخر - سحر من نوع خاص".

كنت أعرف ما تعنيه. فحتى ذهابنا إلى أسرة دانكلمان، كنت قد نظرت إلى أنجيلا كونها شخصية تبعث على السرور إلى حد كبير، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري إزاءها لو كانت شقيقتي. أما الآن وأنا أجلس إلى جوارها، فقد وجدت نفسي أنظر إلى استدارة نهدها تحت الصدار الصوفي الأسود، وأشعر بأن علي أن أكبت رغبتي في مداعبته. كانت أنا دانكلمان قد دفعتني إلى هذا الشعور بشكل ما، بتوجيه الانتباه إلى أنجيلا باعتبارها موضوعاً جنسياً.

قالت فجأة: "أنا سعيدة لأنك كنت هناك"، وارتجفت وهي تتحرك لتصبح أقرب إليّ. كان من الطبيعي أن أضع ذراعي حول كتفيها. بعد لحظة، ارتفع وجهها نحو وجهي،

وكنت اقبلها بانفعال عاطفي جفلت انا لقوته. كان الأمر مثل التهام ملء فم من الطعام، ثم تكتشف بعد هذا انك جائع جوعاً وحشياً. تعانقنا بقوة متعلقين احدنا بالآخر، ولساني داخل فمها، ويدي تسحق النهد الذي كنت انظر إليه منذ لحظة واحدة. لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها، ولكن كانت الرغبة هي جرحها، عصرها، التهامها وامتصاصها. كانت متعلقة بي في استسلام كامل، وحينما تركت يدي إلى اسفل، ضاغطة بقوة على ضلوعها، ثم على معدتها، انفرج ساقاها (..) كنت في حالة حادة من التعب في جلستي، بعد ان وصلت إلى هذه النقطة، كان الأمر الطبيعي ان اخلع ما تبقى من ثيابها.. ولما كان ذلك مستحيلاً، فقد تحول جسدي إلى قضيب حديدي من الشهوة.

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة أخرى كانت تندفع ناحيتنا بأضوائها الباهرة. انفصل احدنا عن الآخر منقلاً بالإحساس بالإثم.

قالت: "آسفة".

-"لماذا؟"

-"كانت هذه غلطتي. لقد كنت اريدك ان تفعل هذا منذ غادرنا منزل دانكلمان".

كنا ما نزال متعانقين، وكان قلبي ما يزال يضرب بعنف حتى كان من الصعب ان اتكلم. قالت:

-"لم افعل هذا ابداً من قبل - ليس بهذا الشكل. لا اعرف إن كنت ستصدقني. ولكنني طهرية متزمتة تماماً من الداخل".

قلت، بطريقة نصف تهكمية: "لقد نوّمانا مغناطيسياً!".

نظرت إلي بجدية وقالت: أظن ان هذا يمكن ان يكون صحيحاً. إنني واثقة من ان لهما قوة غريبة من نوع ما. سوف اقول لك شيئاً يصدمك من الدهشة. لو انني هناك بمفردي، لانتهيت إلى ان أمنح نفسي لهذا المنفر كلاوس".

قلت ضاحكاً: "ولو انني ظللت وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق أخرى، لانتهيت إلى ممارسة الجنس مع أنا".

-"ولكنها منفرة إلى حد مروع"!

أخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقيها، وكان صحيحاً ما قلته من انني لو بقيت جالساً أمامها بمفردي لمدة خمس دقائق أخرى، لانحنيت إلى الأمام لكي ألمسها (...) ومن المؤكد انه كان من البلاهة ان ارفض ذلك.

توقفت سيارة الأجرة خارج المنزل. قالت:

-"من الأفضل ان ارتب ثيابي".

أدركت ما كانت تعنيه. فقد كنت أتوهم انا ايضاً انني مهوش الشعر والثياب كما لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي. دفعت الحساب لسائق السيارة بينما مرت بسرعة على شفاهها بإصبع الأحمر وجرت المشط في شعرها على عجل.

فتحت انجيلا الباب لمفتاحها، ودخلنا إلى الشقة. كان كل شيء ما يزال على حاله كما تركناه في الصباح. نادت قائلة: "الستير"، ولكن لم تسمع إجابته. هزت رأسها وقالت: "لا" وعرفت انها لم تكن تعلق على غياب الستير، وضعت يدي على صدرها. قالت: ليس هناك وقت". ولكني ادركت انها لم تكن جادة. كنت ما أزال ساخناً مفعماً بوهج الشهوة الغريبة العنف، التي كانت تكون كالحمى. جذبت طرف الصدار الصوفي فنزعته من تحت وسط الأزرار ودسست يدي تحت الصدار. كانت ترتدي حمالة صدر، وبحركة جذب بسيطة عريت النهدين. اخذت الحلمة بين سبابتي وإبهامي ودعكتها. اندفعت إلى حضني وفتحت فمها مرة أخرى (...) وقدتها إلى غرفة النوم...

نادراً ما وجدت الجنس مدوخاً كالدوران بهذا الشكل. واظن انه لو ظهر في تلك اللحظة حشد كامل من المصورين عند الباب بآلات تصويرهم ذات الأضواء الخاطفة، لظللنا على ممارستنا للجنس، عاجزين عجزاً مطلقاً عن الفصل بين جسدينا. كان الإحساس الشبيه بالحمى ما يزال قائماً مضفياً على الغرفة جواً غير واقعي. بدونا كما لو كنا قد غرقنا في مياه العرق والإفرازات الرطبة... فكرت بان الستير قد يدخل الآن في أية لحظة، ولكن كان هناك نوع من المتعة من التفكير بان يراقبنا شخص ما. ثم أصبحت اللذة اكثر حدة من ان تكبح او تمنع من الوصول إلى ذروتها..

بعد عدة دقائق، رقدنا جنباً إلى جنب، وبدأ العرق يبرد. فتحت عيني ونظرت إليها، وتبينت مصدوماً أن انجيلا هي التي كانت بجانبي، الفتاة الإسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بدت لي في صورة الفتاة "اللطيفة" ولكنها ليست من النوع الذي احبه. فتحت عينيها، ولاح انها جفلت عندما رأتني. وفجأة، تذكرنا معاً أن نصف ملابسنا ملقاة على الأرض في الحجرة الأخرى، وان الباب كان مفتوحاً. نهضت وذهبت إلى الحجرة الخارجية لكي اجيء بالملابس. وحينما عدت كانت واقفة تشد سروالها الداخلي إلى وسطها. ذهبت إليها وقبلتها. أعطتني فمها بطريقة آلية، كما لو كان تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم. ثم، كما لو كانت تتأسف على ذلك، وضعت ذراعيها حول عنقي. قالت:

-"ما الذي حدث لنا؟"

ادركت ما كانت تعنيه. لم يكن ذلك جنساً "عاديا"، الجنس الذي يمارسه شخصان قررا أن احدهما يروق للآخر وأراد كل منهما أن يكتشف جسد صاحبه ويرتاده لنفسه. إنما كان نوعاً من النوبة العصبية، كما لو كنا زوجاً من الحيوانات. ولكنني كنت الآن "مستر سورم" مرة أخرى، وكانت هي قد عادت فاصبحت لادي انجيلا جليني، وكنا شخصين راق كل منهما للآخر، ولكن لسنا عاشقين، بالطبع، فيما عدا انه كان من المستحيل بالنسبة لنا الا نكون مدركين ان كلاً منا قد افنى نفسه في جسد الآخر منذ قليل.

قالت فجأة: "يا إلهي، لقد نسيت. هذه أسوأ فترة من الشهر".

وضعت يدي برقة على معدتها، قلت: "إذن فمن المحتمل أن يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل".

-"هذا محتمل".

-"هل يزعجك هذا؟"

ضحكت فجأة.

-"كلا. لا أظن ذلك".

دق جرس التليفون. كان الستير هو المتكلم، ليقول انه يحتسي كأساً مع بعض اصدقاء دراسته، وانه لن يعود إلا بعد ساعة أخرى.

دخلت أنا وانجيلا الحمام وتحممنا معاً. احسست بأنني منتعش رطب الجسد بشكل غريب، مسترخ تماماً. وفي كل مرة نظرت إلى انجيلا، عانيت صدمة واهنة كما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب.

بعد نصف ساعة، وبينما كنا نجلس متقابلين أمام جانبي المدفأة، نحتسي كؤوس الفودكا، قالت:

-"أظن أنهما وضعا لنا شيئاً في كؤوس الشراب".

"تعنين عقاراً مثيراً للشهوة الجنسية؟ لا أظن هذا. إن للذبابة الإسبانية تأثيراً مزعجاً ومنبهاً للعصارة المعوية - وقد ذقت شيئاً منها في الجزائر".

-"ولكنك بالتأكيد لا تعتقد ان المنبه هنا كان نفسياً. أعتقد ذلك؟"

قلت: "ساقول لك ما أعتقده. اعتقد ان كلاوس اراد ان يمارس معك الجنس، وانها ارادتني أن أمارس الجنس معها. ولو اننا تناولنا العشاء معهما، لانتهى كل منا إلى الفراش مع صاحبه. ولكن ما حدث، وأيا كان ما فعلاه بنا، هو انهما جعلانا يرغب كل منا في الآخر".

وحينما عدت بذاكرتي لكي افكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس، عرفت انه كان على شيء من الغرابة.

قالت: "ان هذه الغرابة تجعلك تتساءل عما إذا كان هنالك حقاً شيء ما في تلك القصص التي تحكى عن تمائم الحب - مثلما قيل في أسطورة تريستان وايزولده، وما إلى ذلك؟"

-"لقد عرفت رجلاً بوسعه ان يقول لك - رجلاً يدعى كارادوك كنينغجهام".

-"أجل، إنني أسمع عنه. لقد قرأت كتابك. ولا أظنني احب ان اقابله".

حينما جاء الستير بعد نصف ساعة، كانت تطهو وجبة طعام، وكانت الشقة مفعمة برائحة الخل والثوم. قال:

-"أرجو الا تكونا قد سئمتما من الضجر بدوني".

قالت انجيلا، "كلا، لقد وجدنا الكثير مما نفعل".

-"تفعلان؟"

-"أعني مما نقول ونتحدث عنه".

كان ينكت بالطبع؟ كان يعرف أنه لا انجيلا ولا أنا من النوع الذي يمكن أن يقع في حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الأول.

-١٧-

▣ في الليل، انتابتني أحلام مزعجة لا أستطيع تذكرها. ولكنني حينما استيقظت كنت ايزموند مرة أخرى. كان هذا هو أغرب ما أحسست به حتى ذلك الحين. كنت قد شربت قدراً كبيراً من عصير التفاح المخمر بعد العشاء، ورغم انني لم أسكر أو أفقد وعي الحقيقي، إلا أنه انتابني ذلك الإحساس بالانفصال البسيط عن الواقع، وباللامعنى. ومن الجانب الآخر، كان ايزموند مستيقظاً يقظة كاملة. بالنسبة له، بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف، وكان العنصر الذي يسبب له قدراً بسيطاً من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب أو شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك. كان إحساسي بالعودة إلى القرن الثامن عشر أكثر قوة مما كان في دبلن، ربما لأنه لم تكن هناك عناصر تشتيت في وسط الظلام. غرقت في النوم مرة ثانية، وغصت في أحلام مشوشة عن هوارس والبول، وليتشينبرج وبوزويل وجونسون. وعندما استيقظت في الصباح، كنت أذكر جونسون بوضوح تام وهو يقول مؤكداً بقوة - وهو ينثر الرذاذ بشفته السفلى الكبيرة المتدلية، "إن الرجل متشرد محتال وغد شرير يا سيدي، ولسوف تحسن صنعاً لو أنك تجنبته تماماً".

اخذنا طائرة في الحادية عشرة والنصف، فوصلنا ادنبرة بعد ساعة ونصف. تناولنا طعام الغداء في غرفة خلفية بإحدى الحانات مع الدكتور دافيد، سيميللي، أستاذ انجيلا، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كوجه كلب صيد صغير. كان قد كتب ذات مرة

عرضاً شريراً بشكل خاص لأحد كتبي، ولذلك فقد ابتسم بخنوع وهو يقدم إلي، ولكنه حينما أشار إلى الموضوع إشارة متعمدة، تظاهرت بأنني لم أر المقال وأن علاقتنا طيبة بشكل كاف. لم تكن بي حاجة إلى أن أتحدث كثيراً - فقد أراد كل من استير وانجيلا أن يخبراه بكل ما يتعلق بايزموند دونيللي وباكتشافاتي. انصت بأدب لبرهة، ثم قال،

-"أخشى أن أقول أنني لا أرى السبب الذي يجعلك تنظر إليه بكل هذا الاهتمام. إنه يبدو لي كما لو كان أفاقاً نموذجياً من أفاقي القرن الثامن عشر. هل حدث أبداً أن فكر في أي شيء آخر باستثناء الجنس؟"

نظرت انجيلا إلي، وأظن أنها كانت تميل إلى الموافقة. قلت،

-"بمعنى ما، كلا. وبمعنى آخر، فإن الجنس لم يكن يهمه على الإطلاق".

قال بخبث، "أليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين؟"

لم يكن متعاطفاً أو لطيفاً، ولكنني قررت أن أحاول الشرح. قلت،

-"كلا. إنما أرى ايزموند كرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى".

-"معنى ماذا؟ الوجود الإنساني؟" تذكرت أنه كان قد كتب عدداً من التعليقات الحادة المرتفعة النبرة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بأنه "هاجس العجز الديني المتسلط علي". ولكنني أردت أن أوضح الموقف للاثنين الآخرين، قلت،

-"أنها مسألة إما أن تفهم أو تعجز عن الفهم. بالنسبة لي، إنها مشكلة واضحة في حد ذاتها. أحياناً تبدو الحياة مثيرة للاهتمام بشكل واسع وعميق مفعمة بالمعنى، فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية، مثل ضوء الشمس. وفي أحيان أخرى تبدو عقيمة خالية من المعنى مثل الريح. إننا نقبل هذا الخواء من المعنى، هذا الانهيار في وجوده، مثلما نقبل تقلبات الطقس. إنني إذا استيقظت مصاباً بالصداع أو بنزلة برد سيئة، فإنني أبدو كما لو كنت غير قابل لإدراك أي معنى. والآن، إذا استيقظت وأنا مصاب بصمم حقيقي أو وأنا نصف أعمى حقاً، فإنني سأحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف أذهب لاستشارة طبيب. ولكنني إذا كنت غير قابل لإدراك أي معنى، فإنني أقبل هذا الوضع كما لو كان شيئاً طبيعياً. ولكن ايزموند لم يقبله كشيء طبيعي. وقد لاحظ هو الآخر أننا في كل مرة نستشار فيها

جنسياً، يعود إلينا المعنى. يمكننا حينذاك ان نسمع من جديد. هكذا فقد الح في طلب الجنس باعتباره سبيلاً لاستعادة المعنى".

سألت انجيلا: "وماذا من أمر هوراس جليني؟"

-"كلا. إنه لم يكن مهتماً ببحث ايزموند عن المعنى. لقد أعجب بايزموند، ولكنه لم يفهمه".

ظل سيميللي على عدم اقتناعه وقال: "إنني وقد قرات كتابه "عن افتراع العذارى" فإنني لم أجد شيئاً يمكن فهمه". قلت:

-"إنني لا أعتقد ان ايزموند كتب هذا الكتاب".

-"لم يكتبه؟ إذن من كتبه؟"

-"لا اعرف. ولكن اسلوبه ليس اسلوب ايزموند".

هز كتفيه كما لو كان يقول انني استطيع ان اغرق في اي نوع من الخيالات بروق لي، ولكن هذا ليس من شانه. قلت:

-"هل حدث ان رايت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قراتها؟"

-"بالطبع. كان ١٧٩٠".

اثارني هذا. كانت الطبعة التي رايتها في غالاوي قد طبعت في لايبزيج عام ١٨٣٠.

-"من الذي طبعها، واين؟"

-"لم يذكر اسم الطابع. ولكن قائمة الجامعة تقول أن الكتاب طبع في مطبعة خاصة في ادنبرة".

-"انت واثق من هذا؟"

-"ليس من عادتي أن اخلط بين ما اقوله من حقائق". تذكرت أن هذه كانت واحدة اخرى من لزاته القارصة لي، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع. ولكن الأدب والمجاملة اللذين

ابديتهما وانا اصافحه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماماً. هكذا اتضح جزء آخر من اللغز وطرح سؤاله الجديد. وبدأ احد الشكوك التي كانت قد راودتني من قبل يظهر في صورة اقل عبثية. لأنه إذا افترضنا أن كتاب "عن افتراع العذارى" كان مزيفاً ومنحولاً، فمن يمكن أن يكون قد كتبه؟ من الواضح انه شخص كان يهتم بان يظهر ايزموند في صورة الأفاق كاتب أدب الدعارة. من السهل أن نفترض ان الكاتب هو جيلبرت ستيوارت، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليني والذي كانت له مصلحة في ان يلطخ سمعة ايزموند بالوحل. ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦. وهذا يدفعني الى التفكير جدياً في مرشح واحد فقط لتاليف الكتاب، وهو جليني نفسه. وإذا كان كتاب "الافتراع" قد طبع في ادنبرة، فإن التفكير يصبح قوياً إلى اقصى حد.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر عندما غادرنا ادنبرة أخيراً في سيارة استاجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال - وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وادنبرة نفسها. قطعنا السير في مدينة بيتلو شيري، وغادرناها في ساعة مبكرة من الصباح. وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع المرحلة الأخيرة من رحلتنا، وهي المسافة من بلدة دورنوش الى جلوسبي. كانت المروج البرية الواسعة ومناظر البحر المفاجئة شديدة الوقع، ولكن الشيء الذي شغل افكاري حقاً هو المجهود الخالص الرامي الى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠، في عربة متارجحة، فوق طرق كانت احسن قليلاً من "المدقات" الترابية القذرة. من المحتمل ان اكثر قاطني جلوسبي لم يسافروا الى ابعد من دورنوسن أو اينفرنيس. فلا عجب ان كان هوراس جليني موضع كل هذا الإعجاب بعد عودته من رحلاته الأوروبية. توقفنا في القرية للاتصال بفرانكلين ميللر - المالك الجديد لمنزل جلوسبي - ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي. يقع قصر جلوسبي فوق منحدرات جبل بين هورن، مطلاً على بحيرة لوش بروراً. وبينما كنا نقطع هذه المرحلة القصيرة الأخيرة من الرحلة، حاولت جاهداً ان استرخي، وأن اراها بعيني ايزموند. ولكن لم تكن ثمة جدوى. كان الأمر كله بالغ الغرابة. سطعت ومضة من التعرف كالذكرى وانا انظر إلى الميدان والمنزل الرمادي. ولكن كان من المكن انني اخدع نفسي.

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة أمام واجهة المبنى، ومن الواضح أن المالك الجديد كان يصلح المنزل. كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع العام إلى

المبنى قد اعيد رصفه، وبدت أحواض الحديقة في حالة جيدة. كان من الممكن أن يكون فندقاً فخماً غالياً.

كان فرانكلين ميللر رجلاً ضخم الجسد ودوداً بدا كما لو كان قد ولد لكي يكون مالكاً من ملاك الأرياف. وبدا مبتهجاً حقاً لـ "حصوله" علينا ضيوفاً في منزله الجديد. قادنا إلى المكتبة الضخمة، حيث كانت مدفأة ضخمة - تعمل بكتل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة. قبلنا كؤوس الشراب، وقابلنا مسز ميللر التي رجتنا أن نبقى عندها أطول مدة ممكنة. بعد أن تمشينا حول الحديقة وهبطنا إلى جانب المنحدر الملحق بالقصر، سألت إن كان بوسعنا أن نمضي ساعة قبل العشاء لنلقي نظرة على الطابق العلوي المغلق (السقيفة) حيث كان الستير قد رأى رزماً من الأوراق القديمة. قال لنا مضيفنا أن نعامل المنزل كما لو كان مالكه لم يتغير أبداً، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون.

قال الستير: "إنني أعرف أين يجب أن نبدأ. يجب أن ننظر إلى كتاب العائلة المقدس. إنه يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من أسرة جليني في جلوسبي".

كان الكتاب المقدس في المكتبة. موضوعاً فوق رف مرتفع - كان مجلداً فخماً، ذا غلاف من الجلد اللامع، كان وزنه ما لا يقل عن خمسين رطلاً. كانت نسخة من "الكتاب المقدس العظيم" - طبعة غرانمر التي صدرت في ١٥٣٩. وخطر لي أنها يمكن أن تساوي مثلما دفع في منزل جلوسبي نفسه، ولكنني لم أحب أن أقول ذلك. كانت الصفحات الست في نهاية المجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد أخرى في خط كالخربشة لا يقرأ، كتب بحبر ذوى لونه وبهت، بدأت باسم إسكندر جليني، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل أن يغادر شكسبير بلدة ستراتفورد أون افون) والذي كان من الواضح أنه نال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن. كانت أسرة جليني قد رفعت إلى مرتبة النبالة على يد جيمس الأول. وفي بعض الأحيان كانت تتلوا الأسماء أسباب الموت: "حمى"، "تسمم كحولي"، و"خصر مكسور" (أياً كان معنى ذلك). كانت هناك سطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس جليني. كان اسمه متبوعاً بتاريخين: ١٧٤٧، ١٧٩٦، ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت. مات والده في عام ١٧٧٨، فأصبح أخوه موراي هولورد جليني. وقتل موراي بسبب "السقوط من فوق ساري". (هل كان يقصد "ساري" المؤخرة في سفينة؟) في عام ١٧٨١، مما أدى إلى أن ورث أخوه الأصغر لقب الأسرة.

كان في هذا بعض العون على الأقل، فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراس جليني على وجه الدقة. ولكنني لم أعرف سبب موته. سألت الستير إن كان يستطيع أن يتذكر الغرفة التي قيل له أنها "غرفة القتل".

"أوه، أجل، الطبع." قادني إلى خارج المكتبة، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر بين بعض الحجرات. طرق الباب، ثم فتحه. كان من الواضح أن الحجرة الآن هيئت لتكون غرفة نوم الضيوف. كانت تطل على المنحدر، وكان أحد العمال يصفر على "السقالة" خارج النافذة.

قالت أنجيلا: "بالتأكيد لم تكن هذه هي الغرفة التي أطلعني عليها غوردون كانت الأخرى في الجناح الآخر".

وبعد بعض التردد عثرنا على الغرفة الأخرى. كانت تطل على القسم الخلفي من المنزل، وكانت النافذة تؤدي إلى مسقط عميق يؤدي إلى فناء صغير. كانت حجرة عارية باردة، ولم يكن أحد جدرانها يحمل أي شيء من الزخرفة أو التجميل. كان حجر الجرانيت قد سحج حتى أصبح مسطحاً ناعماً. أشارت أنجيلا إلى أثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك السطح حتى بلغ الأرض وقالت: "قال لي غوردون أن هذا الأثر كان لبعض الدماء — وأن القتيل كان يرقد على السرير حينما أطلق عليه أحدهم النار من النافذة".

كان هذا ممكناً، وقد بدا الأثر كما لو كان أثراً للدماء فعلاً. ومن جانب آخر، بدا لي أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل. وكان الأكثر احتمالاً أن آثار الدم هي التي أدت إلى خلق قصة عن جريمة قتل.

ثلاثة منعطفات أخرى من الدرجات قادتنا إلى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة ومتربة حتى اضطر الستير أن يهبط ثانية لكي يستعير مصباحاً. جلست أنا وأنجيلا فوق صندوق أدراج قديم، بعد أن نفضت التراب بمنديلي. كنا متعبين، فقد كانت الرحلة طويلة وكنا بحاجة إلى راحة طيبة تلك الليلة. وضعت ذراعي حول كتفيها، فمالت برأسها وأسندته على كتفي.. تركت خدي يستريح على شعرها وأغمضت عيني. كان المكان بالغ الهدوء، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح إذ تصطدم بحواف الجدران العليا بالخارج، مصحوبة بسقسقة طائر بعيد. كان إحساسي بدفئها ملاصقاً لي إحساساً ممتعاً. وفجأة

ودون مقدمات، تذكرت. أو بالأحرى، تذكر ايزموند. كانت رائحة التراب مالوفة، كذلك كانت رائحة شعر انجيلا. تحققت من الخطأ الذي لم اتبينه من قبل. فإننا حينما نرى اماكن جديدة بالنسبة لنا، يجدها العقل غريبة، فيبذل "مجهوداً" لكي يحيط بها من اجل ان يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها. وهذا المجهود هو ما يدمر الألفة الغريزية للذاكرة. كنت شديد التلهف إلى دخول خزانة هذا المنزل، لكي اتذكره، حتى إنني كنت اختلق انطباعاتي عنه اختلاقاً. والآن، للحظة، كففت عن النظر إليه باعتباري غريباً، استرخيت وشعرت كما لو ان صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق انطباعاته الجديدة عن المنزل، ثم امتزجت معها. كنت اعرف هذا المكان، كنت اعرف المنحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي. وكنت اعرف ايضاً ان انجيلا كانت على صواب. لم تكن الحجرة التي رأيناها منذ لحظات هي الحجرة التي قتل فيها هوراس جليني. ولكن انجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة، إنه لم يطلق عليه الرصاص. لقد طعن بنصل حاد. شعرت بيقين عجيب من هذا.

عاد الستير يجر وراءه حبلاً طويلاً من السلك الكهربائي وواحداً من تلك الأقفاص المعدنية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات. وصلنا طرف السلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الأسفل، وعلقنا المصباح داخل قفصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة. ثم أخذنا في مسح المكان. لم يكن ثمة شيء واضح أكثر من أن هذا المكان لم يطاه إنسان منذ سنوات. ولم يستطع الستير ان يتذكر انه قد بحث فيه عن شيء حتى في طفولته. كان كل شيء غارقاً تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الزغب المندوف، وكان نصف السقيفة مغلقاً بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة. (وكنت دائماً اتعجب من كيفية محافظة العنكبوت على حياته في الأمكنة المغلقة). ولكن كان هناك الكثير - بوضوح - الذي لابد من استقصاء حقيقته، بما في ذلك كومة من الغلايين الكبيرة المحطمة. مع كل خطوة تحركناها كان التراب يغزو انوفنا. حطمت نسيج العنكبوت بمحراك مدفئة معدني قديم، ونظرت إلى القسم الثاني من السقيفة. كانت هناك كل انواع الصناديق والعلب الورقية واكوام من دفاتر الحسابات وحزم الأوراق. حاولت ان افك إحدى تلك الحزم، فبدأت الأوراق تتهشم تماماً كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار. وكانت حزم أخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة.

بعد نصف ساعة من هذا البحث اصبحنا جميعاً في غاية العطش ورحنا نعطس مرة كل دقيقة. صعد إلينا فرانكلين ميللر لكي يستقصي امرنا، ونظر حوله لمدة دقيقة او اثنتين ثم انصرف وهو يقول: "الأفضل ان تبحثوا انتم، لا انا". واخيراً قال الستير: "اظن انني ساهبط إلى الطابق الأرضي لأشرب زجاجة من البيرة. هل ياتي احدكما؟" قالت انجيلا: "انا اتية معك". ولكنني قررت ان ابقى هناك لفترة اخرى، ولكن خمس دقائق كانت كافية. بدات افكر باشتياق في قدح من الجعة كبيرة وبارد في الحانة المحلية. كانت عيناي تدمعان، وكان صبري ينفذ بسرعة، حتى انني كنت كلما تحركت اثرت معي قدراً من الغبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه. شعرت كما لو كنت بحاجة إلى حمام جيد. وكما لو كان شعري قد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن امها. وبعد أن جذبت درجاً هائل الحجم من قلب خزانة، وكافحت من اجل ان اصل شريطاً جلدياً ربطت به إحدى الحزم وتجمد حتى صار في صلابة الفولاذ، تحركت إلى الباب الواطئ لكي استنشق بعضاً من الهواء النقي. جلست عند الباب، اتثاءب، وافكر في انه إذا كان ايزموند ينوي ان يساعدني فإن الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة. سار عنكبوت فجاة على عنقي، فوقفت على قدمي مجفلاً حتى انني ضربت راسي في إحدى الدعامات الواطئة، فجلست على الأرض وراحت الأضواء تتراقص ملتمعة وخابية امام عيني. جلست في مكاني محدقاً بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق هارباً بخيط طويل متدل من فجوة صغيرة ثبت فيها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علقت في السقف بمسمار كبير. تسلقت السلم هابطاً، وجسدي يحتك بالحاجز هابطاً نحو الأرض وانا انظر بحدس إلى رجل يصيد السمك من قارب في البحيرة القريبة.

مددت يدي إلى اعلى لكي اقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجاة على ذهني. إذا لم تكن هناك إضاءة في السقيفة، لماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت؟ صعدت السلم ثانية وتناولت منفضة، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق المفرود. ونظرت نظرة اكثر تدقيقاً، فعرفت السبب الذي جعلني اخطئ فاظن الشيء الذي رايته توصيلة كهربائية. كانت مساحة الورق صندوقاً كبيراً رسمت على ظهره رسوم دقيقة، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها إلى البعض بخيط واحد. كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره، وعلى احد جوانب كل صندوق كانت هناك

قائمة اخرى من الحروف الأبجدية التسلسل، وهناك كتابة امام كل منها. لم اكن اعرف ماهية تلك الصناديق وانا احملها إلى اسفل، كان حدسي يعمل مرة اخرى. كان التراب كثيفاً عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء المعتم، هبطت إلى الطابق الأسفل، ونفضت عنها التراب بعناية مستخدماً منديلاً، واخذتها إلى قرب النافذة. وقد كانت "رسماً" توضيحياً للسقيفة نفسها. ولو انني فكرت فيها بعناية منذ رايتها، او لو انني فكرت في السقيفة نفسها منذ القيت عليها نظرتي الأولى، لكنت قد لاحظت ان الخزانات المختلفة والحزم الموجودة في السقيفة كانت موضوعة بطريقة مرتبة ومنظمة توحي بان شخصاً ما قد وضع هذا النظام، وايا كان الشخص الذي رتبها فإنه قد صنع ايضاً هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن اي شيء فيه.

سمعت السِتير ينادي: "الن تهبط الآن يا جيرارد؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة".

قلت: "من كان الشخص الذي اسمه ج. راليون؟"

"جورج راليون؟ كان شيئاً كالساعد العام هنا في زمن جدي. وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة. لماذا؟"

اريته الجانب الآخر من الرسم. كان التوقيع الواضح يقول: "ج. راليون". جريت باصبعي حتى توقفت عند حرف "ك": "اوراق، لـ. حتى ٩. لورد جلبني" كان هذا هوراس جلبني. قلبت الورقة إلى الزاوية المقابلة. كان "ك" موجوداً في الركن القصي من السقيفة.

تبينت ان "ك" كان خزانة ضخمة من الصفيح او الصاج، وكان المقبض قد علاه الصدأ حتى اصبح فتحه عسيراً. فتحناه عنوة بالاستعانة بمحراك المدفأة. كان مزدحماً مشوشاً بكراسات الحسابات، والخطابات والأوراق السائبة، فإما ان احداً قد عبث به منذ عهد "ج. راليون" وإما ان محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل. فتحت خطاباً. وكان يبدأ: "عزيزتي ماري" وبدا من المضمون ان الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع احد المنازل في كيلفورد. دفعت يدي في الخزانة، وفتحت عدداً آخر من الخطابات عشوائياً. كان احدها موجهاً إلى ميس فيونا غوتري، وكان يبدأ: "عزيزتي ميس غوتري" وينتهي بعبارة: "المخلص الذي يحترمك". كان هذا مؤرخاً في اغسطس عام ١٧٦٦، وموجهاً من

غوتنيفين - وهذا معناه انه ارسل قبل شهور قليلة من الأحداث التي وصفها في خطابه إلى ايزموند.

حاولت انا والستير ان نحمل الخزانة لنهبط بها السلم ولكنها كانت ثقيلة جداً. فقررنا تركها في مكانها، وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا إلى حجرة الطعام للإعلان عن الاكتشاف. فاثرنا من الانفعال ما كان مكافاة معقولة ومؤقتة لي. تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي افحص الخزانة، بينما كنت احتسي كاساً من الجعة المثلجة، ثم ذهبت لكي استحم. وحينما عدت إليهم، كانوا قد كوموا حزماً من الأوراق واللفات على بساط المدفاة، وكانوا ينظرون إلى ما فيها. نظرت إلى ما تم العثور عليه، ولكنني لم اجد شيئاً ذا اهمية.

تاخر العشاء نصف ساعة. فاكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الغابة وشربنا نبيذ بوجوليه، الأمر الذي جعلنا جميعاً نشعر بالنعاس، فذهبنا إلى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد التلفزيون. في التاسعة والنصف سالت ان كان بوسعي ان استخدم التليفون، وانني لم اكن قد اتصلت بديانا منذ تركنا لندن.

كان الخط التلفوني جيداً، فكان بوسعي ان اسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد. اخبرتها بما جرى - عن انني قد عثرت على شيء من اوراق جلبني، ولكن لا شيء يمكن ان يُعد بشيء كثير. سالتها ان كان لديها اي اخبار.

"ليس الكثير. هناك خطاب من فتاة تريدك ان تذهب لكي تعيش معها في ميامي، وخطاب آخر من رجل يريدك ان تؤلف كتاباً تحمل فيه على العقول الإلكترونية. وهناك خطاب قصير من رجل يدعى كورنر يقول انه يجب ان يراك حينما تذهب إلى لندن في المرة القادمة".

-"كيف تتهجين هذا الاسم؟"

-"ك - و - ر - ن - ر".

صحت: ماذا؟ ما اسمه الأول؟"

-"لا اتذكر، هل ابحث عن الخطاب؟"

-"أجل، ارجوك".

عادت بعد دقائق قليلة، وقرأت لي الخطاب. كان المرسل هو اوتو كورنر، الرجل الذي قالت لي اسرة دانكمان انه ابعد عن البلاد. كان يعيش في ويست هامبستيد. قال انه قرأ خطابي عن ايزمون دونيللي في الملحق الأدبي للتايمز، وانه يود ان يتحدث معي بشأنه، وكتب رقم تليفون في النهاية.

حينما انهت ديانا المكالمة، اندفعت إلى حجرة الجلوس، صائحاً وانا ارقص ملوحاً بالورقة التي تحمل عنوان كورنر. شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة كبرى إلى الأمام - ليس لأنني توقعت من كورنر ان يعرف شيئاً عن دونيللي لم أعرف انا به بعد، وإنما لأنني شعرت بان هناك من يقف إلى جانبنا. كاد سرور ميللر بهذه الأنباء يعادل سرورنا، كان قد شرع يقع في شبكة "البحث عن ايزموند دونيللي". قال: "لماذا لا تتصل به الآن على الفور؟" ولم اكن بحاجة إلى مزيد من الحث أو التشجيع فبعد خمس دقائق، كنت اسمع صوتاً مثل صوت ممثل كوميدي يقلد استاذاً المانياً عجوزاً، يقول:

-"جميل جداً انك تكلمت، يا زورم. حندنا (عندنا) الكثير الذي يجب أن نناقشه).

قلت، "لقد رأيت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين. وقد قالا لي انك عدت إلى المانيا".

-"ماذا! إنهما يعرفان أن هذا غير صحيح! يجب ألا تثق بهما..."

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته، مستخدماً كلمات من الألمانية من حين إلى آخر. وانتهى إلى ان نصحني بقوة ألا أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية. حاولت ان اكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما إلى هذا الحد، ولهذا قلت له انهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما. صاح يقول:

-"ماذا! لا ضرر منهما؟ كيف. إن هذا الرجل قاتل".

-"انت واثق؟"

-"واثق تماماً. إنه قاتل. لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم سلق جسدها في وعاء صنع الفراء. كان في هذا الوقت يملك مصنع للفراء - واختفت بعد زواجها منه بأسابيع قليلة. وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي انتجه في تلك الفترة وقال انه كان مصنوعاً من عظام ادمية. ولكنهم لم يستطيعوا إثبات اي شيء. وانه جدير بان يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات".

بدت لي القصة مثيرة إلى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق. (وفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد ان كورنر لم يسرد علي اكثر التفاصيل رعباً - وهو ان كلاوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعاً صغيرة بشفرة حلاقة، واطعمها السمكة البيرانها المتوحشة التي كان يربيها في منزله). تحدثت مع كورنر لعدة دقائق اخرى، ووعدته بان اتصل به في طريق عودتي الى ايرلندا. قال: "حسنا. ارجو ان تمضي في لندن عدة أيام. ان لدي الكثير الذي اود ان اقوله لك".

لاح لي الأمر وكانه محملاً بالوعود الطيبة. عدت لكي اخبر انجيلا بالتفاصيل الجديدة عن كلاوس دانكمان، وانتهينا إلى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومضيفتنا، ولكننا حذفنا ما حدث بعد ذلك.

-١٨-

■ كنت بالغ التعب حتى انني ذهبت مبكراً إلى الفراش. ولكنني استيقظت في السابعة من صباح اليوم التالي، فارتديت معطفاً فوق سترتي، وجلست على مقعد صغير واطئ في السقيفة، ورحت احمل بعناية كل حزمة أو ملف من الخزانة، واضعاً الأوراق السائبة في كومة مستقلة مرتبة. كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل ان التقي باول اكتشاف منعش للأمل: حزمة من الخطابات ربطت بشريط جميل، وقد كتب العنوان على كل منها بخط بناتي مستدير: "السيد هوارس جليني فرديناند ستراسه رقم ٩ (منزل فون هير بوليش) غويتغين" كانت كاتبة تلك الخطابات هي فيونا غوتري، وارسلتها إلى هوارس جليني وبدأت في فبراير عام ١٧٦٧ - بعد شهر من حادثة اقترابه من إغوائها. كانت الخطابات

من فتاة واقعة في الحب، والأكثر من هذا، كانت خطابات من فتاة شعرت بأنها مرتبطة ومخطوبة. كانت الخطابات مليئة بما يدور في بيتها من إشاعات وهمسات، وعن شقيقته ماري، وعن كلب كان قد أعطاه لها. وجدت قراءة تلك الخطابات مثيرة للشفقة، لأنها أعطت لكاتبتها مسحة من الحقيقة الواقعية - تلميذة تقع في الحب لأول مرة، فتاة منحت حبيبها شيئاً من الحرية في التصرف معها لأنها لا تستطيع ان ترفض له اي طلب. وتظن أنه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه. كانت هناك ملاحظة من ماري في أحد الخطابات تقول: "أرجو أن تكون الفتيات عندك في مثل قبح الحمير" ويبدو أن هوارس قد أجاب عليها إجابة مطولة، وراح يذكر أيزموند بحماس كبير، لأن فيونا تقول: "أنا واثقة من أن صديقك أيزموند دونيللي طالب متقدم و(ذكي) ولكنني (أنا) لا أستطيع حقاً أن أعجب به دون أن أقابله... إنني أفضل أن أسمع تفصيلات عن أعمالك أنت". فمن الواضح أن هوارس قد استهلك الكثير من الوقت في الثناء على أيزموند.

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو أنهما تشاجرا بسبب إحدى الخادمات. "إنني أتمنى لو استطيع أن أفهم لماذا تحب أن تلمس مثل هذه الخلقة الملوثة بالدهن"، الأمر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل فيونا تحافظ على عذريتها عاماً آخر. ولابد أنه كان عيد ميلاد مليئاً بعوامل الإحباط بالنسبة لجليني بعد فشله في محاولة الإغواء المخططة التي قام بها في أوزنا بروك.

وضعت خطابات فيونا جانباً لكي أتمكن من دراستها فيما بعد دراسة أكثر دقة، ومضيت في عملية إفراغ الخزانة. بالقرب من القاع، بدت لي المحتويات أقل فوضى وأكثر ترتيباً، وقد كومت دفاتر الحسابات في ركن واحد. أخرجت كل هذه الدفاتر، وحينما أزحت آخرها، رأيت صندوقاً معدنياً أسود اللون مدفوناً تحت حزم كثيرة من الأوراق. أخرجته بجهد، ووجدت أنه يبلغ حوالي ثماني عشرة بوصة طولاً، وأن عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات. لم يكن مغلقاً. فتحته، فوجدت نفسي أنظر إلى الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب كتبت بخط اليد، وتقول: "خطابات من فوق أحد الجبال" تأليف "جورج سيمشسون، د.د." عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونيللي. وكان الأمر كما قدرت هو أن الطبعة المنشورة من كتاب "خطابات من فوق أحد الجبال" كانت من تأليف ريغنالد سيمشسون. ولكن النشرة المكتوبة حول "جمعية العنقاء الشريرة" كانت من تأليف هنري مارتل وجورج سميشسون، د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت بعد عشر سنوات من صدور الرواية. ومع هذا فإن جليني قد غير الاسم الأول للمؤلف. وتفسير ذلك عندي أن جليني كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية، وقد غير الاسم الموجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة.

تناولت حفنة من الأوراق بطريقة عشوائية وألقيت عليها نظرة فاحصة. وعلى الفور تقريباً وقعت عيني على عبارة "جماعة العنقاء". قرأت النص. لم يكن هناك احتمال للشك. ففي المخطوطة الأصلية - وقد وضحت التصحيحات والتغييرات أن هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الأصلية حقاً للرواية - كان جليني قد أشار إلى "جماعة العنقاء" وليس إلى "أمر الثعبان". من الواضح أن كان قد قرر أن يغير اسم الجماعة. أخرجت المخطوطة كلها من الصندوق. لم تكن الأوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم، ولكن تلك التي كانت في قاع الصندوق من حجم أصغر. ثم رأيت أنها لم تكن جزءاً من المخطوطة، وأنها كانت مكتوبة بخط أيزموند دونيللي. وقد بدأت الصفحة الأولى كما يلي:

جليني العزيز

أرجوك أن تصدقني حينما أؤكد لك، مقسماً على كلمة الشرف الأكثر صدقاً من أي كلمة، أنك مخطئ في خوفك على سلامتي. وأستطيع أيضاً أن أؤكد لك أنك مخطئ تماماً في تصورك عن طبيعة جمعيتنا. إنها ليست "سرية" بالمعنى العادي لهذه الكلمة. هل يمكنك أن تقول أن الجمعية الملكية سرية؟ ومع ذلك فإنه إذا حدث أن تسلل شحاذ إلى اجتماع للجمعية الملكية فإنه سوف يعتقد أنهم يتحدثون بلغة غريبة لكي يخفوا عن الغرباء أغراضهم الحقيقية.

-١٩-

▣ تملكتني نشوة لذيذة، وأنا أحصل على الاكتشاف الكبير الذي استطعت الوصول إليه اليوم، وهو الاكتشاف الذي كنت أحلم به في لحظات يقظتي طوال الأسبوع الماضي، وهو حصولي على دليل حاسم ومؤكد على انضمام أيزموند إلى جماعة العنقاء. وهكذا

رجعت إلى غرفة نومي وانا احضن صندوق الصفيح الأسود الذي وجدت فيه المخطوطات والأوراق والخطابات. استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - والذي ادخله مضيفنا بناء على فكرة صائبة - لكي اسأل المطبخ ان كان من الممكن ان يرسلوا الي افطاراً خفيفاً في حجرتي. لم يزعجني احد او يقطع علي وحدتي، رغم انني سمعت الستير يمر امام باب حجرتي في طريقه إلى السقيفة. وفي خلال الساعة التالية عرفت عن ايزموند اكثر مما عرفته في خلال اسابيع البحث السابقة.

لن انقل هنا تلك الخطابات كاملة، لأسباب ضيق المساحة؛ فإنها قد تحتل خمسين صفحة. كانت القصة التي جمعت اجزاءها من الخطابات كالتالي: كان ايزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين: روسو ورستيف دي لابريتون. وكان الأخير عضواً فيها، مثلما اكتشف ايزموند فيما بعد. وكان ايزموند قد وصل بنفسه إلى افكار قريبة من افكارهم مثلما رأينا - ومثلما وضحت تلك الخطابات توضيحاً كاملاً. عرف بوجود الجماعة، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها. وهكذا فقد اصدر كتاب "ملاحظات على فرنسا وسويسرا" ورسم على الغلاف صورة العنقاء، وأضاف إلى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها إلى الراهب اللوثري (الوهمي والذي لم يكن له وجود).

ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك. فقد وصلته بالبريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة. ومن كان اول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية؟ من المضحك والسخيف معاً ان تكون هي اول فتاة ادخلته عالم مباهج الحب،خادمة شقيقته ماري، أو مينو. كانت مينو قد استأنفت حياتها المفعمة بالغلمة الجنسية في باريس، واصبحت عشيقة احد اعضاء الجماعة الذي رأى في عبادتها الخالصة من اي هوى لأعضاء الذكر التناسلية جوهر المؤمن الحق بأفكار الجماعة.

كان جليني وايزموند صديقين حميمين. ولكن جليني يفتقر الى الميزة الأساسية اللازمة لعضو الجماعة؛ السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمو على اي تجربة شخصية. ورشحه ايزموند لكي يكون عضواً، وأمضى جليني يومين في باريس بصحبة ايزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية" خطابات من فوق احد الجبال" باسم عبدالله الصباح، وقد اختار جليني هذا الاسم بعد أن استعاره من الأستاذ الأعظم لجماعة

الحشاشين)[1]. ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحاً. فيما عدا ان ايزموند تعارك مع جليني فرحل جليني غاضباً. وبعد شهرين التقى بايزموند مرة اخرى في لندن، فتصالحا وسويا خلافهما، وكان ذلك بمبادرة من جليني فيما هو واضح. وخلال هذه الزيارة، حدث أن قابلا ماري وشارلوت انجستر، ابنتي ايرل فلاكستيد، اللتان كانتا تقيمان مع ابنة عم *ايزموند*، إليزابيث مونتاجو، وعقدا اتفاقاً فكاهياً (يتزوجان بمقتضاه من الفتاتين على ان يقتسماهما فيما بينهما). وفي احد الأيام طلب جليني من ايزموند ان يخبره بما يعرفه عن جماعة العنقاء. وفي لندن قابلا رستيف ايضاً مرة اخرى - وكانت النتيجة مشاجرة أخرى، او بالأحرى، انفجاراً غاضباً آخر من جانب هوراس جليني (وقد اكد كل ذلك تخميني السابق من انه كانت في هذه العلاقة، من جانب هوراس جلني، ميول شاذة جنسياً). واستأجر جليني منزلاً صغيراً في شارع جراب ليقوم فيه ببحوثه، وكتب نشرة "حول جمعية العنقاء الشريرة". ووصلت أخبار هذه النشرة إلى ايزموند، فاقنع جليني الا ينشرها.ووافق جليني فكرس خريف عام ١٧٧٢ لإغواء ماري انجستر، بينما القى ايزموند حصاراً ناجحاً حول شارلوت. ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة اخرى، وعاد جليني الى اسكتلندا وكتب هناك رواية "خطابات من فوق احد الجبال" في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي. كتب الى ايزموند لكي يقول إنه بينما يقيده وعده بالا ينشر النشرة التي كتبها، فإنه شعر بأن هذا العمل الروائي الخيالي كان شيئاً مختلفاً كل الاختلاف. (وقد كان هذا التصرف محاولة لجذب انتباه إيزموند بأي ثمن؟) وكانت النتيجة ذلك الخطاب الطويل الذي وصل من أيزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة.

لقد كنا صديقين - انا وانت - سنين عديدة - ولا اقول شقيقين. كثيرة هي الزجاجات التي افرغناها معاً، وكثيرات هن الخادمات اللواتي حررناهن من - فضيلتهن بملاطفاتنا وارجحاتنا المتبادلة. فلماذا، إذن، تختار هذا الوقت بالذات لكي تتهمني بانني اتعامل على الوجهين؟ ما الذي حدث لتلك الأخوة التي اقسمنا عليها في الفندق في هايدلبرغ، حينما مزقت ذراع شخص سافل، وضربت انت سافلاً آخر على عينيه حتى اعميته؟

(١) الحشاشون - جماعة اسسها الحسن بن الصباح في القرن الحادي عشر في شمال العراق وإيران، وكان ابن الصباح من الفاطميين الإسماعليين، نسجت حوله وجماعته العديد من الأساطير، وذلك بسبب سرية تنظيمهم، واحتمائهم بقلعة (آلموت) والتي اعتبرها اتباع ابن الصباح جنة الله الحقيقية. كانت لابن الصباح وجماعة الحشاشين آراء متطرفة، خاصة انتهاجهم لسياسة انتهازية ودموية في نشر حركتهم رغم سرية الحركة في مراحلها الأولى.

تبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة، عن وجبات الطعام التي تناولاها معاً والنساء اللواتي اشتركا في إغوائهن، تبدو شيئاً لا قيمة له وتصرفاً لا جدوى منه من جانب ايزموند. كان هوراس جليني مجبولاً من عنصر اكثر خشونة.كان هو يعرف ذلك. وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئاً اقرب إلى ابتزاز ايزموند، - وكانا - كلاهما - يعرفان ذلك. كانت علاقتهما علاقة استاذ بتابعه. لقد التقيا حينما كان المتفوق - ايزموند - قد اكتشف مباهج الجسد الأنثوي، فراح يعظ حواريه الجديد عن موضوع إغواء النساء بحرارة ثوري وحماسته. ولقد راينا كيف استجاب جليني لهذه المواعظ - في قصته عن فيونا وماري. ومن قائمة الأسماء التي ذكرها ايزموند، يمكننا ان نستخلص انهما اشتركا معاً في عدد كبير من العشيقات في غوتيغين. ولكن ايزموند لم يكن مهتماً بصورة أساسية بالجنس في حد ذاته. بالنسبة إليه كان الجنس مفتاحاً لحل لغز معين، وكان هذا اللغز هو ما يثير اهتمامه. ولكن هوراس جليني - من ناحية تكوينه المزاجي - كان يتشابه في كثير من الجوانب مع كازانوفا، الذي كان قد قابله ذات مرة في اوترخت. كان يحب طيبات الحياة، وقد احب من بينها النساء. ولم يستطع ان يفهم لماذا لا يستطيع ايزموند - استاذه في فن الإغواء - ان يعيش في لندن عاصمة إنكلترا ليشترك في نادي نيران الجحيم الذي كان السير فرانسيس داشوود قد ترك رئاسته. بالنسبة لجليني كانت لندن هذه - مدينة شيريدان وويلكيز وداشوود - هي اكثر مكان في العالم سحراً وجاذبية: صراع الديوك وسباق الخيل ومباريات الملاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماما) وليالي دروري لين، وصحبة النساء الجميلات. فما الذي يريده ايزموند اكثر من هذا؟ لماذا اصبح مفسداً لجمال اللعبة إلى هذا الحد؟ وقد كشف إغواؤهما المشترك للشقيقتين انجستر عن ان زمالتهما كانت قوية كعهدهما ابداً. فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحدث الفرنسية بطلاقة كاملة والذي لا يبدو ان من الممكن ابعاده عن ايزموند؟ وحينما اعترف ايزموند اخيراً بان الرجل ينتمي الى جماعة العنقاء، بهت جليني. كان ايزموند ما يفتا يحدثه عن هذه الرابطة الأخوية التي تربط اعضاء الجماعة، فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو. ولكن جليني لم يصدق ابداً بوجودها. وهاهو ايزموند، الآن يصبح عضواً فيها! لقد فسر "ذلك" كل شيء. ان ايزموند لم يعد مطارداً حراً للنساء لأنه وقع بين أيدي جمعية - سرية يديرها بعض الأجانب، كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجاً لأعضائها. كان رد فعل جليني مزيجاً من الخوف والاشتياق والغيرة - مع غلبة هذه العاطفة الخيرة. فراح يتحدث

بصراحة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء - ولابد ان جونسون التقط في احد هذه الأماكن ما كان يقال عن ايزموند همساً وفي الشائعات - فكتب نشرته. ولو ان ايزموند كان اقل إخلاصاً لصديقه لكان قد عاد الى ايرلندا وقطع علاقته به. ولكنه بدلاً من هذا حاول أن يهدئ ثائرته. وربما كان الأصدق أن نقول انه حاول ان يفهم جليني ما طرا عليه من تغيرات منذ ايام وجودهما معاً في غوتيغين.

"كنت أؤمن دائماً بالراي القائل بان هذا العالم في قرارته عالم سحري، واننا إذا لم نكن سحرة فإن الخطا يقع على عاتقنا نحن. ان ديدرو يجعل دالامبير يقول: لماذا اكون على ما انا عليه؟ لأن هذا يبدو لي في صورة اكثر الأشياء تحكمية وإطلاقاً في العالم". إنني قد اكون اي شيء او في اي مكان. قد لا يكون شكلي اكثر ثباتاً من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة في صباح ساكن الهواء، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من المرمر، ولكننا نعرف ان اقل هبة هواء يمكن ان تغير شكلها وان تبددها في الفضاء دون نهاية. لقد جلست ذات صباح على احد الجسور ورحت انظر شلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك، وتملكتني فجاة فكرة ان الناس تحاصرهم قوى يعجزون عن فهمها، ومع ذلك فإنهم يتوهمون أنهم باقون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود، لقد ادركوا طبيعتهم الخاصة، ولم يظنوا قبضة الدخان عموداً من المرمر. وفي هذا الجانب يمكن ان نقول أنهم فهموا العالم بشكل افضل من فهم مستر ديدرو او مستر فولتير له. ولكن الأبله وحده هو من يجب ان يعود إلى الحياة التي عاشها المتوحشون الرعاة، وبالنسبة لنفسي، فإنني لست بالصياد ولا بالمحارب. ولكنني طالما لاحظت أنني حينما يغرق مهري المنطلق في بيته الذي كان ينتظره، سواء كان ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع او خادمة في إصطبل، فإنني كنت ارى لحظتها ان العالم ثري دون حاجة إلى برهان، وانه دافئ ولا نهائي. تسقط الغمامة التي تعميني عن عيني، وينزاح الثقل الذي يكبل حواسي، فارى في لحظة واحدة وعلى التو ان الإنسان قد ترك ما كفله له ميلاده من حقوق نهباً للسارقين والناهبين. ولكن إذا كانت هذه الرؤية السحرية هي حقي بحكم المولد، فلماذا ينبغي علي ان اتقبلها في شكل شذرات متفرقة غير موصولة، مثل كلب يختطف مزقاً من اللحم يلقيها إليه على الأرض سيده؟ إنها ملكي، الن امسكها واقبض عليها باليمين؟

هذا ما آمنت به دائماً، وأنا أعرف الآن ما يكفي من اللاهوت لكي أعرف أن حق المولد هذا هو ما فقده البشر بسبب خطيئة آدم. ولكن كيف لنا أن نأمل في العثور على ما فقدناه إلا بالبحث المنهجي المنظم؟ لقد آمنت دائماً بأنه لابد أن يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة. ولقد اكتشفت الآن أن هناك رجالاً كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وأنه يمكنهم أن يعلموني شيئاً من أساليبهم. فهل يمكنك حقاً أن تصدق أن مثل هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا أشراراً، وأن هدفهم هو أن يستولوا على روحي الخالدة؟ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحاً ما تقوله عنهم؟ لأنني، ولا أنت، أصدق أن الروح يمكن أن تسلم رهينة أو سبية، إلا إذا أسرتها البلادة والغلظة وكثرة الاهتمام بما لا أهمية له.

كلا، إنني أسعى وراء شيء أكثر أهمية بكثير من بكارات الفتيات اللواتي لم يمسهن بشر قبلي.

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد؟ يعبر أيزموند عن هدفها الأساسي في جملة واحدة: "ليس هدفنا هو تلويث الأحاسيس الدينية، أو الانحدار بها عن طريق التلذذ الحسي، وإنما هو الصعود بالتلذذ الحسي إلى مستوى الأحاسيس الدينية". ولكن كيف كان من المفروض أن يتحقق ذلك؟ يتعمد أيزموند أن يكون غامضاً في هذا الصدد. كان لديه السبب الذي يدفعه إلى عدم الوثوق في جليني. ولكن كان من الواضح أنه حينما جاء إلى غلوسين - في أبريل عام ١٧٧٣ - أخبر جليني بالتفصيل أكثر بكثير مما كان على استعداد لأن يسجله كتابة، وكتب جليني بدوره بعضاً مما أخبره به أيزموند، بنية أن يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي أزمع كتابته. وأظن أنه من المستحيل أن نشك في أن جليني كان ينوي دائماً أن ينشر الكتاب. وأنا شخصياً متردد في أمر إدانته. إن الكتاب عمل جدير بالإعجاب، رغم كل ما يحتويه من سخافات عابثة. وقد يكون من حق المرء أن يقول إنه يكون ما أوكله هوراس جليني من مهام إلى الأجيال القادمة. فهل يمكن أن يوجه اللوم إلى كاتب لأنه لم يدمر أحسن أعماله بيده؟

من خلال مذكرات جليني - التي سوف ألخصها أكثر مما اقتطفها كاملة هنا - يبدو واضحاً أن جماعة العنقاء تشترك في الكثير مع جماعة "الصلب الوردي" أو الماسونيين الأحرار. كان هناك أستاذ أعظم، لديهم أشبه بالبابا، تنتخبه لجنة تعرف بـ"لجنة المشرفين"، وسمهم بالإنكليزية The dominoes جاءت ربما من كونهم كانوا يرتدون عباءات ذات

أقنعة تغطي رؤوسهم، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التنكرية. وكان لكل بلد مشرف واحد. في فرنسا كان المشرف هو الكاتب شوديرول دي لاكلو، مؤلف رواية "العلاقات الغرامية الخطيرة" وقد أصبح أيزموند فيما بعد هو المشرف في إيرلندا.

والشيء الواضح تماماً، من مذكرات جليني ومن كتابه "خطابات من فوق أحد الجبال" هو أنه كان هناك دائماً نوع من الخلاف الأساسي في الرأي داخل الجماعة حول نقطة جوهرية من نقاط القانون الأساسي. كانت الجماعة تؤمن بأن الإنسان ينظر إلى معنى العالم باعتباره "لغزاً سحرياً" بصورة أكثر دواماً من خلال الفعل الجنسي مما يحدث من خلال الدين أو الفن. (والكلمة الهامة هنا هي كلمة "الدوام". إن أحداً لم يفكر أبداً أن ما تحققه التجليات الصوفية من أنواع النشوة يمكن أن تبلغ أعماقاً أعظم من أي أعماق يمكن أن يبلغها الإنسان عن طريق الجنس. ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يستطيع أن يقترب من أسرار الجنس كل يوم).

وقد لاح لي أن كل أعضاء الجماعة وافقوا على أن مجرد الاتصالات الجنسية غير الشرعية، دون سيطرة، ستؤدي إلى الضجر والملل. ولكن كان هناك اختلاف كبير في الرأي حول العلاج المفترض لذلك. كان التقليد الذي اتبعته الجماعة - منذ أربعة قرون - هو أنه لابد أن ينظر إلى النساء باعتبارهن أوعية تحتوي السر الأعظم الغامض. وقد دفع آباء ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة إلى أكمل تطور لها في القسم الأخير من القرن السادس عشر. ومن جانب آخر، فإن الهولديانيين، وهم جماعة نشأت بين قبائل الألمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التيوتونية)، كانوا أقرب إلى أولئك "الرهبان" الأوائل الذين ارتكبوا جرائم الاغتصاب كلما أمكنهم ذلك، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح أكثر إشباعاً ووصولاً إلى السر الغامض كلما كان عنيفاً ومفاجئاً. وفي القرن الثامن عشر، كان الانضمام إلى جماعة الهولديانيين، يعني أن العضو يحاول ولوج أكثر عدد ممكن من الأعضاء الأنثوية، والأفضل أن تكون لعذراوات. وكان هوراس جليني هولديانياً دون أن يعرف ذلك، وكذلك كان أيزموند في أيامه الأولى. وكان لاكلو هولديانياً، وكذلك كان الأستاذ الأعظم، عبدالله يحيى، وخلفه هندريك فان جريس، أما الرجل الذي كان مسؤولاً عن انضمام أيزموند، عبدالله مؤمن، فقد كان ينتمي إلى تقاليد آباء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيكمونيين Hegumenos.

وكان الهيكمونيون الأوائل (الذين أخذوا اسمهم من قائدهم الأول (الأب الراهب المطرود من الدير، والذي كان عضواً راهباً بين جماعة من رهبان الأبراج) قد اختاروا فتاة صغيرة جميلة كنوع من الكاهنة الأولى، واختاروا اثنتي عشرة فتاة أخرى بوصفهن وصيفات لها. وكانت هؤلاء الأخيرات كاهنات أيضاً. وعُبدت النسوة بوصفهن كائنات مقدسة. ولكن الأعضاء الذكور في الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكائنات المقدسة، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى أن تصل إلى مرحلة الجماع الجنسي الكامل. ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة، كان على الذكر أن يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع طوال عدة شهور قبل أن يتم الاتصال، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقترب فيها من السر بالتدريج. فإذا استطاع أن يرقد عارياً على درجات "المعبد" الحجرية في ليلة شتائية - من الغسق حتى الشروق - فإنه سيسمح له بأن يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة ساعة كل يوم، فيحمل إليهن الطعام وينظف حجراتهن. وكان يسمح له بأن يأكل بقايا الطعام. وبعد مزيد من الاختبارات، تتضمن غرس شظايا من الخشب تحت أظافره، ولسع نفسه بالنار عند الأجزاء اللينة من ذراعه، فإنه سيمسح له بأن يصبح، "خادماً خاصاً" لثلاث كاهنات أخريات، فيغسل ثيابهن، ويخيطها ويغسل لهن شعورهن. كانت إفرازات أجسادهن تعتبر أشياء مقدسة، وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص أن يأخذ تلك الإفرازات إلى مكان قصي من الغابة فيدفنها هناك حتى لا يستطيع أي ذكر آخر من القبيلة أن يعثر عليها. ولكنه - وحده - كان يسمح له بأن يلوث نفسه ببرازهن، ثم يحمم جسده ببولهن. وهذه ميزة كان يحسده عليها كل ذكور القبيلة الآخرين. وكان مزج السائل المنوي للعباد بإفرازات "المقدسات" ينظر إليه باعتباره المرحلة الأولى من مراحل الاتحاد بالكائن المقدس. فإذا استطاع أن يعبر بالمزيد من المهام المتزايدة الصعوبة والألم، فإنه كان ينال الإذن بممارسة المزيد من الامتيازات، حتى قد يصبح واحداً من الرجال الثمانية الذين يقومون بدور "الخدم الخصوصيين" للكاهنة الأولى المقدسة نفسها. وفي هذه الحالة فإنه قد يكون الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانية لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد، ثم يجامعها مرتدياً جلد عجل. كان عضو الكاهنة الأولى وعضو عابدها الذي شاركها في إقامة الشعائر يجففان بقطعة مقدسة من نسيج التيل بعد الاحتفال، ثم تمزق قطعة النسيج وتقسم إلى ثمانية أقسام ويعطى كل

واحد من الخدم الثمانية قطعة منها، يعلقها كل منهم على رأس عضوه طوال ما بقي لهم من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية.

وأظن أنه من الممكن أن نرى أن الفكرة الأساسية لدى الهيكومينيين، كانت هي محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالوله الديني، وأن كل مرحلة صعبة أو مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامح في الوصول من أن يصبح بأي شكل مسترخياً أو غير مبال بمهمته. فإنه إذا فقد حالة انعاظه في أي وقت في حضرة الكاهنات، فإنه يجلد ويعاد إلى القبيلة محقراً مهاناً. وكان معنى هذا أنه أصبح يعتمد على خياله إلى حد كبير. ويجب أيضاً أن نلاحظ أن وضعه الحقيقي كان أشبه بوضع خادمة إحدى السيدات، فكان يعامل باعتباره امرأة، حتى يشعر بالمهانة، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومثمرة. وتقدم الفكرة كلها على أنه لا ينبغي أبداً أن يعامل الجنس كشيء "فوق المستوى" أو كشيء عادي، أو أن ينظر إليه كشيء من المسلمات. كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس أصبح مقدساً مخيفاً، ومثيراً جنسياً. وأصبح عضو الكاهنة هدفاً مقدساً نهائياً، وينظر كل ذكور القبيلة بحسد إلى الخدم الثمانية لأنهم يحملون على رؤوس أعضائهم قطعة النسيج المبللة بإفرازها الجنسي.

وقد فضل أيزموند تعاليم الهيكومينيين على تعاليم الهوديانيين. وقسم كبير من الخطاب الطويل الذي كتبه إلى جليني مكرس للمناقشة ضد النوع من الإغواء الذي كان أيزموند يدعو له من قبل. ويظل يردد أن هذا النوع ليس له تأثير دائم، أنه يؤدي إلى الإشباع.

والقصة التالية تعد واحدة من أكثر قصص العلاقة بين أيزموند وجليني أهمية - ومن أسوئها تسجيلاً. وقد أمكنني أن أجمع أجزاءها من عدة مصادر، بما في ذلك بعض خطابات أيزموند - تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة - وخطابات ويوميات كتبها هوراس جليني. وخطابات أخرى كتبتها ماري وموربن انجستر. أما القصة التي يمكن استخلاصها منها فهي كالتالي:

حينما تم الصلح بين أيزموند وهوراس جليني في لندن في شهر أكتوبر عام ١٧٧٢، كان أيزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس. كانت صوفيا تسمى صوفيا بلاك وود بعد أن تزوجت السير ادموند بلاك وود، وهو مالك ثري لأحد مصانع

الشراب، كان والده أحد من ساندوا الموسيقار هاندي. وكانت لادي ماري وشارلوت أنجستر تقيمان مع اليزابيث مونتاغو، صاحبة الجورب الأزرق، التي كانت تلقنهما علم الفلك والتنجيم. وافتتن ايزموند بشارلوت اللذيذة البرينة، التي كانت عند ذاك في التاسعة عشرة والنصف من عمرها. اما جليني فقد اسرته لادي ماري، الذكية الجميلة والأكثر تمالكاً لنفسها من اختها، رغم انها كانت تصغرها بعام كامل. (وهذا الاختلاف يعبر بدقة نموذجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين، إن أيزموند الماهر المسيطر، قد فضل الحلاوة والبراءة، وجليني غير الواثق بنفسه تماماً، دوخته الأكثر ذكاء وثقافة بين الاثنتين).

ويبدو انه من المحتمل ان جليني ما كان يمكن ان يرمي الى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع ايزموند، فقد كان يشعر براحة اكبر وهو يغوي من هم دونه في الوضع الاجتماعي. اما ما كان مصدر التاثير على ايزموند، فهو ان اكثر الرجال نباهة كانوا يخجلون من ابنتي آنسجتر لما اشتهر عنهما من ذكاء وثروة كبيرة. كانت جماعة الرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين لراجحتي العقل والمركز الاجتماعي، اما المحترمون من الشباب - الذين من المحتمل انهم كانوا يبدون في صورة قريبة من شخصية "دارسي" التي رسمتها جين اوستين او مستر بنجلي - فإنهم كانوا يغمرون الفتاتين بكلمات الثناء والمجاملة وكانوا يحاولون فتح المناقشات الثقافية معهما. اما استجابة ايزموند فكانت اكثر بساطة. لقد فكر فيهما معاً باعتبارهما فتاتين لذيذتين، وقال لجليني ان الرجل جدير بأن يقضي ليلة مشهودة بينهما معاً.

وكان جليني يعرف انه حينما يقول ايزموند شيئاً من هذا القبيل، فإنه لا يكون يعبر عن مجرد امنياته التي لا سبيل لتحققها. ولو كان هناك اي رجل في لندن قادر على اغواء بنتي انجستر، فإن هذا الرجل هو ايزموند. كان يتمتع بالمؤهلات المثالية لإغواء الفتيات المثقفات المدربات على التعامل الاجتماعي، العقل الجيد. فقد كان هووليتشنبرج ابرز وافضل طلبة الرياضيات بين جيلهما في غوتيغين. وكانت ابنتا انجستر تعرفان ليتشنبرج بالفعل - فقد حدث ان قدم إليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن الملك نفسه، في هامبتون كورن، وفحصت الفتاتان منظار الملك العظيم هناك تحت إشراف ليتشنبرج. ومن الواضح أن ايزموند لم يكن يجد صعوبة في ان يلتقي كثيراً بابنتي انجستر، طالما انهما كانتا تقيمان عند اليزابيث ابنة عمه صوفيا. وكان منظر ايزموند الخاص - الذي قام بصنعه مصنع

شوارمز في ليدن - قوياً قوة غير عادية، فاقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاك وود، وثبت رسومه التوضيحية وخرائطه بالدبابيس في الحائط، ثم دعا إليزابيث مونتاغو وضيفتيهما الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتشنبرج، وكان اليزابيث متلهفة الى هذا العمل. وكان من حسن تصرف ايزموند ان اعد وجبة صغيرة في "مراقبه" - من دجاج الحجل وطيور الغابة (نقار الخشب) والسمان، والخنزير الإيرلندي. وبعض الطيبات الرقيقة الأخرى. طرحت السيدات اسئلة عديدة، وحدقن في المنظار لمدة تزيد على الساعة. ثم انتقلت المحادثة الى الفلسفة، وراح ايزموند وليتشنبرج يتناقشان في ليبنز وفولتير وهيوم، وفي المقالة الافتتاحية للألماني الكبير ايمانويل كانت التي يقول فيها ا الحقيقة غير قابلة للمعرفة، وان الحواس هي التي تملي شكل معرفتنا لكل الظواهر. (كان كتاب "النقد" الذي تطورت فيه هذه الأراء لم يكن قد صدر بعد، إذ لم يصدره كانت إلا بعد ذلك بتسع سنوات). تأثرت اليزابيث مونتاغو تأثراً عميقاً، وقالت انها لم تستمتع ابداً الى مثل تلك المناقشة العميقة الشاملة القلقة. كلا، ولا حتى من بيرك وجاريك، ولا حتى من جونسون نفسه. لقد كانت شيئاً ثقيلاً على الرأس، تلك الفلسفة النقدية الألمانية. ولكن التاثير المطلوب كان قد تحقق. وقالت اليزابيث مونتاغو فيما بعد ان ايزموند كان واحداً من اكثر "العازبين" الشبان نباهة في لندن. واقتنع ايزموند بالفعل بانه قد ترك انطباعاً طيباً عند شارلوت. اخذ يدها للحظة متظاهراً بانه يساعدها على الهبوط في ركن مظلم من السلم، فسمحت له بان يستبقي يدها في يده لمدة ثوان أكثر من اللازم.

ولم يكن هوراس جليني حاضراً في تلك المناسبة. ونحن نعرف السبب بالتحديد، لان ايزموند يفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة "خطابات من فوق احد الجبال". كان ايزموند يعرف ان جليني لن يستطيع ان يترك تاثيراً فورياً على السيدتين، لانه على شيء من الخجل (ولكن ما كان ايزموند يعنيه بوضوح هو ان جليني ما كان يمكن ان يلاحظه أحد وسط جماعة تضم ليتسنبرج واليزابيث مونتاغو وهو نفسه). كان عليه ان يحسن إعداد "مدخله". واكتشف ايزموند ما كانت ماري انجستر تقراه، وامضى جليني اربعاً وعشرين ساعة في تفحص الكتاب ووضع ملاحظات ذكية. خرج ايزموند للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار، وحكى لهما عن شخصية صديقه جليني الرقيق الخجول النبيل. قال لماري ان جليني قد نشئ باسلوب ديني متزمت، وان معرفته بالفلسفة الألمانية تدمر عقيدته، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليني في

كاتدرائية تشارتر، وهو يسأل والدموع في عينيه: "هل كل هذا المجال مجرد نصب تذكاري لقدرة الإنسان على أن يخدع نفسه؟". وهكذا فإنه حينما أخذ جلبني لزيارة ليزابيث مونتاغو بعد ذلك بيومين، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تهتم به. فقد انتهزت أول فرصة لكي تأخذه إلى ركن هادئ، حيث تستطيع أن تسأله بإخلاص عن شكوكه. وكانت المقابلة أكثر نجاحاً مما كان يتوقعه أي منهما. فقد وافقت على أن تخرج للركوب مع جلبني في الحديقة في اليوم التالي، وقضت الليلة في حفظ الحجج التي أوردها بتلر وتيللوتستون للبرهنة على وجود أثر صناعة الله في الطبيعة. وفي مقابل هذا، قام جلبني ببعض العمل التأثيري لصالح أيزموند، بإشارات غامضة عن أحزان سرية وحب مفقود. ولا شك في أنهما كانا يكونان فريقاً قوي التأثير.

وتم اختيار أيزموند لكي يشكل مكاناً مثالياً بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت مع شارلوت. كانت اليزابيث هي ابنة عمه، وكانت الفتاتان قد أصبحتا صديقتين لصوفيا بلاك وود. ولم يكن بمقدور أحد أن يظن أنه من غير الطبيعي إذا سارت شارلوت من ماي فير حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي أن ترتديه في حفلة الخريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فإذا لم تكن صوفيا في البيت، فلماذا لا تمضي ساعة أو نحوها في مناقشة الفلك والميتافيزيقا مع ابن عم صوفيا؟.

وعندما وصل شهر أكتوبر إلى منتصفه، كانت شارلوت تعترف لماري بأنها ستكون ميالة إلى القبول لو أن أيزموند تقدم لخطبتها. ولمحت ماري بذلك إلى جلبني الذي أخبر أيزموند. ودهش حينما لم ير أن صديقه يغمره سرور من نوع خاص لسماعه هذه الأنباء. ولكن أيزموند كان يرى الأمور بوضوح صافٍ إلى درجة كافية لكي يرى أن الموقف كان يتطور بسرعة أكثر من اللازم، وأنه بدا يبدو موقفاً خطيراً. فإذا كانت صوفيا واليزابيث وماري قد عقدن عزمهم على القيام بخطبة، فإنه قد يجد نفسه مرتبطاً بخطوبة قبل نهاية الموسم. كان الوقت قد حان للقيام بتراجع مؤقت.

عند هذه النقطة قرر هوراس جلبني أن يزيد من وضوح قصته عن "الحب المفقود" وأن يضيف إليها تفصيلات ضرورية فأسر إلى ماري أن أيزموند مرتبط بابنة كاهن سويسري، وأن والد أيزموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولده بابنة قسيس كالفيني وأنه هدد بحرمانه من الميراث. وأن أيزموند، مثلما قال جيبون: "تنهج كما يتنهد العاشق، وأطاع

كما يجدر بالابن أن يطيع". وأن العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام، وأن الفتاة قد كتبت إلى أيزموند تقول له أنها قد خطبت إلى تاجر نبيذ من جنيف، ولكن أيزموند قد بلغه أخيراً أن هذا غير صحيح، وأنها ما تزال دون زواج وأنها لم تخطب، وأنها ربما كانت تنتظر أيزموند.

استبد الغضب بأيزموند حينما أخبره جلبني بما فعله. لم تكن لديه رغبة في أن يثير غيرة شارلوت ولا أن يشعرها بالتعاسة، وإنما أراد فقط أن يختفي لمدة طويلة حتى تيأس منه الخاطبات. أما الآن فقد اعتقد الجميع أنه أراد أن يعود إلى سويسرا لكي يلقي نظرة أخرى جديدة على حبه الضائع. ولم يكن من صالحه أن ينكر وجود مثل هذا الحب، فإن أحداً ما كان ليصدقه.

وفي إحدى الأيام عندما كان راكباً مع شارلوت في مارليبون فيلدز سألته أن يظل في لندن حتى يستطيع أن يصحبها إلى حفلة لادي ساندويتش. وعرف أيزموند أن هذا التصرف يمكن أن يكون قاتلاً، فشرح لها استحالة ذلك، وعادت شارلوت إلى البيت باكية. وفي اليوم التالي ذهبت ماري أنجستر لزيارة صوفيا، واشتركت الاثنتان في الإلحاح عليه للبقاء. وقالت صوفيا أنه من السخف وقلة العقل أن يبرح لندن في قمة الموسم، وأن عمله في إيرلندا يمكن أن ينتظر. وحاول أيزموند أن يقلل من الضغط الموجه إليه بالقول بأنه سوف يعود إلى لندن حالما ينتهي من أعماله، لكن لم تكن في هذه أية فائدة. فقد كانت شارلوت مقتنعة بأنه إذا غادر لندن الآن، فإنه لن يعود إليها ثانية أبداً.

جاءت إلى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت إقناعه بالبقاء. واعتذر لها أيزموند بلباقة قائلاً أنه لابد أن يرحل للقيام ببعض الأعمال العائلية الضجرة المتعلقة بالمزرعة. سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل، ولماذا لا يستطيع أن ينتظر، ثم لجأت إلى البكاء، ووجد أيزموند نفسه يلاطفها ويهدئها ويربت عليها. كان في الرابعة والعشرين وكان كثير الشكوك. وكانت هي فائقة الجمال. وقد كتب يقول في خطاب إلى لاكلو بعد ذلك بعدة سنوات:

لقد كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن أكثر الفتيات فضيلة وبراءة، هن أولئك اللواتي دربتهن طبيعتهن أفضل تدريب على فن الإغواء، فإذا وقعن في الحب، فإن مقاومتهن تكاد مستحيلة. والمرة الوحيدة التي وقعت أنا فيها فريسة للإغواء، حدثت على يد عذراء من

هذا النوع. وقد حدث ان صديقاً غبياً جعلها تصدق انني انوي ان اسرع إلى الزواج من امرأة اخرى كنت قد برهنت لها على جدارتي بحبها. وجاءت ذات يوم - كنت فيه وحيداً في المنزل، لكي تقنعني. وحتى تلك اللحظة لم اكن قد فعلت معها اكثر من تقبيلها. وحاولت في البداية جاهداً وبامانة ان اقنعها، قلت لها أن صديقي كان ابله، وانني لم اكن انوي ان اذهب إلى سويسرا. فسالتني عن السبب الذي يجعلني - في هذه الحالة - مصراً على الرحيل والذي يمنعني من البقاء عدة اسابيع اخرى. ثم راحت تبكي فاخذتها بين ذراعي. حينما قبلتها كفت عن البكاء، ثم بدات تقبلني بشغف وحرارة وحتى انني بدات اتساءل عما إذا كانت فاضلة حقاً بالشكل الذي كنت اظنها عليها. دلني ذوقي على أن الوقت قد حان للتوقف عن تبادل القبلات، ولكن حينما حاولت ان اهدئها، اغلقت فمي بالقبلات وضمتني بشكل اقوى. ثم قالت انها تشعر بانها على وشك الإغماء، ثم جلست على اريكة، قلت انني ساذهب للبحث عن بعض الماء، ولكنها رجتني ان ابقى وان اجلس إلى جانبها. والآن، هل يمكن ان تعتقد انه من غير المعقول - في ظل تلك الظروف - الا افترض انها لم تكن بريئة - أو انها لم تكن تتعمد التاثير الذي احدثته بالفعل على العضو الذي اعبدها به؟ دلني منطقي على انني إذا جابهتها بما اكتشفته عن نواياها، فربما صدمت وتخلت عن تواضعها ولجات إلى التظاهر الكاذب. ولذلك، فانني بعد ان ركعت إلى جوارها ووضعت راسي على صدرها، دسست يدي تحت صدر ثوبها المفتوح وحررت أحد نهديها من حمالته المشدودة. وحينما لم تحتج، ادركت أنها سمحت لي بذلك لأنها احست انها بهذا الشكل تكسبني وتاخذني من الفتاة الوهمية التي تنتظرني في جنيف. وثار فضولي لاكتشاف المدى الذي يمكن ان يصل إليه بها هذا التفكير. تحولت بشفتي إلى قدميها لم تكن ترتدي جورباً وكانت ساقاها ناعمتين لينتين. وحينما بلغ راسي ركبتيها، دست أصابعها في راسي، فظننت ان هذا كان بهدف منعي من القيام باي تقدم اخر، ولذلك فقد تقدمت فعلاً ولكن بتصميم اشد. ولكنها لم تبذل اية محاولة لإيقافي، حتى حينما رفعت ذيول ثيابها الداخلية إلى أعلى، حتى وسطها وكشفت عن تل صغير ناهد (...) قالت الآن "لا، لا " وحركت ردفيها إلى جانب من الأريكة، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل اية محاولة جادة لمنعي (...) ورقدت بعد ذلك في مكانها، وقد احتضنتني بقوة، عارفة انها ليس لها الآن ان تخشى اي هجران، وربما كان من المعقل ان تنتظرني اتقدم لخطبتها. شعرت بانها كسبت انتصارها بسهولة بالغة. ولذلك فانني بعد ان استعدت قواي الحيوية، ذهبت إلى الباب فاغلقته بالمفتاح والقيت مزيداً من كتل الخشب في

النار، ثم عدت إليها - كانت واقفة تنظر في منظار فلكي كان منصوباً على حامل منخفض - وشرعت احل اشرطة ثوبها. احتجت ولكنني تجاهلتها، لانني شعرت بانها إذا كانت قد عزمت على أن تصبح زوجتي، فان عليها ان تبدا في اداء واجباتها على الفور. ولم تكن الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي، لانها سمحت لي بان اخلع عنها كل ثيابها قطعة قطعة بعد ذلك جعلتها ترقد امام نار المدفاة، ورحت ابذل جهودي مع نهديها بارادة قوية...

وبعد أن سمحت لها بارتداء ملابسها، هبطنا الى الطابق السفلي ودققنا الجرس طلباً للشاي، وامضينا نصف ساعة نتحدث عن الزواج. وبعد ذلك، ولما كنا ما نزال وحيدين، قلت لها ان تاتي معي الى حجرتي لكي نبذل محاولة اخرى واحدة، فجاءت معي على غير رغبة منها...

هكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلاً، وسلمت لادي شارلوت انجستر عذريتها لرجل كان مصمماً على ان يرفضها. ونادراً ما تدخل خطابات ايزموند إلى لاكلو إلى مثل تلك التفاصيل الجسدية. فقد كان كل من الرجلين مهتماً اكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء. ففي سن الرابعة والعشرين، لم يكن ايزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك أن شارولوت انسجتر كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية الماسوشية الواضحة. لقد ارادت أن يمتلكها الرجل القادر على ان يامرها ان ترقد على الأرض وان تفتح ساقيها. اصبحت عشيقة ايزموند، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لادي كارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون. ومما يشير ايضاً - بنفس القدر من الأهمية - إلى مزاجها الاستسلامي انها بعد أن اصبحت عشيقته كفت عن حديث الزواج. فمرة اخرى، اثارت نزعتها الماسوشية في داخلها وضعها الشاذ غير السوي.

ولابد أن نلخص ما حدث بعد ذلك باختصار. ربما كانت بعض الإشاعات قد وصلت الى اذني ايرل اوف فلاكستيد عن ابنته مع ايزموند. فقد اخبرها ذات يوم بانه قد اختار لها زوجاً. وهو بارون اسكتلندي محترم يمضي جل ايامه في الصيد في احراشه الشمالية. فقالت انها تريد أن تتزوج ايزموند، ولكن اباها اجابها بان عليها أن تنسى كل شيء من هذا القبيل. ان ايزموند لم يكن شيئاً مذكوراً. إذ هو ابن احد ملاكي الأراضي الإيرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لإعالة بيت محترم في لندن. وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة، وتعددت نوبات الغضب والبكاء. فاخذت الفتاة واعيدت الى بيت الأسرة في ويستون على نهر ترينت،

حيث سقطت مريضة لعدة أسابيع، وكتبت ماري انجسنر إلى صوفيا، تطلب منها أن تنصح ايزموند بالعودة إلى إيرلندا، لأن اباها كان مصمماً على إبعاد شارلوت عن لندن طالما كان ايزموند موجوداً فيها. ورحل ايزموند. ومن الغريب تماماً أن ماري أصبحت معادية لشقيقتها بعد تلك الأزمة. ربما كانت حانقة للسهولة التي أسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع شخصاً مثل ايزموند، الذي كان ملائماً أكثر لماري نفسها.

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي أخبرتني بأمرها الأنستان دونيللي؟ كانت الفضيحة هي أن ماري قد فضلت ايزموند على هوارس جلبيني الذي تزوجته في اغسطس عام ١٧٧٣. وكانت هذه غلطة جلبيني إلى حد كبير. فبعد أن أسكن زوجته في الجناح الغربي من قصر كلوسبي، ودعا شارلوت لكي تاتي للإقامة عندهما، لم يتأخر عن دعوة ايزموند. ولبى ايزموند الدعوة على الفور، واستانف علاقاته بشارلوت فور وصوله. امضت الفتاة كل لياليها في حجرته، لتعود إلى حجرتها عند الفجر.

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه ايزموند إلى لاكلو، حيث ينتقد ايزموند قصة وردت في كتاب بريفو "ذكريات ومغامرات رجل ذي حيثية" يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادمتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع ان تحافظ على طهرها. ويقول ايزموند ان هذا كلام سخيف ومستحيل إلا إذا كانت الحبيب سكران.

لقد حدث منذ بضعة سنوات أن كنت مع أحد الأصدقاء، وكنا نشرب البورت أمام نار المدفأة، بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها - كل إلى غرفته- للنوم. ودفعنا الحديث إلى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من المراتين، فقال إنه كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة لو انه تزوج شقيقة زوجته. وناقشنا كيف ينعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للجنس، وسرعان ما اكتشفنا أن الشقيقتين تتشابهان في شيء واحد. وهو انهما إذا كانت نائمتين، فإنهما تسمحان لرجليهما بمواقعتهما دون أن تستيقظ إحداهما يقظة كاملة. وادى بنا هذا إلى فكرة أننا قد نجرب أن نكتشف ما قد يحدث لو انه اتيح لي أن اذهب للنوم مع زوجته، وأن يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي. بدت لنا الفكرة مسلية، فجربناها... ونجحت.

ولكن ما لم يذكره ايزموند في ذلك الخطاب، هو أنه نتيجة لتلك الليلة التي قضاها مع ماري، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجاً ثانياً لها - والأمر الذي كان فيه

مهانة لشارلوت. وبعد أن قضيا هذه الليلة معاً، لم تعد ماري تشعر بحاجة إلى إخفاء مشاعرها إزاء ايزموند. كانت مفتونة به منذ البداية، منذ ذلك اللقاء الأول الذي شرح فيه مع ليتشنبرج فلسفة كانت النقدية. أما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافاً كاملاً. كانت مغرمة به ولكنها لم تستطع أن تعجب به. وكانت تدرك أن عقله - على صورته التي عرفتها - كان بأكمله تقريباً من صنع ايزموند - إلى درجة أقل - من صنع ليتشنبرج. وحينما عاد ايزموند إلى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الطويل الضيق في فليت ستريت قريباً من منزل الدكتور جونسون - تبعته ماري، وأقامت عند صوفيا بلاك وود. وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول أن ايزموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد. وليس هناك دليل يثبت هذا، رغم أنه من الأكثر احتمالاً أن ايزموند ظل عشيقاً للمراتين معاً. ونحن نعرف أن ايزموند كتب إلى ايرل أوف فلاكستيد في ٢٣ نوفمبر عام ١٧٧٣، طالباً يد ابنته بشكل رسمي، وانه في ٢٨ من نفس الشهر، تسلم رداً بارداً مختصراً يقول فيه الإيرل أن شارلوت كانت مخطوبة بالفعل "لسيد نبيل من نبلاء كنت". ونحن لا نعرف أي نوع من الضغوط استخدمه الإيرل ضد ابنته التي كانت ما تزال أقل من سن الرشد. وقد قالت شارلوت فيما بعد لماري انه هددها بأن يحلق شعر رأسها ثم يرسلها إلى دير بلجيكي. وبعد يومين من عيد الميلاد التالي، تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر، لورد أوف سيفين أوكس. وهو نبيل يشير إليه دالبول بقوله انه "معتوه". ويقال أن الإيرل قد قال لوالد توماس جريفي، كاتب اليوميات المشهور: "إنها الآن قد خرجت من يدي، فلا يعنيني ما تفعله بنفسها". أما القصة التي يحكيها جريفي عن مبارزة حدثت بين ايزموند وبين والد شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن اقتفاء أثرها لاكتشاف مصدرها. وإذا كان فريزر "المعتوه" قد عرف مقدماً بقصة افتتان زوجته بايزموند وتعلقها به، فإنه يكون جديراً بالإيغار من بعد. ذلك أن ايزموند وجلبيني كانا زائرين كثيري التردد على "بليدز هاوس" في سيفين أوكس خلال الأعوام التي تلت عام ١٧٨٠. لقد ذهبت شارلوت إلى فريزر منقادة تماماً، ويقال أن فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر. وعلى ذلك فإن الأمر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر. وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقتها شارلوت بعد عام من زواجها قائلة أنها "تزدهر وفي غاية السعادة".

-٢٠-

■ وربما كانت قصة مورين انجستر، أصغر الشقيقات الثلاثة، هي أكثر القصص الثلاث اهمية وإمتاعاً، ولكن سوء الحظ، انها أسواها تسجيلاً وحفظاً. ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قولـه انها لابد ان تكون تجربة مبهجة أن ينال المرء حب مثل تلك الشقيقات الجميلات الثلاث، وانها تجربة لابد ان يحاول كل رجل ان يمر بمثلها خلال حياته. كانت مورين - عندما تزوجت ماري من هوراس جليني - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب، ورفض والدها ان يسمح لها بالذهاب إلى لندن لكي تقيم عند اليزابيث مونتاغو، بعد أن عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الأخريين هناك. ولكن طالما ان ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل أن تمنع مورين من الذهاب إلى كلوسبي والبقاء هناك. ومن الغريب تماماً، ان الإيرل كان يقدر هوراس جليني تقديراً عظيماً، وفي عام ١٧٨١، بعد أن ورث جليني اللقب من أخيه، وصفه الايرل بانه "أكثر الرجال عطفاً وبهجة في إنكلترا". وهذا جانب من جوانب جليني لابد ان نتذكره. ولما كان صديقاً ملازماً لأيزموند، فإنه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة. ولكن إذا لم تأسره الغيرة، أو إذا لم يحاول أن يقلد ايزموند او ان يتعمد التفوق عليه، فإنه يبدو كما لو كان رجلاً جذاباً مثير بالإعجاب، اصبح بالتدريج نموذجاً من نماذج الأرستقراطيين الرياضيين. (وهناك جانب آخر من طبيعته، يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية. وكان اقتناعه بأن ملحمة "أوسيان" كانت عملاً مزيفاً هو الذي دفعه إلى اكتشاف قصص المرتفعات الشمالية الشعبية الأصلية، التي قام بتجميعها، في شكل أقرب إلى شكل مجموعة لونروت كاليفالا، حولها إلى بناء قصصي واحد تحت عنوان "ذخائر الشمال" في عام ١٧٩٣).

وفي الخطابات التي وجدتها في نهاية مخطوطة جليني، لم أعثر إلا على إشارة واحدة لما حدث بين ايزموند ومورين انجستر. ففي الخطاب الثاني، يكتب ايزموند قائلاً: "تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة، وأنه يجب النظر إليهن باعتبارهن الحافظات المقدسات لأسرار الخليقة... ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من قدرة دائمة على الحلم وابتعاث الأحلام في الآخرين، مع رقة في التعبير المصحوبة بالرشاقة الطبيعية الجديرة بربة من الربات. وحينما يلتقي الرجال بمثل تلك النساء، فإنهم يصبحون غير مطالبين إلا بأداء واجب واحد،

أن يعبدوهن. وبعبادتهن، اعني تاكيد جلال الربة في قدسيتها الأبدية". وعلى هامش هذا الخطاب إلى جوار تلك السطور، هناك سطر بخط هوراس جليني يقول فيه: "بهذا، فاز بذكاء، بمورين انج".

وكانت هذه، حتى تلك اللحظة، هي كل معلوماتي عن مورين انجستر. وفي وقت متاخر من ذلك اليوم، قمت انا وانجيلا والستير بفحص كل ما وجدناه في الخزانة التي اخذناها من السقيفة. ولكننا لم نعثر على المزيد الذي يمكن ان ينفعنا في تحقيق هدفنا. وسوف اكتب في مكان آخر عن الرواية التي كتبها ايزموند في مرحلة باكرة - في سن التاسعة عشرة - تحت عنوان "الاردينس وليونيتا" - حينما كان في غوتيغين، وعن قصيدته الطويلة "في ذكرى تشارلس تشيرشيل" التي كتب في نفس الوقت تقريباً. وقد عثرت على الرواية والقصيدة معاً في المكتبة الكبيرة في قصر كلوسبي، ولا شك انهما وصلا إلى يدي هوراس جليني تنفيذاً لوصية ايزموند. والقصيدة لا يمكن أن تكون خالية من اي قيمة. كان تشارلس تشيرشيل واحداً من افضل الشعراء المعروفين في عصره. كان قسيساً، ساخراً في أسلوبه، مصارعاً (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضواً في نادي نيران الجحيم، مات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة إصابته بعدوى الحمى عندما كان يزور ويكليز في فرنسا. وقابله ايزموند، واعجب به بوضوح، وفي مخطوطة رواية "خطابات من فوق احد الجبال" يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره "واحداً من أسوا اعضاء جماعة العنقاء شهرة. فإذا كان هذا صحيحاً - وهو محتمل تماماً كما نعرف من خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فإن هذا يثير الاهتمام باحتمال ان تشيرشيل كان اول من اخبر ايزموند بامر الجماعة.

بلغت استثارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد حداً جعلني اكتب خطاباً طويلاً إلى فليشر من قصر كلوسبي - الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحاً انه من الأفضل ان اكتب هذا الكتاب (الذي تقراه الآن) كمقدمة مستقلة لمذكرات ايزموند. كانت ما تزال هناك بعض الأسئلة دون جواب: كيف مات هوراس جليني؟ ما الذي حدث لمورين انجستر؟ وقبل كل شيء، ما الذي حدث لأيزموند في سنواته الأخيرة؟ ولكن كان من الممكن ان تترك هذه الأسئلة جانباً لتكون موضوعاً لأبحاث أخرى.

وقبل مغادرة قصر كلوسبي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت أجوبة جزئية لاثنين من تلك الأسئلة. كنا قد قررنا أن نرحل في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، لكي نحاول الوصول إلى أدنبرة في وقت متأخر من الليل. تناولنا طعام الإفطار مبكرين، وبينما كانت أنجيلا تحزم آخر ما سوف نأخذه معنا في الدقائق الأخيرة، درت أنا دورة حول المكتبة. كان الكثير من الكتب قد أفسدته الرطوبة أحياناً، وكان أحدهم قد صنع كومة من تلك الكتب التالفة في أحد أركان الحجرة، ربما بنية أن يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما. كنت أعرف أن هذه الغرفة لابد وأنها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك أيزموند وهوراس جليني في الشراب في أواخر كل ليلة هنا - ثم قررا أن يتبادلا الفراش.

حاولت عدة مرات أن أضع عقلي في وضع أو حالة سلبية، لكي أحاول أن "أتلقى" أيزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسائل لاسلكية) ولكن المنزل كان يعج بالحركة وأصبحت عاجزاً عن التركيز. وفجأة تماماً، وصلت الرسالة. أصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي. إن أحاسيسنا تجاه الأماكن تصنعها غالباً ذكرياتنا وما يمكن أن تبعثه لدينا تلك الذكريات من تداعيات داخلية. ولكن ذكريات أيزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي. وهكذا، أصبحت المكتبة - بمعنى من المعاني - مكاناً مختلفاً. ووجدت نفسي أنظر إلى رف مرتفع في أحد الأركان قريباً من النافذة. عبرت الحجرة إلى هذا الرف. كان "أيزموند" قد كاد يتلاشى الآن بالفعل. كان الرف خالياً، والخشب المشغول من خلفه كان مكشوطاً وقد بللته الرطوبة ولزوجة الطلاء الجديد. وخطر لي أنه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلائه، لكانت الآن موجودة بين الأكوام المتراكمة في ركن الحجرة. ذهبت إلى تلك الأكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الأرض، وقد قلبت كعوبها إلى أعلى. ولم يبد لي أي عنوان من عناوينها ذا أهمية خاصة: كتب صلوات، وكتب رحلات، قصائد كاوبر، بعض كتب سكوت. بل كانت هناك نسخة من طبعة توشنيتز لأحد كتب هنري جيمس. رحت أفتحها، واحداً بعد الآخر، عشوائياً، ملقياً نظرات سريعة إلى صفحات العناوين الداخلية الأولى. التقطت نسخة من كتاب "تقرير عن جزر ساندويتش" كانت قد أفسدت بشدة الرطوبة، والصفحات تعجنت من البلل. وحينما نظرت إلى صفحة العنوان الداخلية الأولى، عرفت أنني وجدت ما كنت أبحث عنه. كان

الكتاب بقلم مورين أنجستر. وهو من نشر موراي، ناشر اللورد بايرون، في لندن عام ١٨١٣، أي في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والأربعين، كان الكتاب مهدى إلى "ذكرى هوراس لورد جليني". وتحت هذا الإهداء، كتب أحدهم: "طعن في عينه اليمنى بيد أحد القتلة المجهولين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦". كانت الكلمات قد تبللت إلى درجة سيئة وامتزج الحبر بألياف الورق متشبعاً منتشراً حتى أصبحت قراءتها عملاً على شيء من الصعوبة.

وهكذا، فقبل أن نغادر قصر جلوسبي في ذلك الصباح، كنت قد عرفت شيئين آخرين عن عائلة جليني: أن هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص. وأن مورين أنجستر قد سافرت إلى الشرق في أيامها الأخيرة، وزارت اليابان وأستراليا وجزر ساندويتش. وقد تأكدت فيما بعد من أن الكلمات التي كتبت تحت الإهداء كان كاتبها هو ابن جليني.

كنت مسروراً من نفسي إلى درجة كبيرة. لم تكن الزيارة قد أثمرت بالدرجة التي كنت أرجوها. ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة. كان الستير وأنجيلا سعيدين أيضاً. لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونيللي، ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات.

زودتني معرفتي بأن جليني كان قد طعن بمادة للتأمل، وخاصة بالنظر إلى ما أضافه أيزموند على خطابه الأول بعد التوقيع عليه: "إنني أرجوك أن تدمر، أو على الأقل أن تخفي هذا الكتاب عن الأنظار، ليس فقط باسم صداقتنا، ولكن من أجل سلامتك أنت وسلامتي". فهل كان أيزموند يواجه أي خطر تهدد به الجماعة؟ هل يمكن أن يكون موت جليني نتيجة لتجاهله تحذير أيزموند؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الأقل - في جريمة القتل: إنها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني. فإذا كان جليني قد طعن وهو في الفراش وقتل هنا، فلماذا لم يكن نائماً في إحدى حجرات النوم الكبيرة المطلة على البحيرة والمنحدر؟ وجدت نفسي أتمنى لو كان بوسعي أن أتصل بأيزموند لكي أسأله. ولكن لم أحظ بأي قدر من التركيز يعطيني المفتاح الذي كنت بحاجة إليه.

عدنا إلى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة. كان يوماً مشمساً. وفي الحقيقة كان أكثر حرارة من أن يسمح بالراحة. وجدت نفسي أتمنى لو كنت قد أتيت معي بملابس الصيف. كنت أفكر في أيزموند الذي كان جسده يذوب

ويتلاشى في قلب مقبرة العائلة منذ أكثر من مائة عام - فأتمنى لو أستطيع بشكل ما أن أشاركه رقدته.

كان الستير مشغولاً بعمل ما في المدينة. فتناولت أنا وأنجيلا غداء متأخراً. من المستحيل أن تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجاة وبشكل عنيف، دون أن يستمرا في التفكير أحدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - بوصفهما عاشقين. ولكن الدفء الذي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته. وجدت نفسي أخبرها بتلك التجارب الغريبة التي "أصبحت" في أثنائها أيزموند، وكيف أدت بي آخر تلك التجارب إلى العثور على كتاب مورين أنجستر. توقعت منها أن تجد في الأمر ما يبعث على الاهتمام، أو أن تنظر إليها باعتباره شيئاً مسلياً، ولكنني لم أتوقع منها أن تجده أمراً قابلاً للتصديق بشكل كامل. فقد كنت على كل حال، أغرق نفسي بشيء من العمق في أيزموند، وربما إلى درجة أكثر من اللازم. ولكن رد فعلها أدهشني. ارتبكت وبدا عليها الانزعاج. قلت:

-"لا شيء يستحق القلق. إنما نظرت إلى الأمر كشيء يثير الاهتمام".

وجدتني أحتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها أن تأخذ بها. ولكنها قالت أن الستير قد تحدث معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسبي وأنه تساءل عما إذا كانت حجرته مسكونة".

بعد الغداء بنصف ساعة، وبينما كنت أفحص مخطوطة رواية جليني، قالت:

-"هل تظن أنه يحاول أن يقول لك شيئاً؟"

-"من؟"

-"أيزموند".

حاولت أن أوضح لها أنني لا أشعر - أو أنه ليس لدي إحساس - بحضور أيزموند. وإنما أنا أرى الأشياء - ببساطة - بعينيه هو كما لو كنت أنا أيزموند.

والمرء لا يحاول أن يخبر نفسه بشيء ما".

قالت: "أظن أننا يجب أن نتصل بالدكتور كورنر".

كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل أن تقوله أنجيلا، ولكني كنت أريد أن أؤجل ذلك الاتصال لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى. كنت أريد أن أمضي أمسية هادئة في فحص الأوراق المختلفة التي جئنا بها معنا من كلوسبي. قالت أنجيلا:

-"اسمح لي بأن أتصل به".

-"حسناً. إذا كنت تريدين ذلك".

وبعد عشر دقائق، قالت:

-"لقد دعوته لشرب كأس معنا في الساعة السادسة".

وفي حوالي الخامسة والنصف، دق جرس التليفون، فرفعت أنجيلا السماعة. وضعت يدها على السماعة وقالت:

-"إنها أنا دانكلمان..."

هززت رأسي بقوة لكي أؤكد لها أنني لا أريد محادثتها، فقالت لها أنجيلا أنني بالخارج وأنني لن أعود إلى وقت متأخر. ذهبت إلى الحمام بينما كانتا تتحادثان، واغتسلت. وحينما عدت بعد عشر دقائق كانت أنجيلا ما تزال تتحدث، ولكنها أنهت المكالمة بينما كنت أبدل ملابسي في حجرة النوم.

-"تلك المرأة مرعبة تماماً. أتمنى لو أنني لم أعطها هذا الرقم".

-"ماذا كانت تريد؟"

-"لابد أنها تملك حاسة سادسة. لقد قالت أنها قد سمعت الآن تواً أن كورنر موجود في لندن وأنها أرادت أن تنصحك ألا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصاً طويلة متشابكة عن مقدار ما يملكه من شر وقدرة على الإيذاء".

-"ماذا قالت من أفعاله؟".

-"أوه.. مشاجرات عما كان يعنيه رايخ وما إلى ذلك. ولكنها قالت انه يذيع عنهما إشاعات كاذبة، وانها تنوي أن تقاضيه بتهمة القذف. اما كل ما كانت تقصده فهو انها تريدك ان تتجنب كورنر. فإذا حدث أن قابلته، فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول".

كنت جالساً على الفراش، أعقد رباط رقبتي. اقتربت مني انجيلا وغرست أصابعها في شعري المبتل. انتابتني دهشة بسيطة، ولكنني افترضت أن هذه المكالمة قد صدمتها بشكل ما وانها تريد شيئاً من التدليل. أحطت خصرها بذراعي وضغطت عليها قليلاً. أخذت يدي كلتا يديها وضغطت بهما على نهديها. نهضت واقفاً، وانحنيت عليها ومنحتها قبلة لكي اطمئنها، فوجدت نفسي اضمها بقوة حتى التصقت بي، وأصبح جسدانا كتلة واحدة مندمجة. وبعد ان تبادلنا القبلات للحظة. قالت بصوت متوتر:

-"إنه شيء مرعب.. ولكني أريدك ان تمارس الجنس معي".

-"لا يكاد يكون هناك وقت".

ولكن كان باستطاعتها أن تشعر بي وانا اتصلب في التصاقي بها.. كانت اكثر من مستعدة لممارسة الحب. وحينئذ، فجاة، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني. قلت:

-"ماذا حدث؟"

انفجرت باكية وقالت:

-"إنني اكره نفسي".

-"لماذا؟"

-"إنها هذه المراة الكريهة العفنة. اعتقد انها تستخدم التنويم المغناطيسي. فحينما كانت تتحدث معي..."

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتها مرة أخرى، ولكن دون رغبة في هذه المرة. قلت لها مؤكداً انه من الصعب القول انه من المخجل أن يكون المرء قابلاً للتاثر بالإيحاء. وبعد قليل من الأسئلة اكتشفت أن السيدة دنكلمان قد تحدثت عن الاحتفالات الجنسية الجماعية. قالت انجيلا:

-"أعرف هذا، ولكنها مسالة تبدو كريهة جداً. لقد اردت ان اغتصبك".

-"لا تسمحي لي بأن أطفئ شعلتك الملتهبة".

ولكننا نعرف معاً أن نوبة الحمى قد انتهت. ولكي أؤكد ذلك، ارقدتها على الفراش وقبلتها برقة، ثم ربت على نهديها وفخذيها بيدي. استرخت مثل طفلة صغيرة. كان بوسعنا أن نمارس الجنس في تلك اللحظة، ولكنه كان سيصبح جنساً رقيقاً هادئاً مثل ما يمارسه زوجان طيبان، كما لو كان امتداداً لقبلاتنا، ولن يكون حمى مسعورة متاججة وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يدق، كنت اشرب كاساً من المارتيني اشتدت حاجتي اليه، وكانت انجيلا تتحمم في الحمام.

-٢١-

■ كان كورنر رجلاً غريب الهيئة: طويلاً، محدودب الكتفين، راسه يكاد يكون اصلع. وقد ذكرني على الفور بقائد الفرقة الموسيقية فورتو انكلر. لاح لي صدغه ضعيفاً، ولم ينم الوجه - بشكل ما - عن عزيمة قوية. ومع ذلك فقد كان الأثر العام الذي يخلفه هذا الشكل الغريب هو الإحساس بذكاء داخلي وقاد غير مالوف. كان صوته مرتفع النبرة الى حد ما، ولكنه كان رقيقاً، يكاد يكون ذا تاثير مغناطيسي منوم بعد أن يتكلم عدة دقائق. كانت اللكنة الألمانية قوية، وبدت بذلته الرمادية غالية الثمن، ولكنها ظلت تلبس منذ وقت طويل حتى علتها لمعة خفيفة.

رفض ان يشرب كاساً، "إنني لا اشرب سوى قليل من عصير الفاكهة" ثم جلس على حافة مقعد كبير عميق ذو مسندين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه، عاملاً على أن يبدأ في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعدم الراحة معاً. حينما دخلت انجيلا، قفز واقفاً على قدميه، وانحنى مقبلاً يدها بدماثة وتهذيب طبيعيين، وفي رشاقة بدت تعبيراً عن شخصيته الداخلية. اقترحت انجيلا ان يجلس على الأريكة. وفي هذه المرة، قذف بنفسه إلى الخلف في احد ركني الأريكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقاً على ساق، كاشفاً عن جوربه المصنوع من الحرير ذي الخط الأبيض الناصع الطولي. ثم بدا يتكلم:

-"حسناً، يا عزيزي مستر سورم، هذا حقاً شرف عظيم لي. إنني اعرف كتبك معرفة جيدة بالطبع. (وقد اتضح لي فيما بعد ان هذا صحيح، فقد كان يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بطريقته الألمانية التعليمية) واسمح لي ان اقول منذ اللحظة الأولى انني اتمنى ان تجد في بعض آرائي ما يثير اهتمامك، مثلما اجد انا في آرائك.."

كان بوسعي ان ارى ان انجيلا تكاد تموت من لهفتها الى ان تسأله عن اسرة دانكمان، ولكن كان من الصعب ان نوقف مجرى الحديث الدائر عن الأفكار والآراء بالإضافة إلى أن المرء كان جديراً بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة إلى مناقشة افكار هولدرلين وياسبرز".

لن احاول هنا ان انقل تقريراً كاملاً عن محادثته. فقد مضى في حديثه، باستمرار وثبات تقريباً، حتى غادرنا عند منتصف الليل. وبدأ حديثه من النزعة الرومانتيكية الألمانية والميتافيزيقا الفلسفية عند فلاسفة الألمان، حتى وصل الى افكار رايخ وتطويره هو لتلك الأفكار. ولا يمكن هنا سوى ان اقدم صورة سريعة لأفكاره المحورية الرئيسية.

كان دانكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ. ولكن كورنر وصفه بشكل اكثر اكتمالاً، فقد قسم مراحله الفكرية الى ثلاث مراحل، بدءاً من عمله بوصفه احد اتباع المدرسة الفرويدية، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد إلى "تحليل الشخصية" - التي قد يعتبرها اكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - واخيراً، مرحلته "النزقة" او الهووسة، حينما اعتبر نفسه "عالماً طبيعياً"، وحينما اعتقد انه قد اكتشف نوعاً غامضاً من الطاقة يدعى "الأوركون" يمكن أن يركز بطرق مختلفة. ولكن ما ادهشني كان ما اثبته كورنر من أن رايخ كانت له نظريات مادية النزعة - بقدر ما من المادية - حول الأمراض العصابية (وقد كان رايخ عضواً في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول اسباب الفاشية).

وقد بدأت افهم كورنر بصورة افضل حينما تحدث عن فكرة رايخ حول "درع الشخصية". كيف ينمي الناس انواعاً مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم لكي يغطوا انواع قصورهم ونقاط ضعفهم والثغرات التي يخشون منها على امنهم الداخلي، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب ان تتحول الى دروع قوية - مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب - تخنق الشخص في داخلها. ومن

الواضح ان كورنر قد آمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً واستقرت في أعماقه. ولاح لي ان هدفه قد اصبح الا تكون لشخصيته اي دروع على الإطلاق، وبدا لي كما لو كان في حالة سيولة كاملة دون حماية - او تحصين - من اي نوع. وسرد علينا بصراحة كيف عالجه رايخ من اصابته بتصلب العضلات كانت تسبب له آلام تقلصات الياف العضلات المضنية. وكان هذا التصلب راجعاً بشكل اساسي الى الحرج الذي يمكن ان يشعر به رجل شديد الحساسية - مثلما تبدأ كتابة تلميذ تتصلب وتتشنج يده حينما يطل المدرس الى كراسته من فوق كتفه اثناء الكتابة.

وبعد كل ذلك كان من الصعب ان افهم كيف حقق كورنر تحوله الى نظريته عن الوعي الباطن - رغم انه هو نفسه قد اعترف بانه لا يرى اي ترابط بين الفكرتين. وفكرته - اساساً - تتلخص في ان الحضارة والعقل المنطقي، قد دفعا الإنسان الى حالة اصطناعية زائفة. وقد نظر الى قدرة الإنسان على التفكير باعتبارها نوعاً من السقوط من حالة النعيم المبارك، شكلاً من اشكال الخطيئة الأصلية. وقد اطلق على الوعي اسم "ضوء النهار الصناعي"، وقارنه بالضوء الكهربائي الذي ساعد الإنسان على ان يرى في الظلمة، ولكن الضوء الذي كان من نتيجته ان عزل الإنسان بحدة عن الليل الممتد خارج نافذته. قال ان الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، اما الإنسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي.

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي، لأن الجنس ينتمي بشكل اساسي الى ذلك "الليل" الممتد خارج النوافذ. الحيوانات تنزلق إلى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة النهر الرميلة إلى المياه (هذه صورة كونر)، اما الإنسان فلابد ان يقفز الى المياه من فوق منصة مرتفعة. إنه يصل الى هناك لا خلاف، ولكن ان لم يكن غواصاً ماهراً، فإن تأثير القفزة والغوص المفاجئ يمكن ان يدمره. قال انه من الحق ان الجنس يعتمد على الانفصال القائم بين الذكر والأنثى، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التنافر بين قطبي المغناطيس. ولكننا بالغنا في هذا الانفصال حتى اصبح "قفلاً" آخر إضافية وضع على باب السجن. وتكاثرت انواع الإحباط والخيبة، اصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع وأحدنا عن الآخر، بالإضافة إلى اغترابنا عن الطبيعة. وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة، وفي الطبيعة البربرية المغيثة التي تبدو بها بعض الجرائم - وقد اشار هنا الى بعض الجرائم المذكورة في كتبي

الإجابة، او الحل طبعاً لما يقوله كورنر بسيطة بساطة جميلة، إن الجنس ينبغي أن "يطهر" حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلما هي بين الحيوانات. فإذا ما تمكنا من إزاحة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس، عادت الرابطة القوية القديمة بين الوعي والوعي الباطن إلى سابق عهدها، وسوف يستفيد الإنسان من حضارته - التي لن تعود وحشاً مثل وحش فرانكشتاين كما هي الآن - بالإضافة إلى استفادته من بساطة الحيوان الصحيح التكوين. إن "سفر التكوين" مصيب في قوله ان "الخطيئة جاءت من وعي الإنسان او شعوره بالخجل الجنسي. يجب أن يختفي "كل" خجل من أي نوع.

عاد الستير إلى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ، وافتتن به الستير حتى انه نسي أن يصب لنفسه ما يشربه. وبعد ساعة، اقترحت ان نخرج جميعاً لكي نتناول طعام العشاء، ولكي نمضي في "المناقشة" (التي كادت أن تكون محاضرة تقريباً، رغم انها كانت تلقى بأكثر الأشكال العادية وغير الرسمية سحراً و جاذبية). طلبنا عصير نبيذ تشابليس الفرنسي مع الطعام، وشرب كورنر كاسين بعد ان اضاف إليهما الماء. ثم سرنا حول الميدان مدة من الزمن - فقد قال كورنر انه يحتاج دائماً إلى الحركة الجسدية إذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا إلى الشقة. كانت لدي تحفظات معينة إزاء أفكار كورنر، ولكن كان بوسعي أن أرى أن صاحبي الآخرين سوف ينظران إليها كشيء من الماحكة. ودون اي تردد، وصفت انجيلا ما كانت تجده من كوابح جنسية في طفولتها، وقال لنا الستير كيف انه لم يتخلص ابداً من الإحساس بالخجل والعار حينما نظر إليه شخص ما من فوق حاجز المرحاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية. رأيت انجيلا وهي تجفل إزاء هذا الاعتراف، واعتقد انها لم تتخيل ابداً أن الصبية يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية. ولشدة دهشتي، مضت انجيلا لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا أسرة دانكمان لآخر مرة. وظننت في البداية انها لم تكن تريد إلا ان تخبره بان انا دانكمان أصرت على ان تعري نفسها، ولكنه بعد ان احمر وجهها ورمقتني بنظرة سريعة، انتقلت إلى الحديث عما حدث في السيارة. وكان هذا هو دور الستير في الجفول، إن لم يكن في الظهور بمظهر المصدوم. وانتهت بقولها، "كيف يمكنك ان تفسر ذلك؟"

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر. وظل يومىء برأسه ببطء.

"إنهما ماكران" ماكران جداً. لقد كان علي أن أطردهما من مجموعتنا لأن ما أراداه حقاً كان هو أن ينظما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة. (حينما قالت انجيلا "هذا هو ما قالاه عنك". أومأ برأسه في حركة أكثر وقاراً) أتفهمون؟ انهما ليسا من البشر المتحضرين. إنهما ينتميان إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أكثر بدائية - مرحلة التابو (المحرمات) والتضحية بالبشر كالقرابين. ساروي لكم ما أدى إلى انفصالنا النهائي. كان علي ان اذهب إلى المانيا للقيام ببعض الأعمال القانونية. كنت اعرف أن رايخ كان يثق بهما، ولذلك فقد تركت لهما مسؤولية الإشراف على مجموعتنا. وجاءت انا ذا يوم إلى الاجتماع حاملة رمزاً ضخماً لعضو التناسل الذكري مصنوعاً من الخشب - يمكن ان تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي. وزعمت أن هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة افريقية في احتفالات افتراع العذارى الأسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقرابين للآلهة. وانتم تعرفون أن واحداً من أهم مبادئنا هو ان تمريناتنا على خلق الألفة بين البشر تقوم على التوقف قبل الاتصال الجنسي الكامل. وليس هذا لأننا نعتبره شيئاً سيئاً، وإنما لأنه يخفف التوتر بسرعة كبيرة، والتوتر ينبغي أن يتصاعد حتى يمكن أن يستخدم في تحويل اتجاه العقل. (فكرت في الهولنديانيين واحتفالاتهم مع العذارى المقدسات). ولم يحاول هذان الاثنان - دانكمان وزوجته - أن يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة، ولكنهما أصرا على أن تمريناتنا على خلق الألفة ينبغي أن تتصاعد حتى تصل الى أن يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع إحدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي، ثم يقذف لبنا دافئاً داخلها في لحظة بلوغها ذروة النشوة. وقد استمتعوا جميعاً بهذه العملية بالطبع، وأصبحت الفتيات يصرخن من التهيج حينما تبلغ المرأة ذروة نشوتها. وكان كلاوس دانكمان بالطبع هو "الكاهن" في كل مرة. وكان دائماً يصر على أن يرتدي ملابسه كاملة، فكان يرتدي حلة كاملة قاتمة اللون، ولكنه يخرج عضوه بارزاً من فتحة بنطاله بعد أن يطليه ببعض الألوان الزاهية مثل الثعبان. (وكان رايخ يقول أن دانكمان وزوجته يعانيان من كل أنواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد). ولحسن الحظ عدت أنا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير. وطالب دانكمان وزوجته بتصويت ديمقراطي بين الأعضاء لتوضيح من يريد الاستمرار في هذا "التمرين". (هنا احمر وجه كورنر، وبرزت عروق جبهته)، قلت لهما انه لن يكون هناك تصويت. فإن هذا كان مناقضاً لأفكاري، فإذا لم يوافقا عليها كان بوسعهما أن يذهبا لتكوين مجموعتهما الخاصة. وعرضت انا أن أستقيل لكي اكون مجموعتي الخاصة في مكان

اخر. ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع - فقد كنت اكتسبت شخصية الأب ووضعه بالنسبة للمجموعة. ولم يكن هناك من يظن انها فكرة طيبة سوى دانكمان وزوجته. فكان علي ان اطردهما. وبعد ذلك حاولا ان يكونا مجموعاتهما الخاصة، دون نجاح. ولكنكم ترون (هنا رفع إصبعه إلى السماء إنهما لا يملكان اي اسس فكرية. باختصار إنهما لا عقل لهما" ثم اشار بإصبعه نحوي: "وهذا هو سبب لهفتهما إلى اكتساب تاييدك. فإن افكارك تستطيع أن تكسب لهما المؤيدين والأنصار. إنك يمكن ان تكون عشيقاً للسيدة دانكمان..."

قلت: "معاذ الله!"

-"ولكنك قد تكون. إنها تعرف كيف تسيطر على الرجال، مثلما رايت. حينما كانت عضو في جماعتنا، كانت دائماً ترتدي اجمل الملابس الداخلية، كما لو كانت فتاة صغيرة مترعة بالحياة فوارة الرغبات بدلاً من أن تكون المراة النصف ذات الأربعين عاماً. وانا اعرف انها وجدت عشاقاً عديدين...

سالت انجيلا: "هل تظن انها تملك نوعاً من القدرات المغناطيسية إذن؟"

-"بالطبع لا. إن ما قلته لي الآن تواً هو ببساطة برهان على ما كنت اشرحه لك. إن الهوة الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية. ولكن حتى اكثر الناس صحة ونفسية مليئون بانواع الكبت. إنك فتاة طهرية متزمتة إلى حد ما. وإنني لعلى استعداد للقول بانك لم يكن لك سوى عشيق واحد؟ (اومات براسها). وهكذا هو الأمر. ان هذه المراة لا تتحدث فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج إلى التخلص من كل انواع الكبت، وإنما هي تظهر بنفسها وتتعرى لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني. وهكذا يختل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية. وتنفجر الطاقات مثل الحمم المتفجرة من بركان، فتظنين انت أنها سحرتك، بينما انت التي تقومين بكل شيء".

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح. قالت انجيلا:

-"فماذا حدث حينما اتصلت بالتلفون هذا المساء..."

-"لقد حدث التاثير مرة اخرى؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الأولى؟"

فجاة ادرك ما قالته، صالح بها: "هل اتصلت بك؟ لماذا؟"

اخبرته انجيلا بالسبب فهز راسه وقال:

-"اه، الشيطانان الماركان. هل قلت لك انه كان قاتلاً؟ لقد كان جديراً بان يعدم في اي بلد باستثناء سويسرا "السويسريون متسامحون جداً".

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل، نظر إلى ساعته ثم قفز واقفاً على قدميه مثل احد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة "انتباه". قال:

-"يجب ان اترككم. ان الغد يوم صعب بالنسبة لي".

نظر إلينا مفكراً، ثم قال: "لابد ان اكون صريحاً معكم. إن مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لأننا عملنا معاً لسنوات عديدة، ولذلك فإن الأعضاء الجدد يبقون طويلاً في مرحلة الأعداد كمرشحين للعضوية. ولكني اشعر في حالتكم ان الإسراع له ما يبرره. ولقد قررت بالفعل ان ادعو صديقي جيرار لحضور اجتماع جماعة الألفة. فإذا راق لكم انتما الاثنين أن تاتيا معه..."

لو ان هذه الدعوة وصلتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضاها على التو دون تردد. ولكنهما الآن كانا واقعين تحت تاثيره حتى انهما وافقا مع إبداء كثير من الامتنان المتحمس. سالته عن الموعد فقال:

-"غداً بعد الظهر. الديكم سيارة؟"

اوما الستير براسه.

-"حسناً.. سوف ارسل شخصاً ما للمجيء بكم في منتصف نهار الغد. وسوف تتبينون السبب الذي يجعلني عاجزاً عن إعطائكم العنوان".

خبط بكعبيه وهو ينحني انحناءة خفيفة، ثم رحل. توقعت ان يسرع الستير وانجيلا إلى فراشيهما - وكنت مستعداً للنوم. ولكنني نسيت انهما يصغراني بخمسة عشر عاماً على الأقل. شرعا في مناقشة ما قاله لهما، وظلا يطالباني بإبداء رايي. كنت مرهقاً لدرجة

تمنعني من الحديث عن تحفظاتي. ثم سألته انجيلا عما إذا كان قد صدم بما روته عما حدث في سيارة الأجرة. احجم اولاً عن الكلام، ثم برز لمواجهة الحقيقة. قال:

-"لم تكن صدمة على وجه التحديد. إنما كانت اقرب إلى الغيرة. أعتقد انني افكر فيك كما لو كنت احد افراد العائلة".

سألته: "وكيف ستفكر في الغيرة لو اننا اتبعنا جميعاً افكار اوتو؟" (وكنا جميعاً نتنادى باسمائنا الأولى).

-"لا اعرف. الحيوانات ايضاً تغار. اليس كذلك؟"

-"ليست هذه حالة واحدة. إنها ليست نفس الغيرة. لقد قال اوتو اننا لا نحاول العودة إلى حالة الحيوان، إنما نحاول ان نمزج بين طبيعية الحيوان وذكاء الإنسان وذهنه".

كان بوسعي ان ارى كيف يمكن لها ان تكون تلميذة جديرة بالإعجاب، فقد طوعت لنفسها كل الإجابات المطلوبة على كل الأسئلة المتوقعة.

قال مسالماً لكي يتجنب المناقشة: "اعتقد انك على صواب".

-"بالطبع انا على صواب. إنني أحب جيراز (طرقت عيناي من الدهشة) وانا احبك انت ايضاً. وانت تروق لجيراز وجيراز يروق لك. فلماذا لا يعامل احدنا الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة؟"

شعرت بان منطقها كان قد بدا يشوبه نوع من الاضطراب، ولكنني تمسكت بصمتي. واخيراً، تثاءبت واشعرتهما بانني أريد ان انام. كانت ا لأريكة (التي تتحول إلى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس. وعندما ابديت رغبتي في النوم اقترحت انهما يجب ان يتركاني، وان يذهبا لمتابعة المناقشة في حجرته. فتحت الأريكة واعددتها للنوم، وبدلت ثيابي فارتديت البيجاما، فغرقت في النوم بعد دقائق. استيقظت بعد وقت لا اعرف مقداره حينما صفق الباب بخفة، على ضوء النور القادم من النافذة، رايت جسداً لم استطع ان اتبين ان كان جسد الستير ام جسد انجيلا - متجهاً إلى الحمام. ثم خرج الجسد مرة اخرى، فعاد إلى حجرة النوم. عدت فغرقت في نومي. ايقظني ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحاً. فتحت عيني فتملكني شيء من الدهشة حينما رايت راس انجيلا إلى جواري على الوسادة. وحينما رفعت

راسي، تزايدت دهشتي عندما وجدت ان التسير كان ينام إلى جانبها من الناحية الأخرى ذهبت إلى الحمام، ثم رقدت في فراش انجيلا الخالي، فنمت لمدة اربع ساعات اخرى. إنني لا اعارض "الألفة"، ولكن لكي "انام" افضل ان اكون في سرير مستقل خاص بي.

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح. ولكننا افترضنا جميعاً انها انا دانكن فتركناه يدق دون رد. وفي المرة السادسة، اجابها الستير، فكانت انا دانكمان بالفعل. قال الستير انني وانجيلا بالخارج واننا سنبقى خارج المنزل طول النهار، ثم قطع المكالمة قبل نشوء المزيد من التعقيدات.

قبل ربع ساعة من منتصف النهار، دق جرس الباب. ولما فتح احدنا، وجدنا وراء الباب شاباً قوي البنية، راسه مثل طلقة الرصاص. دعوناه للدخول، فجلس على الأريكة بادي الخجل. رفض شرب الشاي او القهوة. وقال انه شرب شايه وقهوته قبل ان ياتي بقليل. سألناه عما ينبغي أن نأخذه معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. هز راسه بغموض وقال:

-"ايه... لا شيء".

كان اسمه كريس رامزي، وكان بعيداً عن ان يشبه تصوري عن تلامذة كورنر. كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محبباً إلى النفس إلى حد بعيد، ولكن كان من الصعب أن نقول انه صاحب افكار او من نوع الرجال المفكرين. تحدث عن المصارعة والانزلاق على الماء والقفز بالمظلة من الطائرات. القينا قليلاً من الملابس في حقيبة واحدة، وخرجنا من المنزل مع كريس. كان يقود سيارة رياضية صغيرة، فاقترح ان اركب انا معه، على أن يتبعنا صديقاي في سيارة انجيلا من طراز كورتينا. مضينا بالسيارتين حتى بلغنا طريق ادكار رود، ثم عبرناه في مواجهة حانة "بارنيت وبوترز". عبرنا ضاحية ويلوين كاردن سيتي، ثم استدرنا إلى الطريق الرئيسي. بعد نحو ميل وصلنا إلى حائط طويل من القرميد الأحمر، تبدو وراءه بعض الأشجار. استدرنا بين نصبين على ناصيتي طريق جانبي مصنوعين من الإسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة. كان المنزل كبيراً إلى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول إنه من بناء وكالة "ريجينسي" للتشييد. وكانت جدران الحديقة المغطاة بالنباتات المتسلقة واحواض الزهور - بشكل عام - في حالة احسن من حالة المنزل.

كان عصر ذلك اليوم معتدلاً طيب الجو، تفوح في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة، وقد سمعت أصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل. أخبرني كريس بأن المنزل كان مملوكاً لإحدى جماعات جيورديف، ثم أخذته جماعة كورنر منهم. ولما كان سكان القرية المجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيورديف، فإن فضولهم إزاء الجماعة الجديدة كان محدوداً. وكان هذا صحيحاً كما تبينت بالفعل، وإن كانت هذه الجماعة جديرة بأن تقدم مادة جيدة لتحقيق لاذع في مجلة "نيوز أوف ذي وورليد"، ثم ثبت لي ما كنت أفكر فيه على الفور. فطالما كان كورنر ما زال مختفياً، أو أنه لم يكن قد وصل، فقد رحت أتمشى حول المنزل، عبر الحشائش المبتلة (فقد أمطرت السماء مطراً خفيفاً حينما كنا نعبر ضاحية ويلومين). بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل، وتحت ظلال الأشجار، كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش. جلسا، وابتسما لي، ثم استمرا في دحرجتهما. كان أحد الجسدين لفتاة ممتلئة - وإن كانت جميلة. في نحو السادسة عشرة من عمرها؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مفتول في منتصف العمر. قلت: "معذرة" وأنا أشرع في الابتعاد. صاحت الفتاة: "تعال وانضم إلينا"

-"انضم إليكما في ماذا؟"

-"إنها دورة الألفة مع الطبيعة. الحشائش المبتلة تعطيك إحساساً لذيذاً".

وضحت لها أنني جئت إلى هذا المكان لأول مرة. سألتني:

-"أنت خجول؟"

-"كلا". كان سؤالها نوعاً من التحدي.

-"إذن تعال".

لاح على الرجل أنه مرحب بانضمامي قدر ترحيب الفتاة، ولو كنت في مكانه لرفضت تطفل طرف ثالث. خلعت كل ملابسي ولم يكن في هذا أي حرج، لأن من عادتي أن أسير في منزلي عارياً لمدة من الوقت بعد أن أستيقظ من النوم - ثم ذهبت إليهما لكي أجلس بجوارهما، قال الرجل:

-" اجلس، جرب ما نفعله".

جلست ثم تمددت على الحشائش وتدحرجت، شاعراً بشيء من الغباء. ولكنه كان على صواب؟ فقد غمرني إحساس لذيذ من ملامسة الحشائش المبتلة للجلد العاري. بعد أن تدحرجت حتى شعرت بقشعريرة البرد، ذهبت فرقدت في الشمس التي سرعان ما جففتني كان الرجل لحظتها يرقد على ظهره، وكانت الفتاة تجذب بيدها حزماً من الحشائش وتدلك بها جسده، تلاطفه بها. بعد دقائق قليلة من تلك الملاطفة، رقدت على ظهرها، وقد باعدت ما بين فخذيها، ففعل معها نفس الشيء، وهو يجذب حزماً كبيرة من الحشائش ونتف التربة المبتلة ما زالت عالقة بجذورها. وظل يدلك نهديها وبطنها برقة متناهية بما يجذبه. قال لي:

-"تعال وساعدني".

فضلت أن أجلس عاقداً ركبتي أمام صدري لكي أداري اهتمامي المتزايد بالفتاة التي كانت ساقاها المفتوحتان يثيران استجابات بافلوفية. ولكن بعد أن اختفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت إليهما وجذبت قبضة من الحشائش - وكانا قد تحركا بعد أن جردا البقعة التي كانا يرقدان فيها - فحاولت أن أدلكها مثلما كان يفعل الرجل. وسرعان ما تخليت عن هذه العملية وتبعت ما أملته علي غريزتي، فرحت أمرر أطراف الحشائش المبتلة من جسدها حتى لمست نهديها، ثم هبطت بها أكثر لكي تلاطف النهدين برقة. نجحت في تجربتي الجديدة، فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع، وحركت ردفيها حركة شهوة واضحة. قالت للرجل:

-"إن له لمسة رائعة".

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن أن أستخدم بها لساني لو كنت أحاول أن أستثير شهوتها. وحينما وصلت إلى السرة، زادت من تباعد فخذيها.

عند هذا، التفت الرجل إلى الناحية الأخرى وقال:

-"أظن أنني سأذهب لأستحم في مجرى الماء".

سار مسرعاً وقد أولانا ظهره. قلت:

-" أخشى ألا يكون على وشك الموت لهفة إلى خطايا الجسد".

فانفجرت في كركرة من الضحكات الطويلة، قطعتها شهقة حينما لمستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش، قالت حالمة:

-"أتمنى لو كنا في حجرة نوم".

-"لم أكن أظن أن مثل هذه الأشياء مسموح بها لكم".

هذه الأمور ليس مسموحاً بها، ولكنا لا نتمتع جميعاً بسيطرتك على نفسك".

تحركت على مرفقيها وهي تتنهد، ثم دفنت رأسها بين فخذي. كان دفء فمها من حولي لذيذاً، ولكني كنت متوتراً خشية أن يأتي أحد إلينا. كنا مكشوفين تماماً دون غطاء أو حجاب، والمنزل على أحد الجوانب - مكشوفين لأي شخص يمكن أن يطل من أحد النوافذ - وللرجل الذي يمكن أن يعود من مجرى الماء في أي لحظة. وضعت يدي بين شعرها ثم أبعدتها برفق وقلت لها: "فيما بعد. ليس الآن".

قالت: "أهذا وعد؟".

قلت أجل، فتراجعت إلى الحشائش لترقد من جديد. وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من المنزل. وكان الرجل قد لاح عائداً من المجرى. قلت:

-"أظن أن علي أن أذهب لكي أرى الدكتور كورنر".

وبينما كنت أرتدي ملابسي ثانية، لاحظت أن فقداني للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل. رقدت الفتاة في مكانها تحت الشمس، وقد أغمضت عينيها، وبدت ابتسامة على شفتيها المنفرجتين، ولاح عليها كما لو كانت تبلغ ذروة نشوة بطيئة الاشتعال.

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة، وإنما كن أربعة نسوة يرتدين النظارات، يشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال العقول الإلكترونية، ومعهن رجل نحيف يضع على عينيه نظارة رفيعة. ولكنني وجدت الدكتور كورنر داخل المنزل، في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي كأنه مليء بالتماثيل الصغيرة المهشمة لقاذفات البراعم والزهور، والربات الإغريقيات حاملات عناقيد العنب. لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاته

عن الأماكن التي يجب أن توضع فيها التماثيل، ولكنه حينما رآني، جاء إلي وعلى وجهه ابتسامة دافئة، وصافحني بحرارة، ثم رفع يده طالباً الصمت. جاء الآخرون والتفوا حولنا، فقدمني إليهم كورنر واصفاً إياي بالمؤلف المعروف والفيلسوف. بدا عليهم جميعاً أنهم تأثروا بتقديمه لي. وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد. كانوا ينظرون إلي كما لو كانوا يتوقعون مني أن أرتفع ببطء فوق الأرض لكي أطفو في الهواء. أخذني كورنر من ذراعي وقال:

-"أحد أعضاء جماعتنا سمسار للعاديات القديمة، وقد أهدانا تلك التماثيل. إن بعضها ليس على قيمة فنية كبيرة، ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الأعضاء".

-"رموز؟"

-"لكي يجعلوها موضوعاً لتأملاتهم" ومن الواضح أنه شعر أن جملته كانت واضحة وضوحاً كافياً لأنه أضاف يقول: "اسمح لي بأن أطلعك على بقية المنزل".

كان المنزل كبيراً أشبه بمعسكر مهيأ لنزول العشرات، من النوع الذي لا يمكن إلا لمليونير أن يجعله مريحاً للساكنين. كان كورنر وتلامذته يحاولون إنجازه بأنفسهم. ومن المؤكد أن عدداً قليلاً من الحجرات كان مؤثثاً تأثيثاً مريحاً للغاية، مما يشير إلى أن بعض التلاميذ على الأقل يستطيعون أن يدفعوا ثمن هدايا من الأثاث الجيد.

أطلعني كورنر على حجرة نوم تضيئها أشعة الشمس وقال:

-"هنا ستنام أنت. إلا - بالطبع - إذا كنت تفضل أن تنضم إلى جماعة خلق الألفة بالطابق الأسفل".

-"هل ينامون معاً؟"

-"أجل، ولكن مع روح خيرة كاملة بالطبع. ليس صعباً عليهم أن يكبحوا جماح رغباتهم. إنهم يعرفون أنهم يربحون عمقاً جيداً لذواتهم بهذا العمل".

استمر يتحدث بطريقته التي تشبه أسلوب إلقاء المحاضرات، وهو يلتقط حزمة من الأسلاك الكهربائية كان أحد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة.

-"انظر إلي، إن السبب الذي يجعل الجنس مخيباً للآمال بالنسبة لمعظم الناس بهذا الشكل هو انهم يشبهون سلكاً رفيعاً لا يتمكن من حمل اي تيار. هل ستوافق على أن النشوة الجنسية تشبه تياراً كهربائياً. فإذا كنت صحيح الجسم ثم كبحت رغباتك لمدة طويلة فإن التيار سيصبح ذا شحنة عالية. وهذا هو كل هدفنا - أن نتحول إلى سلك سميك ثقيل، مثل هذا". ولوح تحت انفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي. ثم مضى يقول: "فإذا استطاع السلك أن يحمل التيار، فإننا لن نشكو من نقص التيار نفسه. اظنك جديراً بالموافقة على هذا؟"

قلت إنني اوافق، كنت اعرف أن التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة المرء على بلوغ النشوة والاستمتاع بها. ولكن قبل أن اتمكن من طرح بعض التحفظات، وضع كورنر يده على ذراعي.

-"والآن، أريد أن اتحدث إليك. سوف تدرك ان لي هدفاً من الإتيان بك إلى هنا. تعال فاجلس". من الواضح انه كان يشعر بجدية حديثه. جلسنا في ضوء الشمس على الأريكة تحت النافذة.

قال:

-"ليس الأمر ببساطة هو انني اريدك عضواً في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة إلى سؤالك. إنك مؤهل تماماً لهذه العضوية. إنني احب ان تكون نائبي في القيادة، خلفي، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب".

رفع يده لكي يمنعني من مقاطعته، واستمر يقول:

-"ليس عليك ان تتخذ قرارك الآن، بل ولا حتى في الأسبوع التالي أو الشهر التالي. إنما اريدك ان ترى كيف تعمل، انظر إن كان بوسعنا ان نساعدك، أو إذا كان بوسعك ان تساعدنا. اسمع إنك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام. إن اكثر من حولي تلاميذ جيدون، ولكنني حتى الآن لا اعرف المميزات التي يحتاج إليها القائد. لقد اراد دانكمان وزوجته ان يكونا قائدين - ولكنهما كانا جديرين - ببساطة - بأن يحولا مجموعتنا إلى بيت للدعارة، حريم خاص لكل منهما. إن عملاً مثل هذا يحتاج إلى تكريس خالص للنفس، يحتاج إلى الروح العلمية. وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح".

أطلقت بعض الأصوات الدالة على الاعتذار، ثم قلت إنني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار. ولكن في أعماقي، كنت اعرف أن هذا ليس من الأمور التي يمكن ان اناقشها. إنني وحيد منفرد، ليس ببساطة بحكم ميولي، ولكن بحكم طبيعتي. إنني لم ارد ان اختلط بكل هؤلاء الناس.

ربت على كتفي وقال: "بالطبع، خذ من الوقت ما تشاء. ولكن هناك شيء واحد من الأفضل أن اقوله لك بصراحة. فقد حاولنا حتى الآن أن نحافظ على ابتعاد نشاطاتنا عن الأنظار، لأنها من الممكن أن يساء فهمها. ولكن ربما قد ان اوان الخروج واظهار انفسنا بوضوح لكي نكتسب الأنصار، ولكي نعلن اهدافنا على العالم. لأن هدفنا هو ان نثبت ان الحضارة لن تستقر ابداً حتى يفكر كل إنسان بالطريقة التي نفكر بها".

كان قد اصبح جاداً كال الجدية، ولم اكن انا خالياً من كل تعاطف معه، ولكنني رحت فجاة افكر في الصورة التي رسمتها انا دانكمان عن الغرباء الذين يتبادلون جلد عميرة في السيارة العامة، فوجدت انه من الضروري أن أطل قليلاً من النافذة حتى اتمكن من السيطرة على تعبير وجهي، وبينما كنا نهبط إلى الطابق الأسفل، قلت:

-"اظن ان هذه فكرة عظيمة. لقد امتلأ الستير وآنجيلا بالحماس إلى حد الانفجار في الليلة الماضية. لقد اكتسبت امس نصيرين متحمسين".

-"هذا شيء جيد. ولكننا لن نقتنع حتى اتمكن من ان اقول نفس الشيء عنك".

وحينما اقتربنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل، قبض على ذراعي وقال "مؤقتاً" احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل".

-٢٢-

▣ في الساعة الثانية ظهراً، اعلن ان الغداء قد اعد. في حجرة الطعام، التي تطل على الحديقة الكبيرة الخضراء، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على الموائد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملوءان بالحساء، وصحون صغيرة فيها

أكوام من مكعبات الجبن، وكعك من طحين القمح وكعك آخر مزود بالسكر. قدمني كورنر إلى رجل شاب ذا لحية كبيرة اسمه بول، بدا لي أنه مساعده. كان بول يضع نظارات ذات إطار صنع من قرن حيوان، لكنته شمالية واضحة، وأسلوب في التعامل بالغ الجدية.

قال:

-"إننا نحاول أن نأكل وجبات خفيفة، وإلا واجه الجسم مشاكل كثيرة في هضم الطعام، فيفسد النظام ولا يؤدي إلى أية فائدة. أما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة إلى حد بعيد. أما مجموعتنا الأخرى - وهي مجموعة من تعدوا الأربعين - فتأكل أقل من هذا بكثير".

فهمت أن كورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين، وأن لكل من المجموعتين موعداً خاصاً لاجتماعها كل أسبوعين. قال بول:

"لابد أن نكون عمليين في هذا الصدد. نظرياً، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن. ولكن تجربتنا دلت على أن المتقدمين في السن يهتمون بالجنس أكثر من اهتمام الشبان. فإذا سمحنا لما هو أكثر من اللازم منهم بالانضمام إلينا لتركنا الشبان. إن الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الانزعاج من الرجال الأكبر عمراً، ولكن ليس كثيراً أن يختار الأولاد الأقل عمراً نساء يزيد عمرهن على الأربعين. من الطبيعي أن المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما، ولكن هذا يحدث في حدود معينة، وبدعوات خاصة".

وكان واضحاً أن هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الأربعين، بل على الخمسين.

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريباً، مع أغلبية قليلة من النساء. وبدت لي المجموعة عينة عادلة من الناس. لاحظت أن هناك ما يشبه الزي الشائع بين نساء المجموعة، تغلب عليه الثياب ذات الأكمام الطويلة والنظارات ذات الأطر الثقيلة إلى حد ما، الأمر الذي يعطيهن مظهر الدارسات المجدات. لم يكن هناك مراهقون يقل عمرهم عن العشرين، وكانت الفتاة التي رأيتها في الحديقة تبدو واحدة من أصغر الحاضرين. لاحظت أن نسبة كبيرة من الرجال يبدون ذوي بنية قوية، أو يرتدون صدارات صوفية مغلقة مرتفعة

الأعناق عريضة الصدر لكي تعطي انطباعاً بضخامة حجم من يرتديها. ولم يكن سوى عدد قليل جداً من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت. ولكنني لم أر شخصاً واحداً يمكن أن يقال عنه أنه غير جذاب من الوهلة الأولى. وبشكل عام، كان للنساء مظهر الذكاء وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال. لقد رأيت عدداً قليلاً جداً - بينهم - من الرجال، يمكن أن يقال أنهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد. وبسبب ما يبدو عليهم من سمات تدل على أنهم مجموعة "متوسطة"، مثل عينة عادلة، أحسست بأنهم ربما جاؤوا نتيجة اختيار دقيق بأكثر مما يظهر لمن يراهم للمرة الأولى.

لاح عليهم أنهم يعرف أحدهم الآخر معرفة جيدة جداً. كان هناك قدر كبير من الضحك، ومن التجاذب والمعاكسات، من المصافحات والقبلات بين المعارف والأصدقاء، ومن قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام وأطباق الحساء للآخرين. أحسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي، رغم أنني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما، ويوشك أن يكون افتقاراً إلى التلقائية والتصرف بطريقة مستريحة.

ذهب بول لكي يتحدث إلى شخص ما. قال صوت في مقابلي: أهلاً". فوجدت نفسي أطل نحو العينين البنيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة الخضراء المبتلة. كان الزحام يحيط بنا معاً، وبينما رفعت وجهها وأدارته نحوي مبتسمة لي، امتدت يدها من ورائها وقرصت عضوي قرصة ودية. قالت:

-"اسمي تيسا" ثم أشارت إلي لكي أحني رأسي نحوها، همست:

-"لا أريد تناول الغداء، فلنذهب إلى الفراش".

-"إنني أشعر بالجوع".

-"إلى جانب أنهم قد يلاحظون انصرافنا معاً. إنني أتلقى تدريباً خاصاً".

عاد بول، ورمق الفتاة بنظرة مقطبة تدل على عدم موافقته.. أحسست أنهم يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي.

أكلت خبزي وقطعة الجبن وشربت حسائي. ثم خرجنا من نوافذ الشرفة الفرنسية ومنها إلى الحديقة الكبيرة. كانت مجموعة من النساء تقف على شكل دائرة، وبدا أنهم

يؤدون نوعاً ما من التمرينات. وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره، ثم تحركوا إلى الأمام حتى تلاصقوا، ثم انحنى كل منهم إلى الأمام بحركة واحدة حتى أصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة "الركبي" ذات الخمسة عشر لاعباً. قال بول:

"هذه جماعة من جماعات الألفة في مرحلة التسخين. إنهم يحاولون التخلص من ضغوط الحياة المدنية - يلمس أحدهم الآخر، يقومون ببعض الأشياء معاً. يحاولون التخلص من الإحساس بالانفصال والعزلة".

كان رجل شاب يرتدي صداراً ذا عنق مرتفع يلقي بالتعليمات للجماعة، ويتحرك من حين إلى آخر وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين أو على الظهر. وبينما كنت واقفاً في مكاني، اتجه إلى امرأة في نحو الأربعين، وفعل شيئاً ما بنهديها - من الواضح أنه كان يعدل من وضع مشد صدرها من فوق صدارها الصوفي - وانتهى بأن صفع ردفيها صفعة حادة كما لو كانت بقرة تقاد إلى الحقل. قال بول:

-"هاأنت ترى، إنهم يحبون أن تلقى عليهم الأوامر. إنها تساعدهم على التخلص من الإحساس بالمسؤولية - مرض الحضارة العصابي. والغرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الأطفال الأبرياء مرة أخرى".

لاحظت أن كل المشتركين في هذه الجماعة من "جماعات الألفة" كانوا يرتدون ملابس ثقيلة إلى حد ما، بالنسبة لحرارة الجو. وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب، فبينما يشرعون في التخلص من إحساسهم بالقهر، يمكنهم أن يرتدوا ملابس أخف ثقلاً. وقال في النهاية: "سوف ترى ما أعنيه بعينيك في المساء".

ذكرت له الفكرة الأساسية التي ساورتني: وهو أنه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي إلى هذا الحد، فإن كل الأهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه - لابد أن تتجه نحو تبادل الاستثارة الجنسية في النهاية، ورغماً عن الجميع. أومأ برأسه موافقاً، وقال:

-"في مجموعة بهذا الحجم، لابد أن يحدث هذا في حدود معينة بالطبع.. ونحن نحاول أن نتخذ الاحتياطات اللازمة. ولكنك سوف تدهش إذا عرفت مقدار قلة حدوثها. ليست هنا محرمات، ولا كوابت أو موضوعات للكبت، وهذا يؤدي إلى فرق كبير".

عندما دخلنا المنزل، سألته عما كان يعنيه بكلمة "احتياطات" فقال: "سوف أطلعك عليها".

صعدنا إلى حجرة في الطابق الأول. كنت قد عرفت أنها حجرة نوم جماعية للنساء. دخلها بول دون أن يطرق الباب. كان هنا ست من النساء يرقدن على الأسرة، أو جالسات يعدن ترتيب زينتهن، وكانت إحداهن جالسة بسروالها الداخلي ومشد صدرها وهي تخلع جوربها. ابتسمت لنا، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول إلى سرير فوقه حقيبة مفتوحة فقلب محتوياتها على السرير. نثر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمادي من الصوف، مشدات، زوج من الملابس الداخلية، بعض أدوات التجميل - ثم ألقى نظرة على حقيبة غسيل قرمزية اللون. لم يبد على إحداهن أنها نظرت نحوه أو انتبهت إلى ما يفعله. قال:

-"إنني أبحث عن موانع للحمل. إنها أفضل طريقة لتأكيد أن شخصاً ما ينوي أن يكسر القواعد المتبعة.

التقط حقيبة المرأة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها. قالت:

-"آوه. بحق السماء لا تبعثر كل شيء. دعني أطلعك على ما فيها".

أخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء أخرى، وفردت كل قطعة ونفضتها. أشار بول إلى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال:

-"ليس هذا جميلاً جداً".

-"أعرف هذا. ولكنني غادرت المنزل في عجلة وألقيت في الحقيبة بأول شيء رأيته أمامي".

وفي خارج الغرفة قال موضحاً:

-"لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع، لكي نرى إن كانوا قد جاءوا معهم بموانع الحمل أم لا. وبالطبع، ليست لدينا وسيلة نعرف بها إن كانت النساء قد تناولن "قرصاً" قبل مجيئهن أم لا".

-"ألا يفسد هذا من تأثيره بشكل ما؟"

-"أوه، لا. إن أوتو يتحدث إليهم ضد "أقراص منع الحمل" على أي حال، لأسباب صحية".

-"وماذا عن الرجال؟"

"النساء تفتشهم. من المسموح لكل واحد أن يفتش أي شخص آخر، إننا نحاول أن نكون أسرة واحدة".

-"لماذا اعترضت على السروال الوردي لتلك الفتاة".

-"فتحات الساقين واسعة. ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع، ولكن إذا كان في نية الناس أن يمارسوا الجنس، فإن هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي - فإذا أضيئت الأنوار فجأة، بدت الفتاة في كامل ملابسها".

-"إذن فإن من المفترض أن تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية؟" هكذا سألت وأنا أفكر في تيسا وهي راقدة على حشائش الحديقة الخضراء المبتلة.

لاح أنه قد صدم تقريباً. صاح، "أوه، لا. إن هذا جدير بأن يبعدك تماماً عن الهدف الأساسي لمجموعتنا - الألفة. ولكن إذا شرعن في تلقي الملاطفات من أحد الرجال، فإن عليهن أن ينزلن سراويلهن، على الأقل حتى الأفخاذ" واستمر يتحدث بإخلاص شديد، "لا يبدو عليك أنك تفهم. إننا لا نحاول أن نجند الناس أو أن ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود. ولكنك تعرفت بنفسك أنه كلما زادت العقبات كلما زاد ما تثيره من اهتمام. ولهذا فإننا نحاول أن "نصف" لنساء مجموعتنا أن يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات السيقان الضيقة المحكمة إلى حد كبير، وبذلك فإذا حدث أن رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فإن عليها أن تخلعه تماماً. إننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون أو السراويل الفرنسية الواسعة لأنها يمكن أن تجذب جانباً بسهولة كبيرة. وبعض هذه الأشياء لا تشكل أية حماية على الإطلاق.

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو. سألته، "ماذا يحدث الآن؟"

لدينا محاضرات حتى الساعة الخامسة، وأنا نفسي ينبغي أن ألقي محاضرة، ولذلك سيكون علي أن أتركك. إن حضور المحاضرات إجباري بالمناسبة. وأي شخص "يزوغ" من المحاضرات لا يكون جاداً حقاً. ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد، لأن هذا يساعدنا على التخلص ممن يأتون لدوافع لا تتفق مع أهدافنا".

نصحني بأن أتجول بين قاعات المحاضرات المختلفة، وأن ألقي الأسئلة إذا رغبت في هذا.

عملت بنصيحته، انقسم "الطلبة" إلى أربعة مجموعات. تحدث كورنر إلى المجموعة الأولى، وبول إلى المجموعة الثانية، وكريس لمجموعة ثالثة، وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة، وإن كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها أشبه بمدرسات المدارس الثانوية، تدعى جوينيث. كنت سعيداً بأن أرى ألستير وأنيجلا يجلسان بلهفة في الصف الأول من مجموعة كورنر، التي كانت تجلس في الحديقة، جلست في الصف الأخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها، وسمعته يشرح الأسباب التي تجعله مادياً. قال،

"يعتقد المثاليون أن أشياء مثل الحياة والفكر والأفكار يمكن أن توجد "بمعزل عن" المادة، بمعنى من المعاني". وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة، ومقنعة تماماً بالنسبة لي. ولكنها لم تبلغ هدفها، بقدر ما يتعلق الأمر بما اهتم أنا به. إنني أوافق على أنه لا يمكن أن تنفصل العقول والعمليات العقلية عن المادة. ولكنني ما زلت أعتقد أن الحياة - بشكل ما - قد دخلت المادة من "خارجها"، وليست فيضاً منبثقاً عن المادة، مثلما تنبثق النار عن الفحم.

أحسست بأن كورنر لن يرحب بتوجيه أية أسئلة، ولذلك فقد انتقلت إلى المجموعة التالية، التي كانت تحاضرها السيدة المدعوة جوينيث. كانت تقدم ملخصاً متحمساً - وإن كنت قد رأيته مشوشاً - لأفكار رايخ. ولاح لي حديثها عن "السائل الحيوي" الذي يتراكم بين الفخذين لحظة الاستثارة الجنسية، لاح لي قريباً إلى درجة خطيرة من الطاقة العضوية التي قال بها رايخ. تساءلت في داخلي عما يمكن أن يحس به كورنر إزاء هذا. حاولت جوينيث بنشاط أن تجرني إلى المناقشة، التي سرعان ما دبت فيها الحياة. بدت لي مجموعتها مفعمة بالذكاء والفهم، وأكثر استقلالاً عقلياً مما توقعت - فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط. بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة عن أصل الدافع الجنسي، نظرتي حول الاستجابة الرمزية، ولكن كان بوسعي أن أرى كيف نظروا إلى هذه الأفكار باستغراب كامل، وأنها - كما قالت إحدى السيدات، "مجردة بشكل لا ضرورة له". أصبحت

المناقشة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعاً حينما زحف أعضاء المجموعات الأخرى إلينا في الحديقة وقالوا ان وقت الشاي قد ازف.

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شاياً - وهو الذي يمقته كورنر - وإنما شراب السانكا، وهي قهوة منقاة من الكافايين. أكلنا أيضاً معجنات مسكرة دهنت بطبقة خفيفة من الزبد. هجمت عليّ جوينيث وقالت لي انها اقتنعت بافكاري. وراقت لي هي جداً. كانت في نحو الأربعين من عمرها، ذات مزاج دموي حار، وأسنان كبيرة بيضاء أضفت على ابتسامتها لطفاً وجاذبية، وكانت تميل إلى المبالغة في صورة المدرسة المجسدة التي لاحت لي أنها الصورة التي وصفتها "قيادة" المجموعة لنسائها، بثوبها الأسود الطويل الأكمام، وعقدها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها. أدركت أنها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها، وأنها تشغل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة. كانت تتمتع بطريقة حماسية مشوشة قليلاً في مناقشة الأفكار ذات الجاذبية الخاصة أو السحر بالنسبة لها. ولكنني لم أستطع أن تخيل كيفية انضمامها إلى مجموعة كورنر.

بعد شرب الشاي، ذهبنا إلى جميعاً إلى الحجرة الرئيسية. لم يكن فيها سوى أثاث قليل، لكنها كانت مزودة بأبسطة جيدة، بدت كما لو كانت قد كلفت المجموعة ثمناً يساوي ثمن كل الأثاث الموجود في المنزل. (قالت جوينيث أن هذه الأبسطة كانت "هبات" قدمها الأعضاء الأكبر سناً، وقد انتابتني شكوك حول أن بعض الأعضاء الكبار السن قد اشتروا عضويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تزيد كثيراً - وبالإضافة - إلى الرسوم المقررة).

ورغم أن البرد كان يتزايد بالخارج، فإن هذه الغرفة كانت دافئة بسبب مدفأة الخشب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة.

انقسم الناس في الحجرة إلى جماعات الفة صغيرة، ورحت أتنقل من مجموعة إلى أخرى، مراقباً نشاطاتهم باهتمام. وسرعان ما اتضح لي أن القسم الأول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الأوبرا الموسيقية. أما هذا القسم الآخر فكان هو القسم الجدي والهام. تشابكوا في حلقات ضيقة، متلاصقين بشدة أحدهم إلى الآخر، ويري كل منهم بيديه على أجساد الآخرين، بادئين من الكاحلين، متجهين إلى الرؤوس. انقسمت جماعات كثيرة إلى أزواج، وكرروا عمليات الضغط والتدليك. لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية، ولاحظت أن الأيدي لا تلبث إلا قليلاً عند المناطق

الحساسة، ولكنها بدت أكثر اهتماماً بالرؤوس والأذرع. جذبتني فتاة نحيلة طويلة إلى داخل إحدى المجموعات حينما كنت واقفاً أراقبها، وبدأت تربت علي، ضاغطة بكلتا يديها على بطني أو صدري ثم تباعد بينهما وتضغط بقوة أكثر. بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء، وأنا واقف ورائها، ضغطاً بيدي الاثنتين بقوة على بطنها، ثم مدلكاً جسدها حتى أصل الردفين كررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين. ثم - طبقاً لتعليماتها - بدأت أربت على ظاهر الساقين، بدءاً من الخصر، جارياً بيدي فوق ثوبها، هابطاً إلى القدمين. لاحظت أنها كانت ترتدي حزاماً لرفع الجوربين مع الجورب نفسه. وبعد ذلك بدأت تلاطف كتفي وذراعي ورأسي، جارية بأصابعها في شعري، وعلى صدغي، فاتحة فمي لكي تدس طرف إصبعها داخله، ثم تدس إصبعها الصغير (بنصرها) في أذني. كانت ما تفعله هو ملاطفتي كما لو كنا عاشقين، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا، فقد كان للعملية خاصية غريبة من الاستثارة، وقدرة غريبة على ابراز ما هو محرم وممنوع. ولو أننا كنا مفردين وقد خلعنا بعض ملابسنا، لانتهت العملية بالجماع في خلال دقائق. ولكن هذا التدليك الطويل المدى في حجرة يشاركك فيها أكثر من خمسين شخصاً، أدت إلى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات، محطمة كل العادات القديمة.

لاحظت أن بعض الأزواج الآخرين قد جاؤوا بأوان مليئة بالماء وراحوا يتبادلون غسل الوجوه والشعر، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة، حيث لم تكن هناك أبسطة. كثيراً ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشركاء. وبعد عشر دقائق من ملاطفة الفتاة النحيلة الطويلة،حصلت على امرأة ثقيلة البنيان متوسطة العمر. شعرت في البداية أن التغيير لم يكن مفيداً. ولكن بعد خمس دقائق من الملاطفة لاحظت أننا حققنا الألفة المطلوبة، ووصلنا إلى أن يعرف أحدنا الآخر وأن يروق أحدنا للآخر. بعد ذلك حصلت على نيسا التي ابتسمت وهمست لي بطريقة فيها قدر من التفكه، "أخشى أن لابد أن يكون هذا ذروة مضادة، هوة مقابلة للذروة "anticlimax". كانت على صواب إلى درجة ما. لم يخف بنطالي عنها أي سر. كما لم يخف ثوبها عني أي سر. ولكن الإحساس بنعومتها تحت الثوب كان مثيراً. اختلقت شيئاً كالفكاهة من هذا الموقف، فدست يدها تحت صداري الصوفي وقرصت ثديي بقوة، وحينما دلكتها ودفعت ثوبها بين فخذيها قالت، "أرجو ألا يفحصني الآن أحد إنني مبتلة". سألتها

-"أهذا من المحرمات؟"

-"بالطبع. ولكن ماذا يمكنني ان افعل؟ إذا لمسني الناس مجرد لمسة هنا، بلغت ذروة نشوتي على الفور. لقد بلغتها مرتين الآن".

بعد بضع دقائق قالت، "إنني جائعة إلى درجة لعينة. عندي كثير من الشوكولاته في حجرتي، إذا كنت تريد بعضها".

-"هذا مسموح به؟"

"ليس بشكل حقيقي. ولكن كل هذه الألفة تثير نهمي إلى الطعام".

في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا،

"الحمد لله على ذلك".

اتجهنا جميعاً في حركة واحدة كالتيار إلى حجرة الطعام. كنت بحاجة إلى طعام، وكانت كل هذه الاستثارة تجعلني اشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلاً. كان العشاء اقل قليلاً في شحه من الوجبة السابقة، صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم، وخضراوات ساخنة. ولدهشتي، لاحظت انه كان ثمة مشرب للخمور ايضاً، وقالت لي جرينويث - التي تولت امر رعايتي - بان في وسعي ان احصل على بيرة او على نبيذ. قالت انه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية، ولكن قليلاً من الكحول يساعد اكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم. لاحظت باهتمام ان "الألفة" استمرت في قاعة الطعام. فقد انتهز الرجال والنساء المتمازجة الفرصة لكي يلاطف احدهم الآخر، بل وان يتبادلوا القبلات. كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة، واغلبها كان على الأذرع والأعناق، اما الآن فقد رايت انهم يحيون بعضهم البعض غالباً بالتقبيل على الفم. ورغم ان الألسنة لعبت دوراً في بعض هذه القبلات، فإن احداً لا يستطيع ان يصفها بالشهوانية، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب إلى الفراش.

-"اكلت بشكل جيد، وانعشتني كاس من البيرة إنعاشاً كبيراً. وبعد تناول الطعام، شققت طريقي إلى المرحاض، ولكنه كان مشغولاً. فشققت طريقي إلى الطابق العلوي إلى مكان تذكرت انني رايته - وهو مكان ملحق بغرف النوم تذكرت انني رايت على بابيه

قبعة رجل وحقيبة يد نسائية، مع سهم تحتهما يشير إلى نهاية الدهليز. سرت في الاتجاه المشار إليه، فوصلت إلى مرحاض من الواضح انه كان قد بني حديثاً، مع عدد من الأبواب للأماكن الخاصة مثل مرحاض عمومي. ولكن لم تكن هناك إشارة على الباب تدل ما إذا كان المرحاض للرجال ام للسيدات. وبينما كنت واقفاً هناك، سمعت صوت خطوات تاتي من آخر الدهليز، وتنفست الصعداء حينما رايت ان نيسا كانت هي القادمة.

-"أنا مسرور لرؤيتك. ايهما للرجال؟"

-اوه، ايهما اردت، فليس لدينا اثنان. إنها الألفة، اترى؟ هل ستاتي؟"

-"اعتقد هذا".

يجب علي ان اعترف بانني احسست بالخجل، ولكن كان بوسعي ان ارى عدم منطقية هذا الإحساس. ذهبت إلى المحل الأخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة، ولشدة دهشتي اكتشفت أن الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعاً من الزجاج. ذهبت نيسا إلى المحل المجاور وابتسمت لي. ثم - ودون اي إحساس بنفسها - جذبت ثوبها إلى اعلى، ثم جذبت سروالها الداخلي إلى ركبتيها، وجلست.

قلت،

-"يا إلهي الرحيم. هذا اكثر مما ينبغي. اليس كذلك؟"

-"ظننت هذا حينما جئت لأول مرة. ولكنك سرعان ما تتعود عليها".

-" ولكنني لا احب ان اتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن ان يسمعني احد".

-"لماذا تهتم بذلك؟ الدكتور كورنر يقول انه صوت طبيعي من اصوات الجسم، مثل صوتك وانت تتكلم".

شعرت بالبلاهة وانا واقف في مكاني، فانزلت بنطالي وجلست. لم اشعر من قبل ابداً بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة. ثم سمعت صوت مزيد من الأصوات بالخارج، ثم دخلت امراتان اخريان. اتجهتا إلى المكانين في الطرف الآخر، وكشفتا عن مؤخرتيهما، وجلستا - وكان الزجاج نقياً بصورة غير عادية. لم تلتفتا إلينا اقل التفاتة، وإنما استمرتا في

الحديث عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم. أراحني صوتهما، فانفجر الينبوع المحبوس في داخلي. ولما راقبت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في اننا جميعاً مخلوقات مليئة بالكوابت والرغبات المكبوتة او المحبطة باكثر مما نعرف عن انفسنا، وانه من المحتمل ان يكون كورنر على صواب مرة أخرى. ولكنني صممت على ان استخدم مرحاض الطابق الأرضي في المستقبل، لأن له جدراناً عادية.

هبطت إلى الطابق السفلي مع تيسا.

عندما عدت ثانية إلى القاعة الرئيسية، وجدت معظم الطلبة جالسين على الأرض فوق وسائد متناثرة. وحينما دخلت، أشار كورنر الذي كان واقفاً إلى جدار المدفأة. ذهبت إليه. ضرب على المائدة بإحدى الزجاجات طالباً الصمت، ثم قال:

"والآن اريد ان اقدمكم جميعاً إلى الروائي والفيلسوف البارز جيرادسورم، الذي وصف بانه اكثر كاتب بريطاني إثارة للاهتمام منذ الدوس هكسلي ود. هـ. لورنس. (واعتقد انه اخترع تلك المقارنة من وحي اللحظة). إن آراء مستر سورم حول الجنس تختلف عن آرائنا في نواح متعددة، وانا الآن اريد ان اطلب منه ان يلقي بضعة كلمات عن آرائه تلك. ويجب علي ان اقول انني لم انبهه قبلاً بانني ساطلب منه مثل هذا الطلب، وهكذا فإن كلمته سوف تكون مرتجلة تماماً".

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي ادهش فيه أو لكي تتوتر اعصابي. وقفت ولخصت بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي، وطبيعته العمدية، والطريقة التي يصور بها الدافع الجنسي نظريتي الظاهراتية (الفينومينولوجية) على كل تفاعل الإنسان مع العالم. وحينما شعرت بانني اوشك ان اتوه بهم في دهاليز هوسرل[1]، تحدثت عن إحساسي بالدافع الجنسي باعتباره "مفتاحاً لحاملي مفاتيح الوجود" وعن العلاقة بين الجنس والتجربة الصوفية. انتهيت بمحاولة شرح النقطة الأكثر جوهرية عندي: وهي ان الجنس يمنحنا لمحة خاطفة من تركيز العقل يمكن ان تجعلنا اشبه بالآلهة لو استطعنا ان نبتعثها إرادياً في مجالات أخرى وان نسيطر عليها. ذكرت فكرتي عن ان الكائنات البشرية تشبه ساعات

(1) إدموند هوسرل (١٨٩٥-١٩٣٨) فيلسوف ألماني، ولد في مورافيا من أسرة يهودية، ويعد مكتشف المنهج الظاهراتي في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف المعنى الحقيقي لمادة الوعي.

الأجداد التي كانت تديرها القوافز المضغوطة، وأن الجسد اثقل من أن يحركه القافز الضئيل الذي تمثله قوة الإرادة. ولا يحدث إلا في الجنس ان نتمكن من تنمية قافز يتمتع بالقوة الكافية لتحريك ساعة الأجداد الثقيلة. وانتهيت بقولي أن اهتمامي الرئيسي كان يتركز في التساؤل عن كيفية تعلم إدارة وتقوية قوافز الإرادة.

كان المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومثيرة للاهتمام، ولكنها لم تصل الحد الأقصى. فقد اعترض الكثيرون على اساس انه من الخطورة الشديدة السماح بمثل تلك الأهمية الكبيرة للإرادة. كانوا يحتجون بوجهة نظر تشبه نظرة لورنس وكورنر. واستطعت ان ارى ان تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعاً، إنني لم انزع ثقتي عن الإرادة ولا الذهن.

كان يوماً طويلاً، وكنت اشعر بالتعب. كانت الساعة الآن قد قاربت التاسعة، وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة. وكنت قد بدات اشعر بالرغبة في النوم. كان الأمر كله بالغ الإمتاع مليئاً بالوعود الكثيرة، وشعرت بان كورنر كان في طريقه إلى شيء هام دون شك، ولكن كان الأمر يتطلب قدراً كبيراً من التفكير لتوضيح موقفي من المسألة كلها. وأملت ان ينجلي المساء عن شيء أكثر اجتماعية بشكل نقي، وانني أتمنى لو اندس في الفراش. وقد كان هذا على بعد كبير من الموقع الذي بدا منه، حيث كان ايزموند وهوراس جليني.

شكرني كورنر وقال انه يامل أن يتمكنوا من رؤيتي كثيرا. ثم قدم المجموعة إلى الستير وانجيلا، اللذين كان عليهما أن يقفا، وقد بدا عليهما الحرج. صفق الجميع بادب، ثم شرعوا في الوقوف والتحرك للخروج من الحجرة. سالت كورنر، "ثم ماذا بعد؟"

-"آه، الآن يبدا القسم الأكثر اهمية. سنمر الآن بمرحلة أخرى من مراحل الألفة".

لم أسعد بذلك سعادة كاملة. كانت المرحلة السابقة ممتعة ولكنها متعبة، فإنني لم اشعر برغبة في ان اثير توتر ملكاتي مرة أخرى. أشار إلي فتبعته إلى خارج الحجرة، متسائلاً بيني وبين نفسي إن كان سيمتعض إذا اقترحت الا اشترك في تلك المرحلة. بدات أتحدث، ثم غيرت راي. وبدلاً من هذا، سالته:

-"أود لو اسالك عن ايزموند دونيللي".

نظر إلي وابتسم.

قال، "أظن أن بوسعي أن أخبرك ببعض الأشياء الهامة. ولكن يمكننا أن تناقش ذلك فيما بعد. فإن لدينا الآن أشياء أخرى يجب أن نقوم بها".

تبعته، بشيء من الإجهاد، على السلم. استدرنا إلى اليمين، وظننت أننا ذاهبان إلى مهجع الفتيات المخصص لنومهن. ولكنه فتح باباً علياً لباب حجرة النوم، ودخل. تبعته. كانت الحجرة صغيرة المرتفعة. كان لأحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي، رأيت جوينيث واقفة أمامها، تعيد ترتيب شعرها وتحدق نحونا.

-"هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين، بالطبع".

كانت هذه أول مرآة من نوعها أراها في حياتي. سألته،

-"أنت واثق من أنها لا تستطيع أن ترانا؟"

-"ليس إلا إذا فعلت هذا" مد يده وأدار ذراعاً صغيرة. وعلى الفور، أصبحت النافذة مرآة كان بوسعي أن أرى وجهي على سطحها. قال،

-"تستطيع هي الآن أن ترانا. لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة".

أدار الذراع مرة أخرى، فابتسمت جوينيث لنا، ولوحت بيدها عبر النافذة. لوحت رداً عليها، ناسياً أنها لم تعد تستطيع أن ترانا.

-"ما الغرض منها؟"

-"للملاحظة. سوف ترى أن النساء يبدلن ملابسهن الآن".

كان هذا صحيحاً. ففي المهجع المزدحم، كانت النساء يخلعهن ثيابهن، وقمصانهن الداخلية، والأحزمة رافعة الجوارب. أما جوينيث، فإنها دون وعي بما تفعله قد مدت يدها إلى ظهرها وفكت زراً في ثوبها، ثم جذبت الزمام. خلعت الثوب بعناية ثم فردته على الفراش. كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود اللون ذا حافة حريرية مشغولة بدت مغرية جداً وجذابة. بدا عليها أنها نسيتنا. خلعت حمالة القميص عن كتفها، ثم تركته يسقط حول قدميها. من الواضح أنها لم تكن تفضل اللون الأسود وحدها لملابسها الداخلية. كانت ترتدي حمالة صدر

بيضاء، وحزاماً أسود اللون يرفع الجوربين وسروالاً داخلياً أبيض من النايلون الناعم. من الواضح أنها كانت مستثناة من القاعة التي توجب على النساء ارتداء سراويل داخلية لا يمكن أن تمط إلى درجة كبيرة. أما أكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزمن بهذه القاعدة. لم تكن إحداهن ترتدي السراويل الصغيرة الحجم. كانت أكثريتهن يرتدين تلك الأشياء الوردية أو الزرقاء التي تغطي كل المعدة، والمزودة بشريط مطاطي عند الوسط، رغم أن تجربتي الخاصة مع ذلك النوع أثبتت لي أن المطاط عند فتحة الساق يمكن أن يخضع للمط بدرجة كبيرة، فإذا ما جذب إلى أسفل بوصة واحدة أو اثنتين، لم يعد يمثل أي مشكلة.

انضم إلينا عدد آخر قليل من الرجال بينما نحن واقفان أمام المرآة. ورأيت أنهن جميعاً كن يرتدين الآن تنانير قصيرة جداً رمادية من الصوف من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحقائب التي فحصها بول أمامي. وكان الرجال الذين جاءوا للوقوف معنا قد أصبحوا يرتدون الآن زياً مماثلاً يتكون من بنطال رمادي من الصوف وقميصاً رياضياً أبيض اللون. ذهبنا نحو عنبر نوم الرجال في الطابق التالي. حصلت على إجابة السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه حينما فتح باب مجاور لباب العنبر فرأيت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح أنهن كن يراقبن الرجال أثناء خلعهم لملابسهم من خلال مرآة أخرى ذات اتجاهين. نادى كورنر بحدة،

-" هيا يا سيدات. لا فرجة أكثر من هذا. لقد آن وقت تغيير الملابس".

أسرعن كلهن إلى الخروج، ولاحظت أن تيسا كانت بينهن. وبينما كنا ندخل العنبر، رأيت أنها تسللت عائدة إلى حجرة المراقبة.

قال كورنر، "تعال. لقد آن وقت استبدال ملابسنا".

في عنبر نوم الرجال، بدا أكثر الرجال عراة تقريباً، وكان الشخص الواقف بالقرب من المرآة عارياً تماماً بالفعل. سألت كورنر،

-"ما الهدف من هذه المرايا بالتحديد؟"

-"أكثر الناس يتسمعون بصفات الرغبة في الاستعراض، حتى أكثرهم ثباتاً ورزانة. وأكثر الناس كذلك يحملون صفات "توم البصاص". وهنا يمكنهم إشباع هذه الرغبات دون

إحساس بالإثم. لا تكاد تكون هناك أية رغبة جنسية لابد من إخفائها هنا في هذا المكان. إننا نحاول أن ندفعها جميعاً إلى السطح المكشوف، أن نجعلها صريحة مباشرة وتحت الأنظار المتطلعة. والآن، أظن أن هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسباً. إنك لا تحتاج إلا إلى قميص".

استدعى بول، الذي كان يرتدي ملابسه كاملة لكي يعثر لي على قميص. وبعد بضع دقائق، عاد بول حاملاً قميصاً رياضياً دون "ياقة" من القطن. لاحظت أنه كان طويلاً بشكل غير عادي، فأدخلته في فتحة بنطالي. لاحظت أن أكثر الرجال كانوا يرتدون سراويل داخلية - من النوع الصغير الذي تجد إعلاناته في مجلات الصحة والقوة، وكانوا يرتدون أحذية "التنس" البيضاء. كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور. صفق كورنر بيديه وصاح قائلاً:

-"هيا يا سادة. آن وقت ارتداء الملابس. ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الآن".

تذكرت - مجفلاً - أن تيسا كانت هناك، وأنني كنت أخلع ملابسي على بعد أقدام قليلة من المرأة. تمنيت أن تكون قد استمتعت بالمنظر. أو ربما كانت تراقب الرجال الآخرين.

في الحجرة الرئيسية، كانت شاشة ضخمة قد وضعت أمام المدفأة، التي كانت منخفضة الارتفاع. رأيت أنجيلا وقد بدت حلوة جداً في تنورتها القصيرة الرمادية. ولاحظت أنها كانت ترتدي جورباً مثل نساء أخريات كثيرات. وكان من الواضح أن ارتداء الجوارب إجباري. اقتربت مني وأمسكت يدي. قلت:

-"بم تشعرين؟"

"إنني بحالة طيبة. ولكنه أمر يؤدي قليلاً إلى الصدمة إذ تفقد الكثير من الكوابت في عطلة نهاية أسبوع واحدة. ولكنها تجربة رائعة. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتنة لمقابلة كورنر".

-"ترى، ماذا سيحدث الآن؟"

-"ألا تعرف؟ مزيد من الألفة. كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تمنها الآن. هذه هي اللحظة الكبرى. أرجو أن أحصل عليك. لا أستطيع أن أحتمل واحداً من الرجال الآخرين، فأنا أكره الذكور ذوي الشعر الكثيف".

-"ولكن ماذا..؟"

قبل أن أتمكن من إكمال سؤالي، صاح كريس قائلاً:

-"هل نحن هنا جميعاً؟"

قالت أصوات عديدة: "أجل".

-"حسناً. كونوا الدائرة. بول، هل لك أن تطفئ النور بالتدريج؟"

تساءلت عن الماهية الحقيقية في إطفاء بول للنور وبالتدريج. وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدائرة، والأيدي فوق الأكتاف، أخذت الأضواء تخفت تدريجياً. رتب الرجال أنفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تالياً لامرأة، ولكن لما كان عدد النساء يزيد قليلاً عن عدد الرجال، فقد كان من اللازم أن تصاحب بعض النسوة نساء أخريات. ثم أطبق ظلام كامل. سألت أنجيلا:

-"ماذا تفعل الآن؟"

ولكن صوتاً غريباً أجابها:

-"إننا نتحرك الآن جميعاً نحو المركز، نختلط ببعضنا، ثم نختار أول من نصادفه من الجنس الآخر".

بدأنا نتحرك إلى الأمام، حلت لحظات قليلة من الفوضى. عجبت كيف أميز الرجال من النساء، وانتهيت إلى أن لمس الصدر هو الوسيلة المناسبة لذلك. (واكتشفت فيما بعد أن هذه كانت هي الوسيلة المعتادة). عثرت على فتاة فأمسكت يدها بقوة. صاح صوت بول:

-"الكل مستعد؟"

تعالت صيحات متضاربة: "أجل، لا".

ولكن الأضواء راحت تسطع بالتدريج. اكتشفت أنني كنت أمسك يد فتاة ضئيلة الحجم، شقراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل. لم تكن جميلة جداً، ولاحت لي عيناها مصابتين بقصر النظر، ولكن وجهها كان جذاباً ساحراً مفعماً بالحيوية. سألتها:

-"ثم ماذا، الآن؟"

-"يمكننا إما أن نشترك مع الأزواج الآخرين، أو أن نبقى منفردين. أيهما تفضل؟"

-"فلنبق منفردين الآن".

-"وهو كذلك".

نظرت إلى جارتي الملاصقة لي - الفتاة النحيلة الطويلة التي كنت معها في لحظة سابقة من النهار - فجفلت حينما رأيت أنها كان توشك أن تخطو لكي تتخلص من سروالها الداخلي الذي كان ساقطاً عند قدميها. وكان الرجل الذي يقابلها يفعل نفس الشيء، وهو رجل وسيم إلى درجة ملحوظة، عصبي، يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع، بينما احمر وجهه. ناولته سروالها وأخذت سرواله، وأخذ كل منهما يرتدي سروال الآخر وهما متواجهان.

-"ما الغرض من كل هذا؟"

-"هذه هي بداية الألفة. يمكننا أن نتبادل الملابس دون تقيد بأي حدود. وهذا هو القسم الذي رسم من أجل المولعين جنسياً بأشياء معينة، فيما أظن. هل تعني السراويل الداخلية شيئاً بالنسبة لك؟"

-"إن لها دلالة جنسية محددة".

-"في هذه الحالة، يحسن أن نتبادل سراويلنا".

ودون أن يبدو عليها أي حرج، خلعت بسرعة سروالاً وردياً من النوع الطويل، ثم ناولته لي. استغرقت أنا وقتاً أطول في خلع بنطالي ثم في خلع سروالي الداخلي.

قالت: "وماذا عن قميصك؟"

-"إذا راق لك ذلك".

كان ملتقى ساقي سروالها مبتلاً، وولد احتكاكاً بما بين فخذي ومضة من التهيج الجنسي قضت على آخر آثار التعب. ومن الواضح أن مثل هذا الاحتكاك إنما هو أساساً احتكاك بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية يتم بحركة واحدة. وبدأت أدرك ما عناه كورنر بتعبير "النشوة الجنسية المعلقة". كان ما فعله هو أن ملأ حجرة بالرجال والنساء، وجعلهم يعيشون لحظة احتكاك جنسي - فعلي أو رمزي - أحدهم بالآخر، حيث يكون المثير الجنسي في أقصى حالات قوته، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة. وقف كورنر إلى جوار المدفأة، يرقبنا بعينين طيبتين سعيدتين ووجدت نفسي أتساءل عما يشعر به الآن أو ما يفكر فيه.

أعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي، وأخذت منها قميصها القصير الذي كان بنفس الطول تقريباً. لاحظت حينما خلعت ثوبها أن حمالة صدرها كانت من النوع ذي الفتحة الهابطة التي تكاد تسمح للثدي بالخروج منها.

ارتديت بنطالي ثانية، وأحكمت خطاف حزامه. قلت:

-"لا أعرف لماذا تهتم بأن ترتدي هذه الملابس ثانية. هذه القمصان القصيرة طويلة بما يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن".

-"أعرف ذلك. ولكن الدكتور كورنر يظن أن عملية خلعه الفعلية لبنطاله تدمر الكوابت لدى الذكر. أما لدى الفتيات فإن العملية تتم بخلع سراويلها الداخلية".

أدركت ما كانت ترمي إليه. بدا لي أن بعض الآخرين يريدون أن يتبادلوا الملابس وما أن انتهى الرجل الوسيم المجاور لنا من ارتداء بنطاله حتى اقتربت فتاة أخرى. ورأيت أنه - في هذه المرة - لم يتبادل الملابس مع الفتاة، ولكن مع زميلها الذي كان - أو المفترض أنه - يرتدي بالفعل سروالها وقميصها الداخلي.

قالت نورما: "هذا القسم من العملية يضجرني. دعنا نبتعد عنهما".

تحركنا حتى أصبحنا عند طرف الجماعة. قالت:

-"هل أبدأ أنا معك، أم تبدأ أنت معي؟"

قلت: "من الأفضل أن تبدئي أنت معي. إنني لا أثق في كيفية قيامي بالعمل".

-"هل تفضل أن تقف أم ترقد؟"

"سيان، لا يهم".

رأيت أن بعض الأزواج كانوا يأخذون مناضد مطوية، من كومة كانت في الركن، ثم يقيمونها في المساحات الخالية. كانت المناضد مصنعة من الألمنيوم، وبدا أن طولها يبلغ ستة أقدام. كان الرجل أو المرأة يرقد على المنضدة، كما لو كان يوشك أن يتلقى علاجاً قوامه التدليك، ثم تبدأ "الألفة" بنفس الصورة السابقة. أثبتت نورما أنها أكثر خبرة من كل شريكاتي السابقات، أو ربما كنت أنا أكثر استثارة. وقفت أمامي، وجرت بيديها على صدري، ومعدتي وفخذي حتى هبطت إلى القدمين. وحينما وقفت، حلت حزام بنطالي، وللحظة تساءلت أنا إن كانت ستمضي إلى أبعد مما ينبغي. ولكنها لم تفعل أكثر من أن مدت يده إلى الداخل ودستها إلى أسفل حتى لمست ساقي، وهي تقرصني برقة أو تربت بلطف حتى بلغت ركبتي. جعلتني أجلس، ووقفت ورائي، وجرت بيديها في شعري، وداخل القميص - أو بالأحرى ثوبي النسائي - وفوق صدغي، وداخل شفتي. مددت يدي إلى زمام البنطال لكي أغلقه، ولكنها جذبت يدي بعيداً وقالت:

-"أمزيد من الكوابت؟"

-"آسف".

انحنت إلى الأمام، ومدت يدها إلى الداخل، ووصلت إلى فخذي فربتتهما، وتركت يدها تتجول بحرية. كنت قد تخليت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية. مدت يدها فدستها في خصر بنطالي، وتركت أطراف أصابعه تجري برقة صاعدة هابطة فوق معدتي، ثم إلى أسفل أكثر. سيطرت على صوتي لكي أسألها:

-"أهذا مسموح به؟"

-أوه، أجل. الأمر كله متروك لنا. هل أتوقف؟

-"أظن أنه يكون من الأفضل لو توقفت".

انفجرت قهقهات ضاحكة إلى جوارنا. كانت امرأتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الخجل واحمر وجهه. وبدا آخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمراراً. ولكن كورنر، الذي كان يقف إلى جوار المدفأة بدت عليه الصرامة وهو يهز رأسه ببطء. استدار الرجل وأسرع خارجاً من الحجرة. قالت نورما:

-"مسكين مستر ماك كان. إنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً. أخشى أن تكون النساء يتبادلنه لكي يجعلنه يفقد سيطرته على نفسه".

كان الأمر الغريب هو أنني لم أعد أشعر بأي إرهاق. كان تيار متوهج غريب قد بدأ يجتاحني من الداخل.

قاطعتنا مجموعة من ستة أشخاص: أربع نساء ورجلان، أرادوا أن يتبادلوا الملابس مرة أخرى. بدا الامتعاض على نورما، ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض، وتسلمت بدلاً منه سروالاً نسائياً صغير الحجم أسود اللون. أما أنا فأخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم. استبدلت الثوب النسائي القصير بآخر أطول منه، كانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات. وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما:

-"هيا. لقد حل دوري".

وحينئذ، اعتصرتني صدمة حينما تبينت أني كنت ايزموند خلال الدقائق الخمس السابقة، وأن هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتباك إزاء تلك الثياب الغريبة الشكل بالنسبة "لي". كان الأمر كما لو أن ايزموند قد برز طافياً من قلب أعماق وعيي أنا لكي يكتشف لنفسه ما يجري. وحالما أصبحت واعياً بوجوده، تزايد تأثير النظرة المزدوجة، حتى أنني للحظة شعرت بأنني موشك على الغثيان، واختفى التهيج الجنسي.

كنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتزاحمة. كانت جوينيث - التي لم تعد تحمل أقل سمة من سمات المدرسة الثانوية، منحنية إلى الخلف مستندة إلى الجدار، وقد أغمضت عينيها وارتسم على وجهها تعبير يكاد يكون مزيجاً من النشوة المتألمة. وكان رجل راكعاً أمامها، ورأسه مستند إلى فخذها. حينما أدار رأسه عرفت أنه الستير. قال له ايزموند: "تحياتي، أيها الصديق". وبدا الستير كمن جفل فجأة. هبطت جوينيث فجأة إلى

ض، فاصبحت نصف جالسة نصف راقدة، وقد اغمضت عينيها، وانفرجت ركبتاها.

تئذ غمز لي التسير بعينه وقال:

-لا بد ان تجربها. إنها رائعة".

كان التعبير الشهواني الماكر الذي علا وجهه - اشبه بوجه آلة الرعاة الروماني فون - يداً عليّ، ولكنه لم يكن جديداً على ايزموند. تحققت انه كان سليلاً مباشراً لهوراس يني.

لم يعد تاثير الرؤية المزودة سيئاً ولا مضاداً للسرور، كما لو كنت انا وايزموند قد تننا صفقة نحتل بمقتضاها جسداً واحداً دون مماحكة ولا نزاع. كان الإحساس الآن كثر وضوحاً مما كان من قبل في اي مرة، ولم أعد قادراً على الاعتقاد بانه لعبة غريبة وم بها وعيي الباطن في الخفاء.

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف، وداعبت نهديها، ثم بحركة سريعة من يدين، حررتهما من قيد الشد الذي يمسكهم. القت بنفسها برقة لتستند عليّ، فشعرت خشونة ثوبها على لحمي العاري. احنت راسها حتى استند إلى كتفي، ورفعت وجهها، انحنيت عليها ولست شفتيها. وحينما فعلت ذلك مدت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة. الت: "إنك تزداد تهيجاً اكثر من اللازم".

مضيت اربت عليها، مستمتعاً باستجاباتها، كانت مثل قطة قوست ظهرها حتى ستني وهزت في اطمئنان. تبينت، في جزع مفاجئ، انها قد بلغت "النشوة المعلقة"، ثم تبينت عد لحظة، ان ايزموند هو الذي عرف ذلك، وليس انا. لقد كان اكثر خبرة مني بشكل لا هائي في مثل تلك الأمور.

فجاة قالت نورما: "انظر، هناك منضدة خالية. فلنذهب إليها. لا يمكنني الوقوف كثر من هذا".

وفي الحقيقة، لقد بدت ركبتاها وكانهما تصطكان. ساعدتها حتى تسلقت منضدة بالقرب من المدفاة، حيث كان يقف كورنر، ناظراً بارتياح ومحبة الى الحجرة، يومئ براسه من حين إلى آخر ويبتسم. ربت على كتفي كورنر. قال له ايزموند:

-"تحياتي ايها الداكن البشرة"

سقطت يد كورنر، وشحب وجهه شحوباً شديداً. انحنى إلى الأمام وحدق في وجهي

-"اكنت تعرف هذا من البداية؟"

-"انني لست ابله، ايها المشرف". كذلك قال ايزموند. فقال كورنر بهدوء:

-"إذن فقد كنت تلهو بي".

لم يكن هذا سؤالاً. فاضاف قائلاً: "ولكن، لماذا؟"

اثارني تعبيره المفعم بالوقار الحزين. أردت ان اشرح له الحقيقة، ولكنها كانت ستبدو امراً يدعو الى السخرية. ثم لاح على كورنر انه يتماسك. لوى شفتيه، وابتسم ابتسامة مريرة، وهز كتفيه. ثم خرج من الباب وترك الحجرة ومضى. قلت:

-"ماذا تعني بحق الشيطان؟"

كنت اسال ايزموند. ولكنه تجاهلني.

كانت نورما راقدة على المنضدة، وتبدو كالنائمة. ذهبت إليها، وخلعت حذائها. بدت قدماها الصغيران ابيضين جداً. انحنيت وقبلت باطن قدمها، ثم اخذت اطراف اصابعها في فمي. جفلت وتنهدت. حركت راسي الى اعلى وقبلت فخذيها، وفي نفس الوقت دسست يدي في وسط سروالها. في هذه المرة، شهقت ولم تبذل اية محاولة لكي توقف عمليات اكتشافي. وعلى الرغم من وجود الناس حولنا، فقد كان من الصعب مقاومة الإغراء بالصعود فقها.

درت ببصري حول الحجرة، فرايت انني وايزموند، كنا من بين آخر من ظلوا على اقدامهم. ادركت الآن لماذا كان البساط سميكاً إلى هذا الحد. كانت الأجساد الممدة راقدة في كل مكان. استطعت ان ارى انجيلا راقدة على ظهرها، وساقاها مفتوحتان، دون سروال داخلي، وبدا انها غارقة في النوم. كان بول راقداً إلى جوارها، واحدى يديه على فخذها، وقد اغمض عينيه هو الآخر. اما جوينيث - التي بدت غير قابلة للتعب - فكان عارية في تلك اللحظة، راقدة على البساط، ورجل يرضع نهديها، واخر يربت على ساقيها وبطنها، بينما

راحت أردافها ترتفع وتنخفض برقة. كانت أجساد أخرى متداخلة في أشكال وتكوينات لا معنى لها، فبدت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة إحساس ساخر متهكم.

كانت نورما تمسك بيدي بشدة، لكي تمنعها من الهرب، وراحت تحرك فخذيها صاعدة هابطة ويدي ممسوكة بينهما. حينما نظرت إليها، سطعت في ذهني ذكرى قديمة. حاولت أن أثبتها، ولكنها راوغتني. بذلت مجهوداً آخر، وأنا أحدق بقوة في لحم فخذيها الذهبي المنحني. خطر لي أن أيزموند نادراً ما مارس الجنس مع نساء لوحتهن أشعة الشمس، ورغم أن عصره لم يكن يتميز إلا بالقليل من الاحتشام، كما هو عصرنا، فإن الثياب كانت تعتبر جزءاً رئيسياً من إنسانية الرجال والنساء، وكان التعرض العاري لأشعة الشمس يمكن أن يعتبر نوعاً من الحذلقة الغريبة والخروج عن المألوف. ولذلك فإن أفخاذ عشيقات أيزموند كانت دائماً بيضاء ناعمة.

حينذاك، وبشكل فشلت في فهمه، لم أعد أنا وأيزموند رجلين يحتلان جسداً واحداً، وإنما تطابقنا فجأة وأصبحنا رجلاً واحداً. إن تفسير هذا لابد أن يكون أكثر أهمية من وصف مجرد الأحداث الجسدية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية، ولكني لا أستطيع في الواقع تفسير ذلك. إن اللغة لم تصنع لكي تعبر عن أحوال الروح الإنسانية البالغة الشفافية والدقة. لا يمكن إذن أن أقول سوى التالي: يكاد يكون من المستحيل - ابتداء - أن تنسى الكائنات الإنسانية نفسها، ولا أن تفلت من انشغالها الغلاب والمسيطر بنفسها، ولا من أن تتحقق من أن ثمة عالماً يقع خارجها. لقد أدرك بليك أن كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو: "عالم هائل من البهجة، قريب من حواسنا الخمس". ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، كنت فجأة وبسرعة الومض الخاطف، قد أصبحت داخل وعي شخص آخر، كائن إنساني كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي. وقد جاءني هذا الوضع بإحساس هائل من البهجة والحرية، كان أشبه بالخروج من منجم فحم منهار. وكان الشيء الذي اختفى فجأة، اختفاء كاملاً - هو ذلك الخوف الأساسي الذي يتسلل إلى عقول كل الأذكياء والمثقفين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم: الخوف من أن الواحد منهم هو حقاً الشخص الوحيد في الكون، وأن الحياة فكاهة محكمة، عرض سينمائي يقدمه رب تملكه الضجر يعرف أنه وحيد تعاطى - أو أعطى لنفسه - عقاراً ينسى به وحدته.

ذلك أنه في تلك اللحظة، كان هناك وعي أيزموند، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل الشك أو الإنكار مثل وعيي أنا، ممتزج بوعيي ومتداخل فيه.

وفي ومضة خاطفة أدركت معنى الجنس. إنه سعي حقيقي إلى تداخل الوعي وامتزاجه، رمزه هو تداخل الأجساد. ففي كل مرة يروي فيها رجل أو امرأة عطشه - أو عطشها - في مياه شخصية أخرى غريبة - فإنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة حريتهما الشاسعة.

كانت ذاكرة أيزموند أكثر من قوة ذاكرتي بكثير. فبسبب القدرات التي استطاع أن يطورها في نفسه، كان يستطيع أن يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة من الحيوية لا يمكن تصديقها. وقد عرفت الآن أن هذا هو السبب الذي دفعه إلى اختياري. لقد كنت أعرف دائماً أن الحياة الإنسانية شبيهة بالحلم لأن أكثر الكائنات الإنسانية تعيش بشكل سلبي. إن وعيهم لا يزيد إلا قليلاً عن كونه انعكاساً لبيئتهم. وعند حدوث النشوة الجنسية، تشتد قوة تيار عقولهم فجأة إلى حد الاصطخاب، فيدركون للحظة - مؤقتاً - أنهم لم يعودوا مصباحاً كهربائياً لا تتجاوز قوته الأربعين "واط"، وإنما مائتين وخمسين، خمسمائة، ألفاً... ثم ينخفض التيار، فيعودون ثانية إلى مستوى الأربعين "واط" دونما احتجاج، إنهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لأكثر من ثوان قليلة. إن الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والذكاء حتى ليكاد يكون من الصعب القول بأنهم يملكون عقولاً بأي معنى حقيقي. في ومضة خاطفة أدركت الحقيقة الواضحة العابثة: لا شيء يستحق أن تمتلكه إلا عمق الوعي. هذه هي الحقيقة التي نلمحها لحظة النشوة الجنسية. فإذا أدركتها الكائنات الإنسانية - لو أن عقولهم لم تكن بهذا العجز عن فهم حتى أبسط الأشياء - لكانوا جديرين بأن يهجروا كل مطمح آخر من أجل تحقق هذا الهدف. ما الذي يهم حقاً في أين تكون، وماذا تفعل، وكم تملك، إذا كان عقلك محدوداً ضعيفاً قاصراً؟ تماماً مثلما لا تعني أكثر الأشياء جمالاً أي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى. ومن الجانب الآخر، ولأن أيزموند قد أدرك هذا، وراح يطارد السر ويسعى وراءه، فإنه قد دخل المشكلة التي شغلت بروست طوال الإثني عشر مجلداً من روايته "البحث عن الزمن الضائع"، مشكلة الكيفية التي نفتح بها المخازن الهائلة غير التالفة التي تمثلها ذاكرتنا. إنني إذا حاولت أن أتذكر طفولتي، فإن ذكرياتي سوف تكون نسخة معتمة بالكربون عن الشيء

لحقيقي الأصلي. ومع ذلك فإن حادثة ما، مثل كعكة بروست المغموسة في الشاي، تستطيع للحظة مؤقتة أن تبعث إلى الحياة زمناً بعيداً بصورة تماثل في حيويتها تذكري لحادثة وقعت بالأمس. فلماذا تكون الذاكرة بهذا الضعف؟ لأن الوعي قانع بأن يجري بقوة أربعين "واط". بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي متناول يده.

في هذه اللحظة، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن أن تعلمني ما عرفه أيزموند. فمنذ سنوات قليلة، أرسلت إلي تلميذة صغيرة خطاباً عن أحد كتبي. شعرت من الخطاب بذكائها، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية. كانت فتاة تسبب الدوار - واحدة من تلك المنتجات الجميلة، المعافاة الواثقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باصطبلات الخيول والحدائق الواسعة كالمروج. وقد سحرتني - لا لأنها كانت تؤثر أي تأثير على عواطفي التي كانت متعلقة كل التعلق بليانا - وإنما لأن الكمال يسحر دائماً، سواء تبدى في صورة منظر جواد سباق جميل، أو سيمفونية قوية. وكان من الواضح أنني سحرتها أيضاً، لأنها أعلنت عن أنها تنوي أن تتزوجني، رغم أنها كانت كاثوليكية وكانت تعرف أنني متزوج. وقد توقعت أن تستخدم أسرتها نفوذها للحصول على إذن من البابا بذلك.

وفي أثناء العطلة السنوية، أرسلتها أسرتها إلى دبلن لكي تقيم مع عمة لها، فأصبحت قادراً على أن أجد فرصاً لرؤيتها مرة واحدة كل أسبوع تقريباً. كانت المسألة كلها بريئة كل البراءة، من الناحية الجسدية. فإنها وهي في السادسة عشرة، كانت عذراء رومانتيكية، كانت مفتتنة بي، ولكنها تخاف من الجنس. وذات يوم، وقبل الموعد المحدد لعودتها إلى المدرسة بوقت قصير، بدا عليها بوضوح أنها قررت أن الوقت قد حان للسماح للعلاقة بأن تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة. كان عصر يوم ممطر من أيام أغسطس، وكنت قد أوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة. وبعد عشر دقائق أو نحوها من بداية جلوسنا متعانقين في مقعد السيارة الخلفي، تبينت أنها قد قررت أن تسمح لي بأكبر قدر ممكن من الحريات دون أن تسلم عذريتها تسليماً فعلياً، ولكن هذا التحديد نفسه - الذي حددته لنفسها - غرس الخوف في قلبها. سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها، وأخلع سروالها الداخلي، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن يتطلع أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان مجللاً بالبخار إلى درجة تمنع الرؤية تماماً. متوجعاً من الإحباط والشعور بالخيبة، أحكمت إغلاق أبواب السيارة لكي أطمئنها. ثم شرعت أعمل لكي أنسيها إحساسها بالإثم بسبب تهيجها الجسدي.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً - وقتاً طويلاً جداً. وخطر لي أنها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلية - وهكذا فقد ألبستها السروال مرة ثانية. وجعلها هذا تشعر بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرقاد فوقها، وقد ارتفع ذيل ثوبها حول وسطها ولكن حينما حاولت أن أتحرك لكي أتخذ وضعاً يمكن للاحتكاك فيه أن يشبع استثارتي كما يشبع استثارتها، ثار خوفها مرة أخرى، وكان علي أن أعود قافلاً من البداية. كنت قد وجدتها لذيذة لدرجة أني كنت على استعداد لأن أبدأ من جديد مائة مرة. لقد أثارت في شهية الرجل الجائع. ولاح لي وجودي في هذا الموقف، الألطف أجمل فتاة قبلتها في حياتي، لاح لي أكثر شبهاً بحمل يقظة جنسي منه بالحقيقة. ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية أمراً هاماً، فقد كان امتصاص أنوثتها كافياً لإرواء عطشي. وبعد ساعة، حينما تحققت من أنها قد بلغت حالة من التهيج أزاحت كل العقبات، تعمدت أن أحافظ على وعدي، فتركت نتائج استثارتي المتراكمة لكي تنفجر دون ضرر. وكان هذا كافياً لجعلها تسحب كل أوامر التحريم السابقة.

ولكن بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى البيت. بعد أن أنزلتها في طريق العودة عند "كوليج جرين". كنت أعرف أن وعيي لم يعد مستقراً عند مستواه القديم من الإجهاد. كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في "إعادة" التكثيف العميق. عادة رفض السماح لطاقاتي بأن تغرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن. وبينما كنت أسير بالسيارة ببطء في الظلام، كنت أعرف أن عقلي قد بلغ مستوى جديداً من القوة، كانت ضربات قلب حيويتي أكثر عمقاً وقوة، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل أحسن من المعتاد، وكانت قدرتي على الحدس قد تعمقت... ولم يستطع طريق العودة الطويل أن يقلل من هذه الكثافة العميقة، ووصلت المنزل عند الفجر، شاعراً بنفس الانتعاش الذي أحسست به حينما بدأت رحلتي للذهاب من دبلن.

وعلى الرغم من ذلك فقد سمحت لنفسي بالانتكاس ثانية إلى المستوى القديم. فقد ضاع اكتشافي هكذا هدراً، معرفة أن ساعتين من المجهود المركز يمكن أن تعمق العقل وأن تكثفه حتى يقترب من رؤية المتصوفين. ولكني الآن، في هذه الحجرة، وأنا محاصر بالرجال والنساء الممددين على الأرض، أعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي أبصرتها ذات مرة. لم تكن هذه الحجرة مألوفة لي. إن التعود على شيء (أو الألفة، بمعنى مختلف عن معنى

تدريبات كورنر) وظيفة أو نتيجة من نتائج إجهاد الوعي، إما بالنسبة لعقل مكتمل اليقظة، فإن كل شيء يبدو جديداً وطازجاً.

كنت متحرراً من التهيج الجنسي. وكان إحساسي الرئيسي إزاء هؤلاء الناس هو الاحتقار المتسلي. وحينما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي، شعرت بأنها وقعت في قبضة فعل انعكاسي لا سيطرة لها عليه. وفي نفس الوقت ، بدا واضحاً بقوة عظيمة أنني أملك زمام رغبتي الجنسية بشكل كامل. وسواء اجتذبتني هؤلاء النسوة أم لا، فسوف يكون بوسعي أن أقوم بوظيفتي الذكرية بصورة كاملة تماماً. كانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام، رغم أنها لم تكن جذابة بشكل خاص. كان الأكثر إثارة للاهتمام بكثير أن أستعيد ذكرى تنغيم صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مط بها شفته السفلى في تعبير عدواني واضح حينما قال: "سيدي..."، أو أن أتذكر الالتواءة الماكرة الخبيثة التي جعلت الركن الأيسر من فم فولتير يتشنج قبل أن يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية، أو صوت شيللي المرتفع المتوتر وهو يقرأ لي قصيدته "أدونيس" بصوت مرتفع النبرة. ولكن كان لأيزموند هدف أراد أن يصل إليه، وطالما أنه كان معلمي الخاص، فقد كنت على استعداد للانتظار. في هذه اللحظة، أراد أن يظهر لي أن الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها إلى الخيال - أو إلى "العمد" كما يحق لي أن أقول. إن اتجاهي إزاء نورما يمكن أن يتغير تبعاً لإرادتي الخاصة، كان بوسعي أن أراها في صورة فتاة غبية شبقة لا تستطيع أن تفكر في شيء أبعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها، أو في صورة تجسيد لربة الأرض، فإذا اخترت أن أنظر إليها على هذا النحو، فسوف يكون علي أن أسدي لها لاحترام والتوقير اللازمين، مثل كاهن يقف أمام المذبح. وتبعاً لهذا، فقد خلعت سروالها، ثم خلعت سروالي، وصعدت فوقها. فتحت عينيها دهشة للحظة واحدة، ثم شهقت بحدة حينما ولجتها... ولما كان هذا عملاً من أعمال طقوس العبادة، وليس من الأعمال التي تدل على الرغبة، فقد ركزت على إعطائها أقصى قدر ممكن من المتعة، موائماً بين حركتي إلى الأمام وبين حركاتها.

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما أفعله، فقد كنت أشعر كما لو أنني أمارس الجنس للمرة الأولى في حياتي. وأكثرنا يعرف أن الجنس يكون أحياناً أفضل منه في أحيان أخرى. ومن الممكن أن يولد ولوج فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة لتي تحدث إذا وضعت إصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة، أو يمكن أن تبدو هذه العملية كئيبة وعادية،

عملاً جسدياً لا يختلف عن أي عمل غيره. وهذا يرجع إلى القدرة الإنسانية على الدخول في حلة من البلادة أشبه بحالة المنوم مغناطيسياً، حالة من تقبل كل شيء على علاته. ولم أكن أتقبل نورما على علاتها فقط، كأمر بديهي من المسلمات، بل كنت مدركاً لأنها في نفس الوقت تشبه كل فتاة أخرى في العالم. شعرت كما لو كنت نسراً يحوم ثابتاً في الهواء دون حركة، محدقاً إلى أسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال.

كانت الطاقة التي ولدها عملنا قد أثرت على الآخرين في الحجرة. شعروا بها كما لو كانت مهيجاً غامضاً: "عطراً خاصاً تحمله الريح" كما قال بليك. كان بعضهم يراقبوننا وراح آخرون يقلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع الفعلي. شعرت بيد تجري برقة على ظهري، وعلى ردفي، ثم بين ساقي. كانت تيسا، منحنية فوقي وعلى وجهها تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله. تذكرت من كانت تذكرني بها: إنها مينو بوير، أولى عشيقات أيزموند، لم أكن قد عرفت اسم أسرتها من قبل، ولكنني تذكرته الآن. زدت من سرعتي وأنا أشعر بتصاعد استثارة نورما، ثم بينما كان بطنها ينحني إلى أعلى وتضغط بقوة على بطني تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي، شاعراً في نفس الوقت بأصابع تيسا وهي تنغرز وتقبض على لحمي. استرخت نورما ببطء، فسحبت نفسي. قال شخص ما:

-"يا إلهي". كانت جوينيث، التي كانت تقف إلى جوارنا من الجانب الآخر محدقة بإعجاب في العضو الذي بدا - حتى لعيني - منتفخاً بشكل غير عادي. أما الستير، الذي كان لتوه قد نهض من فوق فتاة ظننتها للوهلة الأولى أنجيلا فقد صاح مدهوشاً:

-"غير معقول!".

أمسكت تيسا بمرفقي وقال:

-"والآن، أنا".

دفعتها جوينيث جانباً، ممسكة بي حتى لا أنهض تماماً وقالت بتصميم:

-"كلا، أنا".

لم يكن عندي اي فرق بينهما. كان ايزموند - لأسباب تتعلق به... مصمماً على ان يمضي في المظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها. ورغم ان ذاكرته كانت واضحة لي، فإن وعيي لم يستطع ان يدرك الغاية القصوى من نواياه. لم اعرف سوى انه قد نوى ان يستخدم جسدي لكي يشبع أكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يخترن أن يطلبن منه خدماته. وهكذا، فحينما استندت جوينيث بظهرها إلى الجدار، ضاغطة اداة المتعة... مددت يدي من ورائها، وارشدته إلى المدخل الضيق... لم يكن الوضع مريحاً بشكل كامل، لأنني كنت اطول منها. كانت هناك مائدة قريبة خلفي، تحركت إلى الوراء وأرحت نفسي على ركنها، جاذباً المرأة معي. انّت وهي تنضغط إلى اسف، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة. جذبتها حتى التصقت بي، ممسكاً بها بقوة امامي، وقد شعرت بشكل ما بانها قد اصبحت مثل اداة موسيقية مألوفة لي. كان في نيتها ان تبقى في مكانها لأطول وقت ممكن. فقد كانت قدرتها على التماسك الجنسي دون حدود تقريباً، وقد تجاوب الموقف الحالي مع نزعة الاستعراض الكامنة في غلمتها. ولكن ايزموند كانت لـه خطط اخرى. كان متمرساً في استخدام مبدأ رد الفعل المنعكس الشرطي. دفعات حساسة رقيقة قليلة دمرت سيطرته، ثم جاءت دفقة لا يسعني ان اصفها إلا بانها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين وفتحة الشرج الممتدة تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتماله حتى اقتربت من الألم. اطلقت صيحة ألم، وهي تتلوى وتتقبض، وكان علي ان امنعها من السقوط من امامي. وبينما امسكت بها ملتصقة بي، خفت حدة التقلصات، وتحولت الأنات إلى تنهيدة عميقة. ابعدتها برقة عن حجري، وامسكت بها بينما كانت تهوي ببطء على البساط.. قفز راس الإله الذي لا يكل إلى اعلى مثل "عفريت العلبة"، وجفلت حينما سمعت انطلاق التصفيق. جالساً وقد اوليت ظهري إلى بقية الحجرة، لم اكن واعياً بجمهور الشاهدين الذي تجمعوا للفرجة. كان بول وانجيلا يقودان التصفيق ويصيحان. قال بول: "إنك استاذ". فتبينت مصدوماً انه كان يعرف عن جماعة العنقاء أكثر مما كنت اعتقد. كبحت جماح التعليق غير المتواضع الذي كان ايزموند قد شرع بطلقه. اندفعت انجيلا تجاهي، ولكن تيسا كانت قد وصلت قبلها وهي تقول:

-"كلا. إنها انا". ثم دفعتني إلى الوراء على المنضدة، وهي تحاول ان تصعد فوق. اعنتها على ذلك - طالما انها كانت اصغر حجماً من جوينيث. ورفعتها قليلاً قبل ان اتركها تسقط فوقي. انحط راسها فوق كتفي، واطلقت تنهيدة طويلة، ثم بدأت تتحرك ببطء، كما لو

كانت متعبة، وهي تطلق صيحات خفيضة. مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضربات دسست إحدى يدي تحت قميصها الرياضي وقرصت حلمتها،تقلصت برقة واندفع لسانها الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي. وبينما كنت ادفعها برفق بعيداً عني صاح رجل بلكنة اسكتلندية وصوت مرتفع: "إن الرجل فلتة عجيبة لا تتكرر".

كانت انجيلا هي صاحبة الدور التالي، جذبتني حتى ارقدتني على البساط امام المدفأة، وألقت بنفسها إلى اسفل وقد ثنت ركبتيها. ومعها، اكتشفت اكتشافاً جديداً. كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لأسرة دانكمان. من الواضح انها كانت تتمتع بشيء ما، أو إنه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجنسية النفسية، جعلت كلاً منا قادراً إلى درجة عجيبة على إعطاء صاحبه الحد الأقصى من المتعة. وهذا عنصر نادراً ما لاحظه الكتاب الذين كتبوا عن الجنس، الذين يبدو انهم يشعرون بان اختلاف بين عملية جماع وأخرى إنما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص ان يسقطه عليها. كانت العملية مبهجة مع انجيلا حتى انني شعرت بما يغريني ان اهدئ من سيطرتي على نفسي وان اكف عن حبس رغبتي في المشاركة، على الأقل بدافع من التهذيب. كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي. ولكن هذا لم يكن جزءاً من العرض الذي يرمي اليه ايزموند، فقد لاح انه مصمم على الاستمرار في العرض، لأسباب خاصة به. بدأت اشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل إلى درجة الأداء الكامل. لم يكن ثمة اجهاد او نصب، وبدا جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، واكتسبت حركات ارداقي حركة موزونة إلى درجة غريبة، كما لو كانت بندولاً مضبوط الإيقاع. زدت من سرعتي لكي اصل بانجيلا إلى ذروة نشوتها، وانا اجذبها لكي اضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها، ثم انتقلت إلى المرأة التي كانت تنتظر بالفعل إلى جانبي من الناحية الأخرى. شيء ما كان يحدث لي، اشبه بحالة إحساس حقيقي بالانفصال عن جسدي، وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محدقاً فوقنا. إنني حينما افكر متذكراً حياتي الجنسية العادية، فإنها تبدو لي ضائعة لا نظام فيها. ففي كل مرة يلج فيها رجل فتاة، يستيقظ اله في داخله: إله لا ترضيه الحياة الجافة ولا الوجود الشبيه بوجود الخنفساء الذي نعيشه، يعرف أن الإنسان قد صنع لكي يغزو آفاقاً شاسعة، غزوات لا نهائية ومن اجل ان يحقق بقاء سامياً وجليلاً للإرادة. وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب، يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض أن يتسامح مع تشوش الجسد وثقله. يصبح مثل القائد

ـيم، إنه يستطيع أن يجعل من هذا الركام من الأخلاط المشوشة التي ندعوها الجسد، ـا متناسقاً صلباً مثل فصيلة جيدة التدريب منسجمة الأفعال. ثم تعبر ذروة النشوة إلى ما الوعي، ويغيب القائد في طيات النسيان، ويعود التشويش المضطرب من جديد.

لم يكن ايزموند يقوم بهذا متفكهاً أو بهدف التسلية. فعلى المستوى الأول، كانت هذه اهرة أو استعراضاً. بدون كلمات كان يقول لنا أن الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه زانوفا ودون جوان وفرانك هاريس وزملاؤهم، هو أن يجعلوا من عمليات الإغواء التي ـوا بها واحات من "القصد" في صحراء من الفوضى وعدم النظام، لقد حلقوا عالياً لثانية ـدة كالنسور، ثم انحطوا هابطين ثانية إلى المستنقع. كان ايزموند يقول لي أن الهدف أن "ابقى في الهواء". ماذا يمكن أن نقول عن قائد ساق قطعان الغزاة إلى خارج بلاده، ثم ـجع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على الفور؟ ليس هذا سوى ما حدث ـشر، وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كما يسلمون بالبديهيات حتى أن الغزاة عادوا مباشرة في ـاب المؤخرة المتراجعة، دون محاولة للتعزية أو للمساومة. وقد أراد ايزموند أن يظهر أن ـثافة الجنسية تهيئ لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية، وأسهل في تحقيقها ـثير، ولكنها - لكي تكون مؤثرة، فلابد أن يتم تنظيمها بحرص وانفعال مساوٍ لحرص من ـارس اليوغا أو التنسك والصوم الطويل.

بعد المرة الخامسة، لم يعد الجنس يهمني أو يمتعني كنت مبهوراً بالحقيقة التي كانت تحدث في وجهي طوال حياتي. ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة، فإننا نعرف ـه ليس هناك سوى خير واحد، قوة الإرادة، وانه ليس ثمة سوى شر وحيد، أن نتنكر للإرادة. ـو أن الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا، لكان من الواجب أن ننظر إلى ـكل العقبات كما لو كانت من حصى الطريق، ولكان المفروض ألا يكون الإنسان قابلاً ـهزيمة. وحينما كنت أنظر حولي في الحجرة إلى هؤلاء الربات العاريات، نبع في داخلي فرح ـميق. هؤلاء كن الأمهات، والدات جنسنا، اللواتي استعبدهن الرجال دائماً واحتقروهن. لقد ـبدتهن مثل كائنات إلهية مقدسة. إن ما بين افخاذهن هو مدخل الرجل إلى عالم الأحلام، إلى العظمة، وإلى الهدف الأول الذي يكمن وراء المادة. لم أر أي فرق بين الواحدة منهن الأخرى، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر المجعدة. الرغبة في خدمتهن جميعاً كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة. وقفت وأخذت يد فتاة نحيلة عصبية

الشكل كانت تنتظر، ومضينا معاً إلى ركن الحجرة. وقف جزء من كياني خلف مذبح مغطى بقطعة قماش حمراء، شيد في مذبح مبني من الحجر الرملي المنحوت. وارتديت قناعاً على شكل رأس طائر عظيم. ووقفت أربعون امرأة عارية في صف واحد أمام المذبح، أجسادهن تلمع بالزيت، وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل فوار متوهج الخضرة أدركت أنا طبيعته وكنهه على حين فجأة.

-٢٣-

▣ عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، على أثر ملامسة أشعة الشمس لوجهي، اجتاحني إحساس عارم بالسعادة. كان جسمي في أشد حالات الوهن، وكانت عضلاتي تؤلمني إلا أن جسدي كان لا يزال ينبض بطاقة عميقة مكبوتة . نظرت إلى الفتاة الراقدة إلى جواري - فتاة لم أكن أعرف اسمها. وشعرت بنوع من الإشفاق يجتاحني. ومن الغريب تماماً أنها كانت عذراء، وكانت قد قبلتني زوجاً لها. ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي. إنني لم أذكر ديانا كثيراً في خلال سردي لهذه القصة، ولكنني كنت أطلبها بالتلفون كل يوم، وكنت أفكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير. إنني عاشق للبيت - بعكس ايزموند. وقد أردت في تلك اللحظة أن أعود إليه.

انزلقت خارجاً من الفراش برقة، واتخذت طريقي عائداً إلى حجرتي وأخذت من حقيبتي ثوباً فضفاضاً من القطن ومنشفة من فوق المشجب، وهبطت إلى الطابق الأسفل. كان الصباح لذيذاً، مفعماً بروائح حشائش إبريل. اتخذت طريقي إلى المجرى المائي الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة. هرع أرنب مدهوش إلى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون إسراع. كان مجرى الماء ضحلاً، ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف. كان شديد البرودة حتى كان علي أن أخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة، لكي أترك الألم يخفت بالتدريج، ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج، وغسلت بالماء جسدي بإسفنجة جئت بها معي. بقيت في الماء حتى بدأت أشعر بالبرودة، ثم فردت المنشفة فوق الحشائش التي بللها الندى وتمددت تحت أشعة الشمس. وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف.

كنت أعرف أن علي أن أغادر هذا المكان قبل أن يستيقظ الآخرون.. ولو أنني بقيت، لنشأت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جداً من الناس. فكل امرأة مارست معها الجنس كانت جديرة بأن تشعر بأن من حقها أن تأخذ معها جزءاً من حياتي. واعتراضي الوحيد على هذا هو أنهن كن كثيرات جداً. وكنت جديراً بأن أستمتع بالارتباط مع كل واحدة منهن والدخول معهن في علاقات شخصية، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة.

عدت إلى المنزل فأيقظت أنجيلا وقلت لها أنني أريد أن أرحل. كانت نائمة في حجرتها فتثاءبت، وابتسمت وفتحت ذراعيها. قبلتها وهززت رأسي وقلت:

-"ليس الآن".

-"لابد أنك متعب".

هبطت بيدها ودستها تحت ثوبي الواسع.

-"يا إلهي الرحيم!" وولج لسانها فمي. طوحت بالأغطية من على الفراش، وصعدت فوقها. كانت ما تزال ناعسة. وكانت العملية دافئة وممتعة، ولكنها لم تكن متفجرة. حاولت أن أنسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي، لكنها هزت رأسها وأمسكت بي بقوة. بعد ذلك، غطيتها ثانية.

-"أيمكنني أن آخذ سيارتك؟"

-"بالطبع، ولكن ليس عليك أن ترحل".

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة. قلت:

-"اعتذري لكورنر، وقولي له أن بوسعه أن يجدني في الشقة اليوم، في أي وقت، وسوف يفهم".

بعد عشر دقائق كنت أقود السيارة باتجاه لندن، وقد تملكتني سعادة مفاجئة غامرة، وعقلي يشع بالأفكار والرؤى.

كانت مسألة إيزموند هي ما شغلتني أكثر من أي شيء آخر بالطبع. كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخاً لها) قد

اقنعتني بأنه من الممكن أن توجد شخصيتان في جسد واحد.. إن الحالة الغريبة التي تمثلها "وجوه حواء الثلاثة" هي حالة (كلاسيكية، نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يحاول أحد أن يفسرها، ربة البيت المتزوجة الهادئة الحسنة السلوك التي تتحول فجأة إلى محبة لاهية لفن العشق. وأكثر ملامح هذه الحالة غرابة وهي الحالة التي صورها كل من تيغبن Ingpen وكليكي Clochleg[1] هو أنه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماماً بما حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة، فإن العاهرة، كانت مطلعة على كل نشاطات "الأنا الأخرى" التي تشاركها نفس الجسد. وقد أخبرتني ديانا بحالة شهدتها نفسها في صباها الأول، فقد ذهب أحد أعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا، وذات يوم بدأت شقيقة زوجته - التي كانت ديانا تقيم معها - تتحدث بصوته، مستخدمة نفس امتدادات لهجته ونغمة صوته ورغم أن صوتها بالطبع ظل صوتاً أنثوياً. واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام، حتى عثر على جسد عمتها في أخدود عميق بين الجبال، ثم توقفت عن الكلام بصوته.

إننا لا نملك أي تفسير لمثل هذه الأشياء، وقد لا يهم كثيراً أن أصبح لدينا أي تفسير أم لا. فمن المحتمل أن يكون تفسيراً خاطئاً. إن كل ما همني - بمعنى ما - هو أن إيزموند لم يكن ميتاً. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل أخرى. ماذا كان ذلك الذي قاله إيزموند فأنتج ذلك التأثير العنيف على كورنر؟ وما الذي عرفه كورنر عن إيزموند، وكيف تأتى له أن يكتشفه؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى لندن. أما الشيء المهم حقاً فهو ما تعلمته في الليلة السابقة. لقد اكتشف إيزموند طريقة ما يمتع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته، فيجعلها متوجهة طوال ساعات. وكان معنى هذا أنه قد خطا خطوة أبعد من أي إنسان شعر بالتهيج قبله. وإن ما سحرني فكرة جوانب الوعي والإرادة التي تفتحت أمامي. كنت قد شعرت بإرادتي أكثر قوة بالفعل، شعرت بأن وعيي أصبح أكثر اتساعاً وعمقاً. لقد شعرت بنفسي - طوال حياتي - بأنني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي، وإنها بشكل ما، تحركني بطريقة من طرق التوجيه البعيد.

---

(١) "وجوه حواء الثلاثة"، تأليف كوربيت هـ. تيغبين، هيرفي م. كليكي. لندن سيكر وداربورج، ١٩٥٧، وكان "الوجه الثالث" هو حواء ذات الانسجام الداخلين بعد علاجها.

فإذا كنت متعباً، وشعر عقلي بالبلادة، فإنني افقد همتي بسهولة. فاصبح اداة سيئة لتلك القوى. ومن ناحية أخرى، إذا حافظت على إيماني، وسقت نفسي سوقاً شيداً، وحافظت على مستوى عالٍ من التفاؤل عن طريق الإرادة الخالصة والخيال، فإنني اشعر بانني استخدم لخدمته غرضاً يتجاوز اغراضي الخاصة.، وابدو كما لو كنت احظى بقوى جديدة تفوق قوتي. هناك - لحظتها - يكون إحساسي بالحتمية والارتياح، واشعر بدهشة عميقة، مثل عصفور يجد نفسه فجأة طائراً بسرعة طائرة نفاثة.

في قصيدة "فيفاين في السوق" يقول براونينغ أن الإنسان يشبه السباح إذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادئ. إنه لا يستطيع أن يطير مثل الفراشة، فإذا حاول أن يرفع كتفيه إلى أعلى مما ينبغي فوق سطح الماء، غرق باقي جسده. فإذا هبط براسه تحت المياه غرق. ويقول براونينغ ان هذا هو وضع الفنان، راسه فقط هو الذي يستطيع ان يبرز من بحر الحياة، وان يكتشف الحرية في عالم من الخيال، إما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه، خاضعاً لقانون الأجسام الطافية. وإنني - باعتباري وجودياً ارتقائياً - لم اقبل ابداً هذه النظرة الرواقية الباردة. إنني متيقن من أن قوى الخيال والنشوة تلك، التي طورها ونماها الرومانتيكيون، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الإنساني. وفي قصيدة "فيفاين"، وهي عن "دون جوان" يقبل براونينغ فكرة ان الإنسان ليس ثابتاً مطرداً مستقر التكوين، وان رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما، تختفي فتغادره مذهولاً مرتبكاً ماخوذ اللب. وكان ما ظننته دائماً هو انه ليست هناك ضرورة لأن يكون الأمر على هذا النحو. إننا نمتلك قوى نادراً ما نحس وجودها في اثناء دوران الحياة اليومية الكئيبة، قادرة على أن تجعل الروح تموج مثل عاصفة، او تغرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة إلى النشوة المستحيلة. ومن اجل ان نكتشف تلك القوى، يجب علينا ان ندفع انفسنا إلى افاق جديدة. ان الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع أن يحصل على اية لمحة مزعجة من لمحات اكتشاف الذات. ولكن عملية ارتياد علم الجسد لا تقدم اية إمكانية لكشوف جديدة. علينا ان نتدرب - وأن نجيد استخدام - تلك الحيلة الغريبة التي تؤدي إلى إتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكناً او هامداً، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الأدغال وسلاسل الجبال الداخلية.

وفي وضوح كامل، استطاع ايزموند بمعونة الجنس أن يخطو خطوة هائلة في هذا الاتجاه. فلا عجب انه كان قادراً على ان ينتفع بجسدي وعقلي وان يستخدمهما. فقد كرس كل منا حياته للوصول إلى نفس المثل الأعلى. وعبر قرنين من الزمان، التقى عقلانا كما تلتقي يدان امتدتا للمصافحة، فتماسكا وتعانقا. هناك جوانب عديدة استطعت انا فيها ان اتقدم إلى ابعد مما كان في مقدور ايزموند ان يتقدم فيها، لأنني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن آخرين من تطور الثقافة الأوروبية. ولكن إرادته استطاعت ان تبلغ إلى ابعد واعمق مما بلغته إرادتي. فما الذي يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقلينا الممتزجين؟

-٢٤-

▣ وصلت إلى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل. كنت جائعاً إلى درجة فظيعة. وجدت قطعة جيدة من فخذ خنزير في الثلاجة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات. شعرت بتحسن بعد ان اكلتها مع الخبز الجاف والمربى وعصير التفاح والقهوة. واستمر الإحساس بالسعادة والإدراك العميق للممتد الآفاق. خطر لي أن مشكلة الوعي الإنساني الأساسية هي انه يتركز على الحاضر معظم الوقت. وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الإجازات - نستطيع ان نحقق حالة هي في نفس الوقت "يقظة كاملة" ولكنها "غير متركزة". وهذه حيلة، ان نقهر العادة القديمة، عادة السماح لوعي بان يسترخي حينما لا يكون متركزاً. هاهنا انا، مفعم بالإحساس بقدرة غريبة، وعقلي يقظ يقظة تامة، ومع ذلك فإنه غير متركز على شيء. بالتحديد. وكانت النتيجة هي ان يملأني كل ما انظر إليه تقريباً او ما افكر فيه بالاستثارة والرؤى الداخلية الدقيقة إلى درجة لا يمكن القبض عليها او إمساكها.

كان لدي الستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون[1]، ولم اكن قد قرات ما جمعه له رولاي من قصائد، ومع ذلك فحينما نظرت إليها، انتابني إحساس بالمعرفة، بالألفة. اخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت إلى تاريخ حياة تشاترتون:

(١) توماس تشاترتون ١٧٥٢-١٧٧٠، واحد من اشهر الشعراء الإنكليز في عصر (الأحياء القوطي)، كان بحق من اهم رواد الشعر العاطفي والوجداني، مات منتحراً في ليلة ٢٤ اغسطس عام ١٧٧٠

١٧٥٢-١٧٧٠. كان أصغر من ايزموند بأربع سنوات، ومن الواضح أنه كان في لندن طوال الشهور الأربعة الأخيرة من حياته - قبل أن يتناول جرعة من سم الأرسنيك. كان في وسع ايزموند أن يقابله. جلست على المقعد القريب من النافذة، والكتاب مفتوح على ركبتي وافرغت عقلي. على التو كنت أنا ايزموند: ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ناظراً إلى الكتاب. عرفت إجابة سؤالي. إنه لم يقابل تشاترتون أبداً - فقد كان في غوتيغين حينما كان تشاترتون في لندن؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد السابق. وكان والبول غاضباً بعنف لأن الصبي كان قد أرسل إليه بعضاً من شعره نسبها إلى شخص يدعى جون أبوت. وخدع والبول بالقصائد حتى أعلن الشاعر غراي أنها قصائد منحولة ومنسوبة خطأ إلى جون أبوت. وكتب والبول إلى تشاترتون، وأشار له برفق إلى أن من واجبه أن يستخدم مواهبه من أجل أغراض أحسن، فجاءه جواب وصف بأنه "مقالة مسيئة للأدب وبذيئة". وحينما سرد والبول على ايزموند هذه القصة أغفل أن يذكر أن غراي قد اكتشف عملية السرقة ونسب الفضل في الاكتشاف إلى نفسه.

دق جرس التليفون، فافترضت أنه لابد أن يكون المتحدث هو كورنر أو أنجيلا. ولكن حينما سأل الصوت الألماني الثقيل قائلاً: هل المستر سورم موجود؟" علمت أنني أخطأت بالاستجابة للرنين. قلت: "إنه هو المتحدث" بخشونة مفتعلة.

-"آه، شكراً لله. أنا "أناليزا دانكمان". كنت أحاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية الأسبوع. كيف حالك؟"

تبادلنا المجاملات المؤدبة للحظة، ثم قالت:

-"اسمع. من المهم جداً أن أراك. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

-"إنني متأسف للغاية، فإن هذا مستحيل. فأنا راحل إلى إيرلندا. عصر هذا اليوم..."

بينما كنت أتكلم معها، شعرت بوخزة غريبة بين افخاذي، وعادتني فجأة بوضوح عظيم صورة فخذيها المفتوحين وأعضائها التناسلية تحت الحرير الوردي اللون. خطر لي أن ايزموند جدير بأن يفهم هذا، ولكن كان شيئاً بالغ الصعوبة أن أحاول تصفية عقلي وتركيزه وهي تتحدث. فجأة انقطع الخط وانقطعت المكالمة. افترضت أن عطلاً فنياً قطع الاتصال، فوضعت السماعة. وخطر لي أن هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي

اتصل بديانا في ماي كوللان - حتى إذا اتصلت أنا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولاً. اتصلت بعاملة الخط، وبعد بضع دقائق كنت أتحدث مع موبسي، التي قالت لي أن "مامي" في بيت تدفئة الزهور، في الحديقة. بعد دقائق قليلة جاءت ديانا إلى التليفون، وقالت إنها كانت تحاول الاتصال بي منذ أمس، فقد استطاع فليشر أن يحصل على عرض من شركة سينمائية لإنتاج فيلم عن المادة المتجمعة لديه عن دونيللي، وأنه يريد إجابة فورية. كان المبلغ المعروض كبيراً جداً بالطبع، ولكن فليشر اقترح أن يأخذ خمسين بالمائة، وهي نسبة بدت لي مبالغاً بها جداً. تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة، وقلت لها أنني أرجو أن أعود في غضون يومين، وقلت لها ألا تفعل شيئاً بخصوص البرقية التي أرسلها فليشر. وحينئذ دق جرس الباب. قلت لها "إلى اللقاء" بسرعة، وذهبت لكي أنظر من النافذة. كانت أنا دانكمان تقف عند عتبة الباب الخارجي.

شعرت بما يغريني ألا أجيب، ولكن بدا لي هذا نوعاً من الجبن، إلى جانب أن من المحتمل أن تكون قد سمعت صوتي وأنا أتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة -. ذهبت وفتحت لها.

ابتسمت لي بطريقة أسرة مليئة بالود.

-"آه، يا عزيزي جيرارد. جميل أن أراك مرة ثانية".

أمسكت بكلتا يدي. والصقت نفسها بي في انفعال للحظة. وجدت نفسي أتساءل إن كانت ترتدي السروال المخرم. وشعرت بوخزة بين فخذي.

الأمر المدهش هو أنها كانت امرأة كنت جديراً بشكل طبيعي أن أراها منفرة على الفور وبشكل مباشر. لم تكن سيئة المظهر وكان جسدها جميلاً - وإن كانت تميل إلى البدانة - ولكنني كنت أشعر أنها ذات مظهر رجولي بشكل أساسي. وبشكل مناقض للطبيعة، لاح أن هذا يزيد من جاذبيتها عن طريق إذابة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر والأنثى، ويقيم بدلاً منه نوعاً من الصراحة الرفاقية، وكان عليّ أن أعترف بأنها كانت تتمتع بجاذبية الشيطان وحسنه الظاهري.

كانت من الحكمة لدرجة انها لم تشر على محاولاتها للاتصال بي، الأمر الذي كان من الممكن ان يتضمن نوعاً من التأنيب او اللوم. كانت مفعمة بالدفء، فقد كنا - في نظرها - صديقين قديمين عادا إلى الالتقاء وقد أبهجهما أن يرى أحدهما الآخر.

سألتني عن صديقيّ الشابين اين هما. فقلت لها انهما سيبقيان بالخارج طوال النهار. ظننت انني اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهنئ بها نفسها. قالت:

-"يا للخسارة. لقد أردت أن اقابل هذا الشاب. إنه يبدو ذكياً واسع الأفق".

فككت ازرار معطفها. فأعنتها على خلعه. كانت ترتدي ثوباً من نسيج بني ناعم، جعله نهداها الكبيران مشدوداً إلى الخارج. وكان الثوب بالغ القصر.

جلست على الأريكة، بطريقة اقرب إلى الاحتشام، وقد ضمت ركبتيها ووجهتهما إلى الخارج، ولكن قصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرفي جوربها بشكل حتمي، كما تعرت منطقة من الفخذين. عرضت عليها قدحاً من القهوة. قالت:

-"كلا اشكرك. إنما اريد ان اتحدث معك عن اشياء كثيرة. ولنبدأ بمسألة هامة. إنك بإقامتك في ايرلندا تحتاج إلى مساعد أدبي "أليس كذلك؟"

قلت بحذر شديد ان هذا محتمل، ولكن لابد ان اعترف بانني كنت قد بدأت اتساءل ان لم يكن كورنر يبالغ بشأن دانكمان وزوجته. كانت تشع بالدفء وبحيوية عاطفية عارمة. قالت:

-"حسناً. إن لدي الشخص المناسب تماماً. هناك فتاة شابة تدعى كلارا فيبيج، وهي سويسرية. حينما اخبرتها بانني قابلتك، لم يكن بوسعها ان تصدق ذلك إلا بصعوبة. إنها تملك كل كتبك، وملفاً كبيراً يضم كل ما كتب عنك في الصحافة".

ابتسمت بثقة مطمئنة، ثم استطردت تقول:

-"هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات - فإنها قد أتمت تعلميها في الكلية منذ وقت قصير جداً. وقالت انها كتبت لك مرتين، ولكنها لم تحصل على اي جواب".. (ومن الممكن ان يكون هذا صحيحاً، فإنني لا اجيب على الخطابات إلا إذا لم يكن علي

ان اكتب شيئاً آخر). "وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ- فإن والدها يرسل إليها مبلغاً جيداً كل شهر، وهي تقوم بالدراسة في جامعة لندن. وحالما اخبرتها عن عملك في موضوع دونيللي، عرضت ان تقوم بعمل مراسلتك الأدبية في لندن. وهي لا تريد شيئاً في مقابل هذا. إنها لا تريد إلا ان تعمل معك..".

وجدت في الأمر ما يتملق غروري. فإنه لا يوجد كاتب اصبح متخماً بالملذات، غير مبال بها لدرجة ألا يستمتع بإعجاب النساء به. ووجدت نفسي اسيراً لسحر موضوعية السيدة دانكمان وعدم تحيزها. فمن الواضح انها لم تكن من النوع الغيور. قالت:

-"طيب. لقد قلت لكلارا انا قد نذهب كي نراها اليوم في أي وقت. إنها تقيم في نوتينج هيل جيت، وبهذا فإنها قريبة من هنا. لدي صورة لها".

فتحت حقيبة يدها، واخرجت حافظة أوراق صغيرة. وقفت لكي آخذها منها، ووقفت هي ايضاً وبدأت تبحث في الحافظة. كانت تضع نوعاً خافت الرائحة وإن كان ممتعاً من العطر، وقد زادت نعومة نسيج ثوبها من استدارات نهديها وردفيها. قالت:

-"آه، هاهي".

تحركت لتقترب مني، وضغط أعلى فخذيها بخفة على فخذي. شعرت بوخزة من الرغبة كانت تجعلني اقفز. كانت الصورة التي أطلعتني عليها لفتاة في ثياب الانزلاق على الجليد، واقفة على قمة المنزلق الجليدي المرتفع. بدت الفتاة جميلة ونحيفة، ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة.

ولكن ما ادهشني كان المتعة التي كنت استمدها من الانحناء على آنا دانكمان. كانت ملتصقة بي التصاقاً خفيفاً، تقلب صور الحافظة المتلئة بها، وبدا لي أن الدفء المنطلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعضوي الجنس. لاح لي انها تحمل صوراً عديدة لكلارا فيبيج. أطلعتني على صورة قريبة لوجهها فرأيت فتاة على شيء قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الأسود منسدل على كتفيها. ذكرتني بشكل غامض بمظهر آنا دانكمان نفسها.

وإذ وقفت في مكاني خلفها ناظراً من فوق كتفها، اربكني عنف رغبتي. إن استجاباتنا الجنسية من التعقيد بحيث انه من الصعب ان نقول بدقة لماذا يتمتع شخص معين بجاذبية خاصة علينا، وفي هذه الحالة لم اكن مستعداً للتسليم بإلقاء كل المسؤولية على وعيي الباطن. نظرت دون وعي إلى صورة الفتاة، محاولاً أن اتذكر شيئاً ما. وفجأة قالت انا دانكمان:

-"اتشعر بدفء؟"

ودون أن تعي بذاتها، مدت يدها وراء ظهرها فدستها بين اعلى فخذها وبين فخذي. تركت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة، مفتوحة... حينذاك فعلت ما كنت افكر في فعله منذ ان دخلت الشقة إذ مددت يدي الى ذيل ثوبها، ودسستها فوق طرف جوربها. قالت:

"هذا جميل. إننا صديقان. ليس هناك سبب يمنعنا من ان يعامل احدنا الآخر بصراحة. إنني اكبر جداً من أن اكون عشيقتك، بالطبع، ولا يريد احدنا ذلك. ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي، تجاذب الأنثى والذكر - فيما بيننا. ويمكننا ان نكون صريحين فيما يتعلق بهذا".

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر إلى المسألة، فإن فكرة حمل انا دانكمان إلى الفراش كانت جديرة بان تزعجني. ولكنها لم تتوقع شيئاً من ذلك. قالت:

-"سوف تجد ان كلارا اقرب جداً لأن تكون النوع الذي يروق لك. إنها فتاة حلوة. يمكننا ان نذهب لكي نراها".

فكرت في ان هذه قد تكون فكرة طيبة. كنت قد بدأت اشعر بنفس الاشتهاء غير الصحي الذي شعرت به في سيارة الأجرة مع انجيلا، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل ان يحس به الشخص الميال إلى الاستعراض... ومن الناحية الأخرى، دلني الحذر على انه قد يكون من الأفضل ان اطرد هذه الفكرة من ذهني.

قلت:

-"اجل. لماذا لا نذهب إلى هناك الآن؟"

-"طيب، جميل. ولكنني احب ان اقول لك شيئاً عن خططنا..."

اخذت يدي بشكل طبيعي تماماً وقادتني إلى الأريكة. فاخرجت من حقيبة يدها عدداً من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. قالت:

"هذا الكلام بالألمانية. هل تقرأ الألمانية؟ إذن سوف اقوم الترجمة".

كانت جالسة في الوضع المألوف، مستندة بظهرها إلى المسند، وفخذاها مكشوفان فوق ذيل ثوبها المشدود إلى ما فوق أطراف جوربها. كان فخذاها يلمسانني وشعرت بشيء مثل صدمة كهربائي واهنة تجري منها مباشرة إلى ما بين فخذي.

حينذاك، وعلى حين فجاة تماماً، كان ايزموند في مكاني، وتغير كل شيء. شعرت كما لو كنت قد خطوت فجاة خارجاً من جسدي، وإنني انظر إلى نفسي من جزء آخر من الحجرة. عبرت موجة الحمى وابتعدت. وفي نفس الوقت، فهمت، دون أن اشعر ببذل اي جهد عقلي محدد، كانت انا دانكمان تمتلك نوعاً من الطاقة، نوعاً غريباً بدائياً من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي. ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها "الشخصية"، و"الكوابت". وقد تعلمت انا دانكمان أن تحرر هذه الطاقة وأن توجهها. لن يكون تعبيراً دقيقاً ان نتحدث عن هذا الإنجاز من جانبها باعتباره شكلاً من اشكال السحر، وإن كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة. وقد رأيت في ومضة خاطفة ان هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي ان يكون "يوم سبت الساحرات" حيث يجتمعن بالشيطان، يوماً مليئاً بالأعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهن كلها، والمسافدة مع ذكران الماعز، وما إلى ذلك. فالساحرة تلقي عن نفسها كل انواع الكبت وتتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية.

لقد فهم ايزموند انا دانكمان، فإنه كان قد عرف الكثيرات من نوعها، بل إنه عرف من هن اكثر موهبة منها. وحدت نفسي انظر إلى داخل عقل انا دانكمان، فاشعر بافتتان مخيف. لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسياً. فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الإنسان. وكان كلاوس متسمراً عن فكرة "المحرم" والممنوع. وكانت فكرة ان اي شيء يمكن ان يكون محرماً او ممنوعاً كافية لكي تجعله ينتصب. إنه مثل دي صاد. اراد ان يكون شريراً، وأن يمضي حياته في البحث عن اشياء جديدة مدهشة يفعلها. وقد

تلاءمت نزعة آنا دانكمان الجنسية الفياضة مع نزعته تلك وإشباعها إشباعاً كاملاً. فإن غريزة الأمومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت إلى نوع من النهم الشره. رأيت بوضوح أنها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وأن كلارافيبيج كانت عشيقتها. فإن موقفها من الجنس كان موقفاً ذكرياً بكل غريب: كانت تحب أن يأخذها كل رجل في العالم، وأن تملك هي كل امرأة جميلة. وكانت تتمتع بفضول لا يشبع، كانت تريد أن تكون "في" داخل وفوق كل شيء. وقد رأيت أن هذا هو دافعها إلى البحث عني والاندفاع نحوي. فقد كان بوسعي أن أضيف جواً من الكفاءة الثقافية على "مجموعتها" فتجتذب بذلك الأتباع والتلاميذ. وكانت خطتها أنه لابد لي من أن آخذها هي وكلارافيبيج قبل أن ينقضي النهار، ثم تكون مهمة كلارا هي أن تحافظ علي وأن تشدد قبضتها، من خلال ما تشيعه حولها من جو التابعة المفتونة.

لا أدعي أنه كان بوسعي أن أقرأ ما بداخل عقل آنا دانكمان. فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعاً من التأمل، ولكنه كان تأملاً قائماً على أساس من تجربة أيزموند الهائلة. وقد بدا لي كل هذا واضحاً شديد الوضوح. ثم أدركت الآن، أنه - أيضاً - قد بدا مثيراً للعاطفة إلى حد ما. كانت تمتلك الكثير جداً من الطاقة، وفرصة محدودة جداً لاستخدامها. فلماذا لا تقبض على أية فرصة تلوح لها؟ كان هذا أمراً مفهوماً.

لم تكن واعية بأنها قد "فقدتني"، فقد جاء "استبصاري" الداخلي لها سريعاً كالوميض، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات. أمسكت بالأوراق مفتوحة بإحدى يديها، وراحت يدها الأخرى تتحرك فيما بيننا، لكي تزيد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بدا أيزموند يسلي نفسه. كان ما فعله ببساطة هو أن ضغط على قواي الجنسية، وتوجيهها ضدها. وفي الحقيقة، لم يكن هذا غريباً علي غربة كاملة، فإنني كنت أفعل هذا دائماً دون وعي، في لحظة الاتصال بفتاة كانت قد اجتذبتني. إن امرأة - إذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فإنها قد ترمش بجفنيها أو تتأود لكي تبرز مفاتنها، ولكنها إذا كانت رزينة محتشمة فإنها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت آنا دانكمان تستخدمه الآن. أما الذكر فإنه نادراً ما يستعرض مراكز جاذبيته بشكل صريح. إن أسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير المبالي

ولا المهتم. وعلى ذلك فإنني - بمعنى ما - كنت متفوقاً على آنا دانكمان في هذا الصدد ولكنني ما كنت أستطيع أن أعرف هذا دون المعونة التي أسدتها إلي خبرة أيزموند.

شعرت بالإثم بسبب هذا الموقف، فإنني لم أرد حقاً أن أجتذبها. ولكن علي أن أعترف بأنه كان في سلوكي هذا نوع من "العدالة الشعرية"، العقاب الذي ينزل بالآثمين في المأساة التقليدية. كان الموقف قد تحول إلى مباراة، مبارزة بسيوف خشبية.

بدأت تترجم الكلام المكتوب بالألمانية، وحينئذ ارتعشت اليد الممسكة بالأوراق، كانت تقاوم. كانت قد اعتادت أن تكون هي الساحرة لا "المسحورة"، وفي هذا الوضع الجديد أزعجها الإحساس الجديد المصاحب له وأخافها. قلت بأدب: "استمري"، وزدت من التيار الضاغط، بدأت تقرأ:

-"إن القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ..." ثم توقفت، وقالت:

-"يجب أن نعثر على اسم آخر لهم".

قلت: "أجل، يجب أن نفكر في اسم آخر..." فاستعادت ثقتها وعادت تقرأ.

كنت قد لاحظت أن لثوبها زماماً من الخلف، وأن الزمام يغلق عند قمته بزر ضخم، وقد أدركت في تلك اللحظة أهميته. كان فخذها سلاحاً عدوانياً، فخاً للذكور أشبه بفخ العناكب للذباب، ولكن نهديها كانا جزءاً من أنوثتها، الجزء الأموي منها. أشرت إلى جملة في الورقة تقول: "ماذا يعني هذا؟" فلمست عظمة ساعدي قمة نهدها. جفلت جفلة ضئيلة وابتعدت. وضعت يدي بقوة على النهد وأمسكته، للحظة فقدت السيطرة على نفسها وحاولت أن تبعد يدي بعنف دون حساب مثل فتاة صغيرة. ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة أخرى، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة:

-"إنها اقتباس من رايخ." وشرعت تترجم الجملة كاملة. مددت يدي وراء ظهرها، وفي حرص حللت الزر الضخم، كبتت هي رغبتها في إيقافي، فقد كانت هي - على كل حال - التي تحدثت عن "ضرورة أن يعامل أحدنا الآخر بصراحة". جذبت الزمام إلى أسفل، فرأيت أن ظهرها كان عارياً، باستثناء شريط حمالة الصدر. حللت رباط حزام صغير عند خصرها، وجذبت الزمام إلى أسفل حتى أقصى مجراه، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي، قالت:

-"إنك شتت انتباهي"، "إنك شتت انتباهي".

حاولت أن تضغط بظهرها على مسند الأريكة، ولكن محاولتها كانت متأخرة جداً، فقد كنت نجحت في فك مشبك حمالة الصدر. ضغطت بظهرها على مسند الأريكة بقوة، وفقدت سيطرتها على نفسها تماماً للمرة الأولى، أصبحت فجاة غير واثقة من نفسها، وهي تشعر بما يغريها على قتالي، دون أن أنظر إلى وجهها، أمسكت بكتفي ثوبها، وجذبتها إلى الأمام، ابتعد الثوب عن كتفيها اللذين كانا أبيضين مستديرين مثل كتفي تمثال. كانت جديرة بأن تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوباً دون أكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الإمبراطورية الثانية. كان نهداها كبيرين، وما زالا بحالة جيدة. أدهشني بياضهما، واحمرار الحلمتين الناقض لذلك البياض. وضعت كل من إحدى يدي على أحد النهدين وشعرت بالدفء يتسلل طافياً في داخلها. كان هناك شيء يدعو إلى الإعجاب بالطريقة التي حاولت بها أن تستعيد سيطرتها على نفسها، ونجحت في ذلك جزئياً. كنت أعرف ما كان يحدث لها، من الطريقة التي انفرجت بها ساقاها. كانت تشعر بنفس الوخز المحموم الذي شعرت أنا به من قبل. مدت يدها ووضعتها فوق بنطالي.. فقلت: "قفي". ترددت ثم فعلت كما أمرتها. سقط الثوب على الأرض، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي، وحزام الجوربين فوقه، مع الجوربين. جذبتها حتى التصقت بي... أرقدتها على الأريكة، وخلعت كل ملابسي...

جفلنا كلانا عند سماع صوت جرس التليفون...

قال صوت رجل: "مستر سورم؟"

-"يتحدث".

"إنك لا تعرفني. اسمي نيجيل سانت ليجير. ترى، هل يمكنني أن أجيء لكي أراك؟"

-"أنت الـ"نيجيل سانت ليجير"؟"

أطلق ضحكة تدل على الحرج وقال:

-"أعتقد أن بوسعك أن تقول هذا. هل يمكنني أن آتي لكي أتحدث معك عن موت هوراس جليني؟"

-"طيب، نعم، بالطبع. متى؟"

-"إنني قريب منك جداً هذه اللحظة. أيمكنني أن أجيء إليك الآن؟"

"بالطبع. هل تعرف العنوان؟"

أوه، أجل. سأكون معك بعد دقائق قليلة".

حينما التفت ورائي كانت أنا دانكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل... ثم قالت:

-"أعتقد أنك تظنني بالغة الغباء؟"

-"كلا". ولكنني لم أعرف ما أقوله عدا هذا.

كان بوسعي أن أشعر بها وهي توشك أن تغضب. أمسكت بمعطفها. قالت:

-"لماذا لم تخبرني؟"

قلت أول شيء خطر على ذهني.

-"ربما لم يكن هذا مسموحاً لي به".

حدقت في وجهي، وقد ثار اهتمامها فجاة. وللحظة طويلة ظلت عيناها تحدقان في عيني. قالت:

-"أظنني أفهم".

وكان هذا أكثر مما بوسعي أن أقول.

تحركت متجهة إلى الباب.

قالت بأسلوبها الدافئ الودي المخادع:

-"حسناً، إننا نظل صديقين".

كانت قد عادت إلى سيطرتها على نفسها مرة أخرى. وقفت في مكانها، معطفها مفتوح، ويدها ممدودة، وساقاها منفرجتان ثابتتان على الأرض. ولكن الموقف بدا سخيفاً ولا

معنى لـه. نظرت إلى النهدين البارزين، وخفضت بصري إلى الفخذين، كانت امرأة تتظاهر بأنها رجل.

حينئذ، احمر وجهها فجأة. لم أكن قد تبينت أن نظرتي واضحة كل هذا الوضوح، أنزلت يدها، واستدارت دون كلمة، وجذبت الباب بعنف ففتحته. لم أبذل أية محاولة لمتابعتها. فإنني أولاً، كنت مسروراً لرؤيتها ترحل. وثانياً، شعرت فجأة بالأسف. فربما كانت مباراة ايزموند لعبة ممتعة، ولكنها غادرتها مكشوفة ومعرضة للاختراق من أي نقطة. ماذا عساها تستطيع أن تفعله الآن؟ أتحاول أن تنمي جانبها الأنثوي؟ هذا أمر لن يؤدي فقط إلى الإحباط لو حاولته. طرأ على ذهني فجأة أن هناك فارقاً واحداً أساسياً بيني وبين ايزموند. لقد كان ينتمي إلى القرن الثامن عشر، قبل عصر "الحساسية". لم تكن هزيمة أنا دانكمان بالنسبة إليه سوى شيء مضحك، والأكثر من هذا، لا أهمية لها.

ذهبت إلى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج، تعرفت على نيجيل سانت ليجير قبل أن يخطو خارجاً منها إلى الرصيف. لم أكن قد رأيته أبداً في السلسلة التليفزيونية التي جعلته معروفاً لعدد كبير جداً من الناس. ولكن كان لدي كتاب عن قضاياه وحالاته، مزود بعدد كبير جداً من الصور. كان أصغر حجماً مما توقعت، ولكن مشيته كانت تتسم بنوع من التدفق القوي إلى الأمام دلت على شيء ما في شخصيته.

قابلته عند الباب. سألني "مستر سورم؟".

صافحني ولكن ابتسامته بدت لي باردة قاسية. تقدمته إلى داخل الشقة. كان رجلاً وسيماً، قوي البنية، في أوائل عقده السادس. وكان بوسعي أن أتخيل أن نظرته المحدقة النافذة الباردة قد أخافت عدداً كبيراً من الساجين في قفص الاتهام.

قلت: "من أخبرك بأنني هنا"

نظر إلي بحدة، كما لو كان يشعر بما يغريه لأن يقول: "أنا الذي ألقي الأسئلة" ثم أضاف قائلاً:

-"الدكتور كورنر، بالطبع".

أخرج علبة سيجار من جيبه، وقدمها إلي. هززت رأسي. اقترب مني وأنا واقف بالقرب من النافذة وحدق في وجهي. قال:

-"إنني لم أقرأ أي كتاب لك من قبل، ولكن سوف أحرص على أن أفعل ذلك الآن".

لم أقل شيئاً. اتجه إلى منضدة للعب الشطرنج عند النافذة، ودون وعي، حرك أحد بيادق الشطرنج. قال:

-"هل تلعب الدومينو، يا مستر سورم؟"

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أحتفظ بنقاء عقلي. وقف سانت ليجير ينظر إلي، مثبتاً إياي بأفضل ما يملكه من نظرات الاتهام.

قال ايزموند:

-"تحياتي، أيها المشرف".

جفل سانت ليجير، وبان عليه الانزعاج. ولكنه استرد سيطرته بالذهاب إلى الأريكة والجلوس عليها. قال:

-"أفهم من هذا أنك تعرف الكثير يا مستر سورم. ولكنك لا تنتمي إلى منزلنا. والأستاذ الأعظم لم يسمع بك من قبل أبداً".

كنت أعرف أن من الأفضل لي أن أترك هذا الموضوع لأيزموند، فلم يكن هناك وقت أضيق في محاولة الاعتماد على نفسي. قال ايزموند:

-"إذن فلابد أن عليك أن تسمع عني. أليس كذلك؟"

أشعل سانت ليجير سيجارة.

-"هذا هو الواضح، إن كان كل ما أسمعه صحيحاً". حاول أن يسترخي، ثم استطرد بالقول:

-"اسمح لي بأن أوضح موقفي. إنني لا أنكر حقك في الانتماء إلينا. إن مؤهلاتك عظيمة بشكل مبين واضح. وبهذه المناسبة، أين تعيش؟"

-"في ايرلندا".

-"آه".

ظننت انه قد بدا عليه الانشراح والتفاؤل. قال:

-"طبعاً. لم يكن هناك أي شيء في ايرلندا منذ سبعين عاماً. ربما كان علينا ان نفعل شيئاً ما هناك".

نظر في طرف سيجارة، كان لدي إحساس بانه ليس واثقاً من الكيفية التي يعالج بها هذا الموقف. ثم نظر إلي. قال:

-"كيف استطعت ان تكتشف الأمر، يا مستر سورم؟"

لم يقدم ايزموند إلي اي معونة. فقررت ان اقول الحقيقة.

-"لقد طلب مني ناشر امريكي ان اكتب عن ايزموند دونيللي. وطوال الشهور القليلة الماضية كنت احاول ان اكتشف مذكراته وأوراقه".

-"ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا؟"

-"كلا".

-"أرى ذلك".

بدا عليه الارتياح. دق جرس الباب، فتحرك كل منا لدى سماعه. قال:

-"هل تتوقع مجيء شخص ما؟"

-"كلا".

-"جميل. إذن أظنني أعرف من يكون. هل تسمح؟"

ولكن كانت انجيلا هي القادمة. قالت:

-"لقد اوصلني كريس، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع أوتو..."

دخلت إلى الحجرة، ورأت سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحييها. تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك. قدمت احدهما إلى الآخر، فتصافحا، واظهر هو قدراً من التهذيب اكبر بكثير مما كان قد ابدى حتى الآن. قال لها:

-"أنت عضو في جماعة الدكتور كورنر. شيء ساحر اعتقد انك انت التي قدمت المستر سورم إليه؟"

سألته، "هل تعرف بأمرهم؟"

-"أوه، اجل انا اعرف بأمرهم".

نظرت إلي انجيلا، ترجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف.

قلت:

-"إن السر نيجيل هو المشرف على المنزل الإنكليزي لجماعة العنقاء".

شحب وجه سانت ليجير. للحظة ظننت انه على وشك ان يفقد سيطرته على نفسه. قالت انجيلا:

-"أهو يمزح؟"

بدا على سانت نيجير انه فقد شهيته للكلام تماماً. قال:

-"من المؤكد ان لديه إحساساً فكاهياً سيئ التقدير والحظ".

قالت انجيلا:

-"يظن كورنر إنك من جماعة العنقاء. ماذا قلت له؟"

قطع سانت ليجير كلامها بالقول:

-"إذا سمحتما لي. اظن ان هذا موضوع من الواجب الا نتحدث فيه. إنه قد يكون خطيراً".

قالت انجيلا، "خطير؟"

حدق فيها سانت لبجير لعدة ثوان، ثم وقف واتجه إلى النافذة. تولد لدي انطباع بأنه شعر براحة أكبر وهو واقف على قدميه. أطل من النافذة ثم قال:

-"لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليني. وهذا موضوع لا أعرف عنه الكثير، ولكن بوسعي أن أقول لك شيئاً واحداً. إن جليني لم يكن هو الضحية المقصودة. كان المقصود هو ايزموند دونيللي".

حينما قال هذا، عصف بي إحساس عابر بالدوار، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي. وليس بوسعي أن أفسر ما حدث، إنما كان صوت سانت لبجير وهو يقول: ايزموند دونيللي" هو ما فعل بي هذا. لقد قلت أنني كثيراً ما شعرت بنوع من الخلل في الأسبوع السابق كما لو كنت أنا وايزموند نحتل عقلاً واحداً. ولكننا كنا كالقريبين، ولم تكن ذاكرته في متناولي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة، مثلما ينضبط مجهر فجأة لكي يكبر الكائنات الدقيقة تحت عدساته، كما لو كان عقلي عقل ايزموند قد ارتبطا فجأة بمشبك فولاذي إذا بهما معاً. كنت قد عرفت أن هذا من الممكن أن يحدث منذ نحو أسبوع، ولكن التكييف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوباً. أما الآن فلم يعد هناك المزيد من الأسئلة. فقد امتزجت ذاكرة ايزموند بذاكرتي. وفي تلك اللحظة، حينما سألت انجيلا سانت لبجير عن كيفية معرفته بهذا، وجدت نفسي أقول:

-"يمكنني أن أخبرك بذلك".

قال سانت لبجير: "ليس من المحتمل أن تستطيع معرفة هذا".

قلت: "كان خطأ جليني الأكبر هو أنه حدد الأسماء. ففي النسخة الأصلية من كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" حدد أسماء عبدالله يحيى والأستاذ الأعظم، وذكر أن هندريك فان جريس كان هو المشرف على هولندا. وأقنعه ايزموند بأن يغير الأسماء في النسخة المطبوعة، ولكنها ظلت تسبب تمرداً وانفجاراً داخل الحركة. وأراد فان جريس أن يتم اغتيال ايزموند. ورفض يحيى ذلك. وفي عام ١٧٩١ سمم فان جري يحيى وقتله. ومنذ ذلك الحين عرف ايزموند أنه لابد مقتول في أي وقت. وقد استيقظ ذات صباح في باريس، فوجد خنجراً مغروساً في وسادته. وكانت هذه إحدى حيلهم المفضلة - لكي يحطموا

معنويات الرجل بالخوف قبل أن يقتلوه. وقد استخدم الحشاشون الأصليون - الإسماعيلية هذه الخدعة على سبيل التهديد. وقد أجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان قد ضربه على قلعة الأستاذ الأعظم بأن غرسوا خنجراً في وسادته. وأدرك ايزموند هذا التحذير، فذهب إلى روسيا، ثم إلى اليونان. وحينما عاد، اكتشف أن جليني قد ارتكب حماقته النهائية، كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الأستاذ الأعظم الجديد. وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل في عرف فان جريس، وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كريفا - فأرسله لمطاردة ايزموند. وكان كريفا هو الذي قتل هوراس جليني - في فراش ايزموند".

-"ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش ايزموند؟".

-"كان قد سرد على ايزموند قصة سخيفة عن رؤيته لشبح في حجرته هو. ووافق ايزموند على أن ينام في الحجرة لمدة أسبوع - فقد كان لا يؤمن بالأشباح. ولم يكن جليني بالطبع يصدق أنه يعرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدماً، وكان يوصد الباب من الداخل. ولم يكن يعرف أن كريفا معروف باسم الذبابة".

كان سانت لبجير ينظر إلي مدهوشاً. قال:

-"قد يكون كل هذا صحيحاً، ولكنني أشك في ذلك. لا أحد يعرف التفاصيل. فقد أصبحت هذه التفاصيل بعضاً من أكثر أسرار الجماعة بُعداً عن متناول الناس وأشدها حماية. ومن المحتمل ألا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد".

انتظرت منه انجيلا أن يستمر في الحديث، ثم لما رأته يصمت، سألت:

-"ومن هو ذلك الشخص؟".

قلت: "الأستاذ الأعظم الحالي".

قالت: "إذن فإنها مازالت موجودة؟" ونظرت إلى سانت لبجير، وأضافت:

-"ولم يكن يمزح؟".

صرف سانت ليجير نظره عنها، وأدار رأسه بغضب وهو يقول:

-"يا سيدتي الشابة العزيزة، نصيحتي لك أن تلقي أقل قدر ممكن من الأسئلة. إنني آسف جداً لعودتك في الوقت الذي عدت فيه، وإنني لأكثر أسفاً لأن مستر سروم لم يكن كتوماً إلى هذه الدرجة".

كنت قد بدأت أشعر بالغضب من سانت ليجير، أن أسلوبه المليء بالتفاخر قد بدأ يضغط على أعصابي. كنت قد أدركت الكثير وفهمت عنه الكثير. كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة: خضوعه للجنس كهاجس متسلط. وكان هذا ماثلاً في سلوكه وأسلوبه في التعامل مع أنجيلا، كانت بالنسبة له وسادة فراش مناسبة، وكان بالفعل يتخيلها راقدة تحته وعيناها مغمضتان. كان رجلاً جذاباً، جنسياً وشخصياً. وكان بعيداً جداً عن البلاهة. ولكنه كان ممثلاً. وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل إعلانه عن اغتيال هوراس جلبني. وكنت أنا أمثل تهديداً جدياً له، هذا يفسر السبب الذي جعل أسلوبه معي حاداً إلى هذه الدرجة. شعرت بخيبة أمل لأن أول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله.

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج. قال سانت ليجير:

-"والآن، أظن أن علي أن أترككما".

ذهبت فوقفت إلى جواره. كانت سيارة أجرة من مطار لندن. وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب.

قلت:

-"لا أظن أن رحيلك يغير شيئاً. فطالما أنك كنت تتوقع حضوره، يمكننا نحن أيضاً أن نراه".

قال بهدوء، "هل تسمحان لي؟" ثم استدار إلى أنجيلا وقال، "أرجو أن نلتقي ثانية".

تقدمت فتجاوزته، وذهبت إلى الباب. جاء خلفي وهو يقول بغضب: "حقاً يا مستر سورم، إن هذا..."

كان رجل قد خرج من سيارة الأجرة وراح يتطلع إلى أرقام المنازل. كان بالغ الضخامة، وجهه بني اللون مليء بالندب. التقت عيناه بعيني ثم رأى سانت ليجير بلهجة متسلطة:

-"سوف أكون ممتناً إذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة". ثم تجاوزني وهبط الدرج لم أجد نفعاً في محاولة الإمساك به أكثر من هذا، فدخلت المنزل مرة أخرى. كانت أنجيلا تقف وراء النافذة. قالت:

-"ماذا يحدث الآن بحق الجحيم؟ من هو هذا الرجل؟"

-"أعتقد أن له علاقة بجماعة العنقاء. ولا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

من وراء الستائر، راقبت سانت ليجير وهو يتحدث إلى الرجل الأسمر. قلت:

-"إنه منزعج من وجودك هنا".

-"أتحب أن أنصرف؟"

-"قد يكون هذا هو أبسط الحلول".

اقترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل. خرجت أنا لاستقبالهما. قلت:

-"السيدة الشابة سوف تخرج الآن، إذا كنتما تريدان الدخول".

حدق في الرجل الضخم بطريقة مبهمة. ظننت أنه يوشك أن يتجاهلني. وحينئذ قال سانت ليجير:

-"هذا هو المستر سورم. مستر السيد نوري".

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك. تبينت أن صمته كان نوعاً من الحرص الشرقي على الشكليات. قال نوري:

-"لا أظن أن هناك حاجة إلى إزعاج صديقتك. إن مستر سانت لجيير لديه سيارة. ويمكنه أن يأخذنا إلى بيتي".

-"إن هذا ليسعدني" كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة. لم يكن هذا يوم سعده.

قلت، "هل تسمح لي بلحظة؟"

عدت فدخلت المنزل وأخبرت انجيلا بأنني ذاهب معها. ثم سألتها عما إذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري. بدت كما لو كانت قد جفلت، وقالت، "بالطبع".

-"من هو؟"

-"إنه مليونير من نوع ما. البترول فيما أظن. إن اسمه يذكر دائماً مع أسماء أوناسيس وبول جيتي. لا بد أنك رأيته".

قلت لها أن عالم الشؤون المالية العليا هو أبعد شيء عن اهتماماتي. قالت،

-"انظر إليه. إنه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية".

خرجت ثانية وأغلقت الباب خلفي. تحركت سيارة "ديملر" رمادية يقودها سائق خاص فاقتربت من المنزل، فتح السائق الباب لنا. وبينما كنا نجلس، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته، "بعيد جداً عن اللياقة".

احمر وجه سانت ليجير وقال، "إنني استخدمها دائماً".

رأيت ظل انجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد. من المحتمل أنها كانت تتساءل إن كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من القتلة المحترفين.

لم يتكلم أحدهما حتى استدرنا متجهين إلى بارك لين. ثم قال سانت ليجير!

-"كان عطفاً منك أن تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي".

اعتبر نوري أن هذه كانت مجاملة، فقبلها بهزة من رأسه. ثم قال،

-"ربما كان الأمر كما تقول، هاماً".

ولم يكن فيما قاله إساءة أو غلطة، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية.

كان إحساسي بحضور أيزموند قد اختفى كان تلك الأحداث شيئاً غير مألوف لدرجة لابد معها أن تدفعني إلى التوتر، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي أنا هي الغالبة بشدة. استرحت بالتفكير في أنا دانكمان. فقد كانت تجربة مرضية دون شك. لقد كانت إحدى تلك التجارب التي أستطيع خوضها بنجاح باهر من دون أيزموند. كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة، بدافع لا يفتأ يدفعه إلى الأمام، وجدته أنا دافعاً مساعداً على التحرر الحقيقي.

كنا قد توقفنا أمام منزل في شارع بروك. قال نوري، "لقد وصلنا" ثم نظر إلى سانت ليجير وقال، "شكراً لك على توصيلنا إلى هنا". كان ما يرمي إليه واضحاً. قال سانت ليجير،

-"هذا يسعدني..." ثم فتح الباب لنا.

وقفت على الرصيف، أرمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع، ناظراً إلى ثياب الصيف المرحة التي ترتديها النسوة في ميدان كروزفينور، شاعراً بأن ما يحدث الآن، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي الفياض.انفتح الباب الأمامي قبل أن نصل إليه. بشكل ما كنت أتوقع خادماً شرقياً وراء الباب. ولكن الرجل الذي رأيته كان رئيس خدم إنكليزياً عادياً، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول. وبدا أن نوري أصبح أكثر راحة وانطلاقاً بعد اختفاء سانت ليجير. قال،

-"إنني لا أعيش هنا، ولكنني احتفظ بهذا المكان للإقامة فيه إذا قضيت عطلة نهاية الأسبوع في لندن "إنه مناسب لي".

ثم ضغط على زر جرس.

كان منزلاً نموذجياً للرجل الثري، بما بدا عليه من راحة وتأثيث فاخر. ولم يشر إلى انتماء صاحبه إلى الشرق سوى سياج الدرجات الداخلية، فقد كان مصنوعاً من الحديد المشغول بشكل دقيق، ربما كان قد أتى به من "حريم" أحد السلاطين.

صعدنا الدرجات إلى الطابق العلوي، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيانو من النوع الكبير وبعض لوحات لماتيس[1] على الجدار، ودخلنا مكتبة أشار إلي للجلوس على مقعد كبير عميق ذي مسندين.

-"أيمكنني أن أقدم لك كأساً؟ أم ربما تفضل الشاي أو القهوة؟ إنني لا أشرب سوى القهوة".

نظرت في تلك اللحظة إلى نوري عن قرب، وبدا لي أنني لا أزال أحاول أن أتعرف عليه. ربما كنت قد رأيت بعض الصور له. كان طوله يزيد على ستة أقدام، ووجه وملامحه أقرب إلى وجه وملامح جندي محترف. كان يرتدي بذلة رمادية، سترتها ذات صفين من الأزرار. وكان شعره قصيراً - وقد تعمد هو ذلك - وبدأ الشيب يغزوه. وكانت في وجهه بعض الندوب، ولكن كان وسيماً بتلك الجاذبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح. كانت حركاته اقتصادية، مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة إذا تشبه بالنساء.

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفضتها. أخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على علبة السجائر. قال:

-"لقد جئت من باريس لكي أراك يا مستر سورم. لأنه إذا كان نصف ما أخبرني به سانت ليجير صحيحاً، يكون لدينا الكثير الذي يمكن أن يقول أحدنا للآخر. إذن فأنت تعرف من أنا؟"

-"أجل. إنك الأستاذ الأعظم الحالي".

-"لقد خمنت ذلك. بالطبع".

-"لقد كان هذا استنتاجاً عادلاً. إنك لست مشرفاً، وإلا لما كان سانت ليجير قد أصبح عصبياً من وجودك بهذا الشكل".

ضحك فأبدى أسناناً بيضاء في حالة ممتازة. قال:

(1) هنري اميل بينوا ماتيس ١٨٦٩-١٩٥٤. من أهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين، عرف عنه أنه أحد رواد حركة فن الطليعة، إلى جانب جورج روو وأندريه ديران.

-"إن هذا الرجل أبله. لا ينبغي له أن يكون مشرفاً".

-"إذن، فلماذا يحتل هذا المنصب؟ إنك تملك سلطة إبعاده".

-"لم يعد هذا ممكناً. فيا للخسارة، إن منظمتنا قد أصبحت أكثر ديمقراطية مما كانت عليه أيام أيزموند دونيللي".

دخل رئيس الخدم، وهو يدفع "عربة تقديم" صغيرة أمامه، ثم خرج على الفور. وبينما كان نوري يصب القهوة، قال:

-"لا ينبغي لنا أن نضيع الوقت يا مستر سورم. فإن لدينا الكثير الذي ينبغي أن نقوله، وعلي أنا أن أعود إلى باريس هذه الليلة. هناك الكثير مما يحيرني بشأنك. إنك تبدو كما لو كنت تعرف قدراً كبيراً من المعلومات. وهذا يعني إما أن شخصاً ما لم يكن كتوماً كما ينبغي، وإما أنك حصلت على بعض الوثائق التي لم نكن نعرف بوجودها".

لم أقل شيئاً، فمضى يقول:

-"كان من الممكن - حتى الآن - أن تكون أي إنسان بالنسبة لي. ولكنني أعرف الآن أنك أشبه بالعبقري، أو بالطفل المعجزة. لقد أخبرني صديقنا كورنر أنك أنهيت عملاً استمر عامين بصبر ودأب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة. وأنا أزعم أنه لم يكن يبالغ!".

لم أقل شيئاً أيضاً. فاستمر هو يتكلم!

-"إنني أفهم من صمتك أنه لم يكن يبالغ".

وضع قدح القهوة التركية الصغير أمامي، وهو يقول:

-"من أنت؟ من أين جئت؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه؟"

-"اسمي جيرارد سورم، وأنا كاتب. أما عن كيف أعرف كل ما أعرفه، فالإجابة هي أنني لا أعرف شيئاً".

قدم إلي نوري صحناً مليئاً بحلوى صغيرة مستديرة، وكانت فيها نكهة القرفة، راق لي طعمها كثيراً.

قال:

-"هذا قول غريب. اتعجب ان كان يزعجك ان اتحقق من صحته؟"

لم افهم ما عناه بقوله هذا، ولكنني قلت ان هذا لا يزعجني بالطبع. مد يده وضغط على زر جرس آخر. لم يتحدث احدنا طول الدقائق القليلة التالية. كان الجلوس في صمت يولد لدي إحساساً مريحاً، كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل من هذا الوضع طبيعياً إلى حد كبير. فتح الباب بهدوء شديد، ودخل الحجرة رجل. كان علي ان انظر اليه بتدقيق شديد لكي اتبين انه رجل. كان شعره ذو اللونين مجعداً وطويلاً، والوجه يبدو كما لو ان شخصاً ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم، لكي تنهار العروق وتجف. كانت عيناه شاحبتي اللون حتى بدتا لا لون لهما. ورغم انه كان يرتدي ثوباً عربياً - عباءة صفراء قذرة - فإنه كان غريباً دون مشقة الشك. لم يولد نوري اي اهتمام. جلس الرجل على مقعد صغير واطئ يكاد يكون بيننا نحن الاثنين. رأيت اصابع قديمه طويلة بارزة العظام، مثل شيء خارج من قلب فيلم من افلام الرعب، وكانت اظافرها صفراء ملتوية مليئة بالنقاط البيضاء.

قال نوري: "هذا هو بوريس كاهن".

تجاهلنا الرجل، وهو يحدق في الفضاء. قال نوري:

-"لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملاهي قارئ لأفكار الناس. ثم تطورت قدراته إلى درجة اخافته هو نفسه. فاصبح مدمناً على الهيروين. وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل المنزل وعنقه مكسور - وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني. وهو الآن يساهر معي حينما يكون لدي عمل هام. إنه بلا عقل على الإطلاق، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس، ايكذبون ام يصدقون".

اخذ سيجارة اخرى من العلبة، ثم قال:

-"هل اخبرك سانت ليجير انني الأستاذ الأعظم؟"

-"كلا".

-"إنني لم اظن هذا. ولكنني اردت ان اتاكد".

كنت انظر إلى "بوريس" بفضول شديد. كان يرمق شطائر القرفة في صحني بلهفة. قلت:

-"كيف يفعل حينما يكذب احدهم؟"

-"قد يكون من السهل ان اطلعك على نموذج عملي".

اشار بيده إلى النافذة وفرقع باصابعه. اسرع روبيس فعبر الحجرة، وانحنى مرتين على الأقل مثل كلب مذعور، ثم اندس فاختفى وراء ستارة ثقيلة من القطيفة. ضغط نوري على زر ثالث على المائدة. بعد حوالي ثلاثين ثانية سمعت صوت خطوات رقيقة تزحف على البساط في الحجرة المجاورة. فتح باب، واندفعت فتاة تجري إلى داخل الحجرة. وقفت عند الباب، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك، ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فاحاطت عنقه وهي تصدر اصواتاً غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الترحيب بمقدمه. كانت ترتدي سروالاً عربياً طويلاً وصداراً صغيراً من نفس الطراز، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الأفضل ان تكون عارية. يمكنني ان قول انها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسدها كان نامياً نمواً معقولاً، وشعرها طويل داكن اللون. كانت تقبل نوري وتعود إلى تقبيله، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه. ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبيله للحظة، ثم قال لي:

-"هذه هي كريستي طفلة جماعتنا المدللة".

اجلسها على ركبته وقال: "وكيف حال طفلتنا؟" واندست يده داخل سروالها الشفاف. فتحت ساقيها طائعة، فتسللت يده بينهما ولمست ملتقى فخذيها. قال:

-"هل كانت طيبة؟"

اومات الفتاة براسها بحماس، ووجهها خال من اي تعبير مثل دمية. خطر لي ان نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس. سالها:

"هل كان لها اي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة؟"

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة، وهزت رأسها بتأكيد. من وراء الستار جاء صوت غريب، "شاك، شاك، شاك" كما لو كان حيواناً يسعل. اندفعت الفتاة نحو الستار، وجذبته جانباً، وجذبت بوريس من شعره فأخرجته، صرخت: "كذاب".

رقد مستسلماً على الأرض، وخده ملتصق بالبساط، وردفاه مرفوعان في الهواء - وحينما رجعت بقدمها المغطى بحذائها الرقيق إلى الوراء وركلته في ضلوعه لم يتحرك. اندفعت عائدة إلى نوري والتفت ذراعيها حول عنقه، وقالت:

-"الطفلة ليست كذابة. هو الكذاب".

لاطف نوري ظهرها بحنان، وسألها: "كم كانوا؟"

-"لا أحد". عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها. عاد الصوت المبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس. كانت على وشك أن تقفز لكي تندفع إليه مرة أخرى، ولكن نوري أمسك بها من معصميها، وكرر سؤاله: "كم كانوا؟".

تجهمت ومطت شفتها استياء. قالت:

-"ثلاثة".

سمعت الصوت المبحوح المتقطع ثانية. صرخت في بوريس:

-"سوف أقتلك".

قال نوري باستياء:

"طفلتنا بها شيء من الغلمة الشبقة السيئة، أليس كذلك؟"

قالت الفتاة، وهي تبدو في صورة إحدى بنات الطائفة المهتزين المتزمتة، الذي يرعبهم ذكر الخطيئة: "لا. ليست كذلك".

-"طفلتنا تستحق الضرب بالحزام. أليس كذلك؟"

-"كلا". كانت تتوسل: "إنه كذاب".

-"كم كانوا؟"

نظرت إلى بوريس بحقد وهي تقول: "سبعة".

لم يصدر عنه أي صوت. قال نوري:

-"سبعة رجال، أم سبع مرات؟"

-"رجال".

-"سبع ضربات بالحزام، إذن".

وقفت، وجذبت سروالها إلى أسفل حتى ركبتيها، ثم رقدت على بطنها فوق ركبتيه. وجذب هو من تحت المقعد شريطاً من الجلد، ورفعه في الهواء، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية. صرخت دون حرارة. أصبحت صرخاتها أعلى وأكثر تعبيراً مع توالي الضربات الست التالية. وعند الضرب السابعة قفزت من فوق ركبتيه. هز رأسه وقال:

-"واحدة أخرى".

انحنت أمامه، فهوى عليه نوري بضربة واحدة قوية. ثم قال:

-"الآن، اجري".

حينما اختفت، قال نوري:

-"والآن يا مستر سورم، أتقول أنك لا تعرف شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

-"إنني لم أقل ذلك. إنما قلت أني أعرف أقل بكثير مما تعتقد".

-"إني لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

نظر حوله إلى بوريس. ونظرت أنا أيضاً إلى بوريس، الذي كان يجلس الآن على البساط، محتضناً بركبتيه. كانت الحيرة تبدو على بوريس.

كان نوري ينظر إلى بوريس. قال: "ماذا يعني يا بوريس؟"

نظر إليه بوريس دون تعبير بعينيه الشاحبتين، كما لو كان يحاول أن يتجنب السؤال بأن يتظاهر بعدم الفهم. ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه، قال بصوت متلعثم فيه فأفأة:

-"إنه.. إنـ.. إنه يو.. يو. يعني أنه، اكـ، اكـ، اكـ، اكثر من شخص و.. وا.. واحد".

قال نوري: "أهذا ما تعنيه يا مستر سورم؟"

قلت: أخشى ألا يؤدي الشرح إلى أي نتيجة. إنك قد تشك في عقلي".

نظر إلى بوريس، وقال في صوت مثل فحيح سوط يهوي:

-"ماذا يعني؟"

جفل بوريس، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق:

-"إنه شخص ما، يدعى أيزموند".

زحفت عينا نوري إلي وراحتا تتفحصان، كان بوسعي أن أرى أن وجهه يستطيع أن يكون معبراً عن التهديد العنيف. قال:

-"ألست أنت جيرارد سورم؟"

-"أجل".

-"من هو أيزموند؟"

-"إنك تعرف. أيزموند دونيللي".

حدق في بقوة بالغة، كما لو كان يتساءل إن كان قد فهم ما قلته على الوجه الصحيح. ثم، لدهشتي انسحب الدم من وجهه، وشحب لونه، وأصبحت نظرته ثابتة لا حركة فيها. قال:

-"هذا مستحيل".

ولكن صوته كان قد أصبح عريضاً مشروخاً.

حينئذ، راح أيزموند ينظر إليه بعيني، محدقاً في عينيه بقسوة. تغير وجه نوري. لكم كنت أحب أن أنظر من مرآة لحظتها لكي أرى ما كان يراه. وأياً ما كان ذلك الذي رآه، فقد رأيت أنه أقنعه. تطلب منه الأمر بضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه. كانت شفتاه قد شحبتا حتى أبيض لونهما، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي.

قال:

-"إذن فقد كنت على حق. لقد عرفت كيف تعود".

لم يفعل أيزموند إلا أن أومأ برأسه (براسي). كان بوريس ينظر إلى نوري نظرة خائفة، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسيده. وقف نوري وعبر الحجرة إلى خزانة جانبية. التقط قنينة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كأس المزج الكبيرة، ثم ابتلع كل ما صبه دفعة واحدة. وأياً كان نوع ما شربه - كانت خمراً صافية مثل العرق - فقد جعلت عينيه تغيمان مثل المياه العكرة، وحبست أنفاسه للحظة. مسح العرق عن وجهه، ثم جاء فجلس ثانية، وجعل يرمي أيزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل أن يكون الأمر كله خطأ من الأخطاء. قال:

-"سامحني. إنك لا تتوقع مني أن أقبل هذا الأمر بسهولة".

أسند ظهره إلى مسند المقعد منحنياً إلى الوراء وأغمض عينيه. وإذ كنت أحدق من خلال عيني أيزموند وجدت نفسي متحيراً مما أبداه من اقتناع سريع. انتظر أيزموند. كانت هذه هي لحظة انتصاره. اعتدل نوري في جلسته وأشار إلى بوريس قائلاً: "أخرج" فأسرع بوريس خارجاً من الباب. قال نوري:

-"ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أستقيل من الأستاذية؟"

-"كلا. لا أستطيع أن أكون أستاذاً إذا أردت.. فإن لدى مستر سورم أشياء أخرى ينبغي عليه أن يقوم بها. ولكن لابد أن تكون هناك عودة إلى اتفاقية عام ١٨٣٠".

ذهب نوري إلى الخزانة الجانبية مرة أخرى، وصب لنفسه كأساً أخرى دون اعتذار.

قال:

-"لا أرى كيف يمكن ذلك. سيعني هذا أن نحنث في قسمنا".

-"هذا هو الطريق الوحيد. صدقني".

كان ايزموند قد أصبح صبوراً يحاول أن يغرس الثقة في صدر نوري. قال:

-"إصغ إليّ يا السيد، إنني لا ألومك. لقد كنت أستاذاً ممتازاً. ولكن هناك أشياء هامة تحدث. وحتى هذا الأبله كورنر "ليس سوى نذير - أو بشير - بالمستقبل. هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن. إن العقل الإنساني يكاد الآن يبلغ الآفاق والطاقات التي لم أستطع أنا إلا أن ألمحها من بعيد. وفي جوانب عديدة، يعرف سورم هذا أكثر جداً مما أعرف أنا. وإن عليكم أن تكونوا مستعدين لأن تلعبوا دوراً هاماً.. وأنتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وأنتم جمعية سرية".

قال نوري: "المشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال".

-"لن يكون أمامهم خيار. هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا. وسوف ينشر كل ما يعرف. وسوف يكون عليك أنت أن تحميه".

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية. كان على وشك أن يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه، ولكنني ظننت أنه قد كبر في العمر عشرة أعوام دفعة واحدة. قال ايزموند بعطف:

-"اسمع يا سيد، اسمح لي بأن أشرح لك. حينما انضممت إلى الجماعة، منذ مائتي عام، كانت جمعية من الفاسقين الفجار. وكانت فكرتهم الأساسية هي أنه لابد أن تملك أقلية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة. وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين وقد قبلتها أنا ورحت أفعل كل ما فعله الآخرون - فرحت أتجول متغنياً بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما غرست ذكري في عضو امرأة غريبة. وامتلكت طاقة داخلية، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع أي امرأة أن تقاومني لأكثر من يوم أو بعض يوم. وأنت تعرف بعض ما قمت به. لقد أقنعت فتيات مذعورات في مدارس الأديرة الداخلية بأن يسلمن عذريتهن خلال أمسية واحدة. لقد نمت مع ثلاث ملكات، وثماني أميرات. وقد امتلكت نساء بعد أن عرفتهن بعشر دقائق فقط - نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك أنني سحرتهن. وفي سن الخامسة والثلاثين، صار من المحتمل أنني عشت تجربة جنسية أكثر اكتمالاً من أي

تجربة مماثلة عاشها أي رجل قبلي. ثم بدأت أنمو وأشب عن طوق هذه التجربة. تعبت من الاستمرار في أن أكون مجرد أداة في يد قوة لم أفهمها. حينما شعرت بأنني شبيه برب من الأرباب في لحظة التحقق الجليل، طرحت على نفسي ذلك السؤال: هل هذا هو أيزموند دونيللي الحقيقي؟ أم أنه الأفاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكاءه وإخلاصه كي يوقع بالنساء الماهرات؟ لقد رأيت، ذات يوم في موسكو، سائق عربة يضرب حصانه، وقبل أن أضربه حتى أطرت أسنانه من فكه، كنت قد شعرت بنوع من الغثيان بسبب "ساديته" الطافحة. وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم، أخذت صغرى بنات القيصر إلى منزل صيفي صغير في مروج حدائق القصر، وأقنعتها بأن تدعني أستولي على عذريتها. وبينما كنت آخذها، استولت علي فجأة رؤية رأيت فيها وجه سائق العربة، فعرفت أنني كنت أفعل الشيء نفسه، أستمد المتعة من خلال "فرض إرادتي" على مخلوق أضعف، فأستمتع بالإحساس بالقوة. وتبينت لحظتها أنني كنت أقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاماً، مكرراً نفس الفعل الذي كما لو كنت أسعى إلى أن أؤكد لنفسي أنني لست الأبله المضجر الذي يشبه بقية النبلاء - أصحاب الدم الأزرق - الشبان. وفجأة شعرت بنفسي بائساً مجللاً بالعار. واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الإحساس بالأسف على الفتاة، وهكذا فقد اندفعت حتى إلى التفكير في أن أسألها أن تهرب معي، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أن هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر. هذه هي نهاية أكثر الأفاقين شهرة، إنهم يحاولون أن يجعلوا أنفسهم يشعرون بالسمو الأخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت إنسانة بدلاً من معاملتها كمدينة تحت الحصار. ولكن هذا السلوك لا يزيد أخلاقية في الحقيقة عن إلقاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهدئه. لم يكن الحل هو أن أستبدل نوعاً من الغباء نوع آخر، بل كان هو أن أحاول أن أفهم طبيعة الأمل السرابي المخادع الذي ظللت أطارده تحت أذيال النساء.

"وحينما عدت إلى إيرلندا، رأيت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة، فتاة كنت قد أغويتها منذ خمسة عشرة عاماً. ودفعت رؤيتها إلى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا. وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء. وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام. فحينما امتلكت في البداية مينو ودلفين، توقعت لنفسي مستقبلاً من القدرة اللانهائية على الامتلاك. توقعت أن تعاملني الحياة مثل طفل مدلل مفضل. ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد. ولكنني سمحت لنفسي بأن

اصبح سلبياً أكثر من اللازم. لقد قبلت الحصول على المتعة، ولكنني فشلت في أن أبذل في سبيلها أي مجهود. في أول مرة ولجت فيها مينو، شعرت بأني مثل إله من الآلهة القديمة. ولكن مئة انتصار آخر، وولوج مئة امرأة أخرى لم تفعل شيئاً لكي تفتدي هذا الوعود بالألوهية. على العكس، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم، لأنها لم تكن انتصارات حقيقية، وإنما أصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة".

كف عن الكلام. وكان لصوته - الذي لا يسعني أن أقول انه صوتي، لأنه كان يبدو مختلفاً حتى بالنسبة لأذني أنا - التأثير الذي أراده بالضبط على نوري. ولابد أيضاً أن نتذكر أن ايزموند كان يستخدم دماغي أنا ولغتي وتداعيات ذاكرتي، ولما كانت هذه الأدوات - أدواتي - تستطيع أن تعبر عن أفكاره بدقة أكبر من لغته هو الخاصة فإن الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب أحياناً أن يتابعه من يسمعه. كان مجهود التركيز قد هدأ نوري، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه. قال ايزموند:

-"هل تتابع سلسلة تفكيري؟"

-"ليس ما تقوله غريباً بالنسبة لي، كثيراً ما تخطر لي أفكار مشابهة، وكنني لا أستطيع أن أعثر على أي حل".

-"الحل أقرب مما تظن. ويكاد مستر سورم أن يكون قد عثر عليه بنفسه. لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائماً باعتباري الطفل المفضل. وهذا شيء مهم - التفاؤل، الدافع المحرك إلى الأمام. وكانت لدي الجرأة الكافية التي تدفعني إلى التساؤل عما إذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي أم لا تمثله. وحينما قررت الإجابة على أن ذلك السؤال هي "أجل"، لم يبق أمامي - ببساطة - سوى سؤال واحد: لماذا إذن يعود العقل فيغرق في حالة من البلادة الكئيبة حينما تنتهي لحظة ذروة النشوة الجنسية؟"

-"بالتأكيد لأننا لا نستطيع الصمود أمام مثل هذه الكثافة، ليس لدينا ما يبقيها لنا، وليس لنا ما يحفظها في أيدينا. إن إناء ماء لابد أن يفرغ سريعاً إذا ترك على النار".

-"كلا. هذا تفكير مختلط مشوش. إن نشوة الذروة الجنسية ليست نتيجة انطلاق الطاقة المحبوسة، وإنما نتيجة الرؤية التي تصاحبها. يمكنك أن تحصل على الذروة الجنسية

دون الرؤية، إذا كان عقلك متعباً. أو يمكنك أن تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية، إذا كان العقل مشبعاً بالشعر أو الموسيقى. هل يمكن أن تصبح مشبعاً أكثر من رجل أعمى لأنك ترى الأشياء التي لا يراها؟ كلا، العكس هو الصحيح، لأن الرجل الأعمى أكثر قرباً من احتمال الضجر، والضجر يؤدي إلى التعب. والمسألة هنا هي مسألة الرؤية وسرعان ما اكتشفنا أننا نفقد الرؤية لأننا نكف عن محاولة رؤيتها. إننا نسترخي، ننصرف عنها ونوليها ظهورنا، مثل رجل يتثاءب ويغمض عينيه".

-"لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري كانوا يبحثون عن نفس الرؤية، الإدراك الدائم للعلم باعتباره لغزاً عاماً. ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء المكشوف. لقد طور الإنسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة، مثل صانع ساعات سويسري. ومثل صانع الساعات، أصبح قصير النظر، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه أن يحدق في المسافات البعيدة. وكان الرجال المقدسون يحاولون تصحيح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح. وإنني لأرى الآن لماذا كان سعيهم إضاعة للوقت والجهد، لقد كانوا يحاولون أن يستبدلوا ملكة بملكة أخرى، ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة المتعثرة المتكررة التي كنت أبحث بها عن النساء.

-"هل تفهمني؟ أصبحت واعياً مكتمل الوعي بإمكانية الحصول على رؤية أكثر اتساعاً. اعترفت بأن هذا لابد أن يعتمد على تطور ملكات أخرى وقدرات جديدة للإرادة. في البداية، فعلت أوضح شيء يمكن أن أفكر فيه. ففي اللحظة التي كانت تفيض فيها قوة الذروة الجنسية بتفرق عقلي، كنت أحاول أن أمسك بها فلا أدعها تفلت، وأرفض أن أسمح لها بالهبوط ثانية إلى المستوى العادي. وسرعان ما اكتشفت أنني كنت أحاول أن أطور قدرة كبيرة على التركيز. من الحق إنني لا أستطيع أن أتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية أو أن أمسك بها. ولكن حالما يتحول عقلي إلى الخارج، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه المرتفع فيحاول أن يقذف بنفسه إلى الهواء، فقد كان بوسعي أن أركز على توسيع نطاق رؤياي. إن مشكلة الإنسان الرئيسية هي أنه جبان خائر العزم. ففي كل مرة يفقد فيها إحساسه بوجود هدف أمامه، يقف ساكناً، ثم يتراجع. ويجعله الضجر يسير دون هدف وفي دوائر مغلقة، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة. إن سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاكاً مؤقتاً بالينابيع الخفية للقصد أو الهدف، وقد كان هذا هو أعمق تعبير لوجود

جماعتنا. ولكن احتياجنا الحقيقي بوضوح، هو أن تحول تلك الينابيع الصغيرة إلى منابع كبيرة لا يمكن أبداً أن تجف. لابد أن يصبح الضجر مستحيلاً. إنه المعادل الوجداني لفقدانك الطريق في الصحراء. ولكن حالما يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه، فإن هذا لن يكون مشكلة بعد. ولقد رأيت أن مهمتي هي أن أركز حتى أتمكن من أن أطور هذه البوصلة، وهي المعرفة الواضحة لهدفي. لقد رأيت أن الضجر هو عدو شبيه الرب، وأن كل قواي ينبغي أن توجه نحو القضاء على هذا العدو".

قال نوري: "ولقد أنجزت هذا. لقد نجحت".

-"أجل. وسوف تنجح أنت أيضاً، الآن، وقد رأيت أنه ليس بالهدف المستحيل. وسوف ينجح سورم. وحينما ينجح اثنا عشر رجلاً، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري. إن ينابيع القصد أو الهدف ليست مدفونة إلى عمق كبير تحت الأرض. وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة إذا عرفت فقط كيف توجهها. إنها حيلة عقلية، مثلها مثل القفز من الأرض لامتطاء حصان يجري".

كانت الصورة التي وضعتها في عقل أيزموند هي صورة رجل يستفيد من موجة قوية لكي تحمل لوحة الطفلي فوق الماء، ولكنه لم يستطع أن يفهم الصورة. كان أيزموند يفتقر إلى التصورات والمفاهيم اللازمة للتعبير عما يريده تعبيراً كاملاً، فكرة "الارتقاء" من مستوى للوجود إلى مستوى آخر، ومعرفة أن الشخصية الإنسانية سلسلة من المستويات. ولكنني كنت أملك تلك التصورات والمفاهيم.

قال نوري: "هل لي أن أطرح بعض الأسئلة؟ أين أنت الآن؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء أو تحت هذا العالم الذي نحياه؟".

ضحك أيزموند. قال:

-"إن ما تدعوه "هذا العالم" هو ما يمكنك أن تراه من خلال شق صغير في الباب المغلق. وهذا يماثل أن تسمي هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن عالماً بأكمله. بوسع مستر سورم أن يشرح لك هذا بشكل أفضل مني. إنه يتحدث عن حياة - العوالم. أما فيما يتعلق بأين أنا الآن، فليس بوسعي أن أوضح هذا بسهولة. فحينما استطعت أن أطور قوة إرادتي، بدأت أفهم أشياء لابد أن تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبديهيات. فحينما يتملكك التعب، تصبح الروح

مقيدة بشدة بين أضلاع الجسد. وكلما زدت صحة وحيوية، كلما زدت إحساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء. وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية، يصبح من الممكن أن تحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى أن تتخيلها. وحينما يحدث هذا، تصبح كل الأشياء الغريبة ممكنة الوقوع - فإنني أستطيع، على سبيل المثال - أن أعرض ما تدعوه أنت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة".

-"وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٨٣٠؟"

-"بالضبط. ولكن لا تبالغ في تقدير أهمية تلك القدرة، إنها ليست سوى منتج ثانوي. إن ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد. لأن هذه القدرة إذا ما تحققت مرة، يكاد يكون من المستحيل أن تموت بعد ذلك".

قال نوري: "ولكنك مت".

-"مثلما ترى".

-"ولكن جسدك مات في عام ١٨٣٢. ودفنت في "سرداب مدفن الأسرة في إيرلندا".

لم يقل أيزموند شيئاً، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة نائية حتى بالنسبة إلي أنا. قال بعد لحظة:

-"لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا أهمية له. ولنصرح فقط بأن مستر سورم قد كان أداة ثمينة لا تقدر، وأنك ينبغي أن تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها. وسوف يكون قادراً في مقابل هذا، على أن يقدم لك الكثير من العونة. إن مستر سورم، مثلي أنا، ليس مهتماً بالجنس بصورة أساسية. إنه رجل كالمتطهرين. ولكنني أظنه قد اكتشف بعض الإمكانيات ذات الأهمية في جماعة كورنر. وتستطيع أنت أن تطلعه على أشياء أكثر أهمية بكثير، إنني أعتمد عليك".

-"وماذا عنك أنت؟ هل سترحل الآن؟"

-"كلا. ولكنني حقاً لا أستطيع أن أظل أفرض نفسي على مستر سورم. إن لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه أن يقوم به".

قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري: "إنني أرحب بمقدمك وقتما تحب ذلك".

-"أشكرك. إنك مضياف حقاً".

قال نوري: "ما الذي تريد مني أن أفعله على الفور؟"

-"لا شيء. ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد المسرع. وتذكر شيئاً واحداً. التشاؤم أثقل من الرصاص يحيط بالقدم. الهزيمة دائماً نتيجة اختيار ذاتي. يستطيع مستر سورم أن يشرح تلك الأشياء بشكل أفضل مني - إن له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على أفكار رجل يدعى هوسرل. والآن يا عزيزي السيد. سوف أغادرك. وإنني سأكون أيضاً في غاية الامتنان لك لو أنك مددت حمايتك كي تشمل لورد جليني الحالي، ابن ابن ابن صديقي هوارس. إنه يملك عدداً كبيراً من نفس العناصر التي كان هوراس يمتلكها وبذلك فإنك تستطيع بمعنى ما أن تعتبره تجسيداً جديداً لجده الأكبر ولتلك العناصر. لا تقل شيئاً عما حدث لذلك الأبله سانت ليجير. إنه ليس جديراً بالثقة".

بعد ذلك اختفى، وأصبحت أنا ونوري وحيدين. لم يكن نوري واثقاً من أنك حتى قلت: "لقد رحل".

وقف وقال: "حسناً يا مستر سورم. أظننا نستحق كأساً. ويسكي؟"

-"كأساً صغيرة. مع الشكر".

وبينما كان يصب الكأسين، سألت: "كيف عرفت أن أيزموند كان ينوي أن يعود مرة أخرى؟"

"هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمت أبداً، وأن الجسد الذي دفن في سرداب مدفن الأسرة كان جسد شحاذ عجوز. ولقد قال هو نفسه شيئاً يقرب من هذا في يومياته الموجودة الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي. وسوف تكون أنت وأسرتك ضيوفاً مكرمين

هناك إذا شئت أن تأتي لكي تفحص تلك اليوميات. وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠، الأمر الذي حيرني دائماً. ولكنني أفهم ما حدث الآن".

-"هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه. هل أقلع عن الجنس بعد ما حققت من استبصار وإدراك؟"

-"أظنني أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. إنك تعرف أنه قد اختار صغرى الشقيقات أنجستر لكي تكون شيئاً مثل الكائن المقدس، وقد أصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة القسطنطينية؟ يمكنك أن تقرأ عن هذا في اليوميات. وأنا أعتقد أنه قد اختارها لأنه قال عنها أنها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الإلهية جعلها أكثر نقاء في أنوثتها من أي امرأة عرفها من قبل. وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناً مقدساً، بعد أن أصبح أيزموند أستاذاً أعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيدتها مكانها. ومما يصدقه كل العارفين أن أيزموند كان والد ابنتها الحقيقي".

-"من الذي كتب الكتب المنسوبة إلى أيزموند: "افتراع العذارى" وما إلى ذلك؟"

-"لقد كتب جليني نفسه هذا الكتاب، في وقت أراد فيه أن يزعزع ثقة أيزموند بالجماعة، ولكن كانت هناك تزييفات أخرى كثيرة بعد هذا. فإن أيزموند باعتباره أستاذاً أعظم كان جديراً بأن ينحل أعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصغار أعمالهم لشيكسبير، وخاصة المسرحية منها".

-"ماذا كان السبب المباشر لموت أيزموند؟"

قال: "هذا شيء يحيرني؛ فالقصة التي يوردها كاتب ترجمته، عصمت الاصطخري، تقول بأنه أصيب بنزيف دموي في الدماغ بعد احتفال صاخب فيه خمس عشرة امرأة. وهذا بالطبع محتمل، فباعتباره أستاذاً أعظم، كان من مهامه أحياناً أن يشترك في مثل تلك الاحتفالات. ومع هذا فإنني لم أكن قادرٌ أبداً على أن أقبل هذه القصة قبولاً كاملاً. وأنا الآن أقل ثقة منها مما كانت من قبل".

-"هل هذه الترجمة مكتوبة بالإنكليزية؟"

-"إنه بالعربية لسوء الحظ. ولكن يمكنني أن آمر بترجمتها لك".

نظرت إلى ساعتي فدهشت حينما وجدتها قد تجاوزت السادسة. خطر لي أن أنجيلا ستكون الآن قلقة بشدة علي. ولذلك فقد سألت إن كان يمكنني أن أطلبها بالتليفون. وقد كنت على حق، فقد كان أنجيلا الستير يتناقشان في تلك اللحظة حول إن كان عليهما أن يتصلا بالشرطة أم لا، فإن تلميحات سانت ليجير المعتمة حول اغتيال جليني أزعجتهما. وبينما كنت ما أزال أتحدث في التليفون، تسلل إلى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال:

-"اعذرني يا سيدي، ولكن مستر نوري اقترح أنك قد تحب أن تدعو صديقيك لتناول لعشاء هنا".

بلغتهما الاقتراح، فقبلاه على الفور.

حينما عدت إلى المكتبة، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل، وقد وقفت خلف مقعده، أربع فتيات في ملابس شفافة، قال:

-"آه، مستر سورم، أرجو أن يكون صديقاك قد قبلا الدعوة؟ ما زال أمامنا ساعة أخرى حتى يحين موعد العشاء. هل حدث أبداً أن جربت ما يتمتع به حمام الأمراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الأوصال؟ لقد اخترعه أستاذ أعظم تركي في القرن السابع عشر. وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال. إنني اقترح أن نستحم الآن على طريقة الأمراء، قبل العشاء، وربما أمكنك في أثناء ذلك أن تروي لي كيف حدث أن سمعت بأيزموند دونيللي".

-٢٥-

■ كانت هذه هي المقدمة التي أدت إلى واحدة من أمتع الأمسيات التي قضيتها في حياتي، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل. إن تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقيد والثراء حداً يجعلني أشعر بأنه ليس من العدل أن أتحدث عنه هنا. وحينما يكتمل إعداد أوراق دونيللي للنشر، سوف أرجو أن أقوم بهذا العمل بنفسي. وقد سرد علينا نوري أيضاً جانباً من تاريخه هو، وانتهى بأن استعرض أمامنا بعضاً من تلك القدرات الهائلة التي أدت إلى تعيينه أستاذ أعظم. (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج،

المشرف الألماني الذي كان أيضاً نازياً سابقاً. وقد أدار بينديج "المعسكر الجنسي" المشهور، الذي أنكر المؤرخون الألمان المعاصرون وجوده).

لجأنا إلى أسرتنا، منهكين إلى أقصى حد متمنين أن ننام عميقاً، وفي ساعات الصباح الباكرة. وحينما استيقظنا، كان نوري قد رحل إلى باريس. وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عائداً إلى شانون حيث قابلتني ديانا. وحينما عدنا إلى البيت، وجدنا برقية من نوري يسألنا فيها إن كان بوسعنا أن نلحق به في منزله في هيندوراسي في عطلة الأسبوع التالي. أقلتنا طائرته الخاصة من شانون. وفي الشهور الأربعة التالية منذ ذلك الحين، تمتعنا بأشعة الشمس، وكتبت أنا هذا التقرير عن بحثي عن أيزموند.

أما أبحاثي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور فائق خصة فقد أجابت على معظم ما تبقى من أسئلة حول أيزموند وحول تاريخ الجماعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها الملائم. أما أنجيلا التي تعمل هنا هي الأخرى، لقد جمعت المواد الأساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة أيزموند، هذه الترجمة التي من المحتمل أن نتعاون في كتابتها.

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن "بحثي" هي مقدار ما أستطيع أن أستخدمه من الصراحة في بعض المواقف أو الأحداث. ولقد قبلت اقتراح هوارد فليشر بأن أكتب كل شيء كما حدث، ثم أترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضرورياً منها(*). وعلي أيضاً أن أعترف بأنني لم أسمح لديانا - حتى الآن - بأن تقرأ المخطوطة، وأنها - لحسن الحظ - فتاة قادرة على الفهم، ويمكنني أن ألقي أكثر اللوم على أيزموند.

وماذا عن أيزموند؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك، لم أحس بحضوره إلا على فترات متباعدة. ولكنني لا أستطيع أن أكون واثقاً من أن هذا الحضور ليس من وحي خيالي. إنني كثيراً ما أجد نفسي أفكر في حادثة غريبة حدثت في بيت نوري في تلك الليلة. كان

(*) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة، سمعت أن بقايا كولونيل دونيللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي احترق عن آخره، ولم يكن ثمة أي شكوك في وقوع عمل إجرامي متعمد. وعلى ذلك فقد أعدت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونيللي ووضعها بالشكل الذي كتبتها به هنا.

بوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام انجيلا والستير. وان نوري قد نومه تنويماً مغناطيسياً، وكانت إجاباته على أسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة إلى حد مخيف. وقبل أن يوقظه نوري، سألنا إن كان لدينا أية أسئلة نحب أن نطرحها على النائم. قالت آنجيل:

-"أجل. هل يمكن ان يخبرنا أين ايزموند في هذه اللحظة؟"

استدار وجه بوريس المغمض العينين إلي، وقال:

-"إنه هو ايزموند".

* * *